مواهب الرحمن

في تفسير القرآن

تأليف

عبد الكريم محمد المدرس

عني بنشره

محمد علي القره داغي

المجلد السادس

الطبعة الاولى

بسم الله الرحمن الرحيم

إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم

الجزء الثامن عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المؤمنون ، مكية ، وهي مائة وثماني عشرة آية

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ، فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)(١١)

قوله تعالى (قد أفلح المؤمنون) من هنا إلى تمام الآيات العشر آيات مدحها رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، فقد أخرج أحمد والترمذي والنسائي والحاكم وصححه ، والضياء في المختارة وغيرهم عن عمر ابن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ قال : كان إذا نزل على رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ الوحي نسمع عند وجهه كدوي النحل ، فأنزل عليه يوما ، فمكثنا ساعة فسرى عنه فاستقبل القبلة فرفع يديه فقال : « اللهم زدنا ولا

تنقصنا ، وأكرمنا ولا تهنّا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وآثِرْنا ولا تؤثِر علينا ، وَارضَ عنا وَأرضِنا » ثم قال : « لقد أنزلت عليّ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة » ثم قرأ (قد أفلح المؤمنون) حتى ختم العشر .

وأفلح لازم بمعنى دخل في الفلاح أي في الفوز بالمرام . وقد يجيء متعديا ، وعليه قراءة أفلح بالبناء للمفعول ، والمراد بالمؤمنين ، اما المتصفون بأصل الإيمان بما علم مجيء الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ به بالضرورة من أركان الإيمان الستة ، والإسلام الخمسة ، فتكون الصفات الآتية بعدها مُخصّصه . واما المؤمنون الجامعون بين الإعتقاد والأعمال فعلا وتركا فتكون صفاتٍ مادحةً وموضحةً (الذين هم في صلاتهم خاشعون) أي أذلاء خائفون ساكنو الجوارح ، عليهم كساء الحياء والوقار ، متفكرون في عظمة الملك الجبار ، لا يلتفتون يمينا وشمالا ، ولا ينظرون إلى السماء خبالا ، ولا يتحركون حركات توجب بطلان صلاتهم أو سوء الأدب في مناجاتهم ، فإن الصلاة صلة رابطة بين العبد وربه ، وهي معراج لقربه من دربه . وخلاصة الخشوع : ترك مبطلات الصلاة ومكروهاتها ، وملازمة الحضور مع الله تعالى . وهذه هي الصلاة الرافعة للطاعة إلى سماء القبول (والذين هم عن اللغو معرضون) واللغو ما لا يعتد به من الأقوال والأفعال. والشائع استعماله في كلام لا يصدر عن رؤية وفكر فيجري مجرى اللغاء وهو صوت العصافير ونحوها من الطيور . والمقصود استمرار الإعراض عن ذلك حتى يكون الأدب ملكة نفسية له (والذين هم للزكوة فاعلون) أي فاعلون لأدائها وإخراجها وتسليمها للمستحقين عند حولان الحول أو وجوب الأداء في الأقوات وما شاكلها من الركاز والكنوز المستخرجة .

(والذين هم لفروجهم حافظون. إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم) هذه الآية الكريمة آتية ببيان صفة من الصفات الجلية للإنسان التي من

اتصف بها فاز بالسعادة ، وهي العفة وصيانة النفس عما هي راغبة فيه من قضاء الشهوة الفرجية التي تورث الخير على الوجه المشروع ، وتورث الشر على غيره . فكم من فتنة دينية ودنيوية ، وفوات مال ، وضياع حال ، واختلال صحة بدن نشأت منها ؟ ولما كانت الشهوة المذكورة لازمة لطبع الإنسان ويصعب الإنفكاك عن مقتضاها استثنى عن المذكور وقال : (إلا على أزواجهم) في اصطلاح الشرع (أو ما ملكت أيمانهم) بشرط أن يكون المالك رجلا فان التسري للنساء لا يجوز بالإجماع ، ومستنده واضح من الكتاب والسنة ، فالرجال هم المجاهدون الآخذون للغنائم ، وهم القوامون على النساء المنفقون عليهن ، وهم الأوساط طبعا والأحقاء بأن تكون إدارة النساء بأيديهم (فإنهم غير ملومين) تعليل للاستثناء أي فإنهم غير ملومين على ترك حفظها منهن قضاء لدغدغة الماء المعهود ، وإبقاء للنسل في الوجود على مر العهود ، واستيناسا بالمألوف على الوجه المعروف .

وعدم اللوم في هذا الباب مقيد بشروط في السنة والكتاب من خلوها عن الموانع كالإحرام ، والحيض ، والنفاس ، ومدة عدة الشبهة ، وتوقف الردة ، والصغر ، والمرض المانع كما هو معلوم .

(فمن ابتغى وراء ذلك) أي فمن ابتغى ما عدا ذلك المذكور من الأزواج الصاعدة إلى الاربع والإماء كيف شاء (فأولئك هم العادون) أي المتجاوزون عن الأمر المشروع ، الكاملون في التعدي والإعتداء على حدود الله . ويدخل في ذلك إفراغ المني بطريق الخيال ، أو النظر في ذات الجمال ، أو الملامسة ، أو الزنا ، أو اللوط ، أو مواقعة البهائم ، أو السحاق ... وغير ذلك كالاستمناء ما لم يكن هناك خوف الوقوع في الأفسد .

واستدل بهذه الآية الجليلة على بطلان نكاح المتعة وهو النكاح إلى أجل مسمى معلوم في مقابل أجرة معلومة بلا احتياج إلى شهور ولا إعلان بين الناس ، ولا إلى الطلاق ، لأن انتهاء المدة لها طلاق ، وبعد فراغ المدة فعدتها تكون لمن تحيض بحيضتين ، ولمن سواها بخمسة وأربعين يوما ، ولا يجب فيها غير الأجرة شيء من النفقة وما شاكلها ، ولا توارث بينهما إذا مات أحدهما في المدة المذكورة . هذا أصلها وقد تفرع عليه أمور كثيرة يطول ذكرها . ودلالتها على بطلانه لأن المنكوحة بذلك النكاح ليست بزوجة لما ذكرنا ، وليست مملوكة ملك اليمين ، ومن لم تكن من إحدى هاتين فنكاحها باطل .

فان قيل : إن هذه الآية الكريمة ونظيرها في سورة المعارج من السور المكية فكيف تكون دليلا على حرمة ما كانت مباحة بعد الهجرة ؟ أجيب بأن في استعمال المكي والمدني وجوها ثلاثة :

الاول : ان المكي مانزل قبل الهجرة ، والمدني مانزل بعدها .

والثاني : ان المكي مانزل في مكة ولو كان نزولها بعد الهجرة كالآيات التي نزلت عام الفتح في مكة ، أو في حجة الوداع ، والمدني مانزلت بالمدينة المنورة .

والثالث : ان المكي ما وقع خطابا لأهل مكة في أي محل كان ، والمدني ما وقع خطابا لأهل المدينة كذلك . فهذه الآية ونظيرها في سورة المعارج يحتمل نزولهما في مكة في عام الفتح ، أو في حجة الوداع ، فتكونان مكيتين على الوجه الثاني . والتحريم يكون في أواخر أيام حياته ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

ولئن تنازلنا وقلنا : إنهما مكيتان على الوجه الأول فنقول : تقرر عند الأصوليين أنه يجوز نسخ الكتاب بالسنة فلا مانع من نزولهما قبل

اليمين حسب الأصول . ولكنه لما كانت تلك العادة عريقة في الناس وصعبت إزالتها مرة واحدة واحتاج اليها بعض الغزاة في الحروب حاجة ملحة أبيحت بعد الهجرة مدة من الزمن ثم حرمت في خيبر ، ثم أبيحت ، ثم حرمت تحريما مؤبدا الى آخر الزمان .

وليس في القرآن الكريم آية يستدل بها على إباحة المتعة ، وما استدل به بعض المخالفين من قوله تعالى : (فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن) حيث حملوا الإستمتاع على التمتع المعهود بالنساء في النكاح المعهود ، والأجور على أجرة المرأة .. لا دلالة فيه على مقصودهم كما سنذكره . والقرآن الكريم خال عن إجازة ذلك . ومادة المتعة نزلت في آيات كثيرة لمعان عديدة ترجع إلى أصل واحد .

الأول : متعة التسريح بإحسان كما في قوله تعالى : (يا أيها النبي قل لأزواجك : إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا) وقوله تعالى : (فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا) وقوله تعالى (ومتعوهن على الموسر قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين) وقوله تعالى (وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين) والمتعة بهذا المعنى واجبة على الرجال لا تسقط بحال .

الثاني : متعة الحج يسميها الفقهاء المتعة ، وقد ذكرها القرآن الكريم بالتمتع وهو الاعتمار زمن الأمن في أشهر الحج كما في آية : (فإذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدي) . وقيمة الهدي على ما ذكره القرآن الكريم طعام عشرة أيام قياماً للناس رزقاً لأهل الحرم .

والمعنى الثالث للتمتع هو الانتفاع بطيبات الرزق ولذائذ الحياة .

وقد نزل في آيات كثيرة باسم المتاع ، ومن باب التفعل وباب التفعيل والإستفعال . قال تعالى : (قل متاع الدنيا قليل) . وقال : (نمتعكم متاعاً حسناً) . وقال : (أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها).

أما متعة النكاح ونكاح المتعة فلم ينزل القرآن بها أبدا . وإذا علمت ذلك علمت أن دعوى المخالفين بكون قوله تعالى (فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن) نازلا في نكاح المتعة دعوى بلا دليل ، وليس مستنداً إلى حجة من العلم والدين ، ومخالف لظواهر الآيات الكريمة النازلة في باب النكاح .

وكيف تحمل تلك الجملة الجليلة على تلك الصورة الرذيلة ؟ واكتنفها صدرها والآية التي تليها وهما مخالفان لجواز نكاح المتعة ، وصدرها (والمحصنات من النساء) أي وحرمت عليكم ذوات الأزواج الحرائر من النساء (إلا ما ملكت أيمانكم) أي فلا تحرم عليكم (كتاب الله عليكم) أي كتب كتابا من الله عليكم . ثم يقول (وأحل لكم ماوراء ذلكم) أي وأحل لكم نكاح ماوراء ذلك المذكور من أصناف المحرمات من الأمهات وغيرهن (أن تبتغوا بأموالكم) أي أن تطلبوا الزواج بأموالكم المصروفة في المهور (محصنين غير مسافحين) حال من فاعل الفعل السابق أي حالكونكم محصنين غير مسافحين أي متعففين من الزنا غير صابين ماءكم في ما لا يحل لكم (فما استمتعتم به منهن) أي باشرتموهن (فآتوهن أجورهن) أي مهورهن ، فإن المهر مذكور في القرآن بعنوان الأجور في آيات ، وأما تاليتها فهي قوله تعالى (ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات ، والله أعلم بإيمانكم ، بعضكم من بعض فانكحوهن بإذن أهلهن ، وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان) ... الآية فإنها تنادي بأعلى صوتها :

إن المؤمن إذا لم يمكنه الزواج من المحصنات فلا مجال له إلا الإستفادة من الإماء التي ملكتها الأيمان ، وهن من المؤمنات ، وأنه ممنوع من السفاح واتخاذ الأخدان ، فلو جاز نكاح المتعة لقال : فمن ما ملكت أيمانكم أو ما نكحتم بأجور إلى أجل . فهذا النوع من النكاح لا محل له في كتاب الله ولا جواز له لمن يدين بدين الله ، ولا يجوز نسبة القول بجوازه إلى أئمة أهل البيت . فقد روى الإمام الشافعي عن ابن عينية عن الزهري عن الحسن عن أبيه الباقر محمد بن علي زين العابدين عن ابيه عن علي ابن أبي طالب أن منادي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « نادى يوم خيبر ألا إن الله ورسول الله ينهيانكم عن المتعة » . وروى صاحب الكافي وهو من أوثق الكتب عندهم ذلك . فقد روى عن محمد بن أحمد بن يحيى عن أبي جعفر عن أبي الجوزاء عن الحسين ابن علوان عن عمرو بن خالد عن زيد بن علي عن آبائه عن علي ابن أبي طالب أنه قال : حرم النبي يوم خيبر لحوم الحمر الأهلية ونكاح المتعة .

وبالجملة فنكاح المتعة عقد محرم لا مساغ له بأدلة :

الأول إجماع الأمة على تحريمه بعد تقرر نهي الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عنه وثبوت النسخ في شورى الصحابة في عهد عمر ـ رضي الله عنه ـ وكان علي ـ كرم الله وجهه ـ حاضرا بالمجلس . وثبت إجماع المسلمين أهل السنة وغيرهم برواية زيد ابن زين العابدين عليّ ، ورواية محمد بن الحنفية عن أبيه علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنهم ـ على تحريم المتعة تحريما مؤبدا والرواية ثابتة قطعا . ودعوى التقية ساقطة ؛ لأن التقية من حضرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مستحيلة ؛ فإن الشارع واجبه التشريع ، ومن الإمام علي ـ كرم الله وجهه ـ غير سائغ ؛ لأنه مبلغ عن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وواجبه الوفاء بأداء الأمانة .

الثاني : إن كل آية فيها حل النكاح أو حرمته يدل على تحريم المتعة فان النكاح اذا أطلق لا يشمل نكاح المتعة لا لغة ولا شرعا ، اذ لا يطلق على المتعة ولا على التمتع اسم النكاح كما لا يطلق على ماء الورد اسم الماء إلا بالإضافة ، ولا يطلق اسم الأزواج واسم امرأة الرجل واسم نساء المؤمنين ونساؤكم على المتمتع بهن . وهذه بينة لغوية وإنكارها مكابرة ، فإذا كان الأمر كذلك فليست المتمتع بها زوجة كما أنها ليست مملوكة فابتغاؤها عدوان وتجاوز على الحدود الشرعية .

الثالث : قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها ، فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا) الأحزاب آية ٤٩ . يدل دلالة قطعية على أن عقد النكاح المشروع لا ينقطع إلا بطلاق أو ما في معناه كالفسخ من أحد الزوجين أو الحاكم . فالتمتع لا يكون عقدا حلالاً ، لأنه ينقطع وينتهي بغير الطلاق. ويدل أيضا على أن عقد النكاح الحلال يوجب متاع التسريح ، ونكاح المتعة لا يوجب متاع التسريح فلا يكون عقدا حلالا ، ويدل واضحا على أن عقد النكاح لا يوجب العدة إلا على الأزواج لقوله تعالى : (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا ، والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء) فكل نكاح لا يوجب القرآن الكريم عليه العدة يكون باطلا بالضرورة ، ولا آية فيه توجب العدة في المتعة .

الرابع : كل آية من آيات الطلاق والصداق والعدة والمواريث والحقوق مثل : (ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف) تدل دلالة ظاهرة على أن العقد الحلال إنما هو النكاح الذي تثبت به كل هذه الحقوق ، فكل عقد لا يترتب عليه طلاق أو لا يترتب عليه إرث ، أو كل عقد لا يكون لها عليه مثل الذي عليهن لا يكون حلالا مشروعا .

الخامس : قوله (ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات) يحرم بنصه نكاح المتعة لأن من لم يستطع طولا أن ينكح المحصنات لو كان يحل له التمتع بأجرة وإلى أجل مسمى لذكره القرآن الكريم حتى لا يكون قاصرا في بيان شرعه وحصره للنكاح المشروع في القرآن الكريم • السادس : الكتاب الكريم يقول في نكاح النساء : (مُحصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان) • ويقول في نكاح الرجال : (محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان) ونكاح المتعة لا إحصان به ، والمتعة فيها سفاح ماء في غير حرث ، والمتعة هي اتخاذ خدن في كلا الطرفين فالمتعة إذاً حَرام" بنص القرآن •

السابع : قوله تعالى : (وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله ، والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم ، إن علمتم فيهم خيرا ، وآتوهم من مال الله الذي آتاكم ، ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحيوة الدنيا ، ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم) •

فإن هذه الآية الكريمة وحدها من بين سائر الآيات تكفي تمام الكفاية في إظهار أن المتعة كانت محرمة في صدر الإسلام ، ولو حلت المتعة لما كان لهذه الآية الجليلة وجه وتعالت عن ذلك • ويظهر للمنصف أن الآية لما حرمتها على الإماء كانت حرمتها على الحرائر أولى •

الثامن : إن المتعة بأجرة إلى أجل إجارة ، وإجارة المنفعة بيع وتجارة ، ولم يحل دين من الأديان تجارة المرأة بشرفها وعرضها ، ولو جاز لامرأة بذل شرفها مقابل أجرة في مقابل هواها وجب القول بجواز كل عمل فاسد يجري في المحلات المعينة للبغاء بالأجور ، اذ لا تزيد المتعة التي لا يعتبر فيها

الشهود ولا الإعلان على البغاء، بل يزيد البغاء عليها في يومنا هذا بوجود أطباء اختصاصيين لمكافحة الامراض المعديـة .

ويظهر من تلك الأدلة أن المراد بالإستمتاع في قولـه تعالى (فمـا استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن) هو الإستمتاع اللغوي العربي ، ويراد به المباشرة ، وإنها توجب تقرر كامل مهرها . وتسمية المهور أجورا واردة في كثير من الآيـات . وأما دعوى زيـادة (إلى أجل مسـمى) في بعض القراءات فلا اعتماد عليها لأن القرآن لا يثبت بخبر الآحاد ، وروايتها كخبر مروي لا قيمة لها في معارضة تلك الأدلة الكثيرة الواضحة . هذا ونسأل الله الوصول إلى خير مأمول إنه معطي كل حاصل ومحصول .

(والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون) وهذه الأمانات تشمل كـل مايؤتمن المكلف عليه من أمانات الحق كشرائعه وتكاليفه أو الخلق مما اوُدِعوا او جُعِلوا حُراساً أو أمناء عليه . والعهد مصدر وأريد به ماعوهد عليه، فإن كان من الشرائع فذكره تاكيد للأمانات ، وإن كان مما جـرى بين الناس علـى موافقة الحق وإصلاح ما فسد من الأمور فذكره تأسيس . وأصل الرعي حفظ الحيوان والمراد به هنا الرعاية والمحافظة على ما قرره الله من كافـة النواحي (والذين هم على صلواتهم يحافظون) أي الذين هـم يحافظون باستمرار على رعاية الصلوات مـن حيث أداؤها في أوائل الأوقـات مـع الجماعة وفي المسـاجد والجوامـع . صدر الباري تعالى أوصاف المؤمنين وختمها بأمر الصلاة اهتماما بها . والصدر للخشوع فيهـا والختم لباقـي الأمور المرعية إشارة إلى أن روح الصلاة عبارة عن الخشوع فيها الموجـب لمزيد الحضور (أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس) أي أولئك المؤمنون الموصوفون بتلك الصفات الحميدة هم الذين ينالون الفردوس ،

وهو أعلى الجنة و (هم فيها خالدون) لا يخرجون منها أبدا • والجملة حال مقدرة من فاعل (يرثون) ومعنى الكلام لا يموتون ولا يخرجون منها •

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ(١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ(١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ، فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً ، فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا ، فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ، ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ(١٤) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ(١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ)(١٦)

قوله تعالى (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين) السلالة الخلاصة التي سلت وأخذت من مجموعة مكدرة بعد تصفيتها • والإنسان إن أريد به سيدنا آدم أبو البشر فالمعنى واضح ، وإن أريد به الجنس ، أي نوع الانسان ، فوجه الكلام أنهم خلقوا من سلالات جعلت نطفا بعد أدوارٍ جرت عليها • (ثم جعلناه) أي جعلنا نسله (نطفة) أي خلقناه من نطفة ثابتة (في قرارٍ مكينٍ) أي مستقرٌ حصين (ثم خلقنا النطفة علقة) أي جعلنا النطفة قطعة دمٍ منجمدة حمراء (فخلقنا العلقة مضغة) أي جعلنا تلك القطعة من الدم قطعة من لحم (فخلقنا المضغة عظاما) أي صلبناها وجعلناها عظاما (فكسونا العظام لحماً) أي فجعلنا العظامَ مكسوة باللحم• وهذا على أحد وجهين فإما جعل بعضا من المضغة عظاما وجعل بعضا آخر منها لحما لكسوة العظام وهذا هو الظاهر أو جعل المضغة قطعة عظم ، وجاء بلحم مخلوق في الرحم كساه لها • (ثم أنشاناه خلقا آخر) يعني أنشأناه حالكونه مخلوقاً آخر غير ما كان سابقا وهو الإنسان الكامل الأجزاء الذي خلق فيه الروح وصار مدركا للكليات والجزئيات بحسب ما قدر له من

الهيآت (فتبارك الله أحسن الخالقين) أي فتعظم وتقدس الله الذي هو أحسن الخالقين أي أحسن من كل خالق يزعمه الشركاء خالقا . وتمييز أفعل التفضيل محذوف أي أحسن الخالقين خلقا . أو أن الخالقين من الخلق بمعنى التقدير والتصوير العلمي أي أحسن من كل ذات يعتبر مقدرا ومصورا لأمور الكائنات .

(ثم إنكم بعد ذلك) أي بعد ذلك الخلق والدخول في عالم الحياة الإنسانية والعيش المقرر (لميِّتونَ) أي لمتصفون بالموت (ثم إنكم يوم القيامة تبعثون) أي تبعثون وتعادون إلى عالم الحساب والثواب والعقاب وذلك بخلق جديد وإعادة للإنسان السابق من أجزائه الأصلية التي دفنت أو سُترت في الماء ، أو جُعلتْ غباراً وذرت في الهواء كما يظهر من قوله تعالى (قال : من يحي العظام وهي رميم ؟ قل : يحييها الذي أنشأها أول مرة) أو من مثل تلك الاجزاء كما يظهر من قوله الكريم (أو ليس الذي خلق السماوات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ بلى وهو الخلاق العليم) .

(ولَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرائِقَ ، ومَا كُنَّا عَنِ الخَلْقِ غافِلينَ(١٧) وأنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فأسكنّاهُ فِي الأرْضِ ، وإنَّا عَلى ذهابٍ بِهِ لَقادِرُونَ(١٨) فأنْشأْنا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وأعْنابٍ لَكُمْ فيها فَواكِهُ كَثِيرَةٌ ومِنْها تأْكُلُونَ(١٩) وشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بالدُّهْنِ وصِبْغٍ لِلآكِلينَ(٢٠) وإنَّ لَكُمْ فِي الأنْعامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِها، ولَكُمْ فِيها مَنافِعُ كَثِيرَةٌ، ومِنْها تأْكُلُونَ(٢١) وعَلَيْها وعَلَى الفُلْكِ تُحْمَلُونَ)(٢٢)

قوله تعالى : (ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق) لما ذكر الله سبحانه وتعالى تأثيره في تكوين العباد على تلك الدرجات الدقيقة الحقيقة بالتفكير العميق فيها ، وذكر أنهم بعد أن استقروا على الارض وقضوا أعمارهم في استيفاء لذاتهم ومقتضى شهواتهم ، ومانالهم من تبعاتهم يموتون ، وبعد ذلك الموت المؤسف المُحْزِنِ المُبكي يبقون في البرزخ بحيث ينساهم ذووهم ، ثم إذا جاء وقت الحساب والميزان يبعثهم من القبور لميدان العرض والحساب وأخذ ما يستحقونه من الثواب والعقاب •• وجهَ عباده إلى ماوراءه من جهاته ، وما يحتاج إليه في حياته من السماوات والارض وما فيهما من آثار قدرته التي يعجز عن إحصائها العقول فقال : (ولقد خلقنا فوقكم) أي في الجهة التي لا يتبدل اسمها بالنسبة وهي جهة الفوق مع مقابلها من التحت (سبع طرائق) أي سبع سماوات هي طرائق للملائكة في الصعود والنزول ، أو طرائق للكواكب السيارة على دوام المسير في الإشراق والغروب ، أو سبع سماوات هي طرائق أي مبسوطات من طرقت الحديد إذا بسطته ، أو سبعة أنواع لأن لكل سماءٍ أحوالا وأمورا من وجوه تصرف الباري كجعل السماء الدنيا مزينة بزينة الكواكب، وتخصيص كل سماء بجاذبة تقتضي أن تكون فوق الأخرى أو تحتها بدرجة أو درجات ، أو على صفات خاصة مغايرة لصفات البواقي (وما كنا عن الخلق غافلين) وما كنا غافلين عن تقدير الخلق والإيجاد، أي أنا ازلي وعلمي بالمخلوقات وأحوالها أزلي • أو ماكنا عن المخلوق غافلين ومهملين شئونهم ، فكل مخلوق له أمد في البقاء وأجل للفناء ، وحاجة خاصة بينهما ، وأنا عالم بذلك •

وفي الحقيقة إذا نظر الإنسان نظر العاقل في شئون السماوات وكواكبها، واختلاف حركاتها جهة وسرعة وأثرا ، ودورانها على محورها على كيفية خاصة من الجاذبة ، ورعاية موازينها بحيث لا يختل شيء منها أبدا ••• آمَن

بأن لها ربا قادراً خبيرا ، ولا يؤده حفظ أي كبير أو صغير ما دام تعلقت به إرادته . ولو تحققت الغفلة عنها ثانية من الثواني بل آنا من الأوان لتحطم العالم . فسبحانه من رب مهيمن . وهذا الوضع البديع المتقن المنظم على أحسن نظام بعيد حتى في شعور أي إنسان أن ينسب إلى مبدأٍ بلا شعور .

(وأنزلنا من السماء) أي من نفسه أو جانبه وجهته ، أو السحاب الثابت في حركته (ماء) هو المطر ذائباً ، والحالوب منعقداً ، والثلج متفشيا،والصقيع واقعا على البسيط ، والندى على النباتات وأوراق الأشجار لاسيما في الربيع بالأسحار ، متلبسا (بقدر) على مقدار ماتقتضيه حكمتي في صنعتي ، سواء وافق مصلحة الناس أو لا (فأسكناه في الأرض) أي فجعلناه ثابتا قارا فيها ، ومن ذلك مياه العيون ولا يقدح في قدرة الباري المتعالى تكون الماء من انقلاب البخار أو اعتبار أي عاملٍ إعتيادي فإن أمور الكائنات في الارض والسماوات كلها على أسباب ومسببات . وقال تعالى (وآتيناه من كل شيء سببا) وهل يقدح في قدرته نبت النبات من البذور ، وعمل العامل من الشعور ، وضوء البيت من النور ؟ لكن العاقل إذا تفكر قليلا علم أن تلك الأسباب عاطلة إذا لم تكن هناك إرادة عاجلة ، فانّ البحار موجودة ، والأبخرة لا محدودة ، وقد لا ينزل من السماء مطر كاف للنبات ، والإنسان إنسان والنطفة نطفة و (يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما إنه عليم قدير) .

والحاصل إنا لا ننكر الأسباب ولكن التأثير وخلق المقصود متعلق بإرادة المعبود كما قال تعالى (وإنا على ذهاب به لقادرون) أي وإنا لقادرون بلا ريب على الذهاب بالماء عن المائية أي إخراج الماء بتحجيره ، أو تغويره في الأرض ، أو بنحو ذلك . وفي هذه الجملة بلاغات ذكرها المفسرون ، ولم يلتفت الباري سبحانه إلى تعداد النعم الناتجة من الماء النازلة من السماء

لكثرتها بحيث لا يعلمها إلا الله ، ولكن ذكر بعض المنافع الخاصة فقال : (فأنشأنا لكم به) أي بذلك الماء (جنات من نخيل وأعناب) قدمهما لكونهما من الأقوات والفواكه ، وفيها أنواع الطعوم من الحموضة والحلاوة والتوسط (لكم فيها) أي في تلك الجنات (فواكه كثيرة) من أنواع الحوامض والحلويات (ومنها تأكلون) أي ترزقون أي تبيعون منها وتأخذون بدلها ما تعيشون به من المساكن والملابس وسائر الأقوات واللحوم والحاجيات ، ويجوز أن تعطف هذه الجملة على جملة أخرى مقدرة مستفادة من سياق النعم وهي منها تبيعون • أي منها تبيعون ومنها تأكلون • وإنما أظهر المعطوف لأن غالب البساتين للأكل لا للبيع ، ولكن هذا يكون عند المتمولين •

ذكر الراغب في الفاكهة قولين : الأول أنها الثمار كلها • والثاني أنها ماعدا العنب والرمان • وصاحب المختار اختار الأول وقال : قولٌ مخرج التمر والرمان منها مستدلاً بقوله تعالى (فيهما فاكهة ونخل ورمان) قولٌ باطلٌ • ولا خلاف في أن اليابس منها كالزبيب والتمر وحَبّ الرمان ليس بفاكهة •

(وشجرة تخرج من طور سيناء) أي أنشأنا لكم شجرة تخرج من طور سيناء ، وهو جبل موسى ـ عليه السلام ـ الذي ناجى ربه عليه ، وهو بين مصر وأيلة • ويقال لها اليوم (العقبة) • وقيل بفلسطين من أرض الشام ، ويقال له طور سينين • وجمهور العرب على فتح سين سيناء ، وهو اسم للبقعة والطور اسم للجبل المخصوص ، أو لكل جبل وهو مضاف إلى سيناء كما أجمعوا عليه (تنبت بالدهن) أي تنبت ملابسة بالدهن وهو عصارة كل ما فيه دسم والمراد ملابسة ثمرها له • وقيل الباء للتعدية أي تنبِت الدهن • ولا يخفى بعده لأن ربط الإنبات بالدهن لا دهنَ فيه للذهن •

(وإن لكم في الأنعام لعبرة) بيان للنعم الواصلة إليهم من جهة الحيوان بعد بيان النعم الواصلة من الأمطار والنبات ، ثم فصل ما فيها من مواقع العبرة . فقال (نسقيكم مما في بطونها) أي مما في أجوافها (ولكم فيها منافع كثيرة) من أصوافها وأشعارها وأوبارها وغير ذلك ... (ومنها تأكلون) عند ذبحها (وعليها وعلى الفلك) أي السفن (تحملون) في البر والبحر بأنفسكم وأحمالكم . وضمير عليها راجع للأنعام باعتبار بعض منها أي الإبل والبقر الأول بالوفرة والثاني بالندرة .

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إلى قَوْمِهِ ، فَقالَ : يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مالَكُمْ مِنْ إلهٍ غَيْرُهُ ، أَفَلا تَتَّقُونَ ؟(٢٣) فَقالَ المَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ : ما هذا إلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ، وَلَوْ شاءَ اللهُ لأَنْزَلَ مَلئِكَةً ، ما سَمِعْنَا بِهذا فِي آبائِنا الأَوَّلِينَ(٢٤) إنْ هُوَ إلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ ، فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ(٢٥) قالَ : رَبِّ انصُرْنِي بِما كَذَّبُونِ(٢٦) فأَوْحَيْنا إلَيْهِ أنِ اصْنَعِ الفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَوَحْيِنا ، فَإذا جاء أَمْرُنا وَفارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهلك ، إلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ القَوْلُ مِنْهُمْ ، وَلا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِين ظَلَمُوا إنَّهُمْ مُغْرَقُونَ(٢٧) فَإذَا اسْتَوَيْتَ أنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الفُلْكِ فَقُلِ : الحَمْدُ للهِ الَّذي نَجَّينا مِنَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ(٢٨) وقُلْ : ربِّ أَنزِلْنِي مُنْزَلاً مُبارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ المُنزِلِينَ(٢٩) إنَّ فِي ذلِكَ لآياتٍ وَإن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)(٣٠)

قوله تعالى : (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه) • أقول صنع الله الـذي أتقن كل شيء كل سورة وكل آية وكل جملة في القرآن الكريم لها علاقة مع أطرافها ، ومناسبة لائقة بحكمة الباري في تنزيل الكتاب العزيز • ذكر الفلك المناسب لسيدنا نوح ، وذكرنا بما جرى معه من قومه الطغاة ، وقهر البـاري عليهم بالطوفان لعبرة القراء والسامعين • فأكد وقال : (ولقد أرسلنا) أي والله لقد أرسلنا (نوحاً الى قومه) المخصوص الذين أرسل إليهم (فقـال : يا قوم اعبدوا الله) أي وحده ولا تشركوا به (مالكم من إله غيره) فإن المعبود يجب أن يكون مختصا بالخلق والرزق (أفلا تتقون ؟) عذابه بعـد حسابه مما تشركون (فقال الملأ الذين كفروا مـن قومه) أي بعضهم لبعض مستنكفين من الخطاب معه ـ عليه السلام ـ : (ماهذا إلا بشر مثلكم) نوعا وصنعا ووصفا لا يتميز بالرسالة والعناية (يريد أن يتفضل عليكم) وأنتـم أنتم فلا تخلوه وشأنه ولا تهملوا أمره حتى يستفحل خطبـه (ولو شاء الله) إرسال الرسول (لأنزل ملئكة) أي رسلا منهم • وقوله تعالى حكاية عنهما : (ما سمعنا بهذا) أي بإرسال الرسول من البشر إلى البشـر (في آبائنـا الأولين) يدل على فرط جهلهم بأحوال الامم الماضية ، فإن إرسال الرسل من البشر كان مشهورا معهودا معلوما ، وعلى قوة عنادهم بحيث أعماهم وجعلهم يعارضون ما علموا بوجوده (إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به) وانتظروا واصبروا وتحملوا كلامه (حتى حين) لعله يفيق عن هذا المرض فيعقل مانعقله أو يموت فيزول ماتتحمله ولما سمع نوح كلامهم (قال : رب انصرني) عليهم بإضعافهم ليطيعوا أو بإبادتهم حتى ينقطعوا وذلك (بما كذبون) ي أي بسبب تكذيبهم لي •

(فأوحينا إليه) عقب ذلك (أن اصنع الفلك) أي اصنع الفلك (بأعيننا) أي متلبسا بمزيد حفظنا ورعايتنا (ووحينا) أي أمرنا وتعليمنا لكيفية صنعها

(فإذا جاء أمرنا) أي وحينا (وفار التنور) بيان وتفسير لمجيىء الأمر . وكان سيدنا نوح ـ عليه السلام ـ في ذلك الوقت بالجزيرة قرب الموصل . وقيل في (عين وردة) بالشام . وقيل في مسجد الكوفة . والله أعلم (فاسلك فيها من كل) أي أدخل فيها من كل أمة (زوجين) أي فردين متزاوجين ولذلك بينه بقوله (اثنين) فإنه ظاهر في الفردين . يعنى إن زوجين تثنية زوج بمعنى الفرد المزاوج لا بمعنى الشفع من النوع ، وإلا لزم حمل أربعة أشخاص من كل نوع (وَأهلكَ) أي واسلك أهلك ، والمراد بهم من تبعه من المؤمنين والمؤمنات (إلا من سبق عليه القول منهم) إستثناء من الأهل إستثناء منقطعا، لأنهم لم يدخلوا في الأهل بالمعنى المذكور والمراد بهم زوجته وابنه الذي لم يؤمن ، وكان مع سائر الكافرين . ولو حمل الأهل على المعنى المشهور وإرادة امرأته وبنيه منه ، كما في سورة هود ، كان الاستثناء متصلا (ولا تخاطبني) بالشفاعة للإنجاء (في الذين ظلموا) أي أشركوا بالله (إنهم مغرقون) لظلمهم وإشراكهم . (فاذا استويت أنت ومن معك في الفلك فقل : الحمد لله الذي نجينا من القوم الظالمين) على نعمة إنجائنا وإهلاكهم (وقل : رب أنزلني منزلا مباركا) أي أنزلني من الفلك إنزالا أو مَسْكَناً ومنزلاً يكون سبباً للبركة او الرحمة بأمنه مِن الحَشَرات والسباع والأعداء الأرضية وصيانته من البلايا السماوية ، والاستفادة من البركة المادية في المحل باشتماله على المياه والمزارع وسائر ما يعيش به الناس والأنعام ، والمعنوية بأن يكون معمورا بالذكر والطاعة ووجوه الخيرات (وأنت خيرُ المُنزلين) أي خير من ينزل أتباعه في المحل المبروك . (إن في ذلك) الذي ذكر من أحوال نوح وقومه (لآيات) لمن يعتبر بها (وإن كنا لمبتلينَ) وإنا كنا مختبرين له ولقومه ومن نجح ربح .

(ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رسولاً منهم أَنِ اعْبُدُوا اللهَ مالَكُمْ مِنْ إلهٍ غَيْرُهُ ، أَفَلا تَتَّقُونَ ؟ (٣٢) وَقالَ المَلأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وكَذَّبُوا بِلِقاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْناهُمْ فِي الحَيوةِ الدُّنيا : ما هذا إلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ، يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ ، وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) ولَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إنَّكُمْ إذاً لَخاسِرُونَ (٣٤) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تراباً وعِظاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ ؟ (٣٥) هَيهاتَ هَيْهاتَ لِما تُوعَدُونَ (٣٦) إنْ هِيَ إلاَّ حَياتُنا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحيا وَما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إنْ هُوَ إلاَّ رَجُلٌ افْتَرى عَلَى اللهِ كَذِباً ، وَما نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) قالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِما كَذَّبُونِ (٣٩) قال : عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (٤٠) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً ، فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِين) (٤١)

قوله تعالى (ثم أنشأنا مِن بَعدهِم قرنا آخرين) أي أنشأنا من بعد إهلاك قوم نوح بالطوفان أهل قرن آخرين . قالوا : هم قومُ عادٍ أو ثمود، والمشهور أن قوم عاد هم الذين جاءوا من بعد قوم نوح . ويشكل عليه قوله تعالى : (فأخذتهم الصيحة بالحق) لأن إهلاك قوم عاد كان بالريح العاتية . وأجيب عنه بأن جبريل عليه السلام صاح بهم من الريح كما روى في بعض الأحاديث . وأما إذا فسرنا القرن بقوم ثمود فلا اشكال لأن هلاكهم كان بالصيحة (فأرسلنا فيهم رسولا منهم) هو هود أو صالح ـ عليهما السلام ـ . ولا يشكل على الثاني قوله تعالى (واذكروا إذ جعلكم خلفاء

من بعد قوم نوح) لأنهم كانوا بعدهم ، ولو توسط بينهما قوم عاد . (أن اعبدوا الله) كلمة أن مفسرة لتضمن الإرسال معنى القول (مالكم من إله غيره ، أفلا تتقون ؟) عذاب الآخرة على اتخاذ غير الله إلهاً (وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة واترفناهم في الحيوة الدنيا) أي أنعمنا عليهم إنعاما زائداً فوقعوا في ترف من حيث المعيشة واللذة الدنيوية : (ما هذا إلا بشر مثلكم ، يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون) تقرير للمماثلة ، وادعاء أن المماثل في الأكل والشرب لا يكون رسولا من الله تعالى ، ولا تصح إطاعته ، ولذا قالوا : (ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون) أي في تصرفات العقلية ، مغبونون في آرائكم .

ثم استأنفوا لتقرير الزجر السابق بقولهم (أيعدكم) ذلك البشر المماثل لكم (أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون ؟) من القبور للحشر والحساب والميزان والنشور . (هيهات هيهات لِما توعدون) هيهات اسم لفعل ماض وهو بعدَ كحسن ، وهيهات الثاني تأكيده ، والغالب في هذه الكلمة استعمالها مكررة . وفاعله راجع إلى الموضوع المذكور في الآيات السابقة ، وقوله لما توعدون بيان له ، فهو متعلق بمقدر كما في سقياً لك ، أي البُعدُ المذكورُ كائن لما توعدون . وقيل : إن اللام زائدة ، وما توعدون فاعل لاسم الفعل ، أي هيهات ما توعدون (إن هي إلا حياتنا الدنيا) أصله إن الحياة إلا حياتنا الدنيا ، ثم وضع الضمير موضع الحياة لأن الخبر يدل عليها ، فالضمير عائد على متأخر وعوده على متأخر مفسرٍ له جائزٌ إذا كانَ خبراً عنه . وكلمة إن نافية أي ما الحياة إلا حياتنا الدنيا ، وإذا متنا فليست لنا حياة أخرى (نموت ونحيا) أي يموت جيل ويولد جيل آخر فيحيا بعد الجيل الأول (وما نحن بمبعوثين) بعد موتنا لحياة ثانية نثاب فيها أو نعاقب (إن هو إلا رجل افترى على الله) بدعوى أنه أرسله

إلينا وما نحن (بمؤمنين) أي بمصدقين له فيما يدعيه ويقوله (قال : رب انصرني) أي قال رسولهم بعد أن يئس من إيمانهم (رب انصرني) عليهم بإبادتهم (بما كذبوني) أي بسبب أنهم كذبوني ، وتكذيبهم لي تكذيب لك وأنت المنتقم المقتدر على الظالمين (قال : عما قليل ليصبحن نادمين) أي قال الله تعالى إجابة لذلك الرسول الجليل لَيُصْبِحُنّ أي أولئك القوم المكذبون لك عن زمانٍ قليل نادمين عما قالوا وفعلوا لحلول العذاب عليهم .

(فاخذتهم الصيحة بالحق) اي فاخذت ذلك القوم الظالم صيحةُ جبريل ـ عليه السلام ـ بالامر الوارد من الله وهذا ظاهر ان كان القوم قوم صالح واما ان كانوا قوم عاد فالامر مشكل واجابوا عنه بان جبريل صاح بهم من الريح . قلت : ويجوز ان يراد بالصيحة صيحة الريح العاتية لانه قد تكون فيها صيحات هائلة تقطع القلوب ولاسيما اذا امرت من الله باهلاك قوم كعادٍ العادين (فجعلناهم غثاء كغثاء السيل) وهو مايحمله من الاوراق والعيدان البالية والاعشاب (فبعدا للقوم الظالمين) إما اخبار اي بعدوا بعداً ثابتا للقوم الظالمين ، او إنشاء ودعاء عليهم بذلك والدعاء على النسق المعتاد ، والا فلا حاجة الى الدعاء بالهلاك بعد الاهلاك الا اذا اريد البعدُ من رحمة ملك الملوك ومالك الأملاك .

(ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُوناً آخَرِينَ(٤٢) ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ(٤٣) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى ، كُلَّمَا جاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ ، فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضاً وَجَعَلْنَاهُمْ أَحادِيثَ ، فَبُعْداً لِقَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ(٤٤) ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسى وَأَخاهُ هرُونَ بِآياتِنا وَسُلْطانٍ مُبِينٍ(٤٥) إلى فِرْعَوْنَ وَمَلائِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً عالِينَ(٤٦) فَقالُوا:

أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنا وَقَوْمُهُما لَنا عابِدُونَ ؟(٤٧) فَكَذَّبُوهُما فَكانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ(٤٨) وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسى الْكِتابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ(٤٩) وَجَعَلْنا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً ، وَآوَيْناهُما إلى رَبْوَةٍ ذاتِ قَرارٍ وَمَعِينٍ(٥٠) يا أَيُّها الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ ، وَاعْمَلُوا صالِحاً إنّي بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ(٥١) وَإِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً ، وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ(٥٢) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً ، كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ(٥٣) فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ(٥٤) أَيَحْسَبُونَ أَنَّ ما نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مالٍ وَبَنِينَ(٥٥) نُسارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْراتِ ؟ بَلْ لا يَشْعُرُونَ)(٥٦)

قوله تعالى (ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين) هم عند أكثر المفسرين قوم صالح وقوم لوط وقوم شعيب وغير ذلك (ما تسبق من أمة أجلها) ما نافية ، وكلمة من زائدة لتأكيد النفي ، والأجل بمعنى مدة البقاء كلها ، أو آخر الوقت المقرر لها • أي ما تتقدم أية أمة صالحة أو طالحة على الوقت الذي قدر لبقائها ، بل تنتهي عنده فإن كانت صالحة فإلى حسن المصير ، وإن كانت طالحة فإلى سوء المصير (وما يستأخرون) أي ومايقتدرون وما يستطيعون تأخير ذلك الوقت دقيقة ، وكل شيء عنده بمقدار (ثم أرسلنا رسلنا تترى) والتاء الأولى بدل من الواو كما في تراث وتجاه يدل على ذلك الإشتقاق من الوتر والوراثة والوجه وأصله وترى وتترى مصدر • وقرىء بالتنوين وعدمه(١) • والمواترة المتابعة بين

(١) اي قرىء تترى منونا وغير منون ؛ فمن نون قال : ان الفه للالحاق بجعفر كملقى ، فلما نون ذهب الفه لالتقاء الساكنين . ومن لم ينون قال : ان الفه للتانيث كدعوى .

الأشياء بشرط أن يكون بينها فترة زمنية وإلا فهي متداركة" وملاحقة" (كلما جاءَ أمة رسولها كذبوه) وكلما ظرف لتكرار ما بعدها ، وناصبها جوابها (فأَتبعنا بعضهم بعضا) في الإهلاك والدمار (وجعلناهم أحاديث) جمع أُحدُوثة وهي ما يتحدث به تعجباً وتلهيا ، أي لم يبق منهم شيء إلا حكايات يسمر بها (فبعداً لقومٍ لا يؤمنون) بالحق إلى مسافات طويلة من رحمة الباري وفيضه الساري إلى العباد .

(ثم أرسلنا موسى وأخاه هرون بآياتنا) البينات أي المعجزات كالعصا واليد البيضاء أو البلايا المزعجات كالحشرات والضفادع والدم آيات مفصلات (وسلطان مبين) إحدى الآيات الكبريات أو ثنتان ، أعني العصا واليد البيضاء ، خص بعد دخوله في العموم للاهتمام . أو المراد بالسلطان المدد الغيبي الكامل والروح المعنوي بحيث لم يهابا ذلك الظالم وأتباعه الظالمين المذكورين في قوله تعالى (إلى فرعون وملأه) أي أرسلناه إلى فرعون رئيس الأقباط لا إليه وحده بل إليه وإلى ملأه وليست الدعوة إلى الحق مختصة ، بل عمتهم وغيرهم لكنهم كانوا رؤساء الأمة . والملأ أشراف يسمون بالملأ لأنهم هم الذين يملأون مجالس الإستشارة أو مواقع الاهتمام بالأمور (فاستكبروا) أي فرعون وملأه استكبروا عن قبول دعوته (وكانوا قوما عالين) على الأمة بالقوة والعزة فاستغنوا وبغوا وطغوا (فقالوا :أنؤمن لبشرين مثلنا) في القامة والقيافة والصورة والعادات البشرية (وقومهما لنا عابدون ؟) أي والحال إن قومهما أذلاء عندنا نستسخرهم ونستخدمهم في الأعمال بشوكتنا وقوتنا (فكذبوهما) فاستمروا على تكذيبهما (فكانوا من المهلكين) بالغرق في اليم (ولقد آتينا موسى الكتاب) أي التوراة بعد عبوره مع قومه النيل وإهلاك فرعون وقومه المشايعين له

(لعلهم يهتدون) إلى طريق طاعة رب العالمين بعد خلاصهم من فرعون وملأه المستكبرين .

(وجعلنا ابن مريم) أي عيسى ــ عليه السلام ــ (وأمه) العذراء (آية) وحيدة لم يكن لها نظير في عالم الوجود قبلهما ، والآية ولادة ابن من أم بدون أب (وَآويناهُما إلى ربوةٍ) أي جعلناهما يأويان إلى محل مرتفع مادة ومعنى وهو بيت المقدس (ذات قرار ومعين) أي ذات أرض واسعة تليق باستقرار أهل الشرف والكرامة والطاعة والعبادة ذوات ماء جار لا ينقطع (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات) أي وقلنا لكل رسول منهم: كُلْ من طيبات الأطعمة معنىً لكونها حلالاً ، ومادةً لكونها لذيذة خفيفة على المعدة (واعملوا صالحا) أي وقلنا لكل منهم : اعمل عملا صالحا موافقا للشريعة التي أنزلت اليك (إني بما تعملون) كلا وبعضا (عليم) فأجازيكم جزاء لائقا بالرب الرحيم (وإن هذه أمتكم أمة واحدة) أي وإن هذه الشريعة المنزلة إليكم شريعة واحدة لا تفاوت في معتقداتها مقدار شعرة ، ولا اختلاف في موافقة فروعها للمصلحة في عقل أهل الخبرة . فالعقيدة واحدة بالشخص ، والأعمال واحدة بالنوع ، والمجموع واحدة وحدة عقلية جلية ، وعنوانها شريعة الله تعالى في عباده المؤمنين .

هذا إذا كانت الأمة بمعنى الملة والدين . وأما إذا كانت بمعنى الجماعة من المكلفين أصحاب العمل بالشرائع فالمعنى قلنا للرسل : إن هذه أمتكم التي أرسلتم إليها حالكونها أمة واحدة مضبوطة لا اختلاف فيها قبل إرسال الرسل لأنهم على الفترة والأهواء الغريزية التي ليس بينها شريعة (فاتقون) في قبول الأحكام لأني أنا ربكم الذي خلقكم وأوصلكم إلى درجة التكليف بالنظام الإلهي . وحاصل المعنى : إنا أرسلنا الرسل وأنزلنا الكتب ليتحدوا تحت راية النظام الحق ، ولكنهم خالفوا واختلفوا (فتقطعوا أمرهم بينهم

زبرا) أي قطعوا أمر دينهم وجعلوه أديانا مختلفة وبدل أن يعبدوا ربا واحدا عبدوا أربابا متفرقة ، وبدل أن يوحدوا الله أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، وجعلوا الدين زبرا مختلفة وقطعاً غير مؤتلفة ، وصاروا أحزابا متفرقة (كل حزب بما لديهم فرحون) أي وكل جماعة من الجماعات المختلفة بما لديهم من الذي اختاروه فرحون مستبشرون ، وكلما كان أمرهم أقرب إلى الهوى اعتنقوه والتزموه أشد وأزيد (فذرهم في غمرتهم) أي اتركهم ودعهم حيارى في شئونهم المشئومة (حتى حين) وهو حين مجيىء الوقت لمعاقبتهم أو محاسبتهم ، وليس لهم مستمد سليم يستندون إليه ويستمدون منه إلاّ الأموال والبنين .

(أيحسبون أن ما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات ؟) أي أيظنون أن الذي نعطيهم إياه ونجعله مددا لهم من الأموال والأولاد نسارع به لهم فيما فيه خيرهم (بل لا يشعرون) عطف على مقدر أي كلا لا تفعل ذلك بل لا يشعرون ، أي ليس من شأنهم الشعور .

(إنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ(٥٧) والَّذِينَ هُمْ بآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ(٥٨) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ(٥٩) وَالَّذِين يُؤْتُونَ ما آتَوْا وَقُلوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إلى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ(٦٠) أولئِكَ يُسارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ وَهُمْ لَها سابِقُونَ(٦١) وَلا نُكَلِّفُ نَفْساً إلاّ وُسْعَها، وَلَدَيْنا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ(٦٢) بَلْ قُلوبُهُمْ في غَمْرَةٍ مِنْ هذا ، وَلَهُمْ أَعْمالٌ مِنْ دونَ ذلِكَ هُمْ لَها عامِلُونَ(٦٣) حَتّى إذَا أَخَذْنا مُتْرَفِيهِمْ بِالعَذابِ إذَا هُمْ يَجْأَرُونَ(٦٤) لا تَجْأَرُوا اليَوْمَ إنَّكُمْ مِنّا

لا تُنْصَرُونَ(٦٥) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقابِكُمْ تَنْكِصُونَ(٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سامِراً تَهْجُرُونَ)(٦٧)

قوله تعالى : (إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون) أي إن الذين آمنوا بربهم إيمانا ثابتا في قلوبهم جعلهم بحيث يخافون من عذاب ربهم في الدنيا والآخرة (والذين هم بآيات ربهم يؤمنون) أي كما آمنوا بوجوده سبحانه وتعالى يؤمنون بآياته المنزلة على رسله (والذين هم بربهم لا يشركون) يعني آمنوا بالله إيمانا محفوظا عن ضلال الإشراك فلم يشركوا به أحدا (والذين يؤتون ما آتوا ، وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون) أي والعباد المكلفون الذين يعطون الناس المستحقين من الصدقات ، والحال إن قلوبهم وجلة وخائفة من أن لا تقبل منهم الصدقات ، لأنهم يؤمنون بأنهم إلى ربهم راجعون ، فيحاسبهم على أعمالهم ونفقاتهم (أولئك) الموصوفون بتلك الصفات الحميدة (يُسارِعُونَ في الخيرات) أي هم الذين يسارعون في نيل الخيرات دون أولئك الكفرة الموصوفين بأضداد تلك الصفات (وهم لها سابقون) أي وهم لأجل تلك الخيرات يسعون في السبق ويظفرون بها ، أو هم لأجل نيلها يعتبرون من الجمع السابقين .

(ولا نكلف نفسا) أي أية نفس من الأعمال الصالحة الخيرة (إلا وسعها) أي إلا ما كان في وسعها وطاقتها (ولدينا كتاب ينطق بالحق) أي ولدينا كتاب مستوعب لصحائف أعمالهم ينطق ببيان ماعملوه بالوجه الحق (وهم لا يظلمون) بمنع جزاء الاعمال الصالحة منهم (بل قلوبهم في غمرة من هذا) إضراب عن بيان أحوال المؤمنين ورجوع إلى بيان أحوال الكافرين، أي بل قلوب الكفرة في غفلة وجهالة من هذا التفصيل الناطق بأن المؤمنين

العاملين للصالحات جزاؤهم عند ربهم ، وعلى غرار ذلك جزاؤهم أيضاً مقدر ومقرر (ولهم أعمال من دون ذلك) أي ولهم أعمال سيئة كثيرة من دون غفلتهم ، أي ليست سيئتهم منحصرة في الغفلة بل لهم وراء ذلك سيئات (هم لها عاملون) أي لتلك السيئات عاملون (حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب) أي استمروا في العمل السيىء ومكابرة الرسل ومعاندة الحق حتى إذا أخذنا كبراءهم المترفين الذين أغروا سائرَ الناسِ بالكفر والعناد بالعذاب الشديد الذي يستحقونه (إذا هم يجئرون) أي يصيحون بالويل والثبور (لا تجئروا اليوم) أي فقلنا لهم : لا تجئروا اليوم بلا فائدة (إنكم منا لا تنصرون) أي لا تنالكم نصرة منا (قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون) إستئناف لبيان علة عدم نيلهم النصرة ، أي لأنه قد كانت آياتي البينات المنزلة على الرسول المؤتمن تتلى عليكم من جانبه فكنتم عند سماعها ترجعون على أعقابكم ، ورجوع الشخص على أعقابه رجوعه في طريقه الأولى (مستكبرين به) أي بالبيت الحرام الذي جعلتموه نصب العين للاستكبار والافتخار فحسب (سامراً) أي ذاكراً للبيت ، أو للقرآن المعلوم من المقام ، او للرسول التالي للآيات (تهجرون) الرسول وتتركون الكلام معه ، أو تهجرون الحق غيرَ مبالين به .

(أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ ؟ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ؟(٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ(٦٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ ؟ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ ، وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ(٧٠) وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمٰوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ(٧١) أَمْ تَسْأَلُهُمْ

خَرْجاً ؟ فَخَراجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ(٧٢) وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ(٧٣) وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّراطِ لَناكِبُونَ(٧٤) وَلَوْ رَحِمْناهُمْ وَكَشَفْنا ما بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ(٧٥) وَلَقَدْ أَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ فَمَا اسْتَكانُوا لِرَبِّهِمْ وَما يَتَضَرَّعُونَ(٧٦) حَتَّى إِذا فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً ذا عَذابٍ شَدِيدٍ إِذا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ)(٧٧)

قوله تعالى : (أفلم يدبروا القولَ ؟) الهمزة للإنكار واستقباح عدم تدبرهم ، أي أفعلوا ما فعلوا فلم يتدبروا القرآن ليعلموا ما فيه من الحقائق ووجوه الإعجاز التي ترشد المتفكر إلى الإيمان بأنه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل مطلقا (أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الاولين ؟) أي بل أجاءهم من الكتاب ما لم يأت آباءهم السابقين حتى استبعدوه فوقعوا في الكفر والضلال (أم لم يعرفوا رسولهم ؟) إضراب من توبيخ إلى توبيخ آخر ، أي بل ألم يعرفوا رسولهم الذي أرسل إليهم بالأمانة والصدق والأخلاق العالية ، ولذلك استنكروه (فهم له منكرون) أي من جهة عدم معرفته وعدم الإطلاع على أحواله (أم يقولون به جنة ؟) إضراب وانتقال إلى توبيخ آخر ، اي بل أيقولون بهِ خلل وفي شخصه جنون واختلالُ عقلٍ (بل جاءهم بالحق) إضراب عما يدل عليه الكلام السابق ، أي ليس الأمر كما زعموا في حق القرآن والرسول ، بل جاءهم بالكلام الحق الثابت المطابق للواقع وذاته الجائي به شخص مبارك منزه عن سوء الأخلاق والأحوال ، وليس مجهولا من حيث الذات والصفات ، وليس في عقله خلل وملل ، وإنما هو إنسان كامل في الصفات العالية ، فالإله الذي يدعو المكلفين إليه حق ، والكلام

الذي نزل عليه حق مطابق للواقع ، وشخصيته قدسية أمينة عالية ذاتا وصفة فهو حق ومعه الحق (وأكثرهم للحق كارهون) أي ولكن لما في الحق من مخالفة النفس وهواها جبلة ولا تنمحي آثار تلك الجبلة إلا برياضة ومرونة وأقلهم ليسوا كارهين له فمنهم من أسلم ، ومنهم من بقي على كفره خوفا من تعيير قومه .

(ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن) الحق هو التوحيد ومقتضى الأهواء التعدد والإشراك فلو تبدل التوحيد ووحدة الإله بالإشراك وتعدد الآلهة لفسدت السماوات والارض على وزان (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) أو الحق عبارة عن رعاية العدالة في العالم والأهواء عبارة عن الفوضى والإختلال ، فلو مال الحق وزال وجاءت الأهواء والفوضى لم يبق عيش من كثرة الطيش ، ولم تبق راحة من تعدي أهل الإباحة ، ففساد السماوات والارض ومن فيهن كناية عن كثرة الاختلال بحيث لا يبقى للصلاح مجال ، أو الحق عبارة عن سلامة الاعتقاد والاعمال ، والاهواء عن سقم الإعتقاد وسوء الاعمال فلو كان الامر كذلك لغضب الله تعالى على الكائنات وغيرها أو دمرها ، والمآل للاعتبارات واحد (بل أتيناهم بذكرهم) إضراب وانتقال من تشنيعهم بكراهة الحق إلى تشنيعهم بالإعراض عما جبل عليه كل نفس من الرغبة فيما فيه خير كالقرآن الذي فيه ذكرهم لله وفي ذلك السعادة الأبدية ، وذكرهم في حياتهم ومماتهم بأنهم قوم نبع فيهم ينبوع الحكمة ونزلت عليهم آيات الرحمة (فهم عن ذكرهم) لله تعالى أو عن فخرهم وشرفهم (معرضون . أم تسألهم خرجا ؟) إنتقال الى توبيخ آخر على زعم أنك تسألهم على تبليغ الدين خرجاً ماديا وجعلاً ماليا يصعب عليهم أداؤه ، وليس كذلك لأنك لم تطلب ذلك قط ، ولن تطلبه عوضً . ومهما كان الأمر (فخراج ربك خير) أي فرزقه المحول منه إلى

عبده خير من كل ما يسعى له الناس من غير جهته (وهو خير الرازقين) في التصور ، فهو الذي هيأ للناس ، بل لكل حيوان بل لكل فرد من أفراد الثقلين رزقاً (وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم) تشهد عقول المنصفين باتصافه بالإستقامة (وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة) مثل كفار قريش (عن الصراط) المستقيم الذي تدعوهم إليه (لناكبون) لمنحرفون إلى الجانب (ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضرّ) من سوء حال سواء كان من الفقر أو المرض (للجوا في طغيانهم) لتمادوا وتطاولوا في طغيانهم وإفراطهم في العتوّ والاستكبار حالكونهم (يعمهون) أي عامهين متحيرين مترددين في بحر من الضلال .

(ولقد أخذناهم) أي كفار قريش (بالعذاب) من القحط والمجاعة (فما استكانوا لربهم) أي فما خضعوا لربهم وما استسلموا ، فإن الجاهل الجاحد والغافل الجامد لا يسند البلايا الى الله ، ولا يجعلها ناتجة من كفره بالله ووحدته ، وإنكاره لعطائه ونعمته . وإنما يجعلها من الصدقات ، أو ناتجة من أسباب عادية ولا يدرك أن مرجع الاسباب الى إرادة الباري جل شأنه العظيم (وما يتضرعون) في الحال أو في المستقبل لأنه لما كانت قلوبهم مطبوعة على ما هم عليه سد باب الإنتباه والتضرع إليه فيبقون كما كانوا إلى يوم القيامة (حتى اذا فتحنا عليهم) يوم القيامة (بابا ذا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون) متحيرون .

(وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ (٧٨) وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩) وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟(٨٠) بَلْ قَالُوا

مِثْلَ ما قالَ الأوَّلُونَ (٨١) قالُوا : أءِذا مِتْنا وكُنّا تُراباً وعِظاماً أءِنّا لَمَبْعُوثُونَ ؟ (٨٢) لَقَدْ وُعِدْنا نَحْنُ وآباؤُنا هذا مِنْ قَبْلُ إنْ هذا إلاّ أساطِيرُ الأوَّلِينَ) (٨٣)

قوله تعالى (وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة) يعني قل لهم يا رسولي : هو الذي أنشألكم أي خلق لكم هذه الحواس الظاهرة النافعة ، وأهمها : السمع ، والبصر ، وخلق لكم الأفئدة أي القلوب المتفكرة لتستفيدوا بها العلم بالمجهولات وتميز المنافع من المضار لكسب الخير والسعادة في المعاش والمعاد وانتم (قليلا ما تشكرون) أي تشكرون الخالق شكرا قليلا (وهو الذي ذرأكم) أي خلقكم وبثكم (في الأرض) فتناسلتم واكتسبتم ما تعلقت به إرادتكم في حياتكم الدنيوية (وإليه تحشرون) يوم البعث والحساب وجزاء الأعمال (وهو الذي يحي ويميت) يخلق الحياة في مواد مستعدة للحياة بإرادته ويخلق الموت عند انقضاء الآجال (وله اختلاف الليل والنهار) أي ويختص التأثير في الكرة الأرضية به حتى تتحرك ويحصل من حركتها الليل والنهار (أفلا تعقلون ؟) أي فلا تتصورون هذه الأمور وتنسبون هذه الآثار إلى الله تعالى •

(بَلْ قالُوا مثلَ ما قال الأولون) أي آباؤهم السابقون المنكرون للبعث والنشور (قالوا : أءِذا متنا وكنا ترابا وعظاماً) يعني تمزقنا وصارت أجسادنا ترابا يابسا (أءِنا لمبعوثون ؟) ونحيا حياة ثانية ونحاسب على أعمالنا في حياتنا الأولى (لقد وعدنا نحن) في أيامنا (و) وعد (آباؤنا هذا) الأمر الموعود وهو البعث بعد الموت (من قبل) أي من أزمنة قبل هذا الزمان (إن هذا) أي ما هذا الوعد (إلا أساطير الأولين) أي إلا أكاذيبهم التي سطروها وتناقلت بينهم إلى يومنا ، ولم يتفكروا في أن هذا الموعود

وارد من رسول مؤيد بالمعجزات الباهرة القاهرة مبلغ من الله العلي العظيم الذي خلق السماوات والأرض ومن فيهما وما عليهما . ومن كان قادرا على خلق الأشياء من العدم فهو قادر على إعادتها كما كان وهو العليم القدير .

(قُلْ : لِمَنِ الأَرْضُ ومَنْ فِيها إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ؟(٨٤) سَيَقُولُونَ : للهِ . قُلْ : أَفَلا تَذَكَّرُونَ ؟(٨٥) قُل : مَنْ رَبُّ السَّموات السَّبْعِ وَرَبُّ العَرْشِ العظيم ؟(٨٦) سَيَقُولُونَ: للهِ قُلْ : أَفَلا تَتَّقُونَ ؟(٨٧) قُلْ : مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ، وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجارُ عَلَيْهِ ؟ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلمونَ(٨٨) سَيَقولُونَ : للهِ . قُلْ : فَأَنَّى تُسْحَرُونَ(٨٩) بَلْ أَتَيْناهُمْ بِالْحقِّ وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ(٩٠) ما اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَما كانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ ، إذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بِما خَلَقَ ، وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ ، سُبْحانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ !(٩١) عالِمِ الغَيْبِ والشَّهادَةِ ، فَتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ)(٩٢)

قوله تعالى : (قل : لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟) أراد بهذا الأمر والخطاب لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يسأل المنكرين للبعث أسئلة ليظهر في جوابها أنهم ملزمون حسب الأجوبة بالإعتراف به فقال تعالى : (قل) يا حبيبي لأولئك المنكرين للبعث : (لمن الارض ومن فيها) أي الأرض ومن فيها من العقلاء ملك لأي مالكٍ وملكٌ لأى مَلِكٍ ؟ ومن الفاعل القادر الذي خلقهما ؟ ولا شك أنك إذا سألتهم (سيقولون) في الجواب : إنهما (لله . قل) عند اعترافهم بذلك تبكيتا لهم (أفلا تذكرون ؟) أي أتقولون ذلك فلا تتذكرون فتعلمون أن من خلق الارض ومن فيها ابتداء

قادر على إعادة المكلفين ثانيا فإن الإعادة أهون من البدء (قل : من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ؟ سيقولون : لله) وفي قراءة بدون اللام ، وهذا على الظاهر والأول على المعنى ، وكلاهما جائز ، فإذا سألت من صاحب هذه الدار فقيل زيد كان جوابا على ظاهر اللفظ ، واذا قيل لزيد فهو جائز أيضا بحسب المعنى (قُلْ : أفلا تتقون ؟) أي أتعلمون ذلك ولا تتقون عقابه (قل : من بيدهِ ملكوتُ كل شيىء وهو يجير ولا يجار عليه) أي من الذي بيده وفي قبضة قدرته التصرف والملك والاستيلاء والسيطرة على كل شيىء ، وهو يمنع من يشاء لمن يشاء ولا يمنع أحدٌ أحداً منه تعالى (إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون : لله • قل : فأنى تسحرون ؟) أي إنكم إذا علمتم ذلك فمن أين تخدعون وتنحرفون عن الرشد (بل أتيناهم بالحق) إضراب عن قولهم إن هذا إلا أساطير الأولين • أي أعرضوا عن ذلك فإنا أتيناهم بالحق ، أي بالأمر المطابق للواقع وهو الوعد بالبعث المحقق (وإنهم لكاذبون) في قولهم إن هذا الا أساطير الأولين (ما اتخذ الله من ولد) لأي غاية ومرام (وما كان معه من إله • إذا لذهب كل إله بما خلق) أي لاستند بالذي خلقه واستقل بالتصرف فيه (ولعلا بعضهم على بعض) أي لوقع التنازع بينهم حسب العادة ، ولزم من ذلك انحصار الألوهية في العالي وانتفاؤها في المستعلى عليه • وهذا بناء على ملاحظة العادة من وجود التنازع بين مالكين •

والحق إن هذه الآية إشارة إلى برهان قاطع على الوحدة للإله • وتقريره : ولو كان معه من إله لأمكن بينهما تخالف الإرادة بأن يريد أحدهما حركة زيد والآخر سكونه ، ولو أمكن التخالف بينهما لزم انتفاء الألوهية لهما ، أو لواحد منهما • أما الأول فعلى تقدير عدم تحقق مراد شيىء منهما

لأنهما حينئذ يكونان عاجزين • وأما الثاني فعلى تقدير تحقق مـراد واحد منهمـا دون الآخـــر •

وبوجه آخر نقول : لو كان هناك إلهان لزم أن لا يكون شيىء منهما إلهاً ، إذ لو وجدا لأمكن التخالف بينهما في الإرادة ، ولــو أمكــن التخالف لزم إمكان غلبة كل على الآخر بمقتضى الألوهيــة ، لكــن التالي باطــل لاستحالة عجز الإله ومغلوبيته لأي شيىء •

(سبحان الله) أي تنزيها بليغا كاملا لله تعالى (عما يصفون) أي عن اتخاذ كل ولد أو شريك يصفه المشركون به ابنه أو شريكه ، أو عن وصفهم وذكرهم الولد والشريك له (عالم الغيب والشهادة) بدل عن الاسم الجليل، أو صفة له لأنه أريد به الثبوت والاستمرار فتكون صفة مشبهة ، والإضافة معنوية مفيدة للتعريف (فتعالى عما يشركون) تعاليا كبيرا •

(قُلْ : رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي ما يُوعَدُونَ(٩٣) رَبِّ فَلا تَجعَلْنِي فِي القَوْمِ الظَّالِمِينَ(٩٤) وإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ ما نَعِدُهُمْ لَقادِرُونَ(٩٥) ادْفَعْ بالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ،نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَصِفُونَ(٩٦) وَقُلْ : رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزاتِ الشَّياطِينِ(٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونَ(٩٨) حَتَّى إِذَا جاءَ أَحَدَهُمُ المَوْتُ ، قالَ : رَبِّ ارْجِعُونِ(٩٩) لَعَلِّي أَعمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ ، كَلاَّ إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها ، وَمِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)(١٠٠)

قوله تعالى (قل : رب إمّا ترينى ما يوعدون • رب فلا تجعلنــي في القوم الظالمين) روي عن الحسن أنه تعالى أخبر نبيه ــ عليه السلام ــ أن

له في أمته نقمة ولم يُطلعه على وقتها ، فامر بهذا الدعاء . ودعاؤه ــ صلى الله عليه وسلم ــ امتثال لامر الله تعالى وسر الامر به مع أنه ــ صلى الله عليه وسلم ــ معصوم هو المحافظة على دوام المخافة من الله وإرشاد الناس إلى ذلك المسلك والإهتمام بطلب شمول الرحمة من الله تعالى ، كي يصان من شمول شؤم المعصية . قال تعالى : (واتقوا فتنة لاتصيبين الذين ظلمو منكم خاصة) فلما نزلت الآيةالكريمة دعا بها وقال: (رب إما تريني ما يوعدون)... الآية أي يارب إن كنت أردت أن تريني ما يوعدون ويأتيهم العذاب في حياتي (فلا تجعلني مع القوم الظالمين) المعذبين ولا تعذبني بعذابهم ، ثم قال تعالى (وإنا على أن نريكَ ما نعدهم لقادرون) ولكنا لا نفعل ذلـك بل نؤخره عنهم لعلمنا بأن منهم من يتوبُ ومنهم من سيؤمِنُ أعقابـهُ ويدخلون في الإسلام (اِدْفع بالتي هي أحسنُ السيئة) أي إدفع بالحسنة التي هـي أحسن الخصال الخصلة السيئة منهم ، أي قابل السيئة من أعمالهم وأقوالهم بالحسنة من أعمالك وأقوالك ، وإذا أدركت عملا سيئا منهم فقابله بعمـل حسن منك ، لكن بحيث لا يوجبُ وهناً في قواعد الدين . (نحن اعلـم) منك (بما يصفون) أي بما يصفونك به من الصفات الذميمة وأنت بريىء مـن كلهـا .

(وقل : رب أعوذ بك من همزات الشياطين) أي من الدسائس التي يلقونها إلى القلب (وأعوذبك رب أن يحضرون) أي من حضورهم حولي أو في قلبي (حتى إذا جاء أحدهم الموتُ) أي جاء أحـد الكفار المشركين الموت (قال : رب ارجعون) إلى الدنيا وحياتها وإلـى القـوة ونشاطهـا (لعلي أعمل) عملا (صالحا فيما تركتُ) من الإيمان وما يتفـرع عنه مـن الأحكام . فإذا كان مني كفرٌ بالله ورسوله بدلته بالإيمان بهما ، وإذا كان عندي قصور في أداء الواجبات أبدلها بعملها على وجه الكمال (كلا) ردع

عن طلب الرجعة واستبعاد لها (إنها) أي جملة رب ارجعون (كلمة هو قائلها) أي جملة يستمر على قولها ولا تفيده أبدا (ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون) أي وأمامهم حاجز بينهم وبين الرجوع إلى الدنيا التي يريدون الرجوع إليها وهذا الحاجز يخرجهم إلى يوم البعث والنشور ، وفي ذلك اليوم يدخلون في عالم الآخرة إلى الأبد .

(فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ(١٠١) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(١٠٢) ، وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ(١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ(١٠٤) أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ؟(١٠٥) قَالُوا: رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ(١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ(١٠٧) قَالَ : اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ(١٠٨) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ : رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ(١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي ، وَكُنتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ(١١٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا، أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ(١١١) قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ؟(١١٢) قَالُوا : لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ(١١٣) قَالَ : إِن لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(١١٤) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا

لا تُرْجَعُونَ ؟(١١٥) فَتَعَالَى اللهُ الملكُ الحَقُّ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ العَرْشِ الكَرِيم(١١٦) وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إلهاً آخَرَ لا بُرْهانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّما حِسابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ، إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الكافِرُونَ(١١٧) وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ)(١١٨)

قوله تعالى : (فإذا نفخ في الصور) لقيام الساعة وهي النفخة الثانية التي تقع عند البعث والنشور (فلا أنساب بينهم يومئذ) والمراد أنها لا تنفعهم شيئا ، فهي منزلة منزلة العدم لاشتغال كل شخص بنفسه . عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال : إذا كان يوم القيامة جمع الله تعالى الأولين والآخرين ثم ينادي مناد ألا إن هذا فلان ابن فلان ، فمن كان له حق قبله فليأت إلى حقه فيفرح ويحب المرءُ أن يكون له الحق على والده أو ولده أو زوجته وإن كان صغيرا .

والمراد بهذه الآية الشريفة تهويل شأن ذلك الوقت ببيان أنه يذهل فيه كل أحد عمن بينه وبينه نسب ، ولا يلتفت إليه ولا يخطر هو بباله ، فضلا عن أنه ينفعه أولا ينفعه . وهذا لا يدل على عدم نفع كل نسب فضلا عن عدم نفع نسبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ . فإذا تقرر أن الآية واردة في شأن وقت النفخ في الصور للبعث والنشور لا يبقى مجال شبهة في أنها لا تنافي وجود النفع في السبب والنسب يوم القيامة عند الحساب والميزان أو قبلهما أو بعدهما فإن الشفاعة الكبرى ثابتة للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالأدلة القاطعة والبراهين الساطعة التي لا ينكرها إلا من حرم من الشفاعة . ويدل على ذلك قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :«كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي» فقد

روي ذلك عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ويقول سمعتُ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقولهُ .

(ولا يتساءلون) أي ولا يسأل بعضهم بعضا عن حاله ، وممن هو ، ونحو ذلك لاشتغال كل إنسان بنفسه . (فمن ثقلت موازينه) أي موزونات حسناته (فأولئك هم المفلحون) أي الفائزون بكل مطلوب، والناجون من كل كرب (ومن خفت موازينه) أي موازين أعماله الحسنة (فأولئك الذين خسروا أنفسهم) أي ضيعوها بتضييع زمان استكمالها بالأعمال الصالحة وصرف العمر في الأعمال الطالحة (في جهنم خالدون) خبر ثان لأولئك ، أو خبر مبتدأ محذوف ، أي هم خالدون (تلفح وجوههم النارُ) واللفح مسّ لهب النارِ للشيىء ، والمراد تحرق وجوههم النار (وهم فيها كالحون) أي متقلصو الشفاه عن الأسنان من أثر ذلك اللفحِ (ألم تكن آياتي تتلى عليكم) أي فيقال لهم من الله سبحانه توبيخا وتعنيفا (ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون ؟) حينذاك (قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا) التي اقتضاها سوء اختيارنا للشهوات بحيث لم يبق لنا مجال الخلاص منها (وكنا قوما ضالين) أي وكنا بسبب ذلك قوما تائهين في مسافة الحياة ضالين مضيعين فرص التوبة والإنابة (ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون) أي أخرجنا من هذه النار اللفاحة وارجعنا إلى الدنيا للعمل فإن عدنا إلى ماكنا عليه من الأعمال الفاسدة والعقائد الكاسدة فإنا ظالمون لأنفسنا إذ ذاك ونستحق كل عقاب .

(قال) الله تعالى في جوابهم : (اخسئوا فيها) أي ذلوا وانزجروا انزجار الهوان (ولا تكلمون) أي ولا تتكلموا معي ولا تسألوني إخراجكم من النار وإرجاعكم إلى الدنيا لأنكم كنتم فساقاً مستهترين (إنه كان فريق من عبادي) وهم المؤمنون (يقولون) في الدنيا (ربنا اغفر لنا وارحمنا ، وأنت

خير الراحمين • فاتخذتموهم سخريا) أي هزءًا على وجه المبالغة لأنهم ما كانوا هزءً لهم بل كانوا محل هزئهم ، وسخريا قرىء بكسر السين وضمها وهما مصدرا سخَرَ زيدت فيهما ياء النسبة للمبالغة • واختلف أهل اللغة هل هما بمعنى واحد أو بينهما فرق ؟ فاختار بعض الإتحاد في المعنى • وقال بعض : إن أصله التسخير وهو الإحضار قهرا ، فإن كان للهزء به فهو السخرية بالكسر ومنه المسخرة • وإن كان للعمل والاستخدام من غير أجرة فهو بالضم • وقيل غير ذلك • (حتى أنسوكم ذكري) أي حتى أنسوكم بتشاغلكم بالاستهزاء بهم ذكري ، أي خوف عقابي فلم تخافوني في أحبائي (وكنتم منهم تضحكون) وذلك غاية الاستهزاء (إني جزيتهم اليوم بما صَبَرَوا) أي بسبب صبرهم على الأذى الذي لقيهم منكم (أنهم هم الفائزون) إما في موضع المفعول الثاني لقوله جزيتهم ، لأنه يتعدى بنفسه وبالباء ، وإما في موضع الجر بلام التعليل المقدرة أي لفوزهم بالتوحيد المؤدي إلى كل سعادةٍ وأمان •

(قال) الله تعالى او الملك المأمور بذلك لهم : (كم لبثتم في الأرض) أي في الدنيا التي تطلبون الرجوع إليها (عدد سنين ؟) ظرف زمان لقوله لبثتم (قالوا : لبثنا يوما أو بعض يوم) استقصارا واستقلالا لمدة لبثهم فيها (فاسأل العادين) أي المتمكنين من التعداد فإنا لم يبق لنا مجال له (قال : إن لبثتم إلا قليلا) أي مالبثتم إلا زمانا قليلا (لو أنكم كنتم تعلمون) أي لو كنتم أهل العلم والمعرفة (أفحسبتم أنما خلقناكم عَبَثاً ؟) الفاء للعطف على مقدر، أي ألم تعلموا الحقيقة فحسبتم أنا خلقناكم للعبث والأمر الخالي عن الفائدة (و) حسبتم (أنكم إلينا لا ترجعون) ولا تحاسبون على أعمالكم (فتعالى الله الملك الحق) الذي لا عبث في أفعاله (لا إله إلا هو) وماعداه من الآلهة المزعومة عبيد له (رب العرش الكريم) وهو جرم

عظيم فوق عالم الأجسام والأجرام لا يحيط بعلمه إلا الله ، والكريم إما بمعنى المبروك ، أو المراد الكريم ربه وصاحبه .

(ومن يدعُ مع الله إلهاً آخر) إفراداً أو إشراكا ، موصوفا بأنه (لا برهان له به) أي بوجوده وصفا لازما فإن من لوازم كل محال أن لا يكون برهان على وجوده لاستحالة البرهان على وجود المحال . وقوله (فإنما حسابه عند ربه) جزاء الشرط ، ومعناه لا يعرف مقدار جزائه وعقابه إلا ربه (إنه لا يفلح الكافرون) أي لا يفلح أبدا ، ومن لا يفلح أبدا لا يعلم حسابه إلا ربه (وقل رب اغفر وارحم) أي اغفرلي ولأمتي وارحمني ومن تبعني ، ولذا حذف المفعول (وأنت خير الراحمين) .

سورة النور ، مدنية ، وهي اربع وستون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا ، وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ(١) الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ، وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ(٢) الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً ، وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ، وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ)(٣)

قوله تعالى : (سورة أنزلناها) خبر مبتدأ مقدر ، أي هذه سورة أو هي مبتدأ وما بعدها خبر ، وسوغ الإبتداء بها وهي نكرة ما فيها من إرادة العظمة والإعتناء لأنها مشتملة على أحكام مهمة كثيرة • والمعنى سورة كبيرة مهمة أنزلناها وفرضناها ، أي فرضنا على الأمة أحكامها (وانزلنا فيها آيات بينات) أي واضحات الدلالة على معانيها (لعلكم تذكرون) أي لعلكم تتذكرون ما سمعتم من شريعة أبيكم إبراهيم وحفظ الكرامة الإنسانية فيها وتمشون على شريعتكم الموافقة لشريعته في العقائد ومهمات الدين • أو أريد من التذكر لازمه أي لعلكم تتقون المحارم وتبتغون المكارم•

وقرىء تذكرون بالتخفيف أي لعلكم تذكرون ربكم وتشكرونه على إنزال هذه السورة وأمثالها .

ثم شرع في تفصيل الاحكام ، وقدم بيان الحد على هتك الاعراض فقال : (الزانية والزاني) مرفوعان على الابتداء ، وجملة (فاجلدوا كل واحد منهما مأة جلدة) خبر ، والفاء الداخلة عليها لتضمن المبتدأ معنى الشرط ، أو هما مبتدآن بحذف المضاف ، والخبر مقدر ومقدم ، أي مما يتلى عليكم حكم الزانية والزاني ، والفاء سيف خطيب . وقدم الزانية على الزاني لأن القوة الشهوية فيها أكثر ، أو لأنه لا يمكن عادة ذلك العمل إلا بمطاوعتها ، وإلا فإذا عصت وصاحت اجتمع الأهل أو أهل الغيرة أو النظام لدفع الرجل ومنعه وتعذيبه .

والجلد ضرب الجلد وقد اطرد صوغ فَعَلَ المفتوح العين الثلاثي من اسماء الاعيان فيقال : رأسهُ وظَهره ، وبطنهُ ... إذا ضرب رأسه وظهره وبطنه . وجوز الراغب أن يكون معنى جلده ضربهُ بالجلد ، نحو عصاه أي ضربه بالعَصا . والمراد هنا المعنى الاول ، فإن الاخبار قد دلت على أن الزانية والزاني يضربان بسوط لا عقدة عليه ، ولا فرع له . ثم الظاهر من ضرب الجلد أعم من أن يكون بلا واسطة أو بواسطة . وقال الإمام مالك ـ رضي الله عنه ـ : أنه ينزع عن الزاني عند الجلد ثيابه إلا الإزار فإنه لا ينزع لستر عورته به . وعن الإمام أحمد والإمام الشافعي ـ رضي الله عنهما ـ أنه يترك عليه قميص أو قميصان . وفي بعض الأخبار ما يدل على أن الرجل والمرأة سواء في عدم نزع الثياب إلا الفرو . وكان من لا يقول بنزع الثياب يقول إن الجلد في العرف الضرب مطلقا وليس خاصا بضرب الجلد . والحق أنه إذا كان من وجب عليه الحد ضعيف الخلقة بحيث يخاف عليه الهلاك بنزع الثياب لا ينزع منه وإلا فينزع منه ماعدا ساتر

العورة إلى درجة يسبب الضرب إيلامه إيلاما يطاق ويناسب للتأديب الشرعي، بشرط اتقاء الأعضاء اللطيفة كالعيون والخدود وأمثالهما مما يضر المحدود ضررا غير مشروع .

والزنا في اللغة والشرع وطء الرجل المرأة في القبل بإدخال الذكر أو قدر الحشفة في فرجها . وأما زنا المرأة فتمكينها له من هذا العمل الفاحش والحكم عام فيمن زنى وهو محصن أي متزوج وفي غيره ، لكن نسخ في حكم المحصن قطعا فإن الحكم في حقه الرجم .

فالشافعية يقولون : إن الناسخ هو الحكم الوارد في الآية المنسوخة التلاوة ، يعني قوله تعالى (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة) فقد روى البخاري عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يقول: "خشيت أن يطول بالناس زمان حتى يقول قائل لا نجد الرجم في كتاب الله تعالى عز وجل ، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله عز وجل" . ألا وإن الرجم حق على من زنى وقد أحصن ، إذا قامت البينة ، أو كان الحبل أو الإعتراف . وروى أبو داود أنه خطب وقال : إن الله عز وجل بعث محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالحق ، وأنزل عليه كتابا فكان فيما أنزل عليه آية الرجم ؛ يعني بها قوله تعالى (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم) فقرأنا وعيناها إلى أن قال : وإني خشيت أن يطول بالناس زمان فيقول قائل لا نجد الرجم . الحديث بطرقه وقال : لولا أن يقال إن عمر زاد في الكتاب لكتبتها على حاشية المصحف الشريف وهذا الحكم أيدته السنة النبوية المتواترة حيث أمر ـ صلى الله عليه وسلم ـ برجم ماعز ورجم المرأة الغامدية (بالمعجمة نسبة الى غامد من جهينة) وبقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأنيس : اغد على امرأة هذا ، فإن اعترفت فارجمها .

وقال العلامة ابن الهمام من الحنفية : إن كون الناسخ السنة القطعية أولى من كون الناسخ ماذكر من الآية ، لعدم القطع بثبوتها قرآنا ثم نسخ تلاوتها ، وإن ذكرها عمر ــ رضي الله عنه ــ ، وسكت الناس فإن كون الإجماع السكوتي حجة مختلف فيه ، وبتقدير حجيته لا نقطع بأن جميع المجتهدين من الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ كانوا اذ ذاك حضورا ، ثم لا شك في أن الطريق في ذلك إلى عمر ــ رضي الله عنه ــ ظني . ولهذا والله تعالى أعلم قال علي ــ كرم الله وجهه ــ حين جلد شرحة ثم رجمها : جلدتها بكتاب الله ، ورجمتها بسنة رسول الله . ولم يعلل الرجم بالقرآن المنسوخ التلاوة . ويعلم من قوله المذكور ــ كرم الله تعالى وجهه أنه قائل بعدم نسخ عموم الآية (أي آية الجلد) فيكون رأيه أن الرجم حكم زائد في حق المحصن ثبت بالسنة ، وبذلك قال أهل الظاهر وهو رواية عن احمد .

وزادت الشافعية على جلد الزاني الغير المحصن تغريب عام إستنادا إلى حديث عبادة بن الصامت : « خذوا عني ، قد جعل الله لهن سبيلا : البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام ، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم » . إلا أنهم تركوا الجلد مع الرجم لأنه ــ صلى الله عليه وسلم ــ لم يأمر به في حد ماعز والغامدية . وخلاصة البيان أن الحكم في الزانيين كان بالأول إيذاء وبعده حبسا للنساء حتى يتوفين ، وبالأخير مائة جلدة لغير المحصنين مع تغريب سنة على خلاف ، والرجم للمحصنين .

(ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله) أي ولا تستول عليكم رأفة وعاطفة نفسية في طاعة الله وإقامة الحد الذي شرعه في الدين ، فإن الحدود سدود . وكلما طبق الحد استحكم السد ، فيبقى الناس في أمان على النفس والعرض والمال ، وكلما وقع الخلل في إقامتها شاعت الخيانة وضاعت الأمانة ، وتزلزل إيمان المؤمنين ، ولذلك عقب ذلك بقوله الكريم (إن كنتم تؤمنون بالله

واليوم الآخر • وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) أي ليحضروا عند إقامة الحد زيادة في التنكيل بزيادة التخجيل • والأمر للندب ، والطائفة اثنان فصاعدا عند مالك • وقال قتادة والزهري ثلاثة فصاعدا • وعند الشافعي وزيد أربعة • وهو رواية عن مالك •

(الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة ، والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك ، وحرم ذلك على المؤمنين) قالوا : إن الآية الكريمة نزلت في فقراء المهاجرين عندما هموا أن يتزوجوا الزواني لفقرهم وعدم اقتدارهم على صداق العفائف ، ولرغبتهم في الاستفادة من أموالهن •• فحرم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك عليهم ، لأنه تشبه بالفساق ، وتعرض للتهمة، وتسبب لسوء مقالة الناس فيهم ، وتشويه لسمعة الإسلام والمسلمين • والحكم مخصوص بالأناس الذين نزلت الآية فيهم ، أو عام لهم ولغيرهم ، ولكنه نسخ بقوله تعالى : (وأنكحوا الأيامى منكم) فإنه يتناول المسافحات والصالحات • ويؤيد ذلك أنه لما سئل ـ صلى الله عليه وسلم ـ عنه قال : « أوله سفاح وآخره نكاح » والحرام لا يحرم الحلال ، فإن ظاهره أنه كان يعتبر سابقا من السفاح فنسخ وصار نكاحا شرعيا معتبرا •

ونقل في روح المعاني عن النيسابوري أن قوله (الزاني لا ينكح إلا زانية) ••• الآية حكم مؤسس على الغالب المعتاد جيىء به لزجر المؤمنين عن نكاح الزواني بعد زجرهم عن الزنا • وذلك أن الفاسق الخبيث الذي من شأنه الزنا لا يرغب غالبا في نكاح الصوالح من النساء اللاتي على خلاف صفته ، وإنما يرغب في فاسقة خبيثة من شكله أو في مشركة • والفاسقة الخبيثة المسافحة كذلك لا يرغب في نكاحها الصلحاء من الرجال وينفرون عنها ، وإنما يرغب فيها من هو من شكلها من الفسقة والمشركين • ونظير هذا الكلام : لا يفعل الخير إلا تقي ، فانه جار مجرى الغالب ومعنى التحريم

على المؤمنين على هذا قيل : التنزيه وعبر به عنه للتغليظ • ووجه ذلك أن نكاح الزواني متضمن للتشبه بالفساق والتعرض للتهمة ، والتسبب لسوء المقالة ، والطعن في النسب إلى كثير من المفاسد • وقيل : التحريم على ظاهره وذلك الفعل يتضمن محرمات ، والحرمة ليست راجعة الى نفس العقد ليكون العقد باطلا • وعلى القولين الآية محكمة • إنتهى •

(وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ، ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ، وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)(٥)

قوله تعالى : (والذين يرمون المحصنات) شروعٌ في بيانِ حكم منْ نسبَ الزنا الى غيره بعد بيان حكم من فعله ، والإحصان هنا بالحرية ، والبلوغ ، والعقل والاسلام ، والعفة عن الزنا • والموصول مع صلته في محل الرفع مبتدأ ، وقوله (ثم لم يأتوا بأربعة شهداء) معطوف عليها وقوله : (فاجلدوهم ثمانين جلدة) خبره ، والفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط ، وتخصيص المحصنات لأن قذف النساء أغلب وأشنع وإلا فلا فرق في القذف بين النساء والرجال ، فاذا قذف إنسان ، رجل أو امرأة ، وهما بالغان عاقلان رجلا عفيفا أو امرأة عفيفة ، ولم يأت على ما أسنده الى المقذوف بأربعة شهداء يشهدون عليه وجب عليه حد القذف ، ولا يسقط هذا الحد بعد ثبوته عند الامام أبي حنيفة ، الا أن يقول المقذوف : لم يقذفني ، أو كذب شهودي • وعند الشافعي يصح العفو • وعن أبي يوسف مثله ، وكان المراد أنه إذا عفا سقط الحد" •

ولا يشترط اجماع الشهود عند الاداء ، ولا تعتبر شهادة زوج المقذوفة ، خلافاً لأبي حنيفة •

(ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا) أي مدة حياتهم عند أبي حنيفة ، وما لم يتب عند الإمام الشافعي (وأولئك هم الفاسقون) المحكوم بفسقهم (إلا الذين تابوا) أي رجعوا عما قالوا وندموا على ماتكلموا به ، (من بعد ذلك) القذف (وأصلحوا) أي أصلحوا أعمالهم بالاستحلال عمن رموه إن بقي حيا ، وإلا فبالإستغفار لمن رماه ، واستغفاره لنفسه عن ذلك القذف• وهذا الإستثناء راجع إلى قوله وأولئك هم الفاسقون عند أبي حنيفة ، وإلى أصل الحكم عند الشافعي وهو اقتضاء الرمي الغير المقترن بشهادة الشهود الأربعة للجلد ، وعدم قبول الشهادة وتحقق الفسق • فإذا استسلم وجلد وقد تاب من القذف تقبل شهادته ، ولا يحكم بفسقه ، فلا يتحقق الجمع المذكور • وإذا استحل من المقذوف وتاب لا يتحقق واحد منها ، لأن طلب المقذوف شرط للجلد ، ولا يلزم سقوط الحد به كما قيل ، لأن من تمام التوبة الاستسلام له أو الاستحلال • وقوله تعالى (فإن الله غفور رحيم) علة للإستثناء •

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ(٦) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ(٧) وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ(٨) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ(٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ)(١٠)

قوله تعالى (والذين يرمون أزواجهم) بيان لحكم الرامين لأزواجهم خاصة ، وهو ناسخ لعموم المحصنات ، وكانوا قبل نزول هذه الآية يفهمون من آية (والذين يرمون) ... الآية أن حكم من رمى الأجنبية وحكم من رمى زوجته واحد . فقد أخرج أبو داود وجماعة عن ابن عباس قال : لما نزلت : (والذين يرمون المحصنات) قال سعد بن عبادة وهو سيد الأنصار : أهكذا أنزلت يا رسول الله ؟ فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : يا معشر الأنصار ألا تسمعون ما يقول سيدكم ؟ قالوا : يا رسول الله لا تلمه فإنه رجل غيور ، والله ما تزوج امرأة قط إلا بكرا ، وما طلق امرأة فاجترأ رجل منا على أن يتزوجها من شدة غيرته . فقال سعد : يا رسول الله إني لأعلم أنها حق وأنها من عند الله تعالى ، ولكني تعجبت أني لو وجدت لكاعاً قد تفخذها رجل لم يكن لي أن أهيجه ولا أحركه حتى آتي بأربعة شهداء ! فوالله لا آتي بهم حتى يقضي حاجته . قال : فما لبثوا يسيرا حتى جاء هلال بن أمية ، وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم، فغدا على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يا رسول الله إني جئت أهلي عشاء فوجدت عندها رجلا ، فرأيت بعيني وسمعت بأذني . فكره رسول الله ما جاء به ، واشتد عليه ، واجتمعت الأنصار فقالوا : قد ابتلينا بما قال سعد بن عبادة ، الآن يضرب رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ هلال بن أمية ، وتبطل شهادته في المسلمين . فقال هلال : والله إني لأرجو أن يجعل الله تعالى لي منها مخرجا .

فقال : يا رسول الله إني قد أرى ما اشتد عليك مما جئت به ، والله تعالى يعلم أني لصادق ، فوالله إن رسول الله يريد أن يأمر بضربه إذ نزل على رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ الوحي عرفوا ذلك في تربد جلده، فأمسكوا عنه حتى فرغ من الوحي . فنزلت (والذين يرمون أزواجهم) ...

الآية فسري عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : أبْشر يا هلال قد كنت أرجو ذلك من ربي . وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : أرسلوا إليها فجاءت ، فتلاها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عليهما ، وذكرهما، وأخبرهما أن عذاب الآخرة أشدّ من عذاب الدنيا . فقال هلال : والله يا رسولَ الله لقد صدقت عليها : فقالت : كذب . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لاعنوا بينهما ... الحديث وكذا من رواية أخرى ذكرها البخاري في صحيحه والترمذي وابن ماجه يعلم أن قصة هلال سبب نزول الآية .

(ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم) يعني ولم يكن لهم شهداء أربعة كما مرت (فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله) أي فشهادة كل واحد من أولئك الرامين أزواجهم أربع شهادات متلبسة بذكر اسم الله تعالى (إنه لمن الصادقين) أي فيما رماها به من الزنا . فيقول أربع مرات : أشهد بالله إني لصادق فيما رميت به زوجتي من الزنا (والخامسةُ) بالرفع على الابتداء أي والشهادة الخامسة للأربع المتقدمة أي الجاعلة لها خمسا (أن لَعْنَتَ اللهِ عليه إن كان من الكاذبين) فيما رماها به من الزنا . فقوله تعالى والخامسة مبتدأ وخبره أن المفتوحة مع مابعدها ، وهذا الخبر يدفع عنه الحدّ ، وينفي الولدَ إن كان ، ويوجب الحد عليها (ويدرأ عنها العذاب) أي العذاب الدنيوي وهو الحبس عند الحنفية ، وحد الزنا عند الشافعية (أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين) أي الزوج الرامي لها بما ذكر من الكاذبين فيما رماها به من الزنا (والخامسة أنغضب الله عليها إن كان من الصادقين) فيما رماها به وقرىء لفظ الخامسة هنا بالرفع على الابتداء ومابعده خبره . وبالنصب على ربطه بقوله تشهد أي وأن تشهد الشهادة الخامسة فيكون الجملة بعدها بدلا .

وحكمة تخصيص الرجل باللعنة والمرأة بالغضب أن اللعن معناه الطرد والبعد عن رحمة الله ، وفي لعانه إبعاد الزوجة والولد ، وفي لعانها إغضاب الرب والزوج والأهل إن كانت كاذبة . وبلعانها يتأبد تحريمها ويدفع الحد عنها .

(ولولا فضل الله عليكم) بالستر في ذلك (ورحمته) بكم (وأن الله تواب حكيم) والجواب محذوف ، أي لوجب حد القذف على الزوج مع أن الظاهر صدقه . أو لولا فضل الله عليكم بتشريع هذا الحكم لحصلت فتن عمياء حارت فيها الأذكياء وحذف جواب لولا شائع في كلام الفصحاء .

(إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا : هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ (١٢) لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ! فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ ، وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ، وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ : مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا ، سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ !(١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ

لَكُمُ الآياتِ واللهُ عَليمٌ حَكيمٌ(١٨) إنَّ الَّذينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشيعَ الْفاحِشَةُ فِي الَّذينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذابٌ أليمٌ فِي الدُّنْيا والآخِرَةِ ، واللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمونَ(١٩) وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ رَءُوفٌ رَحيمٌ)(٢٠)

قوله تعالى : (إن الذين جاءوا بالإفكِ عصبة منكم) الإفك بكسر الهمزة الكذب مطلقا ، وكثيرا ما يفسر بالافتراء والاختلاق . وقيل : هو البهتان لا تشعر به حتى يفجأك ، وأصله من الافك بفتح الهمزة بمعنى القلب والصرف لأن الكذب مصروف ومقلوب عن الحق . والقصة ما أخرجه البخاري وغيره عن عروة عن عائشة ـ رضي الله تعالى عنها ـ قالت : « كان رسول الله إذا أراد أن يخرج أقرع بين أزواجه فأَيتهنَّ خرج سهمها خرج بها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ . قالت عائشة : فأقرع بيننا في غزوة (وهي غزوة بني المصطلق ، وكانت في سنة ستٍّ) فخرج سهمي فخرجتُ مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعدما نزلَ الحجاب فأنا أحملُ في هودجي وأنزل فيه ، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من ذلك وقفلَ ودنَونا من المدينة قافلين ... آذنَ ليلة بالرحيل ، فمشيت حتى جاوزت الجيش . فلما قضيت شأني أقبلت إلى رَحْلي فإذا عَقْدٌ لي من جزعِ ظفارٍ قد انقطع ، فالتمست عقدي وحبسني ابتغاؤه ، وأقبل الرهط الذي كانوا يرحلون لي ، فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت ركبت وهم يحسبون أني فيه ، وكان النساء إذ ذاك خفافا لم يثقلهن اللحم ، إنما نأكل العلقة من الطعام فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه ، وكنت جارية حديثة السنّ ، فبعثوا الجمل وساروا ، فوجدت عقدي بعدما استمر الجيش ، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب ، فأممت منزلي الذي كنت به وظننت أنهم سيفقدونني فيرجعون إلي فبينا أنا جالسة في

منزلي غلبتني عيني فنمت . وكان صفوان بن معطل السلمي ثم الذكواني من وراء الجيش ، فأدلج فاصبح عند منزلي ، فرأى سواد إنسان نائم فأتاني فعرفني ، وكان يراني قبل الحجاب ، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني ، فخمرت وجهي بجلبابي ، والله ما كلمني كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حتى أناخ راحلته ، فوطيء على يديها فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة فهلك من هلك .

وكان الذي تولى الإفك عبدالله بن ابي بن سلول ، فقدمنا المدينة ، فاشتكيت حين قدمت شهرا والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك لا أشعر بشيء من ذلك ، وهو يريبني في وجعي أنّي لا أعرف من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي ، إنما يدخل عليّ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم يقول : كيف تيكم ؟ ثم ينصرف فذاك الذي يريبني ، ولا أشعر بالشر حتى خرجت بعدما نقهت ، فخرجت معي أم مسطح قبل المناصع ، وهو متبرزنا ، وكنا لا نخرج إلا ليلا إلى ليل وذلك قبل أن تتخذ الكنف قريبا من بيوتنا ، وأمرنا أمر العرب الأول في التبرز قبل الغائط ، فكنا نتأذى بالكنف أن تتخذها عند بيوتنا فانطلقت أنا وأم مسطح وهي ابنة أبي رهم بن عبدالمناف وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق وابنها مسطح بن أثاثة ، فأقبلت أنا وأمّ مسطح قبل بيتي قد فرغنا من شأننا ، فعثرت أم مسطح في مرطها فقالت : تعس مسطح ! فقلت لها : بئس ما قلت ! أتسبين رجلا شهد بدرا ؟! قالت : أي هنتاه أو لم تسمعي ما قال ؟ قالت : قلت : وما قال ؟ فأخبرتنى بقول أهل الإفك فازددت مرضا على مرضي .

فلما رجعت إلى بيتي ودخل عليّ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم قال : كيف تيكم ؟ فقلت : أتأذن لي أن آتي أبويّ ؟ قالت : وأنا

حينئذ أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما . قالت : فأذن لي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فجئت أبَوَيّ فقلت لأمي (وهي أم رومان زينب بنت دهمان) : يا أمتاه ما يتحدث الناس ؟ قالت : يا بنيةُ هوّني عليك ، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل ولها ضرائر إلا أكثرن عليها ! قالت فقلت : سبحان الله ! ولقد تحدث الناس بهذا ؟! قالت : فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم حتى أصبحت أبكي ، فدعا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يستأمرهما في فراق أهله . قالت : فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالذي يعلم من براءة أهله ، وبالذي يعلم لهم في نفسه من الود ، فقال : يا رسول الله أهلك وما نعلم إلا خيرا . وأما علي بن أبي طالب فقال : يا رسول الله لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثيرة ، وإن تسأل الجاريةَ تَصْدُقْكَ .

قالت : فدعا رسول الله بريرة ، فقال : أي بريرة هل رأيت من شيء يريبكِ ؟ قالت بريرة : لا والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمرا أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله . فقام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاستعذر يومئذ من عبدالله بن أبي بن سلول . قالت فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو على المنبر : يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي ؟ فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرا . ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا . وما كان يدخل على أهلي إلا معي . فقام سعد بن معاذ الانصاري فقال : يا رسول الله أنا أعذرك منه : إن كان من الأوس ضربت عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك . قالت : فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج ، وكان قبل ذلك رجلا صالحا ، ولكن احتملته الحمية ، فقال

لسعد : كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله . فقام أُسَيْد بن حُضَير وهو ابن عم سعد ، فقال لسعد بن عبادة : كذبت لعمر الله لنقتلنه ، فإنك منافق ، تجادل عن المنافقين . فثار الحيان من الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قائم على المنبر ، فلم يزل رسول الله يخفضهم حتى سكتوا وسكت .

قالت فمكثت يومي ذلك لا يَرقألي دمعٌ ولا أكتحل بنوم . قالت : فأصبح أبواي عندي ، وقد بكيت ليلتين ويوما لا أكتحل بنوم ولا يرقأ لي دمع يظنان أن البكاء فالقٌ كبدي . قالت : فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي فاستأذنت عليّ امرأة من الأنصار فأذنت لها ، فجلست تبكي معي . قالت : فبينا نحن على ذلك دخل علينا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فسلم ثم جلس ، قالت : ولم يجلس عندي منذ قيل في ما قيل قبلها . وقد لبث شهرا لا يوحى اليه في شأني . قالت : فتشهد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ حين جلس، ثم قال : أما بعد يا عائشة قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه .

قالت : فلما قضى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة فقلت لأبي : أجبْ رسولَ الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فيما قال . قال : والله ما أدري ما أقول لرسول الله . فقلت لأمي : أجيبي رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ . قالت : ما أدري ما أقول لرسول الله . قالت فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرا من القرآن : إني والله لقد علمت أنكم سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم ، وصدقتم به ، فلئن قلتُ لكم أني بريئة ، والله يعلم أنى بريئة ، لا تصدقوني، ولئن اعترفت لكم بأمر ، والله يعلم أني بريئة منه، لتصدقني.

والله لا أجد لي ولكم مثلا إلا قول أبي يوسف : (فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) فاضطجعت على فراشي وأنا حينئذ أعلم أني بريئة وأن الله مبرئني ببراءتي • ولكن ما كنت أظن أن الله منزل في شأني وحيا يتلى ، ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيّ بأمر يتلى •

ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في النوم رؤيا يبرئني الله بها • قالت : فوالله ما رام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولاخرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء، حتى أنه لينحدر منه مثل الجمان من العرق، وهو في يوم شات ، من ثقل القول الذي ينزل عليه • قالت : فلما سرى عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سرى عنه وهو يضحك ، فكان أول كلمة تكلم بها : يا عائشة أما اللهُ فقد برأكِ • فقالت أمي : قومي إليه • فقلت : والله لا أقوم ولا أحمدُ إلا اللهَ وأنزل الله (إن الذين جاءوا بالإفك) العشر الآيات كلها •

وقوله تعالى (عصبة منكم) خبرُ إنّ ، والعصبة جماعة من العشرة إلى الأربعين • وكذلك العِصابة • وقيل إن العصبة والعصابة العشرة فصاعدا لتعصبهم في المهمات ، فلها هنا موقع حسن ، وكونهم إلى الأربعين يرده ما في مصحف حفصة ـ رضي الله عنها ـ (عصبة أربعة) • وقيل : العصبة لغة فرقة متعصبة مطلقا ، وهي هنا واردة على حقيقتها الوضعية • والمراد بها عبدالله بن أبي بن سلول ، وزيد بن رفاعة ، وحسان بن ثابت ، ومسطح بن أثاثة ، وحمنة بنت جحش ومن ساعدهم ••• ومن الناس من برّأ حسان بن ثابت وهو خلاف ما في صحيح البخاري • وقوله : (لا تحسبوه شرا لكم) والخطاب للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وأبي بكر ، وعائشة ، وصفوان ـ رضي الله تعالى عنهم ـ • والهاء راجع إلى الإفك •

ويجوز أن يكون خطابا عاما للمسلمين لأن الشر والخير العائدين إلى الرسول وأهله عائدان إلى أمته المسـلمة •

(بل هو خير لكم) في الدنيا والآخرة أما في الدنيا فلأن هذه العوارض نصائح وزواجر ومنبهات للأمة ولاسيما القادة والسادة حتى يكونوا على يقظة وانتباه في رعاية الشئون ، وعدم إفساح المجال للاعداء بإلقـاء التهـم والإشاعات المغرضة • وهي أيضا توقظ الإنسان وتخبره بمدى صداقة من يدعي الصداقة، والمخلص وغير المخلص، والعاقل وغير العاقل، ودرجاتهم وأموالهم، فإن الصديق الحقيق بالإعتناء والإعتبار هو الذي لا يتزلزل كيان صداقته باستماع أمثال هذه الامور ؛ ويتبين بها أيضا إمتياز الأنبياء والمرسلين وسائر القادة عن سائر الناس من حيث التريث والإصطبار والأخذ بالأعصاب وانتظار الفرج من الله العلي العظيم • وأما في الآخـرة فلأن كل ساعة تمضـي على الإنسان في هذه المحن والمشاكل لها درجات ينالها أصحاب العزيمـة يـوم الجزاء • وأما في الدنيا والآخرة فلأن الله سبحانه وتعالى أظهر كرامة أهـل البيت بإنزال الآيات في براءتهم وعفتهم ، وتعظيم شأنهم ، وتهويل الوعيـد لمن تكلم فيهم ، وبيان سوء العاقبة لمن دخل في هذا الأمر ، وإشاعة السـوء فيهم بقوله : (لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم) أي بقدر ما خاض فيه ولاسيما رأس الفتنة ورئيسها وهو عبدالله بن أبي بن سلول الـذي بين الله سوء مآله بقوله : (والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم) أي والمفسـد الأثيم الذي تولّى معظمَ الإفك وبدأ يشيعه ويحرك سلسلته ، ويشعل ناره عند خمولها وهو رئيس المنافقين له عـذاب عظيـم في الدنيا بالخزي وسوء الحال وفي الآخرة بحرّ نار جهنم وبئس المصير وأما من عداه فإنهم عذبوا في الدنيا بتطبيق حد القذف عليهم ، وأما في الآخرة فهم مغفورون لقبول توبتهم، بإجراء الحد المشروع عليهم ، والأمر إلى الله رب العالمين •

وقوله (لولا إذ سمعتموه) إلتفات إلى خطاب المؤمن من أهل الإفك أي غير عبدالله بن أبي بن سلول وقوله (ظن المؤمنون والمؤمنات) المراد بهم من هو أهل الإيمان من أهل الإفك ، وغير الأسلوب إلى الغيبة ، وجاء في التعبير بصفة الإيمان لمزيد التوبيخ معناه أن الإتيان بالإفك من أهل الإيمان بعيد كلَّ البعد . وقوله (بأنفسهم) المراد بها المتهم من أهل الإيمان يعني أم المؤمنين وصفوان ، وعبر بالأنفس لاعتبار إتحاد المسلك والمبدأ كاتحاد الذوات . وحاصل المعنى : لولا ظن أهلُ الإفك وهم من المؤمنين والمؤمنات بالمتهمين الذين كأنفسهم في الإيمان خيرا وبراءة من ذلك الأمر الذي أمَرَّ مِن كلّ مُرٍّ (إذ سمعتموه) من الأفاك المعلول عبدالله بن أبي بن سلول . ولولا قالوا في رده ورفضه (هذا إفك مبين) ظاهر مكشوف من صنيع الشيطان اللعين ، قبل أن ينزل الله حكم براءة المتهم بالنص الموجب لليقين ، فكان الواجبُ على أولئك الأفاكين أن ينظروا بعين البصيرة إلى نزاهة أخلاق تلك السيدة الناشئة في بيت الصديق ، والواصلة على نعومة الأظفار إلى المربي الحاذق الوثيق ، وإلى سلامة أحوالها وأعمالها طيلة السنين في روضة الرسول الأمين ، فكيف يتجاسر مؤمن عاقل ذو بصر وبصيرة إلى اختلاق هذه البادرة الشريرة ؟ فسبحان من لا مرد لقضائه ونزول بلائه وابتلائه ولو على أكرم أنبيائه ، إنه أحكم الحاكمين .

ثم جاء الباري عز اسمه بكلام مستأنف يقرر به أن ذلك القول كان إفكا والقائلون أفاكون فقال : (لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء) من ذلك الجيش الكثير الساتر للبيداء (فإذ لم يأتوا بالشهداء) ولم يكن لهم سند لتلك التهمة السوداء (فأولئك) الأفاكون (عند الله هم الكاذبون) في الإسناد ، وهم الخاسرون بين العباد .

(ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا) بالإمهال للتوبة (و) في (الآخرة) بالعفو والمغفرة لتلك الحوبة (لمسّكم) أيها المؤمنون (في ما أفضتم فيه) أي بسبب ما خضتم فيه من تلك الأقاويل الباطلة والأوهام العاطلة (عذاب عظيم) يستحقر دونه الحد والعذاب الأليم •

وبيّن الباري سبحانه وتعالى زمان مس العذاب لهم بقوله (إذ تلقونه) أي تتلقون ذلك الإفك الذي أفضتم فيه (بألسنتكم) أي يسمع بعضكم ذلك الكلام الفاسد ويأخذه من بعضكم بألسنتكم أي بمحض الأخذ باللسان بدون تفكر في صحته وفساده بالدليل والبرهان (وتقولون بأفواهكم) بدون تصديق من العقل (ما ليس لكم به علم) مأخوذ من العيان أو مستفاد من الدليل والبرهان (وتحسبونه هينا) أي وتحسبون التكلم به سهلا لا تبعة له (وهو عند الله عظيم) لا يقادر قدره في جر العذاب يوم الميزان والحساب •

(ولولا إذ سمعتموه) أيها المؤمنون من ذلك المفترى غير المأمون (قلتم ما يكون لنا) أي ما يصح منا وما يجوز لنا (أن نتكلم بهذا) القول الذي لا أساس له (سبحانك !) نتعجب ممن ينطق به (هذا بهتان عظيم) يبهت ويحير سامعه ولو كان ذا عقل سليم (يعظكم الله) ويمنعكم (أن تعودوا لمثله أبدا) فإن الوعظ يكون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ففيه معنى يمنع (إن كنتم مؤمنين) فاقبلوا وعظه تعالى (ويبين الله لكم الآيات) التي هي بينات على براءة أم المؤمنين من تهمة المنافق اللعين (والله عليم) ببراءتها و (حكيم) في ابتلائها حتى تكون رمزا للشرف إلى يوم الدين •

(إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة) أي الخصلة القبيحة التي وصلت ذروة القباحة (في) مجالس (الذين آمنوا لهم) بسبب ذلك الحب الفاسد (عذاب أليم) في الدنيا والآخرة وهذا منطبق على رئيس الأفاكين عبدالله بن

أبي ابن سلول فإنه أصيب بالخزي والهوان في الدنيا وسيعذب في الآخرة بأمر رب العالمين (والله يعلم) جميع ما يترتب عليه الحساب والعذاب (وأنتم لا تعلمون) ذلك • (ولولا فضل الله عليكم ورحمته) أيها المؤمنون المشايعون للأفاك الأثيم المعلول عبدالله بن أبي بن سلول (و) لولا (أن الله رءوف رحيم) لجرى فوق ما جرى عليكم من العذاب الأليم •

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ، وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ، وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ما زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً ، وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ ، وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)(٢١)

(يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان) ولا تسلكوا مسالكه في الافتراء والاختلاق (ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء) وهو ما افرط قبحه (والمنكر) وهو ما ينكره الشرع أي (ومن يتبع خطوات الشيطان) فقد ارتكب الفحشاء والمنكر لأنه يأمر بهما فما بعد الفاء علة للجزاء المقدر • (ولولا فضل الله عليكم ورحمته) ومن جملتهما إنزال هذه الآيات البينات والتوفيق للتوبة الماحية للسيئات (ما زكى منكم من أحد أبدا) لأنكم ارتكبتم ما يوجب هلاككم (ولكن الله يزكي من يشاء) أي ولكن الله يطهر من أوساخ الذنوب من يشاء تزكيته (والله سميع) للأقوال (عليم) بكل الأشياء • وفي هذه الآيات البينات زجر وتوبيخ للأفاكين بتسعة زواجر : الأول لولا إذ سمعتموه • والثاني : لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء • والثالث : ولولا فضل الله عليكم ورحمته • والرابع : إذ تلقونه بألسنتكم • الخامس : ولولا إذ سمعتموه • السادس : يعظكم

الله • السابع : إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة • والثامن ولولا فضل الله عليكم • التاسع : يا أيها الذين آمنوا إلى سميع عليم •

(وَلا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ والسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبى وَالمَساكِينَ وَالْمُهاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ ؟ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢) إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَناتِ الغافِلاتِ الْمُؤْمِناتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (٢٥) الْخَبِيثاتُ لِلْخَبِيثِينَ ، والْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثاتِ ، والطَّيِّباتُ لِلطَّيِّبِينَ ، والطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّباتِ ، أُولئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)(٢٦)

قوله تعالى (ولا يأتل أولوا الفضل منكم) سبب نزوله أن أبا بكر ــ رضي الله عنه ــ لما رأى براءة بنته ــ رضي الله عنها ــ حلف أن لا ينفق على مسطح شيئا أبدا ، وكان من فقراء المهاجرين الأولين الذين شهدوا بدرا ، وكان ابن خالته • وذلك لأنه كان في جماعة الإفك • فنزلت ولا يأتل أي ولا يحلف افتعال من الالية أي ولا يحلف أولو الفضل والزيادة في الدين والسعة في المال على أن لا يؤتوا أو كراهة أن يؤتوا أي يعطوا (أولي القربي والمساكين والمهاجرين في سبيل الله) أموالهم ليعيشوا عليها (وليعفوا) عما فرط منهم (وليصفحوا) بالإغضاء عنه (ألا تحبون) أيها المثرون المنفقون

(أن يغفر الله لكم) بمقابلة عفوكم وصفحكم وإحسانكم إلى من أساء إليكم (والله غفور) مبالغ في المغفرة (رحيم) مبالغ في الرحمة ، ولاسيما لمن كان مبالغا فيهما .

ونزلت هذه الآية بعد أن أقبل مسطح إلى أبي بكر معتذرا فقال : جعلني الله فداك والله الذي أنزل على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ماقذفتها وماتكلمت بشيىء مما قيل لها أي خالي . فقال أبو بكر : ولكن قد ضحكت وأعجبك الذي قيل فيها . فقال مسطح : لعله قد كان بعض ذلك. وفي الآية من الحث على مكارم الأخلاق ما فيها .

(إن الذين يرمون المحصنات الغافلات) عما نسب إليهن (المؤمنات) أي المتصفات بالإيمان بكل ما يجب أن يؤمن به (لعنوا في الدنيا والاخرة) حيث يلعنهم اللاعنون والملائكة في الدارين (ولهم عذاب عظيم) هائل لا يعلم مقداره (يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون) وذلك بإنطاق الله الذي أنطق كل شيء سواء كان النطق كما هو المعتاد الآن أو بنوع آخر . ويحتمل أن تكون الشهادة بما ذكر مجازا بظهور آثاره على هاتيك الأعضاء بحيث يعلم من يشاهدهم كل ماعملوه ، وذلك على الله يسير (يومئذ) أي يوم الشهادة المذكورة (يوفيهم الله) ويكمل لهم (دينهم الحق) جزاءهم الثابت في دفتر الاعمال (ويعلمون) أي أولئك المجزيون (أن الله هو الحق المبين) أي أن الله هو الموجود الكامل الثابت مع الإستغناء عما سواه ، والظاهر وجوده وكماله على أهل البصيرة من العالمين .

وقوله الكريم (الخبيثات للخبيثين) الآية بيان وإعلان لحكمة الباري في خلقه ووضعه كل شيء في محله المناسب وجعله الإجتماع والإزدواج غالبا على رعاية التكافؤ والتناسب ، فلما ميز الأنبياء والرسل الكرام بصفات

عالية ميزهم باختيار أزواج عفائف مؤمنات بالله حافظات لكرامتهن كما قال : (الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات ، والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات ، أولئك) الطيبات والطيبون (مبرءون مما يقولون) أي المتقولون في حقهم (لهم مغفرة) من الله لهفواتهم (ورزق كريم) مناسب لدرجاتهم يوم الدين .

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وتُسَلِّمُوا على أَهْلِها ، ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ(٢٧) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فيها أَحَداً فَلا تَدخُلُوها حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ : ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ، هُوَ أَزْكى لَكُمْ ، وَاللهُ بما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ(٢٨) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيها مَتَاعٌ لَكُمْ ، واللهُ يَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَما تَكْتُمُونَ)(٢٩)

قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم) سبب نزوله أنه جاءت امرأة إلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم فقالت : إني أكون في بيتي فيأتيني آتٍ فيدخل عليّ فكيف أصنع ؟ فنزلت الآية الكريمة. يعني يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا هي غير بيوتكم المسكونة لكم (حتى تستأنسوا) أي تستأذنوا من يملك الإذن من أصحابها المالكين إن كانت تحت أيديهم ، أو المالكين لمنفعة سكناها بالأجرة كالمستأجرين أو بالهبة كالمستعيرين (وتسلموا على أهلها) أي الساكنين فيها . وظاهر الآية الكريمة أن الإستئذان قبل التسليم (ذلكم) الدخول بالإستئذان والتسليم (خير لكم) من الدخول بغتة والدخول على تحية الجاهلية ، وأرشدتكم إلى هذا الأدب (لعلكم تذكرون) أي كي تتذكروا وتتعظوا وتعملوا بمقتضاه.

(فإن لم تجدوا فيها أحدا) بأن كانت خالية من الأهل (فلا تدخلوها) واصبروا (حتى يؤذن لكم) من جهة من يملك الإذن (وان قيل لكم ارجعوا) أي إن أمرتم من جهة أهل البيت بالرجوع سواء كان الآمر من يملك الإذن (فارجعوا) ولا تلحوا فإن ذلك صادر من جهة تطاع (هو أزكى لكم) أي فالرجوع أزكى وأطهر لكم من اللجاج والعناد والوقوف على أبواب العباد (والله بما تعملون عليم) فيجازيكم على مقدار أدبكم ونياتكم وقبولكم لأحكام الإسلام .

(ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة) أي غير مقررة لسكنى جماعة خاصة كالخانات والرباط والفنادق العامة لمن يحتاج النزول فيها بقدر الحاجة . وقوله (فيها متاع لكم) صفة للبيوت وللاحتراز عما إذا لم يكن له فيها متاع ولا حاجة ملحة ، فإن دخولها حينئذ موجب للتهمة والريبة . (والله يعلم ما تبدون وما تكتمون) وعيد لمن يريد أن يدخل تلك البيوت بالنية الفاسدة كيف كانت ، ان الله لا يحب المفسدين .

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ : يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ، وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ، ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ ، إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ، وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ، وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ ، أَوْ آبَائِهِنَّ ، أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ ، أَوْ أَبْنَائِهِنَّ ، أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ ، أَو بَنِي إِخْوَانِهِنَّ ، أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ ، أَوْ نِسَائِهِنَّ ، أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ، أَوِ

التّابِعينَ غَيْرِ أولي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجالِ، أَوِ الطِّفْلِ الَّذِين لَمْ يَظْهَرُوا عَلى عَوْراتِ النِّساءِ، ولا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ ما يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ، وتوبُوا إلى اللهِ جَمِيعاً أَيُّها المُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)(٣١)

قوله تعالى : (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم) ... الآية شروع في بيان أحكام كلية شاملة للمؤمنين كافة يندرج فيها حكم المستأذنين وغيرهم . ولما كان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مهبط الوحي ومظهر الشريعة خاطبه الله تعالى بقوله (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم) والمفعول مقدر أي من النظر إلى ما لا يحل النظر إليه . وجزم يغضوا لوقوعه بعد الشرط المضمون من الكلام ، أي قل لهم ما يُهذبهم ، وان تقل لهم غُضوا أبصاركم يغضوا . وكلمة من تبعيضية . والمراد غض البصر عن بعض المنظور وهو الممنوع شرعا من الأجنبيات وزينتهن لا كل المنظور ، فإن النظر إلى الزوجة والمحارم حلال على ما تقرر في الدين فجعل الغض عن بعض المبصر غض بعض البصر ، وفيه كناية حَسنة .

وقد يستفاد من هذه الكلمة العفو عن بعض النظر الى الاجنبيات مما يقع بلا تعمد من الناظر . قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ « لا تتبع النظرة فإن لك الأولى وليست لك الآخرة » فإن قلت : إذا كان هذا النظر بلا قصد ولا تكليف فما معنى العفو ؟ قلت : لأنه قلما يخلو ذلك عن مقدار الواقع فجأةً . وبدأ الله سبحانه وتعالى بغض البصر لأن البصر بريد الخطر والمفاسد تنشأ من الابصار (ويحفظوا فروجهم) أي عما لا يحل من الزنا والسحاق وإتيان النساء في أوقات الحيض والنفاس أو في أدبارهن ، وعن استعمالها في الذكور . ولم يأت بكلمة التبعيض هنا كما هناك لأن خطر

الفرج أشد من خطر البصر ، وذلك واضح (ذلك أزكى لهم) وأطهرُ من أوساخ الحرام وتطرق الأوهام وأبعد عن مظان الفتن الواقعة في الأيام فإنّ أكثرها من النساء (إن الله خبير بما يصنعون) فيما يأتون ويمتنعون فليكونوا على حذر عندما يخلون ويجتمعون .

(وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن) فلا ينظرن إلى ما لا يحل لهن من عورات الرجال والنساء . وقال ابن حجر المكي : كما يحرم نظر الرجل للمرأة يحرم نظرها إليه ، ولو بلا شهوة وخوف فتنة . نعم إن كانت بينهما محرمية نسب أو رضاع أو مصاهرة نظر كل إلى ماعدا ما بين سرة الآخر وركبته إنتهى . ويستدل على ما قاله بما روى البيهقي في سننه عن أم سلمة أنها كانت عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وميمونة ، قالت : فبينما نحن عنده أقبلَ ابن أم مكتوم فدخل عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ . فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « احتجبا منه . فقلت : يا رسول الله هو أعمى لا يبصر . قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أَفَعَمياوان أنتما ؟ أَلَستما تبصرانِه ؟ » واستدل به من قال بحرمة نظر المرأة إلى شيىء من الرجل الأجنبي (ويحفظن فروجهن) عما لا يحل لهن من الزنا والسحاق . ثم زاد سبحانه وتعالى في أحكام النساء فقال : (ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها) أي ولا يظهرن للرجال ما يتزين به من الحلي ونحوها من المفتنات إلا ما ظهر منها وجرت العادة والجبلة على ظهورها كالخاتم والكحل والخضاب ، لا ما خفي منها كالسوار والخلخال والقرط والقلادة وأمثالها من حليهن . هذا من جهة الزينة . وأما من جهة الأعضاء فقال : (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) والخمر جمع خمار ، والجيوب جمع جيب ، وهو فتح في أعلى القميص يبدو منه بعض البدن من الترقوة

والصدر وصفحة الرقبة ، أي وليجعلن خمرهن على جيوبهن ليسترن ما أقبل من رقابهن ونحورهن وصدورهن .

ولما نزلت هذه الآية سارعت النساء المهاجرات إلى الامتثال فشققن مروطهن فاختمرن بها وسترن تلك الأعضاء تصديقا وتطبيقا لما أنزله الله تعالى ثم كرر الله تعالى النهي لاستثناء بعض مواد الرخصة عنه باعتبار الناظر بعدما استثنى عنه بعض مواد الضرورة باعتبار المنظور فقال : (ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن) أي أزواجهن ، فيجوز لهم النظر إلى كل الزينة والبدن إلا المحل المعهود على خلاف فيه (أو آبائهن أو آباء بعولتهن، أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن،أو إخوانهن،أو بني إخوانهن،أو بني أخواتهن، أو نسائهن) المختصات بهن بالخدمة أو الصحبة من حرائر المؤمنات ، فإن الكوافر ممنوعات عنها إذ لا مانع لهن عن وصفها للكافرين ، ولا فرق في ذلك بين الذميات وغيرهن (أو ما ملكت أيمانهن) من الإماء ، ولو كوافر ، وأما العبيد فهم كالأجانب ، وهذا مذهب أبي حنيفة وأحد قولي الشافعي ــ رضي الله عنهما ــ (أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال) أي الرجال الذين يتبعون الناس ليصيبوا من فضل الطعام غير أصحاب الحاجة إلى النساء وهم الشيوخ الطاعنون في السن الذين فنيت شهواتهم ، والممسوحون الذين قطعت ذكورهم وخصاهم بحيث لايمكنهم مايمكن لغيرهم ، (أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء) أي الأطفال الذين لم يعرفوا ما العورة وما الشهوة . ثم بالغ في النهي عن إظهارهن لزينتهن فقال (ولا يضربن بأرجلهن ليعلم مايخفين من زينتهن) أي ليعلم الناس أنهن ذوات خلاخل .

ثم أمر الباري تعالى عامة المكلفين بالرجوع والإنابة إليه فقال (وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) أي تنجون من العذاب وتفوزون بالسعادة يوم اللقاء .

وخلاصة المقام أنه ظهر من الآية الكريمة حرمة نظر الرجال الاجانب الى النساء مطلقا والعكس كذلك ، إلا في المواد المستثناة وتأيدت الآية الكريمة ومدلولها بأحاديث شريفة تقرر ماذكرنا من حرمة نظر كل صنف الى الآخر . نعم فسر بعض الناس الزينة في قوله تعالى (ولا يبدين زينتهن) بمواقع الزينة . وفسر قوله تعالى (ما ظهر منها) بالوجه والكفين ، وأباح النظر إليهما على ذلك التفسير . ولكن لا دلالة لها على ذلك ، فإن الآية الكريمة كما دلت على جواز كشفهن للوجه والكفين بناء على ذلك التفسير فقد دل صدرها على وجوب غض الأبصار من كل صنف وحرمة نظر كل صنف إلى الآخر في غير المواد المستثناة ، ويلزم من وجوب الغض حرمة النظر لكن لا يلزم من حل الكشف حل النظر ، فحكم النظر هو الحرمة إلا في حال الضرورة لتعليم أو تداو أو شهادة تحملا أو اداء وأمثالها . نعم نقل الإمام النووي عن القاضي عياض الإجماع على أنه لا يلزمها في طريقها ستر وجهها وإنما هو سنة ، وعلى الرجال غض البصر عنهن للآية الكريمة كما في تحفة الشيخ ابن حجر الهيتمي في أوائل النكاح ، ولكن لا يستلزم ذلك جواز نظر الرجال لهن ، بل يجب ستر الوجوه عليهن إذا تحقق نظر الأجنبي إليها ، وعليه ما نقل من اتفاق المسلمين على منع النساء أن يخرجن سافرات الوجوه لأن جميع بدنها عورة في النظر سواء الوجه والكفان وغيرهما وإن لم يكونا من العورة في الصلاة . وأما صوتهن فالمذكور في معتبرات كتب الشافعية أنه ليس بعورة فلا يحرم سماعه إلا إن خشي منه فتنة ، وكذا إن التذ به كما بحثه الزركشي . وأما عند الحنفية فقال الإمام ابن الهمام : صرح في النوازل أن نغمة المرأة عورة ، ولذا قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « التكبير للرجال ، والتصفيق للنساء » .

﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ، إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢) وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ ، إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ، وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ، وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا ، وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ(٣٣) وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ ، وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴾(٣٤)

قوله تعالى : (وأنكحوا الأيامى منكم) أتى الله سبحانه وتعالى بكلامه الوافي شفاء لداء عضال يبتلى به الناس ويقعون به مواقع السوء وذلك الشفاء هو الزواج المشروع الذي يوجب الأنس والراحة للنفس ، والنسل المطيع لجانب القدس المانع من الوقوع في مهالك الشهوات فقال (وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم): وأيامى مقلوب أيايم جمع أيم ،لأن فيعل لا يجمع على فعالى،فقدمت الميم وفتحت للتخفيف،فقلبت الياء ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها . وذهب ابن مالك ومن تبعه الى أنه جمع شاذ لا قلب فيه ، ووزنه فعالى . والأيم كل أنثى لا ذكر معها وكل ذكر لا أنثى معه . ويقال : آم وآمت إذا لم يتزوجا بكرين أو ثيبين . وقد كثر استعمال هذه الكلمة في الرجل إذا ماتت امرأته ، وفي المرأة إذا مات زوجها . وعن محمد بن الحسن

أنها الثيب ، واستدل بقوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « الأيم أحق بنفسها من وليها والبكر يستأمرها أبوها » .

يعني وزوجوا مولياتكم ومماليككم عند الحاجة إلى الزواج حتى لا يقع الناس في الزنا ، وتحصل العفة في الدين . وتخصيص الصالحين بالذكر إما للاهتمام بشأنهم أو المراد من يصلح للنكاح والقيام بحقوقه . وقوله تعالى (إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله) وعد من الله عز وجل بالإغناء وعدا مقيدا بالمشيئة كما في قوله تعالى : فإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء ، وحثٌ وترغيب للسادة في تزويج العبيد والإماء ، وعدم مبالاتهم بجانب فقر المال وأنهم لا يقدرون على اكتساب ما يعيشون به (والله واسع) أي غني ذو سعة لا ينقصه إغناء الخلائق (عليم) بأحوال الناس يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر حسبما تقتضيه الحكمة الربانية .

ثم أرشد التائقين العاجزين عن مؤن النكاح بقوله : (وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا) أي فليجتهد في العفة وصون النفس الرجال الذين لا يجدون أهبته حتى يغنيهم الله من فضله . وهذا وعد كريم من الله الكريم بالتفضل عليهم بالمال وسعةِ ذاتِ اليد في المستقبل إن شاءَ . واستدل بهذه الآية من قال ندب ترك النكاح لمن لا يملك أهبته مع التوقان ، وكثير من الناس ذهب إلى استحبابه له لقوله تعالى إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله .

وقوله تعالى : (والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا) ... الآية نزلت في غلام لحويطب بن عبد العزى يقال له صبيح ، سأل مولاه أن يكاتبه فأبى عليه ، فأنزل الله تعالى هذه الآية وكاتبه حويطب على مائة دينار ووهب له منها عشرين دينارا امتثالا لقوله تعالى وآتوهم من مال الله الذي آتاكم .

والموضوع يناسبه تفصيل هو أنه كان عادة من قديم الأزمان أن كل قومين تحاربا وَوَقع بينهما حرب واستولى جانب على الآخر ، وأسر منهم الرجال والنساء والذراري أضافوا رؤوس أولئك إلى الاموال المنهوبة ، وأخذوها وقسموها ، فكل من وقع في سهمه رجل استرقه أو امرأة استرقها وتصرف فيها على حسب المعتاد بين الناس • ولما جاء الإسلام وبدأت الحرب بين المسلمين وبين المشركين استمرت العادة المذكورة، ولم يمكن للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إبطال هذه العادة العريقة مرة واحدة حتى ولم يمكن للعبيد إطلاق سراحهم ليكتسبوا ويعيشوا ، وما كان من المصلحة إرسالهم وإعادتهم إلى قومهم ليحاربوا المسلمين مرات اخرى • بل كانوا يبقون تحت أمر المالكين بعد القسمة ، أو تحت أمر الرسول قبلها فقد كان يعفو عمن يناسبه العفو مجانا ، أو يؤخذ منه فداء" ، أو يجعل فداءً لأسيرنا عند الاعداء ، أو يستعبدون • ومن أراد صيانة بعض النساء لنفسه كان ذلك جائزاً له ، وكان يعتبر الملك كعقد النكاح على تفاصيل مقررة في محلها • وسماحة الإسلام ورأفة صاحبه كانت تقتضي دوماً الافراج عن العبيد والإماء بشتى الطرق والوسائل حتى قررت شريعة الإسلام بنوداً فوق الثلاثين بنداً لإطلاق سراح العبيد والجواري مذكورة في محلها من الكتب المعتمدة • ومن جملتها : الكتابة مع أمةٍ أو عبد يريد استخلاص نفسه في مقابل المال يقدمه إلى سيده أقساطا ، وإذا سلمها له صار عتيقا • وكان واجبا على سيده إعادة بعض من ذلك المال إليه مساعدة له في الخلاص كما في الآية الشريفة فيقول الباري سبحانه وتعالى:(والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم) أي والعبيد الذين يطلبون منكم الكتاب المسطور فيه ما يجري بينكم من القرار على تسليمهم مبلغا معينا من المال لاستخلاصهم من الرق (فكاتبوهم) واعطوهم ذلك الكتاب (إن علمتم

فيهم خيرا) أي علمتم أنهم لهم قابلية تحصيل ذلك المبلغ • وإذا سلموه إليكم فأعطوهم من مال الله الذي أعطاكم بأيديهم حتى يخلصوا من الرق وتنالون أنتم الجزاء الجميل •

وقوله تعالى : (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء) نزلت في ست جوار عند عبدالله بن أبي بن سلول وفيهن مسلمات ، وكان يكرههن على البغاء لأخذ المال منهن فنزلت وقوله (إن أردن تحصنا) أي تعففا يعني لا تكرهوهن على البغاء ما دمن مريداتٍ العفة • أي لا تكرهوهن بشرط إرادتهن التعفف ، وذلك لأن الإكراه لا يوجد إلا إذا وجد منهن الرغبة في العفة والأمانة • أي إنهن مع كونهن جواري ضعافا مادام أردن التحصن والعفة فكيف يصح لكم وأنتم رجال وتدعون الشهامة أن تكرهوهن على البغاء لاستفادة مال منهن ؟! ويجوز تعلق الشرط بالنهي • وحاصل المعنى إني أنهاكم عن إكراههن على البغاء إذا أردن التحصن ، وأما إذا لم يردن التحصن فلا أنهاكم عن إكراههن ؛ لأنهن إذا لم يردن التحصن لا يبقى مجال للإكراه حتى ينهى عنه • وقوله (لتبتغوا عرض الحياة الدنيا) قيد للإكراه أي تكرهوهن ليبغين ويحصلن المال فتبتغوا بذلك الإكراه على الزنا مادة تنفعكم في الحياة الدنيا • (ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور) يغفر لهن (ورحيم) بهن حيث وقعن في المعصية إكراها لا بالإختيار •

(ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات) للأحكام ، (و) أنزلنا إليكم (مثلا) وقصصا عجيبة (من الذين خلوا من قبلكم ، وموعظة للمتقين) الذين يسعون في امتثال الأوامر والنواهي الواردة من رب العالمين •

(اللهُ نورُ السَّمواتِ وَالأَرْضِ ، مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكاةٍ فِيها مِصْباحٌ المِصْباحُ في زُجاجَةٍ ، الزُّجاجَةُ كَأَنَّها كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ

يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ ، ولا غَرْبِيَّةٍ ، يَكادُ زَيْتُها يُضِيءُ ، وَلَوْ لَمْ تَمسَسْهُ نارٌ ، نورٌ على نُورٍ ، يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ، واللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيها اسْمُهُ ، يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بِالغُدُوِّ وَالآصالِ (٣٦) رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وإِقامِ الصَّلوةِ وَإِيتاءِ الزَّكوةِ ، يَخافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ القُلُوبُ والأَبْصارُ (٣٧) ، لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا ، وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، واللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)(٣٨)

قوله تعالى (ألله نور السموات والأرض) الآية ... تكلم المفسرون في تفسير النور هنا بأوجه وجيهة عديدة . وفسروا الآية الكريمة بتفاسير حسنة سديدة . وفي الحقيقة إنها لمن الآيات الكبريات التي تليق بأن تفسر وتنور بها البصائر والأبصار . فمن جملة ما فسروا به النور أنه بمعنى المنور يعني الله منور السماوات والارض فقد نور السماوات بالشمس والقمر والكواكب المضيئة ، وكذلك نور الارض بها كما نورها بنوع الإنسان وما يظهر منه من الطاعة والإحسان والعلوم والمعارف المتطورة التي تزداد يوماً على يوم .

ومنها أنه بمعنى الحق بمعنى أن الانقياد له هو الحق لأنه واجب الوجود وينبوع كل فيض وجود ، وإضافته إلى السماوات والارض بمعنى أنه هو المعبود الحق لأهل السماوات والارض .

ومنها أنه بمعنى الموجد والخالق .

ومنها أنه بمعنى الظاهر بذاته المظهر لغيره على معنى أن الله سبحانه وتعالى مادام متصفا بوجوب الوجود وجمع الكمال والنزاهة عن النقص، وما عداه من الممكنات الخاصة المحتاجة الى الخالق يستنير بذاته ويتصف بالوجود بصنعه وتأثيره، ويبقى تحت قوته وتأثيره .. فهو نور السماوات والارض أي ظاهر بنفسه على أهل السماوات والارض من أهل العقل والإدراك والإنصاف والتسليم السليم . فإن كل ذرة من ذرات عالم الوجود عاليه وسافله محتاج إلى خالق مدبر مؤثر فيه وفي صفاته لأنها من الممكنات المستوي لها الوجود والعدم، ولا يترجح أحد الجانبين إلا بإرادته وتعلق قدرته . فالنور في أول الآية الكريمة صفة مشبهة بمعنى الظاهر بنفسه المظهر لغيره ليصح حمله على الله.وأما النور فيقوله (مثل نوره) فهو على معنى المصدر أي الظهور، لكونه مضافا إلى الله تعالى .

فخلاصة معنى الآية الكريمة بيان أن الله تعالى ظاهر على البصائر كالنور على المنائر لا يخفى على المنصف . ومثل نوره وظهوره على أهل الإدراك كمثل نور المصباح على أهل الأبصار . وحاصله أن وجود الباري تعالى لا يحتاج إلى استدلال وتكلف اعتبارات، فكل الكائنات من السماوات والارض شاهد على وجوده، وكل من فيهما من الجماد والنبات والحيوان مسبح بحمده، ولكن لا تفقهون تسبيحهم، وكل إنسان ذي عقل وإنصاف يؤمن ويعترف به لأنه يعرف أن حركة الكون قائمة بالمتحرك والمتحرك محتاج إلى المحرك والمحرك بدون الشعور لا يكون له نظام ودستور، فخالق السماوات والأرض ومن فيهما وعليهما هو الله الذي لا شريك له في ذاته وصفاته وأفعاله فتعالى العلي الكبير .

وقوله تعالى (مثل نوره) أي مثل ظهوره في القوة والوصول إلى درجة العيان وقوله : (كمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاجة

كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسه نار نور على نور) الآية ••• التشبيه الواقع فيه كالتشبيه الواقع في قوله تعالى مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء من حيث أن ترتيب الكلام يستفاد من المقام • والمعنى مثل نوره وظهوره سبحانه وتعالى كمثل نور مصباح في زجاجة كأنها كوكب دريّ ، والمصباح يوقد ويشتعل من زيت شجرة مباركة زيتونة لا شرقية فقط ، ولا غربية كذلك ، بل نبتت من بستان معتدل المكان ، يكاد زيتها يضيء ويشتعل بنفسه ولو لم تمسسه نار • وهذا المصباح في مشكاة ، وهي الكوة غير النافذة حتى لا ينتشر ضوء المصباح الموضوع فيها •

وقوله (نور على نور) ليس معناه أنه نور واحد فوق نور آخر ليصيرا نورين ، بل معناه نور عظيم كائن على نور عظيم ، فإنه تحقق في المشبه به أنوار : نور الزيت الصافي ، ونور من اشتعاله في المصباح ، ونور من صفاء الزجاجة التي كأنها الكوكب الدري ، ونور آخر من وضع المصباح في كوة غير نافذة لا ينفذ نور المصباح فيها إلى الخارج ، بل يتراد بعضه على بعض فيحصل من تموجها ودخول بعضها في بعض قوة أخرى ونور آخر وظهور أزيد •

وتطبيق ذلك في موضوعنا أن الشجرة المباركة الزيتونة عبارة عن الإنسان المؤمن العاقل المتفكر ، وزيتها عبارة عن التفكر الصافي الناشىء من خزانة العقل • وزجاجة المصباح هي قلوب المؤمنين • والمصباح اشتعال تلك الفكرة الصافية بنار الاقتباس من الآيات القرآنية ، والآيات الأنفسية ، والآيات الآفاقية • والمشكاة إما عبارة عن هيكل الإنسان المتفكر او مادة السماوات والارض التي هي طاقة غير نافذة ، إذ ليس وراءها وراء •

ويجوز أن تمثل الشجرة بالإنسان المصلي في المعبد من البيوت المرفوعة بإذن الله تعالى ، أو غيرها من أماكن الطاعات ، وزينها بعبادته وطاعته وذكره وشكره ، والزجاجة بصدور المؤمنين المصلين والمشغولين بأصناف الطاعات . والمصباح بالاشتغال بها ، والمشكاة بالبيوت المذكورة ، والنور على النور بل الأنوار على الأنوار بأنوار أفراد المصلين المتعاونين المصطفين في الجوامع، ونور الأئمة الراشدين ، ونور قراءة القرآن واستمرارهم على طاعاتهم في كل وقت مقرر مبين .

ويدل على هذا التطبيق الأخير قوله تعالى (يهدي الله لنوره من يشاء ، والله بكل شيء عليم) مع ملاحظة تعلق قوله تعالى (في بيوت) به . والحاصل : إن ظهور الباري تعالى إنما يكون على أولئك الناس المباركين . (يهدي الله لنوره) أي يوصل الباري تعالى إلى العلم بظهوره (من يشاء) من عباده أين كانوا ولكنه جرت سنته السنية بهداية عباده الملازمين لطاعته في المساجد غالبا ، وذلك لتضافرهم وتظاهرهم على الطاعة واجتماعهم على الدعوات (ويضرب الله الأمثال للناس) في تضاعيف إنزال الآيات البينات للاعتبار والاستبصار (والله بكل شيء عليم) فيعلم من يهتدي بالحق ويقتدي بأهله ويستعد لإدراك وجوب وجوده وظهور ذاته وكمال صفاته . وقوله تعالى : (في بيوت أذن الله أن ترفع) استئناف لبيان من حصلت لهم الهداية لذلك النور الظاهر بنفسه المظهر لغيره المستور ، فيكون الجار متعلقا بقوله يسبح ، وعلى هذا يجوز أن يكون متعلقا بمحذوف دل عليه هذا الفعل ، والتقدير سبحوا ربكم في بيوت الآية ... وعلى ذلك فالوقف على عليم ، ويجوز أن يكون الجار والمجرور صفة لمشكاة أو لمصباح أو لزجاجة ، أو متعلقا بتوقد .

والرأي عندي أن يتعلق بقوله (يهدي الله لنوره) وإنما ترك ذلك الوجه أهل التفسير فيما نعلم لأن هداية الله الناس لنوره ليس مختصا بأهل تلك البيوت • ووجه اختياري لذلك الإعراب أن هدايته تعالى لعباده المشتغلين بالطاعة في تلك البيوت أكثر وأوفر لما ذكرنا من التظاهر والتضافر• والمراد بالبيوت عامة المساجد والمعابد المؤسسة على التقوى • وقيل المساجد الأربعة : الكعبة ، ومسجد المدينة المنورة ، والمسجد الأقصى ومسجد قباء • لأنها أسست على التقوى من جانب الرسل الكرام إبراهيم وإسماعيل ومحمد وداود وسليمان ـ عليهم الصلاة والسلام ـ (أذن الله أن ترفع) أي أمر الله أن ترفع حسا بأن يستحكم أساسها وجدرانها وتعلى إلى مستوى الأبنية القريبة منها أو تعلي عليها لتظهر في أنظار أهل الطاعة • أو معنىً وقدرا بصيانتها عن دخول الجنب والحيض والنفساء ، وعن وقوع الأقذار فيها لاسيما ما يخاف منها تلويثها • وعن دخول أصحاب الروائح الكريهة من الثوم والبصل والفجل وأمثالها • وعن إدخال الصبيان غير المميزين والمجانين والنعال المتوسخة بالأوساخ الرطبة أو اليابسة التي يخاف تنجيس المساجد وفروشها بها وعن إشغالها بالمعاملات والملاهي والكلمات البذيئة ••• إلى غير ذلك مما لا يناسب مقامها • (ويذكر فيها اسمه) أي أمر الله أن يذكر فيها اسمه والمراد بذكر اسمه تعالى ما يعم جميع وجوه ذكره المشروع بتلاوة الأسماء الحسنى والقرآن الكريم ، وما يتعلق بطاعة الله كتدريس القرآن والأحاديث الشريفة والفقه وأصوله والعلوم التي لابد منها في فهمها كالنحو والصرف والبلاغة وغيرها ••• كما يشمل جميع الأدعية المأثورة وغيرها مما يدعى بها لجلب خير أو دفع شر • وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : المراد به توحيده ـ عز وجل بقوله لا إله إلا الله كما يشمل أداء الصلوات المفروضة والمندوبة مؤكدة أو غيرها ، وصلاة تحية

المسجد ، وسنة الوضوء • (يسبح له فيها بالغدو والآصال) استئناف لبيان أعمال من حصلت لهم الهداية • والتسبيح التنزيه والتقديس ، والمراد به إما ظاهره كأن يقول القائل : سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم ، أو سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، أو إقامة الصلوات لاشتمالها على التسبيحات في الركوع والسجود • وعن ابن عباس كل تسبيح في القرآن صلاة • والغدو جمع غداة كفتى وفتاة ، أو مصدر أطلق على الوقت ، والاصال جمع أصيل كأشراف وشريف • وقوله (رِجال) فاعل للفعل السابق وقوله (لا تلهيهم تجارة) صفة له مؤكدة لما في إفادة التنوين من التفخيم ، فإن كمال الرجال بانقطاع قلوبهم عن الدنيا وتوجههم إلى الله سبحانه وتعالى والتجارة المعاوضات للاسترباح (ولا بيع) يشمل جميع البيوعات من بيع المعين والموصوف في الذمة (عن ذكر الله) أي بالتحميد والتسبيح وغيرهما (وإقام الصلوة) أي أدائها لأوقاتها والمواظبة عليها (وإيتاء الزكاة) أي المال المفروض إخراجه للمستحقين • وقوله (يخافون يوما) صفة أخرى للرجال ، أو حال من مفعول لا تلهيهم (تتقلب فيه القلوب والأبصار) أي تضطرب فيها القلوب من الهول والفزع ، وتضعف الأبصار من إبصار الأشياء من شدة الوجل والخجل •

وقوله تعالى (ليجزيهم الله أحسن ما عملوا) متعلق بقوله يسبح أي يفعلون ما يفعلون من التسبيح وإيتاء الزكاة وإقام الصلاة ليجزيهم الله تعالى على ميزان أحسن ما عملوه من الأعمال فيكون لهم ثواب زائد (ويزيدهم من فضله) أي يتفضل عليهم بمثوبات ومكارم لم توعد لهم بها وبمقدارها ولم يخطر ببالهم كمياتها وكيفياتها ، كما في قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حكاية عن الباري جل جلاله : « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » (والله يرزق من يشاء بغير

حساب) وهذا وعد كريم بأنه تعالى يعطيهم ما لا يفي به الحساب مما وراء جزاء أعمالهم تفضلا عليهم وإحسانا إليهم .

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً ، حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً ، وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّيهُ حِسَابَهُ ، وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَيهُ مَوْجٌ ، مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ، ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ، إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرِيهَا ، وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَالَهُ مِنْ نُورٍ (٤٠) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمواتِ وَالأَرْضِ والطَّيْرُ صَافَّاتٍ ، كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلوتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ؟ وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١) وَلِلهِ مُلْكُ السَّمواتِ وَالأَرْضِ ، وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ)(٤٢)

قوله تعالى : (والذين كفروا) الآية ... عطف على ما قبله عطف القصة على القصة . يقول الله سبحانه بعد بيان أجزية أعمال المؤمنين بكل تقدير واحترام (والذين كفروا أعمالهم كسراب) أي أعمالهم التي يعدونها من الحسنات بزعمهم (كسراب بقيعة) والسراب : ما ترقرق من الهواء في الهجير في صحراء واسعة . وقيل : هو الشعاع الذي يرى في نصف النهار عند اشتداد الحر في البر يخيل للناظر إليه أنه ماء سارب (يحسبه الظمآن ماءً) صفة أخرى لسراب ، أي يظنه ماء فراتا يرويه إذا شربه (حتى إذا جاءه) أي وصل إليه (لم يجده شيئا) أي لم يجد ما ظنه ماء شيئا أصلا ، لأنها لم يكن أمرا ثابتا يلمس ويؤخذ وينتفع به (ووجد الله عنده) أي ووجد آثار قدرة الله بالنسبة إليه وهو خلق الأسى في قلبه واستمرار العطش في

كبده (فوفيه حسابه) أي أعطاه وافيا ما ينتظره الإنسان من نظير ذلك العمل والركض وراء الأمل الفارغ الموجب للانفعال • ويحتمل أن يربط قوله تعالى (ووجد الله) عنده بموضوع (الذين كفروا) أي والذين كفروا أعمالهم حابطة لا تفيد وبالنتيجة يجدون الله عندما يئسوا من كل نفع فوفاهم جزاء أعمالهم وهو الخلود في النار (والله سريع الحساب) لا يشغله حساب عن حساب (أو كظلمات) عطف على قوله كسراب أي أو أن أعمالهم التي يزعمونها حسنات كالظلمات في الدنيا من حيث خلوها عن نور الحق (في بحر لجي) أي في بحر عميق كثير الماء منسوب إلى اللج وهو معظم ماء البحر (يغشاه موج) أي يغطي ذلك البحر ويستره موج هائج من الماء (من فوقه موج) آخر وليس المراد على الأثنينية بل على التراكم والتتابع أي يستره موج وراءه أمواج أخرى كثيرة عند هيجان البحر بالأمواج • وقوله (من فوقه سحاب) صفة لموج الثاني أي من فوق ذلك الموج سحاب ظلماتي ستر أضواء النجوم وحجب وقوعها على سطح البحر • وفيه إيماء إلى غاية تراكم الأمواج حتى كأنها بلغت السحاب (ظلمات بعضها فوق بعض) أي هذه ظلمات بعضها فوق بعض (إذا أخرج يده لم يكد يراها) أي من ابتلي بها إذا أخرج يده من الكم وجعلها في مرأىً منه لم يكد يراها فضلاً عن أن يراها فعلا • وقوله (ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور) تذييل جيء به لتقرير ما قبله وإثبات أن ذلك لعدم هدايته تعالى إياهم لنوره •

وقوله تعالى (ألم تر أن الله يسبح له من في السماوات والارض) خطاب لحبيبه محمد خاتم الأنبياء والمرسلين • والفعل مشتق من الرؤية العلمية • والآية لتقرير أن الله نور السماوات والارض • ويقول ألم تعلم يا حبيبي بالوحي أو بالإلهام أن الله سبحانه وتعالى يسبح له وينزهه عن العيوب وعن الشريك (من) أي كل عاقلٍ (في السموات) من الملائكة

على اختلاف أصنافها وكل عاقل (في الأرض) من الأنبياء والرسل السابقين واللاحقين ومن آمن بهم من الصادقين • وقوله (والطير) معطوف على الموصول أي ويسبح له الطير في الجو حالكونها (صافات) أجنحتها بحيث يتمكن بها من الوقوف في الجو والحركة فيه إلى أي جهة شاءت بإرشادها وإلهامها كيفية استعمالها بالقبض والبسط والتحريك • وقوله تعالى (كل قد علم صلاته وتسبيحه) جملة مستأنفة جيء بها لبيان رسوخ كل ما ذكر في شأنه بحيث يعلم كل من في السماوات والارض ويعلم الطير ما يصدر عنه من الافعال التي تكون بالنسبة إليها طاعة وإظهار عبودية للباري تعالى • أما صلاة العقلاء وتسبيحهم فمعلوم أن العاقل المباشر لها يعلم بها وبوجوبها أو استحبابها وكمياتها وكيفياتها • وأما الطير فالجمهور على أن تسبيحها حقيقي ، ولا يلزم كون التسبيح الحقيقي بالألفاظ المعتادة لنا ، لأن كل نوع من المخلوقات له نوع من المألوفات (والله عليم بما يفعلون) والمستفاد من الآية الكريمة أن عقلاء عالم العلو والسفل والطيور لما آمنت بالله الذي هو نور السماوات والارض فما قيمة الجهلاء فيهما إذا عاندوا الحق والحقيقة ولم يؤمنوا بالله الذي هو نورهما ولم يظهر على عيون رؤوسهم ونفوسهم هذا النور الظاهر بنفسه المظهر لغيره ؟ (ولله ملك السماوات والارض وإلى الله المصير) أي رجوع الكل بعد الموت والبعث للمعاد •

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ، ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكاماً ، فَتَرَى الْوَدْقَ يَخرُجُ مِنْ خِلالِهِ ؟ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ مِن جِبالٍ فيها مِنْ بَرَدٍ ، فَيُصيبُ بِهِ مَنْ يَشاءُ وَيَصرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشاءُ ، يَكادُ سَنابَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصارِ (٤٣) يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ ، إِنَّ في ذلِكَ لَعِبْرَةً

لِأُولِي الْأَبْصارِ(٤٤) وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ ماءٍ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي على بَطْنِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي على رِجْلَيْنِ ، ومِنهُمْ مَنْ يَمْشِي على أَرْبَعٍ ، يَخْلُقُ اللهُ ما يَشاءُ ، إِنَّ اللهَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٤٥) لَقَدْ أَنْزَلْنا آياتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ)(٤٦)

قوله تعالى (ألم تر أن الله يزجي سحابا) جملة مستأنفة وفي المعنى مقررة ومؤكدة لما قبلها من سيطرة الباري على العالم وظهوره على العقلاء وإطاعتهم له فيقول (ألم تر) بالعين (أن الله يزجي سحابا) أي يسوقه سوقا برفق وتؤدة (ثم يؤلف بينه) أي وبين سحاب آخر أو يؤلف بين أجزاء ذلك السحاب الأول المتفرق بعضه عن بعض (ثم يجعله ركاما) أي متراكما بعضه فوق بعض (فترى الودق) أي المطر شديدا كان أو ضعيفا (يخرج من خلاله) أي من فتوقه ومخارجه ومنافذه (وينزل من السماء) أي من السحاب العالي (من جبال فيها من برد) أي قطع كبيرة من البرد المتكون هناك بإرادته سبحانه وتعالى بأسباب خاصة هيّأها تشبه الجبال في الحجم والارتفاع (فيها) أي في السماء من بَرَدَ أي من الحالوب المعروف المسمى بالبرَد لأنه يكسو سطح الارض كالبردِ الملبوس (فيصيب به) أي بذلك البرد (من يشاء) إصابته في نفسه أو مواشيه أو بساتينه أو مزارعه (ويصرفه عمن يشاء) صرفه وانحرافه عنه (يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار) أي ويحصل من ذلك السحاب المتراكم الضاغط بعضه على بعض برْقا مشرقا مضيئا يكاد سنا برقه وضوئه الحديد الشديد يذهب بالأبصار من فرط الضوء وسرعة الورود وغلبته على أضواء العيون (يقلب الله الليل والنهار) أي يغير الله الليل والنهار كلا بالآخر بالحركات المتوالية الجارية على الكواكب السفلية

والعلوية (إن في ذلك) التصرف البديع البارع المدهش للعقول (لعبرة لأولي الأبصار) أي دلالة واضحة على وجوده وقدرته وتصرفه في الكائنات يتصف بتلك العبرة أولو الأبصار للنظر في مظاهر العالم وأولو البصائر للنظر في الأنفس والدقائق .

ثم أظهر قدرته من جهة أخرى فقال (والله خلق كل دابة) أي كل حيوان يدب على الارض (من ماء) هو جزء من أجزاء مادته المخلوق هو منها (فمنهم من يمشي على بطنه) كالزحافات (ومنهم من يمشي على رجلين) كالآدميين والطيور (ومنهم من يمشي على أربع) كذوات القوائم ، ومنهم غير ذلك مما لم يذكر (يخلق الله ما يشاء) لا يعجزه شيء عن شيء (إن الله على كل شيء قدير) فيتصرف في العالم كما يشاء (لقد أنزلنا آيات مبينات) للمهمات مما يتعلق بالعقائد والأحكام وانتظام أمور الأنام (والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم) فيسلكه ويصل بسلوكه الى النور الذي يطمئن به قلبه ويفهم به معاني الآيات .

(وَيَقُولُونَ : آمَنَّا بِاللهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ، ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ، وما أولئِكَ بالمُؤْمِنِينَ(٤٧) وإِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ اِذا فَرِيقٌ مِنهُمْ مُعْرِضُونَ(٤٨) وإنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ(٤٩) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ؟ أَمِ ارْتَابُوا ؟ أَمْ يَخَافُونَ أن يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ؟ بَلْ أُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ(٥٠) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ المُؤْمِنِينَ اِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا

وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٥١) وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الفائِزُونَ)(٥٢)

قوله تعالى (ويقولون : آمنّا بالله وبالرسول) الآية ... نزلت في المغيرة بن وائل كان بينه وبين علي ـ كرم الله وجهه ـ خصومة في أرض فتقاسما فوقع لعليّ ما لا يصيبه الماء إلا بمشقة ، فقال المغيرة : بعني أرضك، فباعها إياه وتقابضا ، فقيل للمغيرة : أخذت سبخة لا ينالها الماء . فقال لعلي ـ كرم الله وجهه ـ : اقبض أرضك ، فإنما اشتريتها إنْ رضيتَها ، ولم أرضها فإن الماء لا ينالها . فقال علي : قد اشتريتها ورضيتها وقبضتها وأنت تعرف حالها ، لا أقبلها منك . ودعاه إلى أن يخاصمه إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : أما محمد فلست آتيه فإنه يبغضني وأنا أخاف أن يحيف عليّ فنزلت . يعني إن أولئك الناس (يقولون) باللسان (آمنا بالله وبالرسول وأطعنا) أي أطعنا الله ورسوله في كل أمر ونهي (ثم يتولى) أي يعرض عن مقتضى هذا القول (فريق منهم من بعد ذلك) الذي صدر منهم من ادعاء الإيمان بالله ورسوله والطاعة لهما (وما أولئك بالمؤمنين) في الواقع حيث تبين بتوليهم وإعراضهم عن رفع المحاكمة إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنهم لا يصدقونه في ما يصدر منه من الأحكام كما قال تعالى (وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم) أي وبين خصومهم (إذا فريق منهم معرضون) أي فاجأ فريق منهم الإعراض عن المحاكمة إليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ (وإن يكن لهم الحق) أي لا عليهم (يأتوا إليه مذعنين) منقادين مطيعين له ـ صلى الله عليه وسلم ـ . (أفي قلوبهم مرض ؟) أي كفر ثابت جعلهم بحيث يقطعون أن الرسول ليس رسولا من الله وليست أحكامه صادرة عن الوحي (أم ارتابوا ؟) أي أهم مترددون في شأن الرسول وحائرون بين الكفر والإيمان فتارة يحكمون بأنه ليس رسولا فيحكم

بالباطل ، وتارة يعودون فيقولون : إن أحكامه حق (أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ؟) يعني أم ليس الكفر سائدا على قلوبهم ولا التردد بل هم مؤمنون ضعاف الايمان وضعاف القلب، ويتصورون أن الله ورسوله قد يرجحان جانب بعض المراجعين على بعض لقرابة أو اختصاص أو سبق في الإسلام، (بل) أعرض عن هذه التقسيمات ، وإنما (أولئك هم الظالمون) المشركون الكافرون المصرون على الكفر ولا يؤمنون بالله ورسوله وليس عندهم ما يسوقهم إلى الرضا بالمحاكمة إليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ • وليسوا من المؤمنين قطعا •

(إنما كان قول المؤمنين) إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم في شجار وخصام (أن يقولوا : سمعنا) الحكم (وأطعنا) ه (وأولئك) الناس القائلون بذلك (هم المفلحون) الفائزون بالخير في الدارين • (ومن يطع الله ورسوله) فيما أمرا به ونهيا عنه (ويخش الله) على ما جرى منه من المعاصي سابقا (ويتقه) في ارتكابها لاحقا (فأولئك هم الفائزون) بسعادة الدارين • ولفظ مضارع المذكر الغائب المعلوم من باب الافتعال معطوف على الشرط السابق ومجزوم بحذف لام الفعل ، وفيه قراآت ، والمعروف عندنا منها قراءة حفص لها بسكون القاف وكسر الهاء غير مشبعة • والضمير المنصوب راجع الى الله تعالى •

(وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ : لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ، قُلْ : لا تُقْسِمُوا طاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ ، إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ(٥٣) قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ، فَإِنْ تَوَلَّوا فَإِنَّما عَلَيْهِ ما حُمِّلَ ، وَعَلَيْكُمْ ما حُمِّلْتُمْ ، وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ، وَما عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ البَلاغُ المُبِينُ(٥٤)

وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً ، يَعْبُدُونَنِي ، لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً ، وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ(٥٥) وَأَقِيمُوا الصَّلوةَ ، وَآتُوا الزَّكُوةَ ، وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ(٥٦) لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ ، وَمَأْوِيهُمُ النَّارُ ، وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ)(٥٧)

قوله تعالى (وأقسموا بالله) حكاية لبعض أحوال أخرى من أحوال الكفرة غير ما سبق ، فيقول تعالى (وأقسموا بالله جهد أيمانهم) أي حالكونهم يجهدون أيمانهم جهدا ، أو جاهدين أيمانهم • ومعنى جهد اليمين بلوغها غايتها في التأكد والاهتمام بها (لئن أمرتهم) بالخروج إلى الجهاد (ليخرجن) بكمال الإطاعة والإقدام (قل : لا تقسموا) على ما تريدون الإقسام عليه من الطاعة ، سلمنا أنكم تطيعون لكنها (طاعة معروفة) منكم ليست محل الاشتباه لأنها طاعة لسانية فقط (إن الله خبير بما تعملون) ومنه ما تظهرونه من الأكاذيب (قل : أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) حق الإطاعة وقوله تعالى (فإن تولوا) خطاب للمنافقين على وجه الإلتفات بتغيير الأسلوب ، والفعل مضارع لجمع المذكر المخاطب المحذوف منه إحدى التاءين ، أي فإن تتولوا عن إطاعة الله وإطاعة رسوله أيها الناس الفاسدون (فإنما عليه) أي فعلى الرسول (ما حمل) من التبليغ ، وقد شاهدتموه وسمعتم ما بلغه إليكم (وعليكم ما حملتم) أي ما كلفتم به من الإطاعة

الخالصة الغير المشوبة بالنفاق (وإن تطيعوه) فيما أمركم به ـ صلى الله عليه وسلم ـ (تهتدوا) إلى الحق الذي لا شيء فوقه (وما على الرسول إلا البلاغ المبين) وقد بلغ الرسول ما أوحى إليه من الله •

(وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم) أي ليجعلنهم خلفاء في الأرض متصرفين فيها تصرف الملوك (كما استخلف الذين من قبلهم) وهم بنو إسرائيل ، إستخلفهم الله بعد إهلاك الجبابرة (وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم) وهو دين الإسلام (وليبدلنهم من بعد خوفهم) من أعدائهم (أمناً) واسعا نافعا حالكونهم (يعبدونني لا يشركون بي شيئا، ومن كفر بعد ذلك) أي ومن اتصف بالكفر واستمر عليه ولم يتأثر بهذه الآيات البينات والمواعظ من أولئك الكافرين (فأولئك هم الفاسقون) أي الكاملون في الفسق الخارجون عن دائرة الخير واستحقاقه أبد الآبدين •

واستدل كثير من العلماء بهذه الآية على صحة خلافة الخلفاء الأربعة ـ رضي الله تعالى عنهم ـ لأن الله تعالى وعد فيها من في حضرة الرسالة من المؤمنين بالاستخلاف وتمكين الدين والأمن العظيم من الأعداء ، ولا بد من وقوع ما وعد به ضرورة امتناع التخلف في وعده تعالى ، ولم يقع ذلك المجموع إلا في عهدهم ، فكان كل منهم خليفة حقا باستخلاف الله تعالى إياه حسبما وعد الباري جل جلاله • ولا يلزم عموم الاستخلاف لجميع الحاضرين المخاطبين ، بل وقوعه فيهم مثل بنو فلان قتلوا فلانا فلا ينافي ذلك عموم الخطاب الجميع ، وكون من بيانية ، وكذا لا ينافيه ما وقع في خلافة عثمان ـ رضي الله عنه ـ ، وكذا في خلافة علي ـ رضي الله عنه ـ من الفتن ، لأن المراد من الأمنِ الأمنُ من أعداء الدين وهم الكفار •

(وأقيموا الصلوة وآتوا الزكوة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون) هذه الآية الشريفة معطوفة على قوله تعالى (وأطيعوا الله) والفاصل بين

المتعاطفين ليس أجنبيا من كل وجه ، فإنه وعد على المأمور به وبعضه من تتمته (لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض) أي لا تحسبنهم معجزين لله تعالى عن إدراكهم وإهلاكهم أينما كانوا من أقطار الأرض فلا شك أنه تعالى يدركهم ويهلكهم (ومأويهم النار ، ولبئس المصير) نار جهنم • أعاذنا الله منها بمنه وكرمه آمين •

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ ، وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلاثَ مَرّاتٍ : مِنْ قَبْلِ صَلوةِ الفَجْرِ ، وحِينَ تَضَعُونَ ثِيابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ ، وَمِنْ بَعْدِ صَلوةِ العِشاءِ • ثَلاثُ عَوْراتٍ لَكُمْ ، لَيْسَ عَلَيْكُمْ ولا عَلَيْهِمْ جُناحٌ بَعْدَهُنَّ ، طَوّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلى بَعْضٍ ، كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآياتِ ، وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨) وَإِذا بَلَغَ الأَطْفالُ مِنْكُمُ الحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَما اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آياتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٩) وَالقَواعِدُ مِنَ النِّساءِ اللّاتِي لا يَرْجُونَ نِكاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُناحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجاتٍ بِزِينَةٍ ، وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ ، واللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)(٦٠)

قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا) رجوع إلى بيان تتمة الأحكام السابقة بعد الفراغ من الإلهيات الدالة على وجوب إطاعة الله تعالى ورسوله فيقول : (يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم) أي من أولادكم المميزين الذين لم يبلغوا وقت البلوغ والإحتلام (ثلاث مرات) أي ثلاث أوقات في اليوم والليلة •

وقد اتفق الفقهاء على أنه إذا احتلم الصبي فقد بلغ ، واختلفوا فيما إذا بلغ خمس عشرة سنة ولم يحتلم • فقال ابو حنيفة في المشهور : لا يكون بالغا حتى يتم له ثماني عشرة سنة ، وكذا الجارية إذا لم تحتلم أو لم تحض أو لم تحبل لا تكون بالغة عنده حتى يتم لها سبع عشرة سنة • وقال صاحباه والشافعي وأحمد : إذا بلغ الغلام والجارية خمس عشرة سنة فقد بلغا • وهو رواية عن الإمام ـ رضي الله عنه ـ وعليه الفتوى •

وقد بين الله تعالى المراد بثلاث مرات فقال : (من قبل صلوة الفجر ، وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة) بيان للحين ، والظهيرة الظهر (ومن بعد صلوة العشاء) لأنه وقت التجرد عن لباس اليقظة والالتحاف بثياب النوم ، وكثيرا ما يتعاطى فيه مقدمات الجماع ، وإن كان الأفضل تأخيره لمن لا يغتسل على الفور إلى آخر الليل (ثلاث عورات لكم) أي هن ثلاث عورات لكم • أي هي ثلاث أوقات يختل فيها التستر عادة (ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن) أي بعد كل واحدة من تلك العورات الثلاث (طوافون عليكم بعضكم على بعض) أي هم طوافون عليكم ، وبعضكم طائف على بعض • (كذلك يبين الله لكم الآيات) الدالة على ما فيه سعادتكم في الدارين (والله عليم) بجميع المعلومات (حكيم) في جميع أفعاله وتشريعاته •

(وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم) المذكورين في قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم) الآية ••• (كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم • والقواعد من النساء) أي العاجزات القاعدات في مساكنهن لعجزهن عن المشي (اللاتي لا يرجون نكاحا) أي لا يطمعن فيه لكبرهن (فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن) أي الثياب الظاهرة التي لا يفضي وضعها إلى كشف

العورة كالجلباب ، والرداء ، والقناع الذي فوق الخمار • (غير متبرجات بزينة) التبرج التكلف في إظهار ما خفي ، أي غير مظهرات زينة مما أمر باخفائه في قوله تعالى (ولا يبدين زينتهن) (وأن يستعففن) بالتستر وترك وضعهن (خير لهن) من الوضع لبعده عن التهمة والغرض من ذلك أن هؤلاء استعفافهن عن وضع الثياب خير لهن ، فما ظنك بذوات الزينة من الشواب ؟ (والله سميع) لما يجري بينهن بصوت خفي (عليم) بمقاصدهن •

(لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ ، وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ ، وَلا عَلَى المَرِيضِ حَرَجٌ ، وَلا عَلى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ ، أَوْ بُيُوتِ آبائِكُمْ ، أَوْ بُيُوتِ أُمَّهاتِكُمْ ، أَو بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ ، أو بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ ، أَو بُيُوتِ أَعْمامِكُمْ ، أَوْ بُيوتِ عَمَّاتِكُمْ ، أَوْ بُيُوتِ أَخْوالِكُمْ أَوْ بُيوتِ خَالاتِكُمْ ، أَوْ ما مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ ، أَوْ صَدِيقِكُمْ • لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً ، فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللهِ مُبارَكَةً طَيِّبَةً ، كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)(٦١)

قوله تعالى : (ليس على الأعمى حرج) الآية ••• عن سعيد بن جبير والضحاك أنه كان العرجان والعميان يتحرجون عن مؤاكلة الأصحاء لأن الناس يستقذرونهم ويكرهون مؤاكلتهم ، وكان أهل المدينة لا يخالطهم في طعامهم أعمى ولا أعرج ولا مريض تقذرا ، فأنزل الله هذه الآية •

وقيل : كانوا يدخلون على الرجل لطلب الطعام ، فإذا لم يكن عنده ما يطعمهم ذهب بهم إلى بيوت آبائهم وأمهاتهم أو إلى بعض من سماهم الله تعالى في الآية الكريمة ، فكانوا يتحرجون من ذلك ويقولون : ذهب بنا إلى بيت غيرنا ولعل أهله كارهون لذلك . وكذلك كانوا يتحرجون من الأكل من أموال الذين كانوا إذا خرجوا إلى الغزو وخلفوا هؤلاء الضعفاء في بيوتهم ودفعوا إليهم مفاتيحها ، وأذنوا لهم أن يأكلوا مما فيها مخافة أنلا يكون إذنهم عن طيب نفس منهم . وكان غير هؤلاء أيضا يتحرجون من الأكل في بيوت غيرهم ؛ فعن عكرمة كانت الأنصار في أنفسها قزازة فكانت لا تأكل من البيوت التي ذكر الله تعالى .

وقال السدي : كان الرجل يدخل بيت أبيه أو أخيه أو أخته فتتحفه المرأة بشيء من الطعام فيتحرج لأجل أنه هناك رب البيت . والحرج لغة كما قال الزجاج الضيق من الحرجة وهو الشجر الملتف بعضه ببعض لضيق المسالك فيه . وقال الراغب : هو في الأصل مجتمع الشيء ثم أطلق على الضيق وعلى الإثم . والمعنى على الرواية الأولى : ليس على هؤلاء حرج في أكلهم مع الأصحاء . ويقدر على سائر الروايات ما يناسب ذلك مما لا يخفى . وكلمة (على) باقية على معناها في جميع ذلك . وروي عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما أنه لما نزل (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) تحرج المسلمون عن مؤاكلة الأعمى لأنه لا يبصر موضع الطعام الطيب ، والأعرج لأنه لا يستطيع المزاحمة على الطعام ، والمريض لأنه لا يستطيع استيفاء الطعام . فأنزل الله تعالى هذه الآية .

وقيل : كانت العرب ومن بالمدينة قبل البعث تجتنب الأكل مع أهل هذه الأعذار لمكان حولان يد الأعمى ، وانبساط جلسة الأعرج ، وعدم خلو المريض من رائحة تؤذي ، او جرحٍ ينض ، او أنفٍ يذن . فنزلت

ومن ذهب الى هذا جعل كلمة (على) بمعنى (في) أي ليس في مؤاكلة الاعمى حرج وهكذا ... وإلا لكان حق التركيب ليس عليكم حرج أن تأكلوا مع الأعمى . وكذا يقال فيما بعد .

(ولا على أنفسكم) حرج (أن تأكلوا) أنتم وهم معكم (من بيوتكم) من البيوت التي فيها أزواجكم وعيالكم فيدخل فيها بيوت الأولاد ، ولأن بيت الولد كبيته لقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « أنت ومالك لأبيك » . وقوله ـ عليه السلام ـ « إن أطيب ما يأكل المؤمن من كسبه ، وإن ولده من كسبه » (أو بيوت آبائكم ، أو بيوت أمهاتكم ، أو بيوت إخوانكم ، أو بيوت أخواتكم ، أو بيوت أعمامكم ، أو بيوت عماتكم ، أو بيوت أخوالكم ، أو بيوت خالاتكم ، أو ما ملكتم مفاتحه) مما يكون تحت أيديكم وتصرفكم من ضيعة أو ماشية وكالة أو حفظا (أو صديقكم) أو بيوت صديقكم فإنهم أرضى بالتبسط في أموالهم (ليس عليكم جناح أن تاكلوا جميعا أو أشتاتا) أي مجتمعين أو متفرقين . نزلت في بني ليث بن عمرو من كنانة كانوا يتحرجون أن يأكل الرجل وحده ، وكان الرجل منهم لا يأكل ويمكث يومه حتى يجد ضيفا . وقيل : وهذا التحرج سنة موروثة من الخليل ـ عليه الصلاة والسلام ـ . (فإذا دخلتم بيوتا) من البيوت المذكورة (فسلموا على أنفسكم) أي على أهلها لأنهم منكم فكأنكم سلمتم على أنفسكم (تحية من عند الله مباركة طيبة) تطيب بها نفس المستمع (كذلك يبين الله لكم الآيات) أي آيات الأحكام الاجتماعية (لعلكم تعقلون) ما في تضاعيفها من الشرائع والآداب الإسلامية .

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ ،

فَإِذا اسْتَأْذَنوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ، وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحيمٌ(٦٢) لا تَجعَلُوا دُعاءَ الرَّسولِ بَيْنَكُمْ كَدُعاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً، قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الَّذينَ يَتَسَلَّلونَ مِنْكُمْ لِواذاً، فَلْيَحْذَرِ الَّذينَ يُخالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصيبَهُمْ عَذابٌ أَليمٌ(٦٣) أَلا إِنَّ للهِ ما فِي السَّماواتِ والأرض، قَدْ يَعْلَمُ ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ، وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ، فَيُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا، وَاللهُ بِكُلِّ شَيءٍ عليم)(٦٤)

قوله تعالى (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله) آية من الآيات البينات المهمة في التزام المؤمنين لإطاعة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم في أوامره ونواهيه فيقول الله تعالى مصدرا بأداة الحصر : (إنما المؤمنون الذين آمنوا) أي ليس المؤمن بالمعنى الكامل إلا من آمن بالله ورسوله إيمانا صافيا عن شوب التردد والأوهام المخالفة (وإذا كانوا معه) أي مع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ (على أمر جامع) للناس مهم مهتم به أي أمرٍ كان . وقال بعض : المراد أمر مهم يجب اجتماعهم معه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كالجمعة والأعياد والحروب وغيرها من الأمور الداعية الى الاجتماع لغرض من الاغراض (لم يذهبوا) عنه أي لم ينفكوا عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ (حتى يستأذنوه) ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الذهاب والانفكاك فيأذنلهم به فيذهبون . وذلك لأن الاستئذان منه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتوقف سير المؤمن على إذنه ملاك الأدب . ولذلك قال تعالى : (إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله) فقد جعل المستأذنين هم المؤمنون كما جعل سابقا المؤمنين هم المستأذنون ،

فيحصل هنا المساواة بين المؤمنين والمستأذنين ، حيث صدق كل مؤمن مستأذن وكل مستأذن مؤمن (فإذا استأذنوك لبعض شأنهم) أي لبعض أمر من أمورهم المهمة (فأذن لمن شئت منهم) على اختيارك فإن تلك الأمور أي الإذن لمن شئت وعدمه لمن شئت مفوض إليك (واستغفر لهم الله) فإن الاستئذان لا يخلو عن شائبة فاسدة هي تقديم أمر الدنيا على أمر الآخرة. (إن الله غفور) كثير المغفرة لفرطات العباد (رحيم) في إفاضة الكرم عليهم •

ثم قرر الله تعالى معنى الآية السابقة بقوله : (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا) أي لا تقيسوا دعاءه ـ صلى الله عليه وسلم ـ إياكم لأمر من الأمور على دعاء بعضكم بعضا فإن بين الفرع والأصل فوارق عديدة كثيرة (قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا) وعيد لمن خالف الحكم الماضي ، وكلمة قد للتحقيق ، أي لا شك أن الله تعالى يعلم الذين يتسللون ويخرجون من الجماعة قليلا ـ قليلا على خفية ملاوذة بأن يستتر بعضهم ببعض حتى يخرج (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة) أي بلاء ومحنة في الدنيا (أو يصيبهم عذاب أليم) في الآخرة • (ألا إن لله ما في السموات والارض) من الجمادات والنبات وأصحاب الحياة من العقلاء وغيرهم ، فالكل عائد إلى الله تعالى خلقا وملكا وتصرفا إيجادا أو إعداما بدءا أو إعادة (قد يعلم ما أنتم عليه) من الصفات والأحوال إيمانا وكفرا موافقة ومخالفة (ويوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا) من الحسنات والسيئات لأنه توزن أعمالهم ويحاسبون عليها (والله بكل شيء عليم) لا تخفى عليه خافية • وفيه بشارة للمؤمنين ، ووعد لهم بنيل الجزاء والثواب ، وإنذار ووعيد للكافرين وتهديد لهم بما يلقونه يوم القيامة • ونسأل الله الرءوف الرحيم السلامة من موجبات الندامة ، وإفاضة العفو والرحمة علينا بالإحسان والكرامة آمين

سورة الفرقان ، مكية ، وهي سبع وسبعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً(١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ، وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً(٢) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ، وَلا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرّاً ولا نَفْعاً وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتاً ولا حَيٰوةً وَلا نُشُوراً)(٣)

قوله تعالى (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا)

افتتح الباري سبحانه هذه السورة الجليلة بفعل لا يسند غالبا إلا إلى الله سبحانه ، ولا يتصرف فيه بالمضارع والأمر والنهي في الأغلب ، وهو بمعنى تعاظم وتعالى ، وجاء بالموصول والصلة تنبيها على أن هذا التنزيل التدريجي المنجم على حسب اقتضاء الحكمة لا يمكن إلا منه • وعبر عن الكلام المنزل بالفرقان ، وهو مصدر بمعنى اسم الفاعل إشارة إلى أن ذلك الكلام يفرق بين كل حق وباطل ، وما قرره حقا فهو الحق ، وما قرره باطلا فهو الباطل ، وما أتاه ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وقد نزله على إنسان ينبوع للخير والإحسان ، مخصوص بصفة العبودية الخالصة لربه

الموصوف بصفة السيادة الخالصة ، فالعبد هو العبد الذي نظر بكل مشاعره إلى مولاه ، وقطع النظر عن جميع ما سواه ، ولا يخفى ما في إضافة هذا العبد إلى نفسه من التشريف • وقوله ليكون للعالمين نذيرا لإفادة أن دفع المفاسد أهم من جلب المصالح وأهل الفساد أكثر من أهل الرشاد • وفيه براعة الإستهلال لأن الآيات النازلة فيها تدق أعناق المعاندين (الذي له ملك السماوات والأرض) دون غيره مطلقا ، لا استقلالا ولا اشتراكا فله السلطان القاهر (ولم يتخذ ولدا) من الذكور ولا من الإناث ، لأن وجوب الوجود معناه الاستغناء المطلق عن كل موجود (ولم يكن له شريك في الملك) والسلطنة والاستيلاء ، وهو الذي إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون (وخلق كل شيء) أي كل ما يدخل تحت الإرادة والمشيئة (فقدره) فأعده لما خلق له وأراد به من الخصائص والاعمال وأكد ذلك بقوله (تقديرا) أي تقديرا بديعا لا يقادر قدره ولا يبلغ قعره •

(واتخذوا) أي الكفار المشركون (من دونه) أي من دون الله تعالى (آلهة) تائهة لا حياة فيها ولا شعور (لا يخلقون شيئا وهم يخلقون) فإنها هياكل منحوتة نصبت بأيد أثيمة اكتسبت من الجرائم ما اكتسبت (ولا يملكون) أي أولئك الآلهة (لأنفسهم ضرا ولا نفعا) ومعلوم أن الخالق هو الضار والنافع (ولا يملكون موتا ولا حيوة ولا نشورا) والخالق يجب أن يكون قادرا على الموت والحياة والنشور •

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : إِنْ هذا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَيهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ، فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُوراً(٤) وَقَالُوا : أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً(٥) قُلْ : أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمٰوَاتِ

وَالأَرْضِ ، إِنَّهُ كانَ غَفُوراً رَحِيماً(٦) وَقالُوا : ما لِهذا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَيَمشي فِي الأَسواقِ ؟ لَولا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذيراً(٧) أو يُلْقى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْها ، وَقالَ الظَّالِمُونَ : إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُوراً(٨) اُنْظُرْ كَيفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثالَ ؟ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبيلاً(٩) تَبارَكَ الَّذي إِنْ شاء جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذلِكَ جَنَّاتٍ تَجْري مِنْ تَحْتِها الأَنهارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً)(١٠)

قوله تعالى : (وقال الذين كفروا) القائلون هم جمع من مشركي العرب منهم النضر بن الحرث ، وعبدالله بن أمية ، ونوفل بن خويلد . يعني إنهم قالوا : (إن هذا) أي ما هذا القرآن (إلا إفك) أي كذب (افتراه) أي اخترعه من عند نفسه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (وأعانه عليه) أي على افترائه (قوم آخرون) غير العرب من اليهود بأن يلقوا إليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخبار الأمم السابقة المستقاة من الأسفار الدائرة إذ ذاك أو من الحكايات المروية ، (فقد جاءُوا ظلماً وَزوراً) أي فقد جاءوا بتعد هائل وظلم وافر حيث جعلوا الآيات البينات البليغة المتضمنة للحكم الثمينة وللمواعظ المبينة وللاصول الرصينة الموجهة لأصحاب العقول الى الاعتدال في الدنيا والدين (إفكا) مفترى مع أن الأكاذيب الاعيب تافهة (وزورا) أي كذبا عظيما وكل من هذين اللفظين منصوب بنزع الخافض أي فقد جاءوا بظلم عظيم وزور لئيم . ويجوز أن يكونا في تأويل اسم الفاعل حالين من الفاعل ، أي ظالمين ومزورين أي جاءوا الى مقام الدعوى كذلك . (وقالوا : أساطير الأولين اكتتبها) أي بعد أن قالوا لهذا القرآن المعجز

بأسلوبه ورصانة مبانيه ودقائق معانيه أنه إفك أعانه عليه آخرون بينوا كيفية الإعانة بأنه أساطير الأولين اكتتبها وكتبها لنفسه وينسبها إلى جانب قدسه (فهي تملى عليه بكرة وأصيلا) أي تلقى عليه تلك الأساطير بعد اكتتابها صباحا ومساء ليحفظها من أفواه من يلقيها عليه . (قل) يا حبيبي رداً عليهم : (أنزله الذي يعلم السر في السموات والارض) أي لو كنتم من أهل العلم والعقل ما أتيتم بتلك الشبه الواهية التي يعلم بطلانها كل من يعلم بوجود أجلى البديهيات ، فإن الأساطير أمور قديمة مكررة ليس فيها جديد ، وهذا القرآن الكريم أصول معقولة وأحكام مقبولة مناسبة لعصر نزوله ، وليس فيه أحكام الأمم السابقة الدارجة ، بل أحكامها محكمات مناسبات لهذا الزمان ، وأنتم أصحاب الأبصار متى رأيتم أستاذا أو أساتذة في مكة المكرمة التي عاش فيها صاحب هذا القرآن حتى يأخذ منهم هذه العبارات وهذه الاعتبارات في زمان مخصوص فضلا عن تكررها بكرة وأصيلا ؟ ومتى وجدتم محمدا يكتب كتابا أو يصاحب كتّابا ليكتب هذا القرآن له ؟ ثم من هو الذي يأتي بأمثال عباراته في الفصاحة والبلاغة حتى يقال إنه أخذه منه ؟ وبعد ذلك من هو الذي يستوعب هذه المعاني الجليلة الجامعة لمنافع الدارين والمتضمنة لدقائق الأسرار من البشر حتى تنسب إليه ؟ فيتبين ببعض الملاحظات واللمحات الفكرية من الإنسان العاقل أن هذا القرآن ليس كلام البشر بل كلام الله العليم العلام وأنزله الذي يعلم السر في السماوات والارض . وإلا فمن الذي يستوعب هذا القرآن المشتمل على أسرار مطوية بعيدة عن مستوى عقول البشر ؟ وأنتم أيها المشركون المشاغبون مستحقون لإنزال العقوبات الصارمة من الله عليكم لكن الله أمهلكم إلى أجل مسمى (إنه كان غفورا رحيما) وإلا لعذبكم بالعجل عذابا أليما .

(وقالوا) أي المشركون : (ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ؟) أي ما الذي حدث لهذا الرجل الذي يدعي الرسالة من الله وهو إنسان من أمثالنا يأكل الطعام كما نأكله ويمشي في الأسواق لابتغاء الأرزاق كما نبتغيه وهو فقير محتاج إلى ذلك العمل (لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا) والناس يلبون إذ ذاك طلبه ويتبعون أدبه (أو يلقى إليه كنـز) حتى لايحتاج إلى المشي في الأسواق (أو تكون له جنة يأكل منها) فيخلص من قلة المال وفقر الحال (وقال الظالمون) أي الكفـار المشـركون : (إن تتبعون) أي ماتتبعون (إلا رجلا مسحورا) سحر فغلب على عقله • (أنظر) يا حبيبي (كيف ضربوا لك الأمثال ؟) أي كيف قالوا في حقك الأقاويـل الباطلة العجيبة الخارجة عن العقول (فضلوا) وتاهوا عـن طريق العقـل والفهم الصحيح وبقوا متحيرين لا يجدون مخرجا (فلا يستطيعون سبيلا) للقدح في نبوتك ورسالتك بحيث يستقر عليه العقل ، فإنهـم قد سـمعوا برسالة إبراهيم الخليل أبي إسماعيل باني البيت الجليل ، وبرسالة موسى صاحب التوراة وعيسى صاحب الإنجيل • وكل أولئك الرسل الكرام كانوا يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ، ولم ينزل الله تعالى إلى أي واحـد منهم ملكا كريما يكون معه ، ولا ألقى إليه كنزاً ، ولا أعطي بستانا • وإنما هذه الكلمات تخرج من أفواههم بلا شعور وإدراك صحيح ولا عقل ولا نور •

(تبارك الذي إن شاء جعل لك خيرا من ذلك) الذي اقترحوه في الدنيا وأبدل عنه قوله (جنات تجري من تحتها الانهار) في الفردوس (ويجعـل لك قصورا) في عالـم الآخرة يقصر عن نعتها ووصف كميتهـا وكيفيتهـا ألسـنة المتكلمـين •

روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن جمعا كثيرا من عظمـاء قريش اجتمعوا فقال بعضـهم لبعض : ابعثوا إلى محمـد ـ صلى الله عليه

وسلم ـ وكلموه وخاصموه حتى تعذروا منه • فبعثوا إليه : إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك فجاءهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، فقالوا : يا محمد إنا بعثنا إليك لنعذر منك فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا ، وإن كنت تطلب الشرف فنحن نسودك، وإن كنت تريد ملكا ملكناك • فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ما بي مما تقولون ، ماجئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ، ولكن الله تعالى بعثني إليكم رسولا ، وأنزل عليّ كتابا ، وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوهُ عليّ أصبر لأمر الله تعالى حتى يحكم الله عز وجل بيني وبينكم » قالوا يا محمد فإن كنت غير قابل منا شيئا مما عرضنا عليك فسل لنفسك ، سل ربك أن يبعث معك ملكا يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك ، وسله أن يجعل لك جنانا وقصورا من ذهب وفضة تغنيك عما تبتغي ، فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم • فقال لهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ما أنا بفاعل، ما أنا بالذي يسأل ربه هذا ، وما بعثت إليكم بهذا ولكن الله تعالى بعثني بشيرا ونذيرا» فأنزل الله تعالى في قولهم ذلك (وقالوا ما لهذا الرسول) الآية••

(بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ، وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً(١١) إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً(١٢) وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ دَعَوْا

هنالِكَ ثُبُوراً(١٣) لاتَدْعُوا اليَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً ، وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً(١٤) قُلْ : اَذلِكَ خَيْرٌ اَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ التي وُعِدَ المُتَّقُونَ ؟ كانَتْ لَهُمْ جَزَاءً ومَصِيراً(١٥) لَهُمْ فِيها ما يَشاءونَ خالِدِينَ ، كانَ عَلى رَبِّكَ وَعْداً مَسْئُولاً(١٦) وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ، فَيَقُول : ءَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُم عِبادي هؤُلاءِ ؟ اَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ؟(١٧) قالُوا : سُبْحانَكَ ما كانَ يَنْبَغِي لَنا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِن أَولياءَ ، وَلَكِن مَتَّعْتَهُمْ وَآباءَهُمْ حَتّى نَسُوا الذِّكْرَ وكانُوا قَوْماً بُوراً(١٨) فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِما تَقُولُون ، فَما تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً ولا نَصْراً ، وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَاباً كَبيراً(١٩) وما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنَ المُرْسَلِينَ اِلاّ إنَّهُمْ لَيَأْكُلُون الطَّعامَ ويَمْشُونَ فِي الأَسْواقِ وَجَعَلْنا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ؟ وَكانَ رَبُّكَ بَصِيراً)(٢٠)

قوله تعالى (بل كذبوا بالساعة) انتقال إلى حكاية نوع آخر من خصالهم المذمومة يعني أعرض عن هذه الأقوال التافهة التي يأتون بها إلى منشأ لها وهو تكذيبهم بالساعة وجزاء الاعمال ، فإنهم استمروا على هذه العقيدة المعقدة المخالفة للواقع وكذبوا بالساعة (وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا) فليقولوا ما يقولون وليفعلوا ما يفعلون • ثم ذكر بعض أوصافها وقال : (إذا رأتهم من مكان بعيد) إذا رأت السعير أولئك الأفاكين المكذبين

بالساعة من مكان بعيد هو أقصى ما يمكن أن يرى منه (سمعوا لها) أي للسعير (تغيظا) أي صوتا ناشيا عن الغضب والتغيظ (وزفيرا) وهو إخراج النَّفَس بعد مده • ونسبة هذه الاشياء اليها يجوز أن تكون على سبيل الحقيقة بناء على أنها من الممكنات ولها جهات شتى في الوجود والحدوث ، ويجوز أن تكون على ضرب من التجوز كما لا يخفى • و (إذا ألقوا منها مكانا ضيقا) صفة مقيدة لزيادة كرب من يجعل فيه أي مكانا ضيقا من السعير حالكونهم (مقرنين) قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم بالحبال الحديدية أو مقرنين مع قرنائهم من شياطين الإنس والجن (دعوا هنالك ثبورا) أي هلاكا ، ويقولون : يا ثبوراه ، أو تمنوا عند ذلك موتا يخلصهم من الحس والشعور لو كانوا يموتون ، ولكن لا يموتون • فيقول لهم الملك المأمور بالأمر الجاري : (لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا) والمقصود من هذا النهي أن عذابهم يستمر ولا ينتهي ، وفي كل عذاب وعقاب ثبور ، فالثبور يتكرر إلى الأبد •

(قل) يا حبيبي لهم (أذلك) الجزاء (خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون ؟) وجنة الخلد إما من إضافة الموصوف إلى الصفة ، أي جنة من دخلها كان خالدا ، أو علم لجنة مخصوصة كجنة عدن (كانت) تلك الجنة في علم الله تعالى مقررة (لهم جزاء ومصيرا) أو كانت جزاء ومصيراً لهم (فيها ما يشاءون) أي للمتقين في تلك الجنة ما يشاءون من اللذائذ الروحية والنفسية كان على ربك (وعدا) أي موعودا (مسئولا) أي مسئولا واعده

بالوفاء به بمقتضى إحسانه ورحمته (ويوم يحشرهم ومايعبدون من دون الله) أي واذكر لهم يوم يحشر الله الكافرين وما يعبدونه من دون الله من الأوثان وغيرها فيقول الباري تعالى لأولئك المعبودين : (ءأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل ؟ قالوا : سبحانك) تنزيها لك (ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء) لأنك أحسنت إلينا فجعلتنا ملائكة أو أنبياء ، وهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . هذا إذا كان المخاطبون منهم ، أو ماكان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك أولياء لأنا كنا جامدين خامدين لا حس لنا ولا شعور فاين الآمر والمأمور ؟ وهذا إذا كانوا من الأوثان والأصنام (ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا) يعني إنك يا ربنا ابتليتهم فأنعمت عليهم فطغوا وبغوا حتى نسوا الذكر أي غفلوا عن ذكرك أو تذكر نعمك وآلائك والتدبر في آياتك (وكانوا قوما بورا) أي بائرين هالكين في علمك . أو صاروا قوما هالكين بسوء السلوك . وقوله تعالى : (فقد كذبوكم) حكاية لاحتجاجه تعالى على عبدة الأوثان بطريق تلوين البيان . أي فقد كذبكم ما اتخذتموهم من دون الله أولياء (بما تقولون) أي في ما تقولون أنهم آلهة أضلونا واستنكروا ذلك وقالوا ما أضللناهم قطعا (فما تستطيعون صرفا) أي دفعا للعذاب الذي تستحقونه (ولا نصرا) وعونا من جهة الآلهة المفتعلة ولا من جهة أخرى فقد بينا لكم صورة ما يجري يوم القيامة بيانا كافيا صافيا (ومن يظلم منكم) أي يستمر على ظلمه وإشراكه بالله غيره (نذقه عذابا كبيرا) لا يعلم قدره إلا الله .

وأما ما يقولونه طعنا في مقامكم بأكل الطعام والمشي في الأسواق فليس بشيء ولا وزن له ، فإن ذلك جار على سنتنا في الكون فإن الإنسان على

حسابه المادي محتاج إلى كسب الأرزاق في الأسواق وغيرها (وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ، وجعلنا بعضكم لبعض فتنة) أي وجعلنا بعض الناس أسباب ابتلاء ومحنة لبعض، فجعلنا الاغنياء فتنة للفقراء والكافرين فتنة للمسلمين وللأنبياء والمرسلين . وإذا فتناكم بأولئك المشركين (أتصبرون ؟) على تلك الفتن والبلايا حتى نجزيكم بالهبات والعطايا ؟ (وكان ربك) ولم يزل (بصيرا) بعباده عليما خبيرا .

الجزء التاسع عشر

(وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا : لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَٰئِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا ! لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ، وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيراً(٢١) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَٰئِكَةَ لا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ : حِجْراً مَحْجُوراً(٢٢) وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً(٢٣) أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً)(٢٤)

قوله تعالى : (وقال الذين لا يرجون لقاءنا) أي وقال الذين لا يأملون الخير لكفرهم بيوم الحساب : (لولا) أي هلا (أنزل علينا الملئكة) فتخبرنا بصدق محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ (أو نرى ربنا !) فيتكلم معنا مشافهة ويأمرنا بتصديقه في الرسالة (لقد استكبروا في أنفسهم) أي فقد طغوا وبغوا وتجاوزوا حدودهم حتى اقترحوا ما لا يتحقق للأفراد من الأنبياء والمرسلين (وعتوا عتوا كبيرا) أي وتجاوزوا عن الحد تجاوزا لا يقادر قدره • وكيف يرون الملئكة على اقتراحهم المبنى على جسارة وتعنت وعناد ؟! (يوم يرون الملئكة لا بشرى يومئذ للمجرمين) لأنه يأتيهم العذاب من وجوههم وأدبارهم (ويقولون حجرا محجورا) أي ويقول الملئكة للمجرمين هذه الكلمة الشديدة الدالة على ردع المجرمين وطردهم من ساحة القبول ومنعهم من اللقاء والوصول ، فيقال لهم حجرا محجورا عنكم الخير والرضا والرحمة من الله تعالى • (وقدمنا الى ما عملوا من عمل) أي وعمدنا ونظرنا

إلى ماعملوا من عمل وحسبوه صالحا نافعا لهم (فجعلناه هباء منثورا) أي غبارا متفرقا في الجو لا نفع فيه ولا ينتفع به أحد (أصحاب الجنة يومئذ) أي يوم إذ طرد المجرمون من الرحمة ويقال لهم حجراً محجورا (خير مستقرا) أي مكان قرار (وأحسنُ مقيلاً) أي أحسن مكانا يؤوى إليه للاستراحة والتفضيل باعتبار ما كان فيه المجرمون المترفون في الدنيا يعنى أنهم وإن كان لهم مستقر لطيف جدا ومقيل جميل الى درجة لكن مستقر أهل الجنة ومقيلهم خير من ذينك بل ولا مناسبة بينهما فإتياننا بصيغة التفضيل بين التجوز والتأويل •

(وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بِالْغَمامِ وَنُزِّلَ المَلٰئِكَةُ تَنْزِيلاً (٢٥) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمٰنِ ، وَكانَ يَوْماً عَلَى الْكافِرِينَ عَسِيراً (٢٦) وَيَوْمَ يَعَضُّ الظّالِمُ عَلى يَدَيْهِ يَقُولُ : يا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ! (٢٧) يا وَيْلَتى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فلاناً خَلِيلاً ! (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جاءَنِي ، وَكانَ الشَّيْطانُ لِلإِنْسانِ خَذُولاً (٢٩) وَقالَ الرَّسُولُ : يا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هٰذَا القُرْآنَ مَهْجُوراً (٣٠) وكذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِنَ المُجْرِمِينَ ، وَكَفى بِرَبِّكَ هادِياً ونَصِيراً (٣١) وَقالَ الَّذين كفروا : لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ القُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً ! كذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ وَرَتَّلْناهُ تَرْتِيلاً (٣٢) وَلا يَأْتونَكَ بِمَثَلٍ إِلاّ جِئْناكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً (٣٣) الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلى وُجُوهِهِمْ إلى جَهَنَّمَ أُولٰئِكَ شَرٌّ مَكاناً وأَضَلُّ سَبِيلاً) (٣٤)

(ويوم تشقق السماء بالغمام) أي ويوم تشقق بسبب خروج الغمام منها وهو الغمام المذكور في قوله تعالى : (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملئكة ؟) (ونزل الملئكة تنزيلا) في ذلك ومعهم صحائف أعمال الثقلين (الملك يومئذ الحق للرحمن) السلطنة والقهر والجبروت حق محصور في الباري سبحانه وتعالى لا شريك له ، كما لم يكن له شريك حتى ولا إضافة لأدنى علاقة مجازية وقد كانت في الدنيا (وكان) ذلك اليوم (يوما على الكافرين عسيرا) لأنه يوم القبض على المجرمين والجر والسحب إلى حساب المعتدين (ويوم يعض الظالم) المشرك (على يديه) من فرط الحسرة والأسى والتأسف والندم حيث لا ينفع (يقول : يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا) طريقا إلى الجنة إذا كان المراد بالرسول شخصه الكريم فالظالم هو من عانده في عصره كعقبة بن أبي معيط كان يكثر مجالسته صلى الله عليه وسلم وقد كفر به وعانده . وإن كان المراد أعم منه وممن ورثه الدعوة إلى الحق فالظالم كل معاند للدين (يا ويلتى ليتني لم أتخذ فلانا) أي الذي جذبه الى النار (خليلا) حتى لا أقع فيما وقعت فيه (لقد اضلني) ذلك المضل (عن الذكر) أي ذكر الله أو كتابه أو كلمتي الشهادة (بعد إذ جاءني) ولم يكن هناك مانع يمنعني عن القبول (وكان الشيطان للإنسان خذولا) أي تاركا لنصرة صاحبه إذا أغواه . والخذول هو الذي يواليه حتى يسخره لبعض شئونه فإذا أشغله فيه وتم أمره تركه كأن لم يكن بينه وبين قرينه مودة ، وهذا شأن الفاسدين في الصحبة (وقال الرسول) معطوف على قوله تعالى (وقال الذين لا يرجون لقاءنا) وما بينهما اعتراض مسوق لاستعظام ما قالوه : (يا رب إن قومي) الذين أرسلتني إليهم وأنزلت على الكتاب فيهم وبلسانهم (اتخذوا هذا القرآن) العظيم الحكيم المستوعب لسعادة الدارين (مهجورا) متروكا بالكلية ولم يؤمنوا به ولم يرفعوا إليه رءوسهم فضلا عن أن يتلوه ويعملوا به .

وقوله (وكذلك جعلنا) تسلية للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودعوة له إلى تحمل الأذى والتصبر على أحوال الكفار كالأنبياء السابقين الأخيار ، فيقول : هذا العداء بينهم وبينك ليس مختصا بعصرك بل أمر سابق استمر إلى أن وصل الى اللاحق حيث جعلنا (لكل نبي عدوا من المجرمين) الذين لاتهمهم إلا شهوات أنفسهم وميول طبائعهم (وكفى بربك هاديا) لك إلى الدوام والثبات على ما كنت عليه من الدعوة إلى الحق (ونصيرا) لك على كل من عاداك • (وقال الذين كفروا) هذا بيان لحلقة أخرى من سلسلة كلماتهم الفارغة : (لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة) حتى نلمس الكتاب مرة واحدة فرد عليهم الباري سبحانه وتعالى بقوله (كذلك) أي نزلناه عليك كذلك ، أي منجما ومفرقا على أقساط وجمل ومجموعات واقعة لتشريع الأحكام حسب استعداد أمة الإسلام ومناسبة الأجوبة للاسئلة الموجهة إلى سيد الأنام (لنثبت به فؤادك) كلما انزلنا عليك ما يوافق مرادك (ورتلناه ترتيلا) أي وفرقناه آية بعد آية وجملة بعد جملة وسورة بعد سورة ، مفرقا على المناسبات •

وفي إنزال الكتاب العظيم الإلهي منجما فوائد :

الأولى : التدريج والإمهال في تعليم الأمة أحكام دينها ، فإن أفراد الأمة كالطالب للعلم لا يمكنه التعلم إلا تدرجا ، وفي كل منزلة منها يستعد لفهم ما سينزل على الرسول ويبلغه إليهم •

الثانية : التسهيل في الأخذ والحفظ فإن الفقرات المختصرات لا يصعب حفظها ، وإذا تكثرت وتراكمت صعب ذلك عليهم •

الثالثة : وقوع الجملة المنزلة موقعها ، فإن الإنسان إذا احتاج الى جواب سؤال واشتاق إليه فإذا ورد عليه أخذه بلهف واشتياق وضبطه •

الرابعة : حصول التطور في الأذهان ، فـإن الإنسـان البسيط ليس بقابل لأخذ المعاني الواقعة في المستويات الرفيعة أول الأمر وأما إذا مـارس الأبحاث والاوضاع والاسئلة والأجوبة ترقى ذهنه بحسـب ما ورد عليـه وحسـب درجاتـه .

الخامسة : قوة الإيمان بأن ذلك الكتاب كتاب الله فإنه إذا نزل مـرة واحدة وبقي في الأمة تصور الناس أشياء لا واقع لها من أنـه كتاب ألقـي عليه من جانب معين وأريد به غاية معينة . وأما إذا نزل حسـب المناسبات وأجوبة الأسئلة الواردة علم كل منصف أنه كلام أنزله الرب الحكيم لمعالجة طرف من القضايا الواردة بحيث تتشبث به قلوب الناس كلهم من الرسـول وأصحابه الذين لهم إطلاع على الوقائع .

السادسة : مناسبة المنزل لتشريع الأحكام فإن تشريعها مرة واحـدة مما لا يكاد يستسيغه الفكر الإنساني ، وأما إذا نزل منجما فجاء بالتخفيف أولا ثم التوسط ثم جاء بالتشديد قبله الإنسان المتطور .

السابعة : مناسبة الكلام للمخاطبين فإن الكـلام مع من يدعوهم الى الاسلام غير الكلام مع من يدعو المسلمين الى قبول الاحكام ، والكلام مع البدوي غير الكلام مع المدني ، والكلام مع الاعداء غير الكلام مع الاصدقاء الى غير ذلك من الفوائد في التنجيـم .

(ولا يأتونك بمثل) من الأمثال التي اقترحوهـا عليك (إلا جئنـاك بالحق) أي بالجواب الحق المطابق للواقع المدافع عنك وعن دينك (وأحسن تفسيراً) أي وجئناك بجواب أحسن من كلام الناس تفسيرا وبيانا للموضوع (الذين يحشرون على وجوههم) أي يحشرون ماشين ومكبين على وجوههم (أولئك شر مكانا وأضل سبيلا) من القوم المقابل لهم يعني أنهم يقترحون

اقتراحات غريبة ، ويأتون باسئلة عجيبة تعنتا واستهزاء بالمسلمين وتحقيرا لمقامهم وتنزيلا لمكانتهم، لكنهم أحقر وأنزل مكانا ومقاما وأضل طريقا قطعا .

(وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسى الْكِتابَ ، وَجَعَلْنا مَعَهُ أَخاهُ هرُونَ وَزِيراً(٣٥) فَقُلْنا : اذْهَبا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا ، فَدَمَّرْناهُمْ تَدْمِيراً(٣٦) وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْناهُمْ وَجَعَلْناهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ، وَأَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ عَذَاباً أَلِيماً(٣٧) وَعاداً ، وَثَمُودَ وَأَصْحابَ الرَّسِّ ، وَقُرُوناً بَيْنَ ذلِكَ كَثِيراً(٣٨) وَكُلاًّ ضَرَبْنا لَهُ الْأَمْثالَ ، وَكُلاًّ تَبَّرْنا تَتْبِيراً(٣٩) وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ، أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَها ؟ بَلْ كانُوا لا يَرْجُونَ نُشُوراً)(٤٠)

قوله تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب) جملة مستأنفة لتسلية الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ببيان نصر رسله على من عاداهم ، ويقول : (ولقد آتينا موسى الكتاب) أي التوراة (وجعلنا معه أخاه هرون وزيراً) أي نبيّاً وَوَزيراً . (فقلنا : اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا) أي إلى القوم الطغاة الذين كذبوا بدلائل التوحيد المودعة في الآفاق وفي أنفسهم ، أو كذبوا تبعا لآبائهم الذين كذبوا بآياتنا عند إرسال يوسف ــ عليه السلام ــ إليهم . وقوله (فدمرناهم) ليس من جملة المقول بالقول السابق بل معطوف على مقدر تقديره : فذهبا إليهم ، وكذبوهما ، فدمرناهم تدميرا . وقوله (وقوم نوح) منصوب باذكر أو بمضمر يفسره أغرقنا بناء على أن لما ظرف زمان . وأما إذا كان حرف وجود لوجود فلا ، وذلك لأن (أغرقناهم)

حينئذ يكون جوابا لها فلا يفسر ناصبا لاقتضائه قطعه عن الجواب (لما كذبوا الرسل) أي نوحا والرسل المتقدمين عليه ، أو لأن تكذيبه في قوة تكذيب الكل (وجعلناهم للناس آية) أي آية عظيمة من شاهدها أو علم بها كان حقا عليه أن يعتبر بها (وأعتدنا للظالمين) منهم ومن غيرهم (عذابا أليما) •

(وعادا) أي واذكر عادا (وثمود وأصحاب الرس) وهم قوم كان لهم آبار ومواش وكانوا يعبدون الأصنام أرسل الله إليهم شعيبا ، والرس : البئر • (وقرونا بين ذلك كثيرا) أي واذكر أهل قرون واقعة بين تلك الأمم كثيرا (وكلا) منهم (ضربنا له الأمثال) أي ذكرنا لهم القصص العجيبة الماضية الكاشفة عن حلول العذاب عليهم لتكذيبهم الرسل (وكلا تبرنا تتبيرا) أي وتبرنا وكسرنا وفرقنا كلا من تلك الأمم الطغاة تتبيرا موافقا لأعمالهم •

(ولقد أتوْا على القرية التي أمْطرت مطر السوءِ) أي والله لقد مرت قريش وتجارهم ، مروا في متاجرهم الى الشام على القرية الكبيرة المشهورة بسدوم ، وكان قاضيا جائراً فيها يحكم بهواه ، وفي المثل (أجْوَرُ من سدوم) وهي القرية التي أرسل إليها لوط ـ عليه السلام ـ أهلكها الله تعالى بالحجارة التي مَطَرَتْ عليهم من السماء • وروي أنها كانت خمسا أهلكها الله إلا قرية واحدة تسمى زغر لأن أهلها لم يرتكبوا الفواحش الواقعة في غيرها (أفلم يكونوا يرونها ؟!)توبيخ على عدم تذكرهم برؤيتها عند المرور عليها (بل كانوا لا يرجون نشورا) إضراب عما قبله من عدم الرؤية أي أعرض عن ذلك فإنهم رأوها ولكن لم يتذكروا برؤيتها لأنهم كانوا لا يرجون نشورا بعد الموت وبعثا في عالم الآخرة • ولذلك استمروا في الأعمال الفاحشة حتى أهلكهم الله تعالى •

(وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً : أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللهُ رَسُولاً ؟(٤١) إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا ، وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً(٤٢) أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ؟ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلا ؟(٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ؟ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً)(٤٤)

قوله تعالى (وإذا رأوك) بيان لسوء خصال المشركين وغاية جهالتهم فيقول (وإذا رأوك) أي أولئك الضالون (إن يتخذونك) أي ما يتخذونك (إلا هزوا) أي شخصا مهزوءً به أي يعتبرونك كذلك قائلين (أهذا الذي بعث الله رسولا ؟) أي أهذا الرجل الذي لا زيادة له جسدا وقوة مادية علينا اختاره الله وبعثه رسولا الى العالمين ؟ ولم يعلموا أن هناك قوة نفسية قدسية وروحا عالية عالمية وهي ينبوع الحكمة وعين النعمة أنعم الله بها على عباده . ألم يروا الى الجبال المتعالية من الاحجار وإن منها لما يتفجر منه الأنهار (إن كاد ليضلنا عن آلهتنا) أي الامر المعلوم أنه قرب أن يبعدنا عن طريق عبادة آلهتنا (لولا أن صبرنا عليها) فان شئت اجعل لولا وما بعدها قيدا لما تقدمها ، أي إنه كاد أن يضلنا عن آلهتنا بشرط عدم دوامنا على عبادتها . وإن شئت اجعلها صدراً لكلام محذوفا جوابها أي لولا أن صبرنا عليها لخسرناها . فيقول الباري تعالى : (فسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا) يعني أنهم يزعمون في حالهم الحاضر أنهم سالكون سبيل الحق ولا يعلمون ماذا جرى عليهم من سوء أفكارهم وقلة اعتبارهم

(وسوف) أي يوم القيامة (يعلمون حين يرون العذاب) المقدر المقرر لهم (من أضل سبيلا) أهم أضل أم محمد وأصحابه الموحدون .

(أرأيتَ مَنِ اتخذ إلهَهُ هَوَاه) تعجيب للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من شناعة حالهم وبيان أن من ابتدع شر الأمور وسد على نفسه أبواب الشعور كيف يختار سلوك سبيل الخير ؟ ومتى يرجى منه الرجوع الى الحق ؟ فأخبرني يا حبيبي (من اتخذ إلهه هواه ؟) أي من جعل معبوده ما تهواه نفسه أو جعل إلهه عين هواه كيف ترجو له رشده وهداه (أفأنت تكون عليه وكيلا ؟) أي حفيظا وحافظا ومراقبا عليه فترشده الى طريق الحق والاستقامة عليه ؟ والجواب : لا وحاشا وكلا ، فلا يصل الى سبيل الهدى إلا من ابتعد عن طريق الهوى (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ؟) أم منقطعة للإضراب عن إنكار أحوالهم الى إنكار حسبان الرسول وظنه وجود الخير فيهم فيقول : بل تحسب وتعتقد أن أكثرهم أي أكثر المشركين يسمعون أي المواعظ والإرشاد والدعوة الى الحق أو يعقلون الحق في أنفسهم بأنفسهم ؟ والمعطوف عليه للأدلة العيانية والمعطوف للأدلة الفكرية، أي إن أولئك الناس توغلوا في الضلال فلم يبق لهم قابلية الاستفادة لا من الحواس ولا من العقل ، فسدّ الله عليهم السبيلين سبيل العلم والعين ، ثم بين حقيقة حالهم فقال (إن هم إلا كالأنعام) أي ما هم إلا مثل الأنعام حيث يستفيدون من حواسهم أمورا تافهة مربوطة بمعيشتهم ولا يستفيدون غير ذلك (بل هم أضل سبيلا) لأنها تنقاد لاصحابها وتعرف أعداءها وتميزها من أحبابها فتنفر من الذئاب وتميل إلى الأصحاب ، وهم بخلاف ذلك .

(أَلَمْ تَرَ إلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ؟ وَلَوْ شاءَ لَجَعَلَهُ ساكِناً ثُمَّ جَعَلْنا الشمسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً(٤٥) ثُمَّ قَبَضْناهُ إِلَيْنا قَبْضاً يَسِيراً(٤٦) وهُوَ الَّذي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِباساً ، والنَّوْمَ

سُباتاً ، وجَعَلَ النَّهارَ نُشُوراً(٤٧) وَهُوَ الَّذي أَرْسَلَ الرِّياحَ بُشرىً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ، وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً طَهُوراً(٤٨) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً ، ونُسْقِيَهُ مِمّا خَلَقْنا أَنْعاماً وأَناسِيَّ كثيراً(٤٩) وَلَقَدْ صَرَّفْناهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا ، فَأَبى أَكْثَرُ النّاسِ إلاّ كُفُوراً(٥٠) وَلَوْ شِئْنا لَبَعَثْنا في كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً(٥١) فَلا تُطِعِ الْكافِرينَ ، وَجاهِدْهُمْ بِهِ جِهاداً كَبيراً(٥٢) وَهُوَ الَّذي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ : هذا عَذْبٌ فُراتٌ ، وَهذا مِلْحٌ أُجاجٌ ، وَجَعَلَ بَيْنَهُما بَرْزَخاً وحِجْراً مَحْجُوراً(٥٣) وَهُوَ الَّذي خَلَقَ مِنَ الماءِ بَشَراً ، فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكانَ رَبُّكَ قَدِيراً)(٥٤)

قوله تعالى (ألم تر إلى ربك) الآيات ... توجيه لحبيبه المحبوب المكرم بالرسالة وحسن الاخلاق الى أدلة وجوده وعلمه وقدرته في الأنفس والآفاق بخلق الليل والنهار والظل والضوء والقيام والمنام والمطر المنبت لأرزاق الأناسي والانعام والبراري والبحار النافعة للبشر من جهات شتى ، ومنها المسافرات على السفن الجارية فيها للتجار ، ومنها البحر العذب والمالح المختص كل منهما بآثار خاصة ، وخلق البشر ذكورا وإناثا لبقاء النوع في العالم إلى ما شاء الله القادر المقتدر الجبار . وفي قوله : (ألم تر إلى ربك) تشريف للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من جهتين :

الأولى : إسناد الرؤية الظاهرة في الرؤية البصرية إليه إشارة إلى أن رؤيتك العلمية آلت إلى رؤيتك العيانية .

والثانية : أنه جعل الرب مبدأ للإستدلال حتى يجعل الخلاق دليلا على الآفاق لا الآفاق دليلا على الخلاق كما أفاده المولوي بقوله :

مِمن بهِ لمن عليه يستدل　　مسافة" لا تستظل لا تستزل

فيقول : ألم تنظر الى آثار قدرة ربك المقتدر (كيف مدَّ الظل ؟) على نصف الكرة من بعد غروب الشمس الى شروقها اذا اعتبرت سواد الليل ، أو من طلوع الفجر الى طلوع الشمس اذا اعتبرت وضوح الظل وإبصاره بالعيون المجردة (ولو شاء) أن يبقى على حده ومده ثابتا في ما عليه ، أو لو شاءه ساكنا غير متحرك بالتناقص والتزايد (لجعله ساكنا) لا يزول أو ساكنا لا يجول (ثم جعلنا الشمس عليه دليلا) أي ثم جعلنا طلوع الشمس دليلا على ظهوره وتميزه في الحس . إذ لو لم تطلع الشمس لم يكن ولم يحدث هناك ضوء . فلم يتميز الظل من غيره . (ثم قبضناه) أي الظل (إلينا) أي الى عالم غيبنا (قبضا يسيرا) قليلا قليلا متدرجا بالمهلة في التناقص ثم نشرناه من مبدإ العدم الى الوجود يسيرا ــ يسيرا الى ان غربت الشمس فَعَمَّ الظل المكانَ الذي عليه الضوء . وبهذا الإبداء والإمحاء والزيادة والنقصان جعلنا الزمان لكم وسيلة لكسب المعيشة وأخذ الراحة ، فجعلنا منه ليلا ونهارا .

(وهو الذي جعل لكم الليل لباسا) أي ساترا لكم كاللباس (و) جعل (النوم) أي منامكم فيه (سباتا) أي راحة للأبدان عن عمل وللحواس عن الإحساس تسهيلا على الناس (وجعل النهار نشورا) أي وجعله محلا لنشور الناس وانتشارهم في الأرض والبحر والجو لابتغاء المعيشة وما يتوقف عليه سعادة الإنسان المعتدل . وفي جعل النهار النشور مبالغة لا تخفى وإشارة كافية وافية الى استحباب العمل واستكراه الكسل .

(وهو الذي أرسل الرياح) المشهور أنها متى ذكرت مجموعة فهي للرحمة ومتى ذكرت مفردة فهي للعذاب • وفي الحديث إذا هبت الريح : « اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا » وقوله : (بشرا) بضم الباء وسكون الشين تخفيف بشرا بضمتين جمع بشور بمعنى مبشر ، أي أرسل الرياح مبشرات (بين يدى رحمته) اي أمام المطر النازل النابت عنه النبات والنامي به الاشجار والمتفتح به الازهار (وانزلنا من السماء) اي وانزلنا بما رتبنا بقدرتنا من ارسال الرياح من السحاب المتراكم في جهة العلو (ماءً طهورا) أي ماء وافر الطهارة فكما أنه طاهر في نفسه مطهر لغيره (لنحيي به) أي بما أنزلنا من السماء (بلدة) أي أرضا معمورة أو غيرها (ميتا) ليس لها أثر خير من النبات فهي شبيهة بالميت الذي لا حركة له إرادية (ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسي كثيرا) أي ولنسقي ذلك الماء أنعاما وأناسي كثيرا مما خلقنا • وخص ذلك بالذكر لأن أشرف الموجودات الإنسان وأقرب المنافع الحيوانية له هي الأنعام ، وإلا فالمستفيد من ماء السماء كل ذي حياة ونماءٍ (ولقد صرفناه بينهم ليذكروا) أي ولقد غيرنا ذلك الماء بينهم فنسقي بلدة ونبقى أخرى ، ونكثر منه في مكان ، ونقل منه في آخر ، وننفع به في بلدة ، وندمر به في أخرى... حتى يتذكروا ويعلموا أنه مأمور من الله لا علاقة لها إلا بإرادته النافذة لا مرد لها ، وأن الرياح، وإن كانت مثيرة للسحاب ، ولكن كثيرا ما نرى السحاب ولكن ليس قطرة ماء ، وكم من ايام واسابيع وشهور ومواسم يحتاج الناس فيها الى المطر وما ينزل منه شيء ؟ وإذا أراد الله ذلك سال الوادي بحيث يقع الناس في أخطار وويلات • والحاصل أن العاقل لا ينكر الأسباب ولكنها بدون تعلق إرادة الله علة ناقصة لا يحصل منها أثر مقصود • (فأبى أكثر الناس) وهم الجاهلون الذين لا يقدرون الله حق قدره (إلا كفورا) اي الا كفرانا بنعمة الله وإحسانه •

(ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا) أي رسولا مبشرا ونذيرا فتخف عليك أعباء النبوة، لكن خصصناك برحمتنا، وجعلناك ينبوعا للخير كله، وجمعنا آثار الرسل وأخلاقهم مجتمعة في شخصيتك ، وبعثناك رحمة للعالمين • (فلا تطع الكافرين) فيما يريدون منك ولا تركن إليهم (وجاهدهم به) أي بالقرآن الكريم ببلاغته للمتحدين ، وببراهينه للمعاندين (جهادا كبيرا) لا يتمكن منه غيرك • ثم ذكر الباري سبحانه أثرا آخر من آثار قدرته الباهرة فقال : (وهو الذي مرج البحرين) أي خلطهما أي خلط كلا بالآخر ، أي جعل أحدهما متصلا بالآخر بحيث لا حد فاصل بينهما (هذا) أي هذا القسم منه (عذب فرات) شديد العذوبة وقوي الكسر للعطش (وهذا ملح أجاج) أي مالح شديد الملوحة مع أن واحدا منهما لا يختلط بالآخر بحيث يؤثر في طعم الآخر وصفاته (وجَعَل بينهما برزخا) أي حاجزا من قدرته لا يغلب أحدهما على صاحبه ومثالهما الواقعي ككل ماء مستبحر ينصب في البحر ، كماء شط العرب المنصب في بحر الخليج ، وماء النيل المنصب في البحر الأبيض المتوسط ، فإن ماء الأنهار عذب فرات وماء البحار ملح أجاج ولا امتزاج بينهما ، بل هناك حدٌ كخط فاصل مع أن الماء لطيف بالطبع وحقه تأثير القوى في الضعيف والكثير في القليل (وحجرا محجورا) أي ومنعا للآخر وتنافرا بليغا ، فإن كل وصف يبالغ فيه يشتق منه وصف يحمل عليه ، يقال : سواد أسود ، وبياض أبيض • كما يقال : ليل أليل ، ويوم أيوم •

وأورد على ظاهر الآية بأنه خلاف المحسوس ، فإن الأنهار العظيمة كدجلة وما ينضم إليها ، والنيل وما ينضم اليه ، مما يشاهده الناس إذا اتصلت في البحر تغير طعم غير قليل منها في جهة المتصل ، وكذا يتغير طعم

غير قليل من البحر في جهة المتصل أيضا ، ويختلف التغير قلة وكثرة الى آخر ما قالــه .

وأقول : ليس المقصود من الآية أن لا يكون هناك تأثر وتغير من أحــد الجانبين في الآخر ، فإنه خلاف المحسوس بل المقصود أن الطبيعة الواحــدة إذا قويت وزادت وطغت واتصلت بشيء يخالفها في اللوازم فالظاهر الى العقل أن يغلب القوي الضعيف ويسري فيه بالمرة ، مع أنا نرى الأنهــار المستبحرة المتصلة بالبحار لا يتغير إلا شيء قليل ومسافة يسيرة منها ، ويبقى الآخر على حده وحقيقته وصفاته وليس ذلك إلا لأن الله تعالى جعل هناك حاجزا مــن قدرته يفصل بين الجانبين ولا يسري إلى ماوراء ذلك الحد أبدا .

(وهو الذي خلق من الماء بشرا) قيل : المراد هو الماء الذي خمرت به طينة آدم ــ عليه السلام ــ وجعل جزء من مادة البشر لتجتمــع وتسلــس وتستعد لقبول الأشكال والهيئات ، فالمراد بالماء الماء المعــروف ، والمــراد بالبشر آدم ــ عليه السلام ــ . أو المراد جنس البشر الصادق عليه وعلى ذريته . ويجوز أن يراد بالماء النطفة وحينئذ يتعين حمل البشــر على أولاد آدم ــ عليه السلام ــ كما يجوز أن يراد به المادة السائلة سواء كانت نطفة كما في الحيوانات الوالدة الولودة ، أو بيضا كما في الحيوانات البائضة . وعلى كل ففي هذا الخلق إبداع باهر وإيجاد قاهر ، حيث خص كل جزء من أجزاء النطفة مثلا لجزء من أجزاء البدن كالرأس ومحتوياته مــن الدمــاغ والسمع والبصر وغيرهما ، والظهر وفقراته ، والكتف وعضلاتها ، والرقبــة ومستوعباتها ، والصدر وما فيه ، والبطن وما يحويه ، والفخذين والركبتين والكعبين والقدمين ... وفي كل ذلك عروق وأعصاب وأشياء لطيفة لا يبقى ذلك العضو بدونه ، بله ما أودع الله في الإنسان من العقل والشعور وسائر اللطائف على وجه دقيق مشتمل على أسرار لا تستوعب إلا بتشريح للأعضاء

ودراسة على مقوماتها ، ومنافراتها وينجر ذلك الدرس والتشريح الى معرفة الأمراض ومعالجاتها والأدوية السريعة التأثير من غيرها . وذلك في حد الذات ، وأما من حيث المجتمع (فجعله نسبا وصهرا) أي جعله قسمين ذكورا وإناثا ، فجعل الذكور ينسب إليهم والإناث يُصاهر بهن .

(وكان ربك قديرا) أي وافر القدرة مبالغا فيها حيث قدر على أن يخلق من شيء قليل أشياء جليلة .

(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَنْفَعُهُمْ وَلا يَضُرُّهُمْ ، وكانَ الكافِرُ عَلى رَبِّهِ ظَهِيراً(٥٥) وَما أَرْسَلْناكَ إلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً(٥٦) قُلْ : ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إلاَّ مَنْ شاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إلى رَبِّهِ سَبِيلاً(٥٧) وَتَوَكَّلْ عَلَى الحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ ، وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ، وَكَفى بِهِ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيراً(٥٨) الَّذي خَلَقَ السَّمواتِ وَالأَرْضَ وَما بَيْنَهُما في سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى العَرْشِ الرَّحْمنُ ، فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً(٥٩) وَإِذا قِيلَ لَهُمُ : اسْجُدُوا للرَّحمنِ ، قالُوا : وَمَا الرَّحْمنُ ؟ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنا ؟! وَزادَهُمْ نُفُورا(٦٠) تَبارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّماءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيها سِراجاً وَقَمَراً مُنِيراً(٦١) وَهُوَ الَّذي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرادَ شُكُوراً)(٦٢)

قوله تعالى : (ويعبدون من دون الله) إستئناف لبيان تعمقهم في الجهل والدوام على التقليد الأعمى الذي لا يمت إلى عقل وشعور ، فيقول : (ويعبدون) أي أولئك المشركون (من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم)

من الأصنام اللاتي لا تنسب اليها قابلية الإنفاع ولا الإضرار لهم ولا لغيرهم، لأنها أخشاب وأحجار ومواد جامدة مفتعلة منصوبة جعلوها سندا للأهـواء (وكان الكافر على ربه ظهيراً) أي كان معاونا وظهيرا للشـيطان في عـداء ربه سبحانه وتعالى • (وما أرسلناك في حال من الأحوال إلا) حال كونك (مبشرا) للمؤمنين (ونذيرا) للكافرين ، وقد بشـرت وأنذرت ولا شـيء عليك إذا حصل لهم العناد والاستكبار • (قل : ما أسئلكم عليه) أي على تبشيري وإنذاري (من أجر إلا) أجر (من شاء أن يتخذ إلى ربـه سبيلا) فإن الأجر الواصل منه إليّ مرادي ومبتغاي فإن من سن سنة حسنة فله أجره وأجرُ من عمل به إلى يوم القيامة • (وتوكل على الحي الذي لا يموت) في الإغناء عن أجور الناس (وسبح بحمده) أي ونزهه سبحانه متلبسا بالثناء عليه (وكفى به بذنوب عباده خبيرا) لأن الخبرة الواقعية معرفة النيـات قبل الأعمال وهو بها خبير لا يخفى عليه منها شيء (الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام) من الأيام الملحوظة عنده (ثم استوى على العرش) واستولى عليه وأعلن عظمته في عالم السـماوات والأرض ومـن فيهمـا (الرحمن) أي هو الرحمن (فاسئل به خبيرا) ولا خبير به بحق إلا هـو نفسـه ، فخذ من صفاته ما وصل إليك منها بحق واكتف بذلك فإن المحدود لا يعلم من اللا محدود إلا ما شاء أن يفهمه منـه •

وهذا الإله الأزلي القديم الباقي اللا متناهي اثار صفاته الذي تـدل الآفاق والأنفس على وجوده ووجوبه ووحدته وعظمته •• ينبغي أن تسجد له الكائنات بأسرها • (وإذا قيل لهم : اسجدوا للرحمن ، قالوا) متجاهلين : (وما الرحمن ؟) وكيف هو ؟ (أنسجد لما تأمرنا ؟!) أنت (وزادهـم) أمرك لهم بالسجود (نفورا) من الإيمان والسجود •

ولما نفروا عن السجود وأكثروا من الكفر والجحود أشاد بصفات عظمته وعزه وقال (تبارك الذي جعل في السماء بروجا) وجدنا النصوص القاطعة في أن السماوات سبع، وأن في السماء بروجا، والبروج في الأصل القصور العالية . وعن الزجاج : أن البرج كل مرتفع ، واشتق منه التبرج بمعنى الظهور . كما وجدنا في عالم الارض مناطق متعددة تختلف فيها أوضاع النيرين قربا وبعدا من سمت رءوس أهل البلاد ، ومنها منطقتا القطب الشمالي والقطب الجنوبي الذين السنة فيهما يوم وليلة ، كل منهما ستة أشهر عندنا ، وعلمنا أيضا أن السنة الشمسية عندنا عبارة عن ثلثمائة وستة وستين يوما وكسرا ، أي أن مدة مابين طلوع الشمس من نقطة معينة أفقية وطلوعها مرة أخرى منها تلك الأيام المعدودة . وهذه المدة تنقسم الى اثني عشر قسما ، ستة منها تقع في شمال الخط الإستوائي يتكون منها الربيع والصيف ، والأسماء على الترتيب : الحمل ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان ، والأسد ، والسنبلة . وستة منها تقع في جنوب ذلك الخط ، ويتكون منها الخريف والشتاء ، والاسماء : الميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجدي ، والدلو ، والحوت . وبعد انتهاء الحوت تطلع الشمس من أول نقطة من برج الحمل وهو أول الربيع ، وهكذا إلى ما شاء الله تعالى ... وعليه يكون أيام الشهور ثلاثين يوما وواحدا وثلاثين يوما ، إلا شهرا واحدا وهو شباط يكون ثمانية وعشرين يوما ، وفي كل أربع سنوات يزيد يوما واحدا . هذه هي السنة الشمسية وبروجها أي منازل الشمس منها على نهج ما ذكرناه لك آنفا .

فالبروج هي الأقسام الاثنا عشر المذكورة ، وهي عالية وظاهرة في السماء (وجعل فيها) أي في السماء (سراجا) هي الشمس لقوله تعالى (وجعلنا الشمس سراجا) . (وقمرا منيرا) وكل منهما ينور السماء والأرض

مما يقابله (وهو الذي جعل الليل والنهار خلفةً) أي ذوي خلفة ونيابة لأنه يخلف كل منهما الآخر لقيامه مقامه وذلك التكرر نافع (لمن أراد أن يذكر) أي يتذكر ما فاته من العبادة فيقضيها ، أو يتذكر حقوق الباري تعالى ونعمه الوافرة عليه ، فإنه إذا كان في وقت الشباب غافلا لاهيا غير مبال بالطاعة فإذا شاب تذكر ما فاته من الأوقات وخلاها عن الطاعة (أو أراد شكورا) أي أو قصد شكر ربه تعالى على نعمة تكرار الليل والنهار وما ناله من الخيرات فيهما .

(وَعِبادُ الرَّحْمنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً ، وإِذا خاطَبَهُمُ الجاهلونَ قالُوا : سَلاماً(٦٣) وَالَّذِين يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِياماً(٦٤) والَّذِينَ يَقُولُونَ: رَبَّنا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ، اِنَّ عَذابَها كانَ غَراماً(٦٥) إِنَّها ساءَتْ مُسْتَقَرّاً ومُقاماً(٦٦) وَالَّذِينَ اِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفوا وَلَمْ يَقْتُرُوا ، وَكانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً(٦٧) وَالَّذِين لا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ ولا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ يَلْقَ أَثاماً(٦٨) يُضاعَفْ لَهُ الْعَذَاب يَوْمَ القِيامَةِ ويَخْلُدْ فِيهِ مُهاناً(٦٩) إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صالِحاً فَأُولئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّآتِهِمْ حَسَنَاتٍ ، وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً(٧٠) وَمَنْ تابَ وَعَمِلَ صالِحاً فَاِنَّهُ يَتوبُ اِلَى اللهِ مَتاباً)(٧١)

قوله تعالى : (وعباد الرحمن) استئناف لبيان أوصاف عباد الله الخالصين ، وأحوالهم الدنيوية والأخروية بعد بيان حال الكافرين المعاندين

فقال (وعباد الرحمن) الآية ••• والعباد جمع عبد ، وقال بعض جمع عابد كصاحب وصحاب • ويوافقه قراءة وعُبّاد بضم العين وتشديد الباء • والعبد من العبودية وهي الرضاء بما يفعله الرب تعالى • والعابد من العبادة وهي فعل المأمورات وترك المنهيات رجاء الثواب ، والنجاة من العقاب بذلك وعلى كل فالعباد مبتدأ ، وخبره الموصول وصلته أي (الذين يمشون على الأرض هونا) أي بهون ورفق ولين ، أو المراد يمشون هينين في سكينة ووقار لا يضربون بأقدامهم ولا يخفقون بنعالهم أشرا وبطرا ويريدون بذلك التواضع ويناسبه قوله تعالى (وإذا خاطبهم الجاهلون) أي واذا خاطبهم السفهاء وقليلو الادب (قالوا سلاما) أي قالوا تسلما منكم ومتاركة لاخير بيننا وبينكم ولا شر ، والمراد مدحهم بالإغضاء عن السفهاء وترك مقابلتهم •

(والَّذينَ يَبيتُونَ لِربهم سُجَّدا وقياما) جمعان لساجد وقائم ، والبيتوتة أن يدركك الليل نُمتَ أو لم تَنَم ، أي والذين يحيون الليل كلا أو بعضا بالصلاة • وهذه الفقرة وصف لحالهم في الليل كما أن الفقرة السابقة وصف لحالهم بالنهار • وفي الآية الكريمة ترغيب في صلاة الليل ، وقيل : المراد فعل الركعتين بعد المغرب والركعتين بعد العشاء ، وقيل : من شفع أو أوتر بعد أن صلى العشاء فقد دخل في عموم الآية• (والذين يقولون: ربنا اصرف عنا عذاب جهنم) أي يدعون الله تعالى في أعقاب صلواتهم أو في عامة أوقاتهم (ربنا اصرف عنا) وبعد عنا (عذاب جهنم ،إن عذابها كان غراما) أي ثقيلا أو لازما أو دائما ، ودوامه بالنسبة إلى الكافرين فإن المسلم يخرج من النار ويدخل الجنة كيفما كان (إنها ساءت مستقرا ومقاما) وساءت من أفعال الذم وفاعله مستتر راجع الى تمييز النسبة أعني مستقرا ومقاما • أي أنها ساء من حيث كونها مستقرا ومقاما لمن يكون فيها •

(والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا) أي لم يتجاوزوا حد الكرم (ولم يقتروا) أي لم يضيقوا تضييق الشحيح . وهذا الوصف يشمل حال العباد بالنسبة إلى أنفسهم وعائلتهم وكذا بالنسبة الى الواردين والسائلين من شتى الجهات . وقال بعض : الإسراف هو الانفاق في المعاصي ، والقتر الامساك عن الطاعة (وكان بين ذلك قواما) أي وكان إنفاقهم بين الإسراف والقتر عدلا وسطا . والقوام بالفتح العدل ، وبالكسر نظام الأمر وعماده . يقال هذا قوام الأمر وملاكه الذي يقوم به .

(والذين لا يدعون مع الله إلها آخر) أي لا يشركون به غيره سبحانه وتعالى (ولا يقتلون النفس التي حرم الله) أي حرم قتلها (إلا بالحق) أي إلا بسبب الحق المزيل لحرمتها وعصمتها كالزنا بعد الإحصان والكفر بعد الإيمان وقتل النفس البريئة . فالاستثناء من أعم الأسباب (ولا يزنون) أي ولا يطأون فرجا محرما . وهذه الصفات وإن كانت من صفات عباد الرحمن لكن ذكر هنا للتعريض بالكفار المشركين الجامعين أو الآتين بهذه الصفات الذميمة . (ومن يفعل ذلك) الأمر المذكور من الجرائم والذنوب (يلق) يوم القيامة (أثاما) أي عذابا لا يقادر قدره (يضاعف له العذاب يوم القيامة) بدل من جملة يلق أثاما (ويخلد فيه) أي في ذلك العذاب (مهانا) محقرا فيجتمع له العذاب الجسماني والروحاني (إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيآتهم حسنات) أي من تاب في الدنيا ورجع إلى الله تعالى ، وندم على مافرط في جنب الله ، وعزم على أن لا يعود إلى ما اقترفه ، وأدى ما يترتب عليه من الحقوق ، واستمر على الأعمال الصالحة من فعل الواجب وترك الحرام فإنه كف النفس وذلك فعل . ودخول الايمان في المستثنى يفيد دخول الكفر في المستثنى منه ، أي إلا من آمن منهم إذا كان كافرا وفعل ما فعل في وقت الكفر ، وكذا يدخل أهل الإيمان لأن المؤمن

المرتكب إذا تاب واستمر إيمانه وعمل الصالحات دخل في قوله تعالى (فأولئك) الناس الموصوفون بالصفات المذكورة بعد الاستثناء (يبدل الله سيآتهم) التي عملوها في الدنيا (حسنات) في ميزان الأعمال يوم الحساب وقرر ذلك بقوله الكريم (وكان الله غفورا رحيما) وقوله تعالى (ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب الى الله متابا) في قوة التعليل لما قبله ، ومعناه أنهم بتوبتهم ورجوعهم الى ربهم يكونون من زمرة عباده المخلصين المختصين به تعالى فلا جرم أنه تعالى يحبهم ويبدل الله سيآتهم حسنات وما ذلك على الله بعزيز •

(وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ، وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً(٧٢) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً(٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ : رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً(٧٤) أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا ، وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَاماً(٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً(٧٦) قُلْ : مَا يَعْبَؤُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ؟ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً)(٧٧)

(والذين لا يشهدون الزور) أي لا يشهدون الشهادة الكاذبة خوفا من الله المنتقم الذي يراعي حقوق العباد ويكره أن يبغي بعضهم على بعض (وإذا مروا باللغو) أي بالأمر الذي ليس من شأنه أن يعتنى به (مروا كراما) مكرمين أنفسهم عن الوقوف عليه والخوض فيه (والذين إذا ذكروا بآيات ربهم) أي وعظوا وأرشدوا بتلاوة الآيات القرآنية عليهم (لم يخروا عليها صمّا وعمْيانا) جمعان للأصم والأعمى وذكرهما كناية عن الإعراض وعدم

الاهتمام . أي إذا وعظوا بآيات الله أصغوا لها باهتمام ، واستمعوا لها بجد ونشاط ، ونظروا إلى الآثار المشهودة التي دلت عليهما وأبصروه إبصارا دقيقا ، وعملوا بمقتضاها ، فامتثلوا أوامرها وتركوا ما نهت عنها . (والذين يقولون : ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين) أي اجعل لنا من أزواجنا ما يعيننا على التقوى وقريرة العين ، ومن ذرياتنا ذرية طيبة تأتي بثمار الأعمال الصالحة والأخلاق الحسنة حتى نفرح بها في الدنيا والآخرة . (واجعلنا للمتقين إماما) أي واجعلنا أئمة للمتقين يقتدون بنا في الاعتقاد والإيمان والعهود والأيمان والأعمال الصالحة بحسب الإمكان (أولئك) العباد الموصوفون بتلك النعوت الجليلة (يجزون الغرفة) أي الدرجة العالية من درجات الجنة (بما صبروا) أي بسبب صبرهم على ما نابهم من المتاعب في طريق الطاعات (ويلقون فيها) أي في الغرفة (تحية وسلاما) من الملائكة المستقبلين لهم والمستبشرين بقدومهم حالكونهم (خالدين فيها) أي مقدرين الدوام والخلود فيها (حسنت مستقرا ومقاما) بقدر ما ساءت جهنم مستقرا ومقاما والاشياء تعرف بأضدادها . (قل) يا حبيبي لاولئك الناس الكافرين المستكبرين عن قبول الحق والإيمان بالله وتوحيده ورسله (ما يعبأبكم ربي) أي عبء يعبأ بكم وأي اعتداد يعتد بكم (لولا دعاؤكم) أي لولا عبادتكم وطاعتكم ، أو لولا إرادة دعوتكم الى قبول الحق ؟ (فقد كذبتم) أي فقد دعوناكم وأنتم كذبتم ولم تلبوا دعوتنا (فسوف يكون لزاما) أي فسوف يكون جزاءُ تكذيبكم للحق جزاء لازما يحيق بكم على أمره سبحانه وتعالى .

سورة الشعراء ، مكية ، وآياتها مائتان وسبع وعشرون
نزلت بعد سورة الواقعة

بسم الله الرحمن الرحيم

(طسم(١) تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ المُبينِ(٢) لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ أَلاّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ(٣) إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْناقُهُمْ لَها خاضِعِينَ(٤) وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمنِ مُحْدَثٍ إِلاّ كانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ(٥) فَقَدْ كَذَّبُوا ، فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْباءُ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ(٦) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ؟(٧) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً ، وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ(٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)(٩)

قوله تعالى (طسم) الكلام فيه كالكلام في أمثاله من فواتح السور . (تلك آيات الكتاب المبين) أي هذه السورة آياتُ القرآن الظاهر إعجازه ، فإن كانوا في ريب من نزولها من الله تعالى فليأتوا بمثلها (لعلك باخع نفسك) أي لعلك قاتل نفسك من شدة الأسى والأسف على (ألا يكونوا) أي أولئك المشركون (مؤمنين) فلا تبخع نفسك ولا تهتم بأحوالهم ، فإن منهم من يؤمن في المستقبل ، ومنهم من يكون في نسله المؤمنون فنمهلهم لذلك الذي جرى في قضائنا ، وإلا ف (إن نشأ) إلجاءهم للإيمان (ننزل عليهم من السماء آية) ملجئة لهم إليه (فظلت أعناقهم لها) أي لتلك الآية (خاضعين)

أي منقادين ، وهو خبر الأعناق في الأصل ، وتذكيره لاكتساب المبتدأ التذكير من المضاف إليه • ويحتمل أن يقال إن نشأ إهلاكهم رأسا حتى تكون في راحة من أذاهم ننزل عليهم من السماء آية من القواصف وغيرها فظلت أعناقهم لها خاضعين أذلاء عاجزين لموتهم بها ، فلا تبقى منهم قابلية العصيان والتمرد لموتهم عموما • (وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين) بيان لشدة شكيمتهم ، وسوء جريمتهم ، وفساد طبيعتهم • فيقول سبحانه وتعالى ما يأتيهم من ذكر من الرب الرحمن جديد تنزيله حسب حكمتنا في التنزيل إلا كانوا عنه معرضين ومستمرين على الإعراض (فقد كذبوا) بما نزلنا عليك قريبا (فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزءون) أي فسيطلعون على ما يحيق بهم من جراء تكذيبهم إن عاجلا أو آجلا •

(أو لم يروا إلى الارض كم انبتنا فيها من كل زوج كريم ؟) أي من كل فرد من النبات له مزاوج من صنفه ، فإن كان من الذكور فزوجه من الإناث أو بالعكس فبالعكس (إنّ في ذلك لآية) عظيمة دالة على وفور قدرته وشمول علمه وعلى سائر شئونه التي يجب عليهم الإيمان بها (وما كان أكثرهم مؤمنين) حسب تعلق علمه بسوء اختيارهم في المستقبل (وإن ربك لهو العزيز الرحيم) أي الغالب على كل ممكن من الممكنات وبالغ الرحمة على ذوات الارواح في الارض والسماوات •

(وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ ؟(١١) قَالَ : رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي ، وَلا يَنْطَلِقُ لِسَانِي ، فَأَرْسِلْ إِلَى هَرُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (١٤) قَالَ : كَلاَّ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ

مُسْتَمِعُونَ(١٥) فَأْتِيا فِرْعَوْنَ فَقُولا : إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ(١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ)(١٧)

قوله تعالى : (وإذ نادى ربك موسى) كلام مستأنف لتذكير الأمة المعاصرة بسوء أحوال الكافرين في مقابلة دعوة المرسلين ، وتسلية للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن إيذاء الكفرة لدعاة الحق من سنة الله في العالمين . أي واذكر إذ نادى ربك موسى (أن ائت القوم الظالمين) بالكفر والمعاصي واستعباد الناس وقوله (قوم فرعون) عطف بيان للقوم الظالمين قائلاً لهم على وجه الترغيب : (ألا يتقون ؟) الله وعذابه وعقابه وكيف يستمرون على تلك الأفعال الشنيعة المضافة إلى الكفر والإشراك بالله الواحد الأحد ؟ (قال) أي موسى : (رب إني أخاف أن يكذبون) من أول الوهلة وبادىء ذي بدء ، وذلك خوفا من محذور خارجي (ويضيق صدري ، ولا ينطلق لساني) معطوفان على خبر إن ، أي وعندي مانعان ذاتيان هما ضيق الصدر عند مجابهة الأمر الخطير وعدم انطلاق لساني وعدم مساعدته لي في البيان والتقرير (فأرسل إلى هرون) أي فأرسل الملك المأمور بالوحي وهو جبرائيل إلى هرون أخي ، وأشركه معي في الرسالة ، فإن صحبته لي تخفف من ضيق صدري وينوب عني في بيان المهمات ، وربما يرفع عني خوف التكذيب ، فإن الإنسان إذا كان مع غيره لا يهمه ما يأتيه من أذى عدوه وشره (ولهم علي ذنب) أي تبعة ذنب وجريمة عندهم ، يعني جريمة قتل الرجل القبطي الخباز في بيت فرعون (فأخاف أن يقتلون) وإذا كان أخي هرون معي أمكن أن يصرفوا النظر عن قتلي ، لأن له مناسبة وألفة مع بعض أتباعه فيمكن أن نستفيد من ذلك .

(قال : كلا فاذهبا بآياتنا) يعني فأجاب الله سبحانه وتعالى طلبه لإرسال أخيه هرون وردعه عن خوف قتله وقال له : جعلتُ أخاك رسولا معك ،

فاذهبا إلى فرعون وأتباعه ولا تخف أنت بالذات أو لا تخافا كلاكما (إنا معكم مستمعون) لما يقوله ، وراءون له ولأتباعه وأعمالهم . وهذه المعية معية النصرة والقوة وربط الجأش (فأتيا فرعون فقولا : إنا رسول رب العالمين : أن أرسل معنا بني إسرائيل) واترك استعبادهم وارفع اليد عنهم ، وكان بنو إسرائيل قد استعبدوا أربعمائة سنة مابين وفاة يوسف ـ عليه السلام ـ وبعث موسى وهرون ، وكان عددهم ستمائة وثلاثين ألفا على ما ذكره البغوي .

(قال : أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينا وَلِيداً ؟ وَلَبِثْتَ فِينا مِن عُمُرِكَ سِنِينَ ؟(١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ ؟(١٩) قالَ : فَعَلْتُها إِذاً وَأَنا مِنَ الضّالِّينَ(٢٠) فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمّا خِفْتُكُمْ ، فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً ، وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ(٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّها عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرائيل ؟!)(٢٢)

ولما وقفا موقفهما المتين من رسالة رب العالمين ، وطلبا من فرعون الطاغي الإيمان بالله تعالى والانقياد لحكمه وإطلاق بني إسرائيل من استعباده .. رفع فرعون رأسه ونظر إليه متعجبا مستنكرا لدعواه وثورة نفسه . و (قال : ألم نربك فينا وليدا ؟ ولبث فينا من عمرك سنين ؟) أي ألم تكن أنت كما سمعت من الناس وليدا ضعيفا جعلوك في تابوت مخافة من سطوة زبانيتي وذبحهم لك ، وأخذناك رحمة منا عليك وربيناك حتى وصلت الى حد الاكتفاء الذاتي ، وتوقفت فينا من عمرك سنين تخدم دائرتنا وأهلنا كغلام في البيت وأنت تحت رعايتنا ، وتعرف مقامنا ونفوذنا وشوكتنا ... فكيف تتكلم بما تكلمت به وتدعونا

إلى اطاعتك في أوامرك واطلاقي لبني إسرائيل أن يكونوا معك كخدام ؟ (وفعلْت فعلْتك التي فَعَلْت) وبعد ذلك الإحسان والتربية والبقاء فينا فعلت فعلتك المنكرة التي يستكرهها الناس حيث قتلت أحد أفراد رعايانا وخاصتنا من الأقباط (وكنت) أنت (من الكافرين) بحقوق نعمتي وتربيتي وإلا ما كنت تقدم على ذلك العمل ؟ (قال : فعلتها) أي نعم فعلت تلك الفعلة (إذاً) أي إذ كان الأمر كذلك أي إذا استغاث بي المستغيث (وأنا من الضالين) أي من الجاهلين بأن وكزتي تقضي عليه ويموت ، وإنما ظننت أنها تزعجه وتدفعه بحيث لا يرجع الى ضرب الفقير المستغيث • ومن اللازم لأهل الوجدان السليم دفع الظالم عن المظلوم وذلك شيء مقرر معلوم (فـ) لما أفضت الوكزة إلى قتله ووقعت فيما وقعت فيه (فررت منكم) ومن عقابكم (لما خفتكم) وذلك حين تكرر مثل حادثة قتل القبطي وأراد أن يسطو بالرجل المتعارك على أحد بني إسرائيل فهدده بأنك تريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس ، وذهب الرجل وأخبر عنه بما صدر منه ، والناس تدبروا في الأمر وقرروا معاقبته ، فجاء رجل مؤمن إليه وقال له إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج من البلد إني لك من الناصحين • (فوهب لي ربي حكما) أي أنه بعد أن فررت من الجبارين إلى الله وعبرت النيل وسيناء ووصلت الى شعيب النبي وخدمته ، وزوجني بنته وتبركت بمصاحبة بيت الرسالة ، وهب لي ربي الذي رباني ومن الكافرين نجاني حكما الى نبوة ورسالة لإخراج الناس من الضلالة ، وحكما ونفوذا في قلوب الناس بما خصني به من المعجزات (وجعلني من المرسلين) إليك وإلى من تبعك من الغاوين •

(وتلك نعمة تمنها عَلَيّ) اي وتلك التربية التي ذكرتها الآن وتعدها عليّ نشأت من (أن عَبّدتَ بني إسرائيل) واستضعفتهم وقد ذبحت أبناءهم واستحييت نساءهم ، ومن أجل ذلك جعلتني أمي في التابوت والقتني في اليم

بإلهام ربها مرتجية فتح باب الكرم وصيانتي من الذبح والألم • فهذه التربية وإن كانت بالنسبة إليّ نعمة ولكنها بالنسبة إليك كانت فرعا من فروع تعذيبك لبني إسرائيل المساكين المضطهدين الواقعين تحت يديك وأيدي زبانيتك الجبارين الفارغين من كل رعاية لحقوق الإنسان لاسيما المستضعفين •

(قَالَ فِرْعَوْنُ : وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟(٢٣) قَالَ : رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ(٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ : أَلَا تَسْتَمِعُونَ ؟(٢٥) قَالَ : رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ(٢٦) قال : إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ(٢٧) قال : رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ(٢٨) قالَ : لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلٰهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ(٢٩) قالَ: أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ؟(٣٠) قالَ : فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ(٣١) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ(٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ)(٣٣)

قوله تعالى : (قال فرعون : وما رب العالمين ؟) أي بعد أن سمع فرعون كلام موسى وقوة نفسه ومعنويته سأله مستفهما عن مرسله : (وما رب العالمين ؟) أي ما حقيقته المختصة التي نعرفها ؟ (قال : رب السماوات والارض وما بينهما ، إن كنتم موقنين) قال موسى ـ عليه السلام ـ في جوابه على نهج أسلوب الحكيم الذي يجيب بما يفيد السائل (رب السموات والارض) أي إن رب العالمين لا طريق لنا الى معرفة كنهه وحقيقته فإنها لا تكشف لنا وكيف يصل العقل المحدود الى الحقيقة

اللا محدودة الموصوفة بوجوب الوجود والأزلية والأبدية والاستغناء المطلق وعدم مماثلة شيىء من الاشياء واتصافه بالوحدة ذاتا وصفة وفعلا وانما يعرف بالصفات والآثار الناشئة من قدرته ؟ فهو رب السماوات والأرض (وما بينهما) من الهواء وما فيه (إن كنتم موقنين) بالآثار محققين لها وعالمين بأنها من الممكنات الخاصة وهي لا توجد بدون فاعل يرجح وجودها على عدمها • (قال فرعون) عند سماع جوابه ــ عليه السلام ــ (لمن حوله) من أشراف قومه : (ألا تستمعون ؟) جوابه الذي ليس فيه مقصودي فإني أسأله عن حقيقة رب العالمين وهو يجيبني ببيان الاعمال والآثار • (قال) موسى ــ عليه السلام ــ منتقلا إلى جواب أوضح من الاول : (ربكم ورب آبائكم الأولين) أي إن رب العالمين هو ربكم ورب آبائكم الأولين الذين خلقهم من نطفة ثم من علقة • ثم من مضغة ونفخ فيها الروح وأودع في الارواح العقول والشعور والهداية الى الظلمات والنور (قال فرعون) مبالغا في الرد : (إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون) حيث يسأل عن شيء ويجيب عن آخر (قال) ــ عليه السلام ــ مشيرا إلى أنكم لستم أهلا لذلك الباب وليس من حقكم السؤال عن حقيقة الحق سبحانه لأنه لا يسأل عن شي لا تصل إليه العقول وموضحا للجواب الاول : هو (رب المشرق والمغرب وما بينهما) من الدرجات المختلفة لسير الشمس (إن كنتم تعقلون) أي إن كنتم من أهل العقل علمتم أن الامر كما قلته وأشرت إليه •

(قال فرعون) بعد أن فهم أن موسى حكيم يأتي بالأسلوب الحكيم ولا يذكر أسرارا يعجز عن إدراكها أفهام الأوساط ، وهو لا يفحم بالمقال : (لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين) المحكومين بالسجن المؤبد

حتى لا تخرج فتحرج الناس وتدعوهم إلى ما تعودوا عليه من اتخاذ الهياكل واعتبار أولي النفوذ الدنيوي أربابا (قال) موسى ــ عليه السلام ــ : (أو لو جئتك بشيء مبين ؟) أي أتحكم بتعذيبي وسجني ولوجئتك بشيء من المعجزات الإلهية الخارقة للعادة مبين وموضح لأهل العقل أن للكائنات ربا قادرا على الممكنات وتحويل الاشياء الى ما هو على غير صفاتها الاعتيادية (قال) فرعون : (فأت به إن كنت من الصادقين . فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين) ظاهر ثعبانيته (ونزع يده) من جيبه (فإذا هي بيضاء للناظرين) أي أن بياضه يدعو الناس إلى النظر إليها .

(قالَ لِلْمَلأِ حَوْلَهُ : اِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ(٣٤) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ اَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَماذا تَأْمُرُونَ ؟(٣٥) قالُوا : أَرْجِهْ وَأَخاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ(٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحّارٍ عَلِيمٍ(٣٧) فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ(٣٨) وَقِيلَ لِلنّاسِ : هَلْ : اَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ؟(٣٩) لَعَلَّنا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ اِنْ كانُوا هُمُ الْغالِبِينَ(٤٠) فَلَمّا جاءَ السَّحَرَةُ قالُوا لِفِرْعَوْنَ : أَئِنَّ لَنا لأَجْراً اِنْ كُنّا نَحْنُ الْغالِبِينَ ؟(٤١) قالَ : نَعَمْ وَإِنَّكُمْ اِذاً لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ)(٤٢)

قوله تعالى (قال للملأ حوله) أي قال فرعون للأشراف الذين استقروا حوله بعد أن رأى من موسى ــ عليه السلام ما رأى (إن هذا لساحر عليم) إن هذا الرجل الذي عرفتموه ورأيتموه أتى بما أتى به لساحر عليم فائق في فن السحر (يريد أن يخرجكم من أرضكم) التي قد ولدتم فيها وتربيتم وعمرتم وعشتم مستريحين (بسحره) أي بجلب نظركم إليه به فيلقى في قلوب الناس مهابة له واحتراما فيتبعونه بكثرة فتكون له القوة والنفوذ

ويجبر الناس على اطاعته وأنتم تخالفونه وتحاربونه فيغلبكم ويخرجكم منها (فماذا تأمرون ؟) به في دفعه قبل استفحال أمره (قالوا : أرجه وأخاه) أي اخر أمرهما الى أن تجمع السحرة من البلاد التي لك قدرة عليها (وابعث في المدائن) مأمورين محصلين (حاشرين) لأهل السحر (يأتوك بكل سحار) كثير التفنن في السحر (عليم) فائق في فنه يغلب غيره بمكيدته .

وفي (أرجه) لغات ، لأن اصله أرجئه ، أمر باب إفعال من الإرجاء بمعنى التأخير ، فقرأ الكثيرون أرْجئهُ بإبقاء الهمزة وضم هاء الضمير على الأصل . وقرأ عاصم وحمزة أرجه بحذف الهمزة وسكون الهاء لأن الهمزة ما دام تنقلب ياء لسكونها وكسر ما قبلها والياء تحذف آخر الأمر حقها الحذف ، وسكنا الضمير لشبهه بهاء أصل الكلمة . والكسائي وخلف أرجهِ بحذف الهمزة وكسر الهاء .

(فجمع السحرة لمقيات يوم معلوم) أي فذهب الحاشرون وجمعوا السحرة المعهودين أو جميع السحرة لما وقت به من ساعات يوم معين وهو وقت الضحى من يوم الزينة . (وقيل للناس : هل أنتم مجتمعون ؟) في ذلك الميقات متفرجين على ما يحدث (لعلنا نتبع السحرة) في دينهم (إن كانوا هم الغالبين) على موسى ــ عليه السلام ــ ومرادهم بذلك أن لا يتبعوا موسى فإن معاندته هي الأمنية الغالية لهم (فلما جاء السحرة) واجتمعوا في البلاط الملكي وتشاوروا فيما بينهم في حالهم ومستقبلهم اتفقوا على طلب أجور معينة عندَ الغلبة (وقالوا) لفرعون : (أئن لنا لأجراً إن كنّا نحنْ الغالبينَ ؟ قال) فرعون : (نعم) لكم الأجر اللائق (وإنكم) علاوة على الأجر المادي المناسب لكم (إذا) إذا كانت الغلبة لكم (لمن) الناس (المقربين) إلينا تدخلون علينا قبل الداخلين ، وتخرجون بعد الخارجين .

(قالَ لهُمْ مُوسى : أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ(٤٣) فَأَلْقَوْا حِبالَهُمْ وعصيَّهُمْ ، وقالُوا : بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الغالِبُونَ(٤٤) فَأَلْقى مُوسى عَصاهُ فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ(٤٥) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدينَ(٤٦) قالُوا : آمَنَّا بِرَبِّ العالَمِينَ(٤٧) رَبِّ مُوسى وَهرُونَ(٤٨) قالَ : آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ؟ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ، فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ! : لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) قالُوا : لا ضَيْرَ إِنَّا الى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ(٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنا خَطايانا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ المُؤْمِنِينَ)(٥١)

قوله تعالى (قال لهم موسى) أي بعد أن قال له السحرة إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى (ألقوا ماأنتم ملقون) أي فوضهم الى ميل أنفسهم الاشتهاء بدون تخصيص وتقييد استعملوا ما تستعملونه وألقوا الى مرأى الناس (ما أنتم ملقون) له وذلك لعدم الاعتناء بأعمالهم (فألقوا حبالهم) أي الحبال التي بللوها وغذوها بالزئبق (وعصيهم) التي يعتمدون عليها في إبراز عمل السحر (وقالوا) عند إلقائها : (بعزة فرعون) وقوته الجبارة (إنا لنحن الغالبون) لا شك ولا غالب غيرنا (فألقى) موسى (عصاه) (فإذا هي تلقف) وتبتلع (ما يأفكون) أي المواد التي يأتون بالإفك عليها (فألقي السحرة) من القوة القدسية على وجوههم (ساجدين) لله تعالى على ما شاهدوه من معجزة موسى مقارنة بالهيمنة والرهبة الربانية (قالوا : آمنا برب العالمين ، رب موسى وهرون) أي الرب الذي يعرفانه من دون شبهة وريب إيمانا لهما به من أعماق القلوب (قال فرعون) لما شاهد ذلك :

(آمنتم) أيها السحرة له (قبل أن آذن لكم ؟) وأعلمكم بإجازتي لكم في هذا الأمر الخطير الذي يمس كيان الدولة المدعية أنها القوة الهائلة فوق قوى العالم إن هذا الامر لمكر مكرتموه وشيء دبرتموه ، ومؤامرة علينا تآمرتم واتفقتم عليها سرا و (إنه لكبيركم الذي علمكم السحر) فاتفقتم على ما فعلتم (فلسوف تعلمون) النتائج التي تحيق بكم (لأقطعن أيديكم وأرجلكم) من جهة (خلاف) جهة الاخرى أي لاقطعن أيديكم اليمنى وأرجلكم اليسرى ، ثم أيديكم اليسرى وأرجلكم اليمنى (ولأصلبنكم) على جذوع النخل العالية حتى لا تنالها أيدي المتناولين وتتمزقوا وتأكلكم الطيور والحشرات الجوية (أجمعين) بلا استثناء أحد منكم حتى لا تبقى لكم باقية .

(قالوا) أي السحرة : (لا ضير) أي لا ضرر علينا في تطبيق ماهددتنا به (إنا إلى ربنا) العالم بالخفيات (منقلبون) ويهب لنا الثواب الجسيم والجزاء العظيم البتة (إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا) السابقة وما كنا عليه (أن كنا أول المؤمنين) أي لأنا كنا بهذا الإيمان المعلن في هذا الموقف المحمود واليوم المشهود أول المؤمنين بصورة جماعية معروفة بين العالمين .

وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٥٢) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (٥٦) فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى : إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي

سَيَهْدِينِ(٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ : اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ ، فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ(٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ(٦٤) وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ(٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ(٦٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ(٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)(٦٨)

قوله تعالى (وأوحينا الى موسى) يعني أنه بعد أن صارت المقابلة بين موسى ــ عليه السلام ــ وبين السحرة وغلب عليهم ، وانقلب المعارضون صاغرين ، بقي موسى وهرون ومن تبعهما من بني إسرائيل في مصر ، ولكنهم كانوامضطهدين ، وكان سيدنا موسى ــ عليه السلام ــ يدعوهم الى الايمان واتباع الحق وهم يعاندون ، فأوحى الله إلى موسى ــ عليه السلام : أن فرعون فيصدد المهاجمة عليك وعلى من تبعك، فالطريق لخلاصكم منه (أن أسر بعبادي) المؤمنين ، وتحرك من مصر معهم ليلاً مختفين (إنكم متبعون) واسعوا في قطع مسافات واسعة بمدة قليلة لعلكم تنجون ، فسرى بهم ليلاً وارتحلوا من ديار مصر متوجهين الى سيناء ، (ف) لما علم فرعون أنهم ارتحلوا وكانوا كثيرين (أرسل فرعون في المدائن) أي مدائن مصر رجالا (حاشرين) جامعين للعساكر ليتبعوهم قائلا لهم (إن هؤلاء) اي بني اسرائيل (لشرذمة") أي طائفة من الناس وقيل هي السفلة منهم (قليلون) عدداً وعددا . وفي الواقع كانوا ستمائة ألف وعشرين ألفا واتبعهم فرعون لتعقيبهم بعدد زائد على ذلك (وإنهم لنا لغائظون) أي حاقدون فإذا أمكنهم النزاع والحرب حاربونا (وإنا لجميع حاذرون) أي وإنا لجمع من سيرتنا الحذر وملاحظة العواقب (فأخرجناهم من جنات وعيون ، وكنوز ومقام

كريم) معناه أنا كذّناهم وهيأنا لهم وسيلة خروجهم من ديارهم المحتوية على البساتين والحدائق والعيون الجارية فيها • ومن أموال مكنوزة عندهم مخزونة في خزائن خاصة مقفلة ، ومقامات للراحة والمنام والقعود والقيام • والمراد بها القصور المسكونة لهم فتركوها واتبعوا بني إسرائيل لإبادتهم أو أسرهم واستعبادهم أو لأجل إبعادهم الى ممالك أخرى ولم يعلموا أنه لا يحيق المكر السيء إلا بأهله ، وإنا بعد خروجهم لا نخليهم يرجعون على آثارهم ، وفعلا لما خرجوا ما رجعوا (وأورثناها) أي تلك الجنات والعيون والكنوز والمقام الكريم (بني إسرائيل) •

وظاهر هذه الآية الكريمة أن بني إسرائيل هم الذين استولوا عليها : فمن الناس من يقول إن المراد أنهم بعد هلاك فرعون وقومه المحاربين وعبور موسى مع من كان معه من بحر النيل رجعوا إلى مصر وسكنوا فيها مدة عشر سنين • ومنهم من يقول أنه بعد العبور من النيل رجع بعض بني إسرائيل الى مصر وهم الذين أورثوا أموال القبط ، وذهب الباقون مع موسى ــ عليه السلام ــ الى أرض الشام • قلت : ويحتمل أنه كان بعض من بني إسرائيل الساكنين في مصر سياسيين موالين لفرعون وأتباعه ، ولم يخرجوا مع موسى ــ عليه السلام ــ وأتباعه فبقوا هناك وبعد غرق فرعون وأتباعه الشداد المقاتلين في النيل استولوا على تلك المساكن والبساتين والحدائق والكنوز بشتى أساليب الإستيلاء ، فإنا نجد في بعض الأماكن كثيرين من قوم يوالون قوما آخر كأنهم منهم فيستفيدون منهم أموالا طائلة ، ولعل هذا الإحتمال أوفق وأنسب وأقوى تأريخا ومدركا •

ولنرجع إلى تسلسل موضوع الآيات الكريمة فيقول الباري سبحانه (فأتبعوهم) أي لما جمع الحشد الكبير الكثير عنده ، وعزم على السير وراء بني إسرائيل اتبعوهم أي أتبع فرعون وجنوده بني إسرائيل (مشرقين

حالكونهم داخلين في وقت شروق الشمس أي طلوعها من صباح ليلة اجتماع الجيش ، فساروا وراءهم (فلما تراء الجمعان) أي تقارب الجمعان جنود فرعون واتباع موسى ـ عليه السلام ورأى بعضهم بعضا (قال أصحاب موسى إنا لمدركون) أي لملحقون من جهة جيش العدو (قال) موسى ـ عليه السلام ـ في جوابهم وتشجيعهم : (كلا) لا ندرك ابدا (إن معي ربي سيهدين) قريبا الى ما فيه النجاة الأبدية (فأوحينا الى موسى أن اضرب بعصاك البحر) أي بحر النيل (فانفلق) أي فضربه فانفلق أي فانفصل البحر بعضه عن بعض وتفرق الى أقسام (فكان كل فرق كالطود العظيم) أي كالجبل العالي الثابت في مقره . ورأوا أن سطح أرض النهر ليس فيه ماء بحيث يمنع المارة من المرور الإعتيادي . ويروى أن عدد الفرق كان على عدد الأسباط فمر كل منهم في ممر خاص والله أعلم (وأزلفنا ثم الآخرين) أي وقربنا هناك الجمع الآخرين من أتباع فرعون معه (وأنجينا موسى ومن معه) أجمعين بمرورهم في فجوة الفرق ولم يمسَّ أحداً منهم السوء (ثم أغرقنا الاخرين) فرعون وجنوده بإطباق البحر عليهم بعد خروج موسى ومن معه من البحر (إن في ذلك لآية) عظيمة ومعجزة جسيمة (وما كان أكثرهم مؤمنين) أي وما كان أكثر من كان مع سيدنا موسى ـ عليه السلام ـ مؤمنين بأن هذه الآية العظيمة كانت من الله لنصرة موسى ونجاة من معه، بل كانوا يحملونها على الصدف فإن من شأن الضال التائه الغويّ أن لا يعتبر بأية عبرةٍ ترد عليه سواء كانت من المهلكات كالقحط والحرب والأمراض ، أو من المنجيات كالنصرة والخلاص من الزحمة ووفور النعمة الى غير ذلك .

وقد فسر بعض المفسرين الأعلام هذه الآية على معنى أن في ذلك القصص المذكورة في شأن موسى ـ عليه السلام ـ مع فرعون وإنجائه مع من معه وإغراقه مع جنوده لآية عظيمة للناس الذين يقصها الرسول محمد

ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وحقهم أن يعتبروا بها ويقيسوا المتمردين من المشركين على فرعون وأتباعه العتاة الطغاة ، ويقيسوا سيدنا محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن معه من المؤمنين على موسى ومن معه ، ويؤمنوا بأنه كما كان العاقبة لموسى والعقاب لفرعون وأهله وجنوده تكون العاقبة الحسنى لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وللمؤمنين به والعقاب والعذاب للمتمردين من مشركي العرب ، مع أن أكثرهم لم يؤمنوا بذلك ، ولم يأخذوا منها عبرة تنفعهم وتسوقهم الى الايمان بسيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ (وإن ربك لهو العزيز) الغالب على أمره يفعل ما يشاء ويحكم مايريد وينصر من شاء على من شاء (الرحيم) حيث لا يأخذ العتاة فورا بل يمهلهم الى أجل مسمى كما يقال : إن الله يمهل ولا يهمل •

(وَاتْلُ عَلَيهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ(٦٩) : إذ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ : ما تَعبُدُون ؟(٧٠) قالُوا : نَعْبُدُ أَصناماً فَنَظَلُّ لَها عاكِفِينَ(٧١) قالَ : هَلْ يَسْمَعُونَكُم إِذْ تَدْعُونَ ؟(٧٢) أو يَنْفَعُونَكُمْ اَوْ يَضُرُّونَ ؟(٧٣) قالُوا : بَلْ وَجَدْنا آباءَنا كَذلِكَ يَفْعَلُونَ(٧٤) قالَ: أَفَرَأَيتُمْ ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ(٧٥) أَنْتُم وآباؤُكُمُ الأَقْدَمُون ؟(٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاّ رَبَّ العالَمِينَ(٧٧) الَّذي خَلَقَني فَهُو يَهْدِينِ(٧٨) والَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ(٧٩) وَإِذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ(٨٠) والَّذي يُميتُني ثم يُحْيِينِ(٨١) وَالَّذِي اَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لي خَطيئَتي يَوْمَ الدِّينِ(٨٢) رَبِّ هَبْ لي حُكْماً وَأَلحِقْني بِالصّالِحينَ(٨٣) واجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ(٨٤)

وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ(٨٥) وَاغْفِرْ لِأَبِي ، إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ(٨٦) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ(٨٧) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ(٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)(٨٩)

قوله تعالى : (واتل عليهم نبأ إبراهيم) عطف على العامل المقدر في إذ نادى ، أي اذكر ذلك لقومك ، واتل عليهم نبأ إبراهيم ، ويتعلق بالنبأ إذ اي النبأ الحاصل (إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون ؟) أي ماالذي تعبدونه وذلك ليسمع جوابهم ويبني عليه ما أراد إعلانه من أن ما يعبدونه جوامد هامدة لا أرواح لها ولا يحصل منها أثر من نفع أو ضر لأحد • (قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين) زادوا في الجواب على ما أريد بالسؤال ليزيدوا من إظهار ما في ضمائرهم من التعمق في الضلال وأنهم عاكفون لعبادتها بالاحترام والإجلال (قال) إبراهيم ـ عليه السلام ـ بعد ماسمع من الكلام : (هل يسمعونكم) أي يسمعون كلامكم (إذ تدعون أو ينفعونكم) بسبب عبادتكم لها (أو يضرون ؟) أي يضرونكم بتركها (قالوا : بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون) أضربوا عن أن تكون عبادتهم لها لطمع نفع أو قطع ضرر ، وأظهروا أن لا سند لهم فيها سوى تقليد آبائهم (قال : أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون ؟) أي أرأيتم شيئا من الخير تحصلونه على عبادتها أنتم واباؤكم السابقون ؟ فكأنهم قالوا لا ما رأينا شيئا فقال إبراهيم عليه السلام (فإنهم عدولي) ولا شك في عداوتهم لي وعداوتي لهم (إلا رب العالمين) فإنه ليس عدوا لي ولا لغيري بل هو رءوف بي وبغيري • وهو (الذي خلقني) من العدم وسواني إنسانا مكرما داخلا في أمة من الأمم (فهو يهديني) إلى ما يهمني ويصلحني من أمور المعاش والمعاد (والذي هو يطعمني) إذا جعت (ويسقيني) إذا عطشت فإن الطعام والشراب نصيب

والنصيب مغيب والمعين له هو الرزاق القريب (وإذا مرضت فهو يشفين) أي ويرشدني الى طبيب يداويني أو يدفع عني المرض بسلام يأتيني (والذي يميتني) اذا جاء أجلي فأبقى ما شاء الله ، (ثم يحييني) للحساب وميزان الأعمال في الدين • يعني إن هذه الامور كلها من ابتداء خلق الانسان ونشوئه وبقائه وامراضه وسائر عوارضه وإماتته وإحيائه ••• كل في كتاب وذلك عائد الى الله سبحانه وتعالى لا غير (والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين) قالوا استعظم أن يصدر منه شيء مخالف لميزان إلا لصورة الخطأ ولذلك قال : خطيئتي ، ولكن الواقع أن الانبياء ـ عليهم السلام ـ وان كانوا معصومين من الذنوب ، كما حقق في محله ، لكنهم لما تعمقوا في الايمان وإدراك عظمة الباري جل جلاله وجدوا أنفسهم في ذلك المقام قاصرين عن الإتصاف بأداء حق العبودية وعدوا ما صدر منهم ؛ وفيه شائبة من اشتهاء النفس أو الغفلة عن جانب القدس ذنوبا واستغفروا الله عنه وكفى في ذلك قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « وإني لأستغفر الله في كل يوم سبعين مرة » أو كما قال وماروي عنه من قول سيدنا إبراهيم إلي سقيم وقوله (بل فعله كبيرهم) هذا وقوله لزوجته سارة هي أختي ليست من باب الإخبار بالكذب قطعا بل أراد من الاول الحيرة في جلال الذات ومعرفة الحق سبحانه وتعالى • وكان القول الثاني تعريضا والثالث صدقا وحقا وهي أخته دينا وإيمانا •

وقوله (رب هب لي حكما) حمله على هذا الدعاء الجليل ما أتى به من صفات الباري وإسناد الأمور إليه فلما استغرق في ذلك غلبه الشهود ، وأتاه المقصود وهو طلب المهم منه فقال (رب هب لي حكما) أي القوة والسيطرة على نفسي لرعاية جانب القدس أو كمال القوة العلمية لأفهم كل شيء على حقيقته أو النفوذ لتطبيق الحق في العالم •

(وألحقني بالصالحين) أي بالعباد الصالحين في اعتقادهم وأقوالهم وأفعالهم (واجعل لي لسان صدق في الآخرين) أي واجعل لي قوة على آثار نافعة خالدة يكون لمن يذكرني بها لسان صدق أي لسان يتكلم بالصدق ، أي إذا ذكروني بالخير يكون كلامهم صدقا وحقا ولا أريد ذلك في طبقة خاصة بل في كافه الآخرين مادام أهل الدين موجودا إلى يوم القيامة ، وقد أجاب الله دعاءه فجعل ذكره بالخير منتشرا في ربوع الدنيا وسيبقى ذلك مادامت الدنيا باقية . (واجعلني من ورثة جنة النعيم) أي من الذين يأخذون مقامهم في الجنة موهبة رحمانية كإرث الورثة من المورثين ، وذلك إشارة إلى أن من دخل الجنة فقد دخلها برحمة الباري وموهبته لا باستحقاقه في مقابل طاعته ، وهو ظاهر (واغفر لأبي إنه كان من الضالين) عن طريق الحق أي طريق التوحيد لله (ولا تخزني) بتعذيبه (يوم يبعثون) أي الناس هو وغيره (يوم لا ينفع مال ولا بنون) أي لا ينفع مال بذاته ولا بصرفه في الخير ، ولا ولد بذاته ولا بأعماله ودعواته لي . وقد استغفر له قبل أن يعلم بأن الدعاء لأمثاله غير مقبول وقد وعده به كما قال تعالى (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة) الآية ... وظاهر الآية أن ذلك الرجل المدعو (آزر) كان والده وكان استغفر له سيدنا إبراهيم ــ عليه السلام ــ لموعدة وعدها اياه . وعند بعض المحققين من المؤرخين أنه كان عمه وتربى عنده لوفاة أبيه سابقا فكان يدعوه باسم الأب . وقوله تعالى (يوم لا ينفع مال ولا بنون) بدل من قوله تعالى (يوم يبعثون) وقوله تعالى (إلا من أتى الله بقلب سليم) استثناء من أعم المفاعيل ، أي يوم لا ينفع مال أحد ولو كان مصروفا فيجهات الخيره ولا ينفع بنون بذاتهم ولا بدعواتهم أو أعمالهم أحدا إلا من أتى الله بقلب سليم من مرض الكفر والنفاق ضرورة اشتراط نفع كل ما يتعلق بالإنسان بالإيمان الثابت الخالي عن الخلل . جعلنا الله تعالى من أصحاب القلب السليم إنه هو الرءوف الرحيم .

(وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ : أَيْنَ مَاكُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِنْ دُونِ اللهِ ؟ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْيَنْتَصِرُونَ ؟ (٩٣) فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قَالُوا : وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ :(٩٦) تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وما كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)(١٠٤)

قوله تعالى : (وأزلفت الجنة) معطوف على قوله (لا ينفع) أي يوم أزلفت الجنة الآية • والتعبير بصيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع • ويجوز أن يكون هو وما بعده جملا مذكورة لبيان ظهور آثار النعمة للمؤمنين والنقمة للكافرين وبيان الأسئلة الموجهة على القسم الثاني في الآخرة ومعنى الآية : وقربت الجنة للمتقين عن الكفر والنفاق مبتهجة ومزينة بجهات الزينة وفنون المحاسن بحيث يشاهدونها فيفرحون بأنهم يدخلونها ويخلدون فيها (وبرزت الجحيم للغاوين) أي الضالين عن طريق الحق والدين وهو التقوى والإيمان الخالص • وطريقة تقريب الجنة وتبريز الجحيم مع أن أرض المحشر لا تسعهما بكشفهما عن أهلهما فإن المنظار القوي يدرك به الأمكنة البعيدة كأنها قريبة وأمام الناظر وإدراك عالم الخلود لا يقاس على إدراك عالم الفناء في الدنيا (وقيل لهم) أي للغاوين ، والقائل هو الله أو الملائكة المأمورون بذلك : (أين ما كنتم تعبدون من دون الله) في الدنيا (هل

ينصرونكم) بدفع ما تشاهدونه من الجحيم وما فيها من العذاب (أو ينتصرون ؟) بدفع ذلك عن أنفسهم .

(فكبكبوا فيها) أي ألقوا على وجوههم في الجحيم (هم) أي المعبودون من دون الله (والغاوون) الضالون وهم عُبّادُهم (وجنود إبليس) من شياطين الجن والإنس (أجمعون) بلا استثناء (قالوا) أي الغاوون (وهم فيها) أي في الجحيم (يختصمون) يخاصم بعضهم بعضا : (تالله إن كنا لفي ضلال مبين) أي لا شك أنا كنا في ضلال مبين واضح . (إذ نسويكم) أيها الأصنام المفتعلون (برب العالمين ، وما أضلنا) عن طريق الحق وهو عبادة الله الواحد الأحد (إلا المجرمون) من شياطين الثقلين (فما لنا اليوم من شافعين) أي شافع من الشافعين (ولا صديق حميم) أي ولا صديق شفيق حار في الصداقة يسعى لخلاص صديقه (فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين) أي ليت لنا رجوعا إلى الدنيا فنكون من المؤمنين بالله وبرسوله (إن في ذلك لآية) أي إن في بيان قصة إبراهيم عليه السلام لحجة وعظة لمن أراد أن يتعظ بها ، فإن الإنسان العاقل إذا تأمل في أعمال رجل كإبراهيم ـ عليه السلام ـ بين أظهر قوم كافرين عابدين للأصنام ، ولما أن وقع في قلبه أن أعمالهم باطلة ثار عليهم وناظرهم وأرشدهم ولم يخف من بطشهم واستمر على أمره حتى نصره الله استفاد من هذا أن من نصر الحق نصره الله ومن سلك على الصراط المستقيم أوصله الله (وما كان أكثرهم) أي أكثر قومه (مؤمنين) أو وما كان أكثر القوم الذين تقص عليهم هذه القصة العظيمة مؤمنين بك وبكلام الله الذي أنزل عليك القصة الماضية (وإن ربك لهو العزيز)الغالب على أمره (الرحيم) لمن خصه برحمته .

(كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ المُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ : أَلاَ تَتَّقُونَ ؟(١٠٦) إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ

أَمينٌ(١٠٧) فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطيعُونِ(١٠٨) وَما أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِن أَجْرٍ ، إِن أَجْرِيَ إِلاَّ عَلى رَبِّ العَالَمِينَ(١٠٩) فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطيعون(١١٠) قالوا : أَنُؤمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ ؟(١١١) قالَ : وما عِلْمي بِما كانوا يَعْمَلونَ ؟(١١٢) إِنْ حِسابُهُمْ إِلاَّ عَلى رَبِّي لَو تَشْعُرُونَ(١١٣) وما أَنَا بِطارِدِ المُؤْمِنِينَ(١١٤) إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ(١١٥) قالُوا : لَئِنْ لَم تَنْتَهِ يانُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ المَرْجُومِينَ(١١٦) قالَ رَبِّ إِنَّ قَومي كَذَّبُونِ(١١٧) فَافْتَحْ بَيْني وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّني وَمَنْ مَعِيَ مِنَ المؤمنين(١١٨) فأَنْجَيْنَاهُ ومَنْ مَعَهُ فِي الفُلْكِ المَشْحُونِ(١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنا بَعْدُ البَاقِينَ(١٢٠) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَماكانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ(١٢١) وإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ)(١٢٢)

قوله تعالى : (كذبت قوم نوح المرسلين) القوم يذكر ويؤنث وكذلك كل اسم جمع لا واحد له من لفظه نحو رهط ونفر ، ولذلك يصغر على قويمة . وقيل هو مذكر ولحقت فعله علامة التأنيث على إرادة الأمة أو الجماعة ، وفي ألفية السيوطي :

وابن القبيلَ والبِلادَ وَالكلم   على الذي قَصَدْته كما رُسِم

وتكذيب القوم للمرسلين باعتبار أن تكذيبهم لسيدنا نوح كان في توحيد الله تعالى والرسل متفقون عليه ، فتكذيب واحد منهم تكذيب للكل. وقوله (إذا قال لهم) ظرف للتكذيب أي كذبوهم إذ قال لهم (أخوهم نوح) ـ عليه السلام ـ (ألا تتقون ؟) أي ألا تخافون الله تعالى حيث تعبدون

معه غيره وتشركونه به تعالى ؟ (يا قوم إني لكم رسول) من الله (أمين) مشهور بالأمانة في ما بينكم ، أو أمين على أداء الرسالة من الله (فاتقوا الله وأطيعون) في ما آمركم به من التوحيد وعبادته تعالى وحده (وما أسألكم عليه) أي على ما أبلغكم من أجر من المال أو غيره (إن أجري) أي، ما أجري (إلا على رب العالمين • فاتقوا الله وأطيعوني • قالوا : أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ؟) أي السفلة وأصحاب الخسة من القوم • (قال) نوح ـ عليه السلام : (وما علمي بما كانوا يعملون) أي وما أدري بأعمالهم ومكاسبهم إذا كانت سافلة أو عالية وليست تلك الملاحظة وظيفتي ، وإنما وظيفتي دعوة الناس الى توحيد الله (إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون) أي ليس حسابهم فيما يعملونه من حسن الصناعة وجودتها لبعض دون آخر • يعني إذا كان هناك محاسبة عليهم فالمحاسبة تعود الى عملهم وذلك على الله ولا عتب في رذالة أعمالهم لأن الناس تختلف ظروفهم في المعيشة • وعلى كل فالحساب والمراقبة في الدنيا أو الحساب والسؤال في الآخرة على الله وحده وهو العليم بأعمال الكل ونياتهم • ولو شعرتم بذلك ما نظرتم إلى قلة مالهم في هذا العالم (وما أنا بطارد المؤمنين) عن الحضور إلي ومجالستهم ودعوتهم إلى التوحيد والطاعة الخالصة موافقة لرغبتكم المبنية على الأنانية والتكبر الفارغ (إن أنا إلا نذير مبين) أي ما أنا إلا رسول مبعوث لإنذار المكلفين أياً كانوا •

ولما علموا بنية سيدنا نوح ـ عليه السلام ـ وثباته على ما هو عليه (قالوا : لئن لم تنته يا نوح) عما أنت عليه من دعوى الرسالة ودعوة الناس الى التوحيد ورفض عبادة الأصنام التقليدية (لتكونن من المرجومين) أي لتقتلن برمي الحجارة عليك حتى تموت بالحقارة ، أو لتكونن من المشتومين بالكلمات البذيئة • ولما بلغت وقاحتهم الى هذه الدرجة (قال : رب إن قومي

كذبون) أي استمروا على ما هم عليه من التكذيب (فافتح بيني وبينهم فتحا) أي افتح بيني وبينهم بابا لأخرج منه وأكون محفوظا من شتامهم وإيذائهم ، أو احكم بيننا بما يستحقه كل منا من الفتاحة بمعنى الحكومة (ونجني ومن معي من المؤمنين) من قصدهم الفاسد وعملهم الكاسد (فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون) أي فأوحينا إليه أن اصنع الفلك واسلك فيه من سلك في الدين فإني أغرقهم بالطوفان ، فصنعه وجعل فيه من آمن به ، وأمرنا السماوات بالإمطار والأرض بتفجيرها بالماء حتى صار الطوفان ، فدخل نوح ومن معه في الفلك المملوء بالناس وما لهم إليه حاجة (ثم أغرقنا بعد) أي بعد الحكم بإنجائهم (الباقين) من قومه الكافرين (إن في ذلك لآية) عظيمة دالة على عظم قوته ونفوذ قدرته وإنجاء من يؤمن به ونصرته (وما كان أكثرهم مؤمنين) ولذلك غرق الناس عدا من في السفينة اجمعين (وإن ربك لهو العزيز) الغالب على ما أراد (الرحيم) بمن شاء من العباد •

(كَذَّبَتْ عادٌ المُرْسَلِينَ (١٢٣) إذْ قالَ لَهُمْ أَخوهُمْ هُودٌ : أَلا تَتَّقُونَ ؟(١٢٤) إنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إنْ أَجْرِيَ إلاَّ عَلى رَبِّ العالَمِينَ (١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ؟ (١٢٨) وتَتَّخِذُونَ مَصانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) واتَّقُوا الَّذي أَمَدَّكُمْ بِما تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥) قالُوا : سَواءٌ عَلَيْنا أَوَعَظْتَ أَمْ

لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦) إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (١٣٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)(١٤٠)

قوله تعالى : (كذبت عاد المرسلين) تأنيث الفعل باعتبار أنَّ المرادَ بعاد القبيلة ، وهو اسم أبيهم الأعلى (إذ قال لهم أخوهم هود) والتذكير لإرادة بني عاد (ألا تتقون ؟) الإشراك بالله سبحانه وتعالى (إني لكم رسول أمين) ناصح لكم وأريد الخير لكم في الدارين (فاتقوا الله) في الإشراك به ومباشرة المعاصي (وأطيعون وما أسئلكم عليه) أي على تعبي في نصيحتكم ودعوتكم الى توحيد الله وطاعته (من أجر) مادي أو معنوي (إن أجري) أي ما أجري (إلا على رب العالمين) والتصريح بالبراءة عن طلب الأجر لإعلان أن الأنبياء والرسل منزهون عن المطامع الدنيوية الدنيئة وأن المقدار الذي يكفي لمعيشة الإنسان يوجد بلا اهتمام زائد ، ولا يجوز للراشد أن يضيع وقته النفيس إلا في الطاعة والتقديس .

ثم زجرهم على صرف الاموال الهائلة على ما لا طائل تحته من بناء القصور في الطرق من هنا وهناك وقال : (أتبنون بكل ريع آية تعبثون ؟) أي أتبنون بكل طريق يكون ممرا للناس ، أو بكل فج بين الجبلين قصرا يكون آية من آيات قواتكم وعلوكم في بنائه وعلوه وإتقانه وحديقته ومرافقه للفخر والكبرياء تعبثون ببنائها وتصرفون في بنائها مالا كثيرا (وتتخذون مصانع) أي تبنون مآخذ للماء ومجاري تحت الارض وبركا وحياضا للتفرج والأنس بها (لعلكم تخلدون) أي عاملين عمل من يرجو الخلود في الدنيا . وسر النهي عن ذلك أنهم صرفوا أموالا كثيرة في أمور ممتعة زائدة

على الحاجة للبطر والأشر واللهو واللعب وقضاء شهوات النفس وإشباعها فيما يخالف الكرامة الإنسانية مع أن صرفها في الأمور الحيوية المعتدلة والدفاع عن الأمة وإنعاشها بالسدود المستحكمة القوية لإجراء الانهار وإرواء الأراضي القحلة ، والإستفادة من المزارع والبساتين والثمار بقدر ما يكفي الامة ، وتصدير مازاد عليها الى البلاد أنفع وأعْدَلُ بكثير من الإنهماك في تلك الملذات الحيوانية التي ليس لها نتائج إلا ضعف الأمة ونزول أخلاقها وكرامتها وإحداث المنافسة والشجار بين أبنائها الى أن يعادي بعضهم بعضا ويتقاتلوا فيفشلوا وتذهب قوتهم ، ويطمع فيهم الطامعون من كل صوب وحدب فيستَعْبدوا أذلاء صاغرين . فهذه النصيحة الإلهية أقوى نصيحةٍ لسعادة الدارين. (وإذا بطشتم بطشتم جبارين) أي وإذا كرهتم عملا وأردتم الإنتقام من أهله بطشتم بطش الجبارين بلا نظام مقرر ودستور معتدل حتى يتأدب الفاسد ويتهذب الراشد (فاتقوا الله) في ارتكاب هذه الامور (وأطيعون) .

(واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون) ولا يدخل في نطاق العد والبيان ، ولكن المهم منه أنه (أمدكم بأنعام وبنين) تستفيدون من الانعام الدر والدهن واللحم والصوف المتخذ منه ألبسة فاخرة ، ومن البنين قوة وسيطرة على العباد والبلاد وغنائم ومنافع ظاهرة (وجنات وعيون) تأخذون منها أنواع الثمار والأقوات المتكاثرة وتتنعمون بكل ذلك غافلين عن إطاعة من أولاكم هذه النعم الوافرة ، فإن تستمروا على هذه الاحوال ولا ترجعوا إلى الإيمان بالله وحده وبشرائعه وميزان عدله وشكر نعمه فـ (إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) في الدنيا للإبادة والإهلاك، وفي الآخرة عقابا على الكفر والإشراك (قالوا) في جوابه : يا هود اهدأ وكن من الصامتين (سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين) فلسنا بوعظك من المتعظين (إن هذا إلا

خلق الاولين) أي ما هذا الوعظ والكلام والتهديد والوعيد إلا خلق الناس الأولين ، فلم تمض أمة إلا ومضت فيها ثلة من القوالين والواعظين ، ولم يستند ذلك إلا الى الوفاء بما يقتضيه طبع جمع من الناس من حرب الذين يعيشون متنعمين أو ما هذا الذي نحن عليها من عبادة الاصنام إلا خلق الاولين من آبائنا الأقدمين وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين ، ولا قيمة في الواقع لما تهددنا به (وما نحن بمعذبين) فكذبوه في آخر مرة تكذيبا صارما لا يقبل ردا • فاهلكناهم بريح صرصر عاتية سخرناها عليهم سبع ليال وثمانية أيام فكانوا من الهالكين • (إن في ذلك) الأمر المذكور (لآية) عظيمة لأهل الشعور (وما كان أكثرهم مؤمنين • وإن ربك لهو العزيز) الغالب على أمره (الرحيم) بالمؤمنين في الدارين ، وبالكافرين في الدنيا ، وفي ذلك بلاغ للعالمين •

(كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ: أَلا تَتَّقُونَ ؟(١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥) أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ؟(١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٢) قَالُوا : إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤) قَالَ : هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (١٥٥) وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ

عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ(١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ(١٥٧) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ(١٥٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)(١٥٩)

قوله تعالى : (كذبت ثمود المرسلين) القول في تأنيث الفعل وربط التكذيب بالمرسلين على مامر سابقا . وثمود قيل : إنه أعجمي منع من الصرف للعجمة والعلمية . وقيل عربي ومنع صرفه للعلمية والتأنيث باعتبار القبيلة . وهو من الثمد أي قليل الماء (إذ قال لهم صالح ألا تتقون ؟) أي الإشراك برب العالمين (إني لكم رسول أمين) أي رسول من الله أمين على التبليغ وعلى رعايتكم بكل وجه يمكن (فاتقوا الله وأطيعون) فيما آمركم به وأنهاكم عنه من الله (وما أسألكم عليه من أجر ، إن أجري) أي ما أجري (إلا على رب العالمين) الذي يجزي بفضله ما يزيد على ثواب العمل بدرجات . ثم قال موبخا وزاجرا لقومه : (أتتركون في ماههنا) من النعم المتلاحقة والهبات المتوافقة (آمنين ؟) من كل عذاب ينزل عليكم من السماء لعدم شكركم على النعماء ، أو يخرج من الارض من البراكين والزلازل والحشرات والسباع الضاريات ومن الأعداء المهاجمين عليكم في المفاجآت ، والحال أنتم ثابتون وساكنون (في جنات وعيون) جنات مثمرة وعيون متفجرة (وزروع ونخل طلعها هضيم) متداخل بعضه في بعض (وتنحتون من الحبال) أي من الاراضي الصخرية الصلبة في الجبال بيوتا مستحكمة لا يصل إليها الاعداء والسباع والمؤذيات حالكونكم (فارهين) أي أشرين بطرين متنعمين . يعني لا تتصوروا الخلود في هذا الامر فإن الله قائم بالمرصاد على العباد يفتح عليهم أبواب النعمة والرحمة ، فإذا آمنوا به وشكروا نعمته زادهم منها ، وإذا كفروا بالله وكفروا بنعمته أزالها عنهم وهذه سنة الله في عباده . (فاتقوا الله) في الإشراك به (وأطيعون) في ما أبلغكم به (ولا تطيعوا أمر المسرفين)

أي سادتكم المتجاوزين عن الحدود (الذين يفسدون في الارض) أي لا يكتفون بضلالهم في أنفسهم بل يضلون غيرهم • (ولا يصلحون) أنفسهم فضلا عن أن يصلحوا غيرهم •

(قالوا) في جوابه على هذه النصائح القيمة : (إنما أنت من المسحرين) من الشياطين المتمردين فغلبوا على عقلك فصرت من المجانين ، وعللوا كلامهم ذلك بقولهم (ما أنت إلا بشر مثلنا) ولست حائزا لرتبة الرسالة من الله حتى تلقي الينا ما تلقيه (فأت بآية) أي بعلامة ودليل على صحة دعواك (إن كنت من الصادقين) وأرادوا بالآية ناقة عشراء تخرج من صخرة عينوها ثم سقباً ، فقعد ــ عليه السلام ــ يتذكر فقال له جبريل ــ عليه السلام : صل ركعتين وسل ربك • ففعل فخرجت الناقة وبركت بين أيديهم وتنجت سقبا ، وعند ذلك (قال) صالح ــ عليه السلام ــ : (هذه ناقة) كما اقترحتموها (لها شرب) أي نصيب مشروب من الماء كالسقي والقيت للنصيب من السقي والقوت وكان هذا الشرب من عين عندهم (ولكم شرب يوم معلوم) فاقتنعوا بشربكم ولا تزاحموها على شربها (ولا تمسوها بسوء) كضرب وعقر (فيأخذكم عذاب يوم عظيم) لعظم ما يقع فيه من البلاء •

(فعقروها) العاقر هو قدار بن سالف ، لكن لما كان عقره لها بأمرهم نسب العقر إليهم • وفي رواية أن مسطعا ألجأها إلى مضيق في شعب فرماها بسهم فأصاب رجلها فسقطت ثم ضربها قدار (فأصبحوا نادمين) خوفا من حلول العذاب (فأخذهم العذاب) الموعود وكان صيحة خمدت لها أبدانهم وانشقت قلوبهم وماتوا عن آخرهم • وصب عليهم حجارة خلال ذلك (إن في ذلك لآية ، وما كان أكثرهم مؤمنين ، وإنّ ربك لهو العزيز الرحيم) •

(كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ : أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ

أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ، إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَاخَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ ؟ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) قَالُوا : لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَالُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلاَّ عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)(١٧٥)

قوله تعالى : (كذبت قوم لوط المرسلين • إذ قالَ لَهُم أخوهم لوط) وكانوا من أصهاره ـ عليه السلام (ألا تتقون ؟) عذاب الله تعالى (إنى لكم رسول أمين • فاتقوا الله وأطيعون • وما أسالكم عَلَيه من أجرٍ ان أجري إلاّ على ربّ العالمين) ثم وبخهم على عملهم الشنيع الفاحش وقال : (أتأتون الذكران من العالمين ؟) أي الذكور منهم مع أن هذا العمل السيء لم يسبق في العالم من غيركم ، ويزيل الغيرة من الرجال فإن الإنسان إذا صرف عرضه صرف ماله وجاهه وأرضه ، وإن الغاية إن كانت قضاء الشهوة الجنسية فأولى ما تصرف وتقضى به هو الزواج المشروع لمن هي من نوعه وجنسه • (وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم) وتتركون الإستمتاع بما خلقها الله تعالى لاستمتاعكم وانتفاعكم بهن أنساً وألفة ؛ ولإدامة النسل وحفظ

الأصل لأن المتعرض للاعراض يقتل إن كان هناك غيرة" عليها (بل أنتم قوم عادون) أي إنه حقيق بنا أن لا نصرح بذنب واحد منكم وجريمة واحدة وفاحشة من الفواحش لانكم قوم متعدون عن الحدود ومتجاوزون الدين والوجدان ولا تتيسر لكم جريمة وعمل سيء الا ارتكبتموه ، سواء الكفر أو الإشراك ، أو نهب الاموال، أو هتك الأعراض الى غير ذلك من المهالك. . (قالوا) له بدل أن ينزجروا بمواعظه : (لئن لم تنته يالوط لتكونن من المخرجين) أي المطرودين من قريتنا والمنفيين من عشيرتنا . ولما يئس من إصلاحهم (قال : إني لعملكم من القالين) أي الباغضين . وحيث لا أستطيع رد المنكر بيدي ولا بلساني لم يبق لي إلا أضعف آثار الإيمان وهو الكراهية بالقلب ، ثم لم يكتف بذلك ودعا ربه لخلاصه من شؤم إعتقادهم وأعمالهم و (قال : رب نجني وأهلي مما يعملون) أي من شؤم عملهم ، فإن القريب من النار كاد أن يحترق بها (فَنَجَّيناه وأهْلَه أجمعين . إلا عجوزا في الغابرين) أي إلا عجوزا مقدرة في الباقين من العذاب بعد سلامة من خرج. أو عجوزا من الباقين في الدار ولم تخرج مع لوط ــ عليه السلام ــ . أو عجوزا من الطاعنين في السن أي عمرها كان طويلا . وعلى كل فالمراد بها زوجته ، وكانت مائلة الى القوم الفاسدين ، لأنها كانت من بناتهم (ثم دمرنا الآخرين) أي أهلكناهم أشد إهلاك وأفظعه بالإئتفاك أي جعل أعالي البلاد أسافلها وبالعكس (وامطرنا عليهم مطرا) أي نوعا من المطر اللا معهود ، فقد كان حجارة من سجيل ، وذلك كما في قوله تعالى (فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها ، وأمطرنا عليها حجارة من سجيل) . (فساء مطرُ المنذرين) مطرهم (إن في ذلك لآية ، وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم) .

(كَذَّبَ أَصْحابُ الأَيْكَةِ المُرْسَلِينَ(١٧٦) إِذْ قالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ : أَلا تَتَّقُونَ ؟(١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ(١٧٩) وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ، إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلى رَبِّ العالَمِينَ(١٨٠) أَوْفُوا الْكَيْلَ ، وَلا تَكُونُوا مِنَ المُخْسِرِينَ(١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطاسِ المُسْتَقِيمِ(١٨٢) وَلاتَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ(١٨٣) وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ(١٨٤) قالُوا : إِنَّما أَنْتَ مِنَ المُسَحَّرِينَ(١٨٥) وما أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنا ، وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكاذِبِينَ(١٨٦) فَأَسْقِطْ عَلَيْنا كِسَفاً مِنَ السَّماءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ(١٨٧) قالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ(١٨٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كانَ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ(١٨٩) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ(١٩٠) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)(١٩١)

قوله تعالى : (كذب أصحاب الأيكة المرسلين) الأيكة الغيضة التي تنبت ناعم الشجر ، وهي غيضة من ساحل انبحر إلى مدين ، يسكنها طائفة ، وكانوا ممن بعث إليهم شعيب ــ عليه السلام ــ ، وكان أجنبيا عنهم ، ولذلك قال تعالى : (إذ قال لهم شعيب : ألا تتقون ؟) ولم يقل أخوهم • وقيل الأيكة الشجر الملتف ، وكان شجرهم الدوم ، وهو المقل وعلى القولين أصحاب الأيكة غير أهل مدين • ومن غريب النقل عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ أنهم أصحاب مدين • (إني لكم رسول أمين • فاتقوا الله وأطيعون • وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على

رب العالمين) وذكر نبذة مما يتقون الله في رعايته وهي الإحسان في المعاملة مع الناس فقال : (أوفوا الكيل) أي أتموه إذا كلتم للناس كما توفونه إذا اكتلتم لأنفسكم (ولا تكونوا من المخسرين) أي ولا تجعلوا الناس في خسارة مالية بالتطفيف (وزنوا بالقسطاس المستقيم) الذي يكون الوزن به موافقا للحق ولا يكون مما يزيد وينقص بسبب خلل في جهازه ، أو المراد بالقسطاس المستقيم القسطاس الذي صاحبه مستقيم الحال ومخلص في المعاملة على اعتبار أن لا ضرر ولا ضرار . وقوله تعالى (ولا تبخسوا الناس أشياءهم) أي لا تنقصوهم شيئا من حقوقهم إما جيء به تأكيدا للحكمين السابقين ، أو المراد به رعاية الحق والعدل في كافة المعاملات والديون وأشباهها . وذلك من باب التعامل والتجارة . وقوله تعالى : (ولا تعثوا في الأرض مفسدين) أي ولا تفسدوا في الأرض مفسدين للنظام بالقتل والسلب والنهب وهتك الأعراض وقطع الطرق والسرقة وغيرها مما يكون سببا للإخلال بالحياة الاجتماعية ، فإن ذلك ظلم شديد والدنيا إذا بقيت مع الكفر لا تبقى مع الظلم ، لأن حق الكفر بين العبد وبين ربه ، وأما الحقوق المهضومة بالظلم فبين الظالم والعباد المظلومين ، والله مهيمن عليهم .

(واتقوا الذي خلقكم والجبلة الأولين) ثم ترقى شعيب ـ عليه السلام ـ عن النهي عنهم في الأمور الحيوية إلى الأمر برعاية جانب الباري سبحانه فقال واتقوا الذي خلقكم ، أي واتقوا الإشراك بربكم الذي خلقكم وخلق أصحاب الجبلة والغريزة الأقدمين ، يعني إن الذات المختص بالخالقية هو المختص بالمعبودية فاعبدوه ، ولا تشركوا به شيئا (قالوا) أي قومه الغافلون (إنما أنت من المسحرين) يا شعيب أي سحرك الناس أو تسلط عليك الجن فصرت ممن يندهشون ولا تبقى عقولهم سالمة من الاختلال (وما أنت إلا بشر مثلنا) وليس فيك وصف فضيلة يجعلك مختصا بالرسالة من الله ، وإن

نظنك لمن الكاذبين فيما تدعيه من الرسالة (فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين) أي فما دام لك علاقة بـرب السماوات والارض فاطلب منه أن يسقط علينا قطعا من السماء تقع علينا وتهلكنا وتخلص منّا (فكذبوه) أي فتشددوا في التكذيب وصارحوه به (فأخذهم عذاب يوم الظلة) • وذلك كما روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن الله تعالى بعث عليهم حراً شديدا ، فأخذ بأنفاسهم فدخلوا أجواف البيوت ، فدخل عليهم فخرجوا منها هربا إلى البريّة ، فبعث الله عليهم سحابة ، فأظلّتهم من الشمس وهي الظلة فوجدوا لها بردا شديدا ولذة، فنادى بعضهم بعضا ، حتى إذا اجتمعوا تحتها أسقطها الله عز وجل عليهم نارا فأهلكتم جميعا (إنه كان عذاب يوم عظيم) في الشدة والهول (إن في ذلك لآية ، وما كان أكثرهم مؤمنين • وإن ربك لهو العزيز الرحيم) وهذه القصة آخر القصص السبع المذكورة التي سيقت للاعتبار والاستبصار ، فلم تكن نافعة إلا لمن اختاره الله •

(وإنّهُ لَتَنزيلُ رَبِّ العالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلى قلبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (١٩٥) وَإنّه لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ (١٩٦) أَوَلَمْ يَكُن لَهُم آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَماؤُ بَنِي إسْرائيلَ (١٩٧) وَلَوْ نَزَّلْناهُ عَلى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم ما كانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩) كذلِكَ سَلَكْناهُ فِي قُلوبِ المُجرِمينَ (٢٠٠) لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا العَذابَ الأَلِيمَ (٢٠١) فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٢٠٢) فيَقُولُوا : هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ؟(٢٠٣) أَفَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ ؟(٢٠٤) أَفَرَأَيْتَ

إنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ(٢٠٥) ثُمَّ جاءَهُمْ ماكانُوا يُوعَدُونَ(٢٠٦) ما اَغْنَى عَنْهُمْ ماكانُوا يُمَتَّعُونَ ؟)(٢٠٧)

قوله تعالى (وإنه لتنزيل رب العالمين) الضمير راجع إلى القرآن الكريم المستفاد من قوله تعالى في مطلع السورة (تلك آيات الكتاب المبين) وقيل إنه راجع إلى ما قصه الله على رسوله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من قصص الأنبياء ومناظرتهم مع أقوامهم • ومعناه وإن ماقصصناه عليك لا شك أنه تنزيل من رب العالمين وتلقيته من إيحاء الله تعالى إليك (نزل به الروح الأمين على قلبك) أي نزل بذلك التنزيل بمعنى المنزل جبريل المشهور بالروح الأمين على قلبك في حال اليقظة والإدراك الكامل ، لا في النوم وحالة النقص في الإدراك • وإنما اشتهر جبريل ـ عليه السلام ـ بالروح لأنه يحيا به الخلق في الدين ، أو لأنه روح كله لا كالناس الذين في أبدانهم روح • ووصفه بالأمين لأنه أمين وحيه تعالى إلى كافة الرسل ـ عليهم السلام ـ • والمراد بالقلب الروح الإنساني المدرك للكليات والجزئيات المجردة عن المادة بالذات وللجزئيات المادية بواسطة الحواس والمشاعر •

والآية الكريمة نص في أن القرآن الكريم نزل بألفاظه بدون نقصان على حبيب الله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بواسطة جبريل • أي ودور جبريل فيه إبلاغه فقط وإيصاله وقراءته له عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ • وطريق وصول ألفاظ القرآن إلى جبريل هو أن الله أودع تمام ألفاظ القرآن في روح جبريل فضبطها ، وكلما أراد الباري سبحانه وتعالى إنزال آية أو آيات أو سورة إليه ـ عليه السلام ـ نزل جبريل بها عليه ، أو أمره أن يتلقاها من اللوح المحفوظ فإن القرآن كله مكتوب فيه ، أو من المجموع المنزل إلى بيت العزة في السماء الدنيا • وفي وصوله إليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ طريقتان :

إحداهما أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ انخلع من الموانع البشرية بحيث ناسبت ذاته الشريفة ذات الملك جبريل فأخذه منه بقراءته عليه •

والثانية : أن جبريل انخلع من الأوضاع الملكية بحيث ناسب الأوضاع البشرية فقرأه عليه في هذه الحالة وأخـذه منه ـ صلى الله عليه وسلم ـ • وتلك الحالة التي كانت تأتي على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند نزول الوحي من تلبسه بشبه رعدة وقشعريرة كما للمحموم هي ذلك • فخذ هـذا المنهج السليم في نزول القرآن الكريم على الحبيب ـ محمد صلى الله عليه وسلم ـ بألفاظه الواضحة الجلية الدالة على معانيها الواقعية •

حتى لو قررنا أن بعض الآيات القرآنية ألقاها الله تعالى إلى حبيبه في ليلة المعراج وكلم بها معه بلا واسطة فلابدّ أن نؤمن بأنها نزلت مرة أخرى مع جبريل الأمين إليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ •

وقوله تعالى (لتكون من المنذرين) متعلق بنزل أي نزل به لتنذرهـم به (بلسان عربي مبين) واضح (وإنه لفي زبر الأولين) أي وإنّ ذكر القرآن وبيان نزوله مع جبريل إلى محمد خاتم الأنبياء ثابت في كتب الأنبياء الأولين الأقدمين من آدم إلى سائر الرسل من أولاده • ولاسيما في التوراة والإنجيل• أو المراد أن أحكامه التوحيدية الأصلية وهي أهم حكم يحتوي عليه ثابت في كتب الأولين ، لأن الأنبياء متفقون في الإلهيات (أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل ؟!) إستفهام إنكاري للتوبيـخ • أي أليس آيـةً واضحةً وحجةً مقبولة للجمهرة من المشركين واليهود والنصاري على أنّ القرآن كلامُ الله المنزل على حبيبه محمد مع جبريل الأمين علمُ علمـاءِ بني إسرائيل بذلك ؟ لأنهم عندما كانوا يقرأون التوراة والإنجيل ويفهمـون نعوت رسول آخر الزمان محمد العربي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأنه يبعث

في قوم كذا ، وينزل عليه الكتاب العربي.. افتهم الناس كل ذلك ، وأنه ينزل عليه قرآن عربي مبين .

وبعد ذلك كله لابدّ أن تعلموا أنّ إنكار المشركين للقرآن المنزل على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ معاندة ومعارضة للحق بمحض الهوى . فإنهم علموا أن محمدا لم يقرأ في مكة ولم يجاور من يعلمه شيئا من الكتب، ولم يسافر إلى خارج البلاد ليستفيد مايستفيد . فظهور كلام بليغ في مستوى أرفع البلاغات بحيث لا يقاربه كلام العرب العرباء دليل على أنه كلام الله المنزل على حبيبه المبعوث رحمة للعالمين إلى كافة الثقلين أجمعين . فإنكارهم للقرآن ولتنزيله من الله الجليل على حبيبه ليس لأنه منزل بلسان عربي على رجل عربي يمكن أن يتوهم أنه كلام أنشأه بنفسه ، بل لأنه لا يروق لهم كلام يدعوهم إلى التوحيد ورفض عبادة الأصنام ، حتى (**ولو نزلناه على بعض الأعجمين**) الذين لا يقدرون على التكلم بالعربية (**فقرأه عليهم ماكانوا به مؤمنين**) لأن مدلوله يجعلهم من المعلولين (**كذلك**) أي كذلك الوجه الغير المرغوب فيه (**سلكناه**) أي أدخلناه (**في قلوب المجرمين**) الذين أصروا على الإنكار والاستكبار مع الحق حتى طبع الله على قلوبهم . وقوله تعالى (**لا يؤمنون به**) إما بيان لما يستفاد من قوله (**كذلك سلكناه**) أو جملة مستأنفة سيقت لبيان أنهم لا يتأثرون بأمثال تلك الأمور الداعية للإيمان به (**حتى يروا العذاب الأليم**) الملجىء لهم إلى الإيمان ، وذلك لا ينفعهم لأن إيمان الإضطراب غير مقبول (**فيأتيهم العذاب بغتة وهم لا يشعرون**) بإتيانه (**فيقولوا**) تحسرا : (**هل نحن منظرون ؟**) أي مؤجلون من حيث العذاب ومؤخرون .

ثم عاد الباري سبحانه وتعالى إلى إنكار استعجالهم العذاب تعنتا وقال (أفبعذابنا يستعجلون ؟) يطلبون نزوله قبل حلول موعده (أفرأيت إن متعناهم سنين) مدة طويلة من الزمان (ثم جاءهم ماكانوا يوعدون) من العذاب (ما أغنى عنهم ماكانوا يُمتعون) به من وجوه التمتع في تلك المدة الطويلة فليس ما حل بهم من العناد والاستنكار للحق إلا لإعراضهم عن مقتضى الحق والفطرة السليمة .

(وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنْذِرُونَ(٢٠٨) ذِكْرَى وَمَاكُنَّا ظَالِمِينَ(٢٠٩) وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ(٢١٠) وَمَا يَنبَغِي لَهُم ، وَمَا يَسْتَطِيعُونَ(٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ(٢١٢) فَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)(٢١٣)

قوله تعالى : (وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون) تهديد وإرشاد يهدد المشركين بأننا من سنتنا إرسال المنذرين ، فإذا لم يتعظ الناس أهلكناهم فقد أرسلنا إليكم رسولنا محمدا ، وقد وعظكم ونصحكم فإن لم تتعظوا أهلكناكم . وفي الوقت نفسه إرشاد لهم إلى الإيمان والعمل الصالح ليخلصوا من عذاب الدارين . وقوله تعالى (إلا لها منذرون) استثناء من أعم الأحوال يعني وما أهلكنا من قرية في حال من الأحوال الا حال كون أهلها منذرين ، فإن كان منذرون مبتدأ لها خبر مقدم فالحال جملة ، وإن كان فاعلا للظرف فالحال مفرد . وقوله (ذكرى) حال عن فاعل (منذرون) بتقدير مضاف ، أي منذرون ذوي ذكرى أي أصحاب تذكير وإرشاد لأهلها (وما كنا ظالمين) أي وليس من شأننا أن يصدر عنا الظلم والتعدي على حقوق أحد . وقوله : (وما تنزلت به الشياطين) رد لزعم من قال إن هذا القرآن ليس كلام الله ولا كلام نفسه ، وإنما تنزلت به الشياطين عليه فيرد ذلك الزعم ويقول

وماتنزلت به الشياطين لأن ذلك الكلام المتين المعجز المبين ليس في مستوى كلام أنفسهم فإذا أخذوه فإنما أخذوه من عالم الملائكة في السماء وذلك ليس في حدود قابلياتهم بعد البعث (وما ينبغي لهم) وما يناسبهم ، لأن الشياطين أشرار ، وهذا القرآن يدعو إلى الحق وإلى صراط مستقيم (وما يستطيعون) أي وما يقدر الشياطين على ذلك أصلا (إنهم عن السمع) لما يتكلم به الملائكة (لمعزولون) أي ممنوعون فإن الله قرر الرمي بالشهب إلى الشياطين المسترقين ، وبعد أن جاهدت واجتهدت في دعوة أولئك المشركين ولم يستمعوا ولم يتعظوا فاتركهم (ولا تدع مع الله الها آخر فتكون من المعذبين) فإن صيانة النفس أعز شيء على النفس . وأمثال هذه الآيات الكريمة تعريض بعذاب المشركين وترغيب في التوحيد للموحدين .

(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ(٢١٤) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ(٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ(٢١٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ(٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ(٢١٨) ، وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ(٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)(٢٢٠)

قوله تعالى (وأنذر عشيرتك الأقربين) حكم مربوط بما قبله من سلسلة أحكامه . أي مادام المشركون لم يصعد طبعهم الوضيع إلى أن يستمعوا لك ويطيعوك في الإيمان بالله ورسوله فاهتم بنفسك ومن يليك من أقاربك (فلا تدع) انت (مع الله إلها آخر ، وأنذر عشيرتك الأقربين) الأقرب منهم فالأقرب فإن السعي في خلاصهم أهم من السعي في خلاص الغير لوجوب حق صلة الأرحام .

روي أنه لما نزلت هذه الآية صعد الصفا وناداهم فخذاً فخذاً حتى اجتمعوا إليه ، فقال : لو أخبرتكم أن بسفح هذا الجبل خيلا أكنتم مصدّقي ؟ قالوا : نعم . قال : فإنّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد . فقال أبو لهب : تبّاً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا ؟! فنزلت (تبت يدا أبي لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب ...) أخرج أحمد وجماعة عن أبي هريرة قال : لما نزلت (وأنذر عشيرتك الاقربين) دعا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قريشا وعم وخصّ . فقال : يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار ، فإني لا أملك لكم ضرا ولا نفعا . يا معشر بني قصي أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم ضرا ولا نفعا . يامعشر بني كعب ابن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم ضرا ولا نفعا . يا معشر بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم ضرا ولا نفعا . يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار فإني لا أملك لك ضرا ولانفعا . ألا إن لكم رحما وسأبلها ببلالها .

ثم ظاهر هذا الحديث الشريف وماشابهه أنه لا يملك بنفسه شيئا ينفع اولئك الناس ، أما بالنسبة الى الكفار منهم فمعلوم أن الكفر يسد كل باب من أبواب الرحمة (إن الله لا يغفر أن يشرك به) وأما بالنسبة إلى المؤمنين فالرسول في الحقيقة لا يملك شيئا من النفع إلا إذا أكرمه ربه وخوله الشفاعة لهم ، فيشفع . فلا تنافي هذه الآية الكريمة نفع الشفاعة التي ثبتت بأدلة جليلة واضحة .

(واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين) ولين الجانب لهم وراعهم وساعدهم وساندهم وتعاون معهم (فإن عصوك) في ارتكاب المعاصي (فقل: إني بريء مما تعملون) أي أظهر سخطك وعدم رضاك بذلك وأنكره عليهم، (وتوكل على العزيز) الغالب على كل ما أراد (الرحيم) بالعباد ولا يهمنك

ما يصدر منهم من البغض والعناد (الذي يريك حين تقوم) أي إلى الصلاة (وتقلبك) وحركات عضلاتك (في الساجدين) وخص وصف الساجدين بالذكر مع أن المصلين قائمون وراكعون وساجدون لأن حال السجود أقرب أحوال العباد إلى الله ، وإنما خص وقت الصلاة بالذكر مع أن الله يراه في كل وقت لأن الصلاة معراج المؤمن ، وأشرف العبادات البدنية ، وعليها يدور فلك المؤمنين فإن الاجتماع في المعبد كل يوم خمس مرات فيه شوكة للإسلام والمسلمين (إنه هو السميع) لمناجاتكم وطلب حاجاتكم و (العليم) بما تستحقون من درجاتكم .

(هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ؟(٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ(٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ(٢٢٣) وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الغَاوُونَ(٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ؟(٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ؟(٢٢٦) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللهَ كَثِيراً ، وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ، وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ !)(٢٢٧)

قوله تعالى (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين) نزلت للرد على الكافرين الذين ادعوا أن القرآن ليس كلام الله تعالى ، وإنما كلام تنزل به الشياطين عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيرد الباري تعالى عليهم هل أنبئكم وأخبركم ، ولا ينبئكم مثل خبير ، على من تنزل الشياطين ؟ (تنزل على كل أفاك) كذاب (أثيم) مبالغ في اقتراف الآثام والجرائم كالكهنة والفساق من الناس (يلقون السمع) للشياطين ، ويتلقون الأوهام منهم ويتلقون منهم أمورا مظنونة لا تمتّ إلى الواقع أبدا ويضيفون إلى تلك

الظنون الكاذبة أكاذيب أخرى كثيرة لم يتلقوها من تلك الشياطين ، ولذلك قال تعالى وأكثرهم كاذبون ، أي وأكثرهم كاذبون في نسبة تلك الظنون والأباطيل المضافة من عندهم الى مايتلقونه ، لأنها من مفتعلاتهم . والحاصل أن مصادر الأفاكين هي الشياطين التي تلقي إليهم الأوهام والأباطيل ومع ذلك فهم يضيفون إليها اكاذيب أخرى من تلقاء أنفسهم ويدعون أنها من مسموعاتهم فالأصل فاسد لأنه مأخوذ من الشياطين المتمردين ، والفرع أفسد لأنها مفتعلات اخترعوها ونسبوها إليهم . ولتنوير أذهانكم قد وجدنا بعض الناس المرتزقة يأخذون من رؤسائهم أوامر باطلة مخالفة للحق لتنفيذها وتطبيقها بين الناس ، ولا يكتفون بذلك ، بل يضيفون إليها أمورا فاسدة أخرى لا علم لرؤسائهم بها فينشرونها باسم الرؤساء.وهذه كما يقال ظلمات بعضها فوق بعض .

وأما حبيب الله محمد خاتم الأنبياء والمرسلين فقلبه الشريف كرة نورانية أقوى من الكرة النارية لا يمكن للشياطين أن تحوم حولها وتقرب منها وتلقي إلى قلبه مايريدون وإنما يصل الروح الأمين المناسب للنور بل هو النور فيلقي إليه كلام ربه كأصل للسعادة في العالم ونظام ودستور يحتوي على الإلهيات والشرائع والأحكام من الأخلاق والإجتماعيات والعبادات والعادات وسائر مايلزم للبشر في حياته السعيدة بدون أن يشوبها شيء من الشين ، ولما تلقاه الرسول منه قرأه على عرفاء أمته فكتبوه وحفظوه ونشروه بين الأمة وتربت شجرة سعادتها بنماء ماء هذا الكلام المبارك الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد وإن كنتم في ريب من ذلك فتعالوا إلى آيات القرآن الكريم وقارنوا بينها وبين الدساتير الموضوعة حتى يظهر لكم الفرق بينه وبينها بما بين الثرى والثريا ، بل بما لا حد له ولا منتهى .

وأما اتهامه بأنه شاعر وكلامه شعر فهو أكذب من الاتهام السابق • فرده الباري تعالى بقوله العزيز الكريم : (والشعراء يتبعهم الغاوون) أي أصحاب الغي والضلال ، ومحمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ يتبعه الهادون أي الذين اهتدوا بنور الحق ، ويهدون الناس إلى الحق والرشاد ، وليسوا من الغاوين، ينتج من الشكل الثاني أن محمدا ــ صلى الله عليه وسلم ــ ليس من الشعراء • وتأليفه بالوجه المعروف أن يقال : كل شاعر يتبعه الغاوي ، ولا شيء من الرسل ، ومنهم خاتمهم محمد ــ عليه السلام ــ ، بمن يتبعه الغاوي ، ينتج أن لا شيء من الشعراء برسول ، وتنعكس النتيجة السالبة الكلية إلى نفسها ، فتحصل أن لا شيء من الرسل ومنهم محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ بشاعر • أما الصغرى فلأن الشعراء يبنون نظام نظومهم على المبالغات والإفراط والتفريط في الهجاء والمدح وبيان المشتهيات النفسية ، ولا يروق لهم الكلام إلا بذلك • وأما الكبرى فلان الكلام المنزل على الرسول دستور سماوي عدل يدعو إلى الحق ويأمر بالعدل والإحسان وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ، ويدعو الى إيتاء كل ذي حق حقه ، ويوصي بتوسيد الأمور الى أهلها ، ورد الأمانات إلى أصحابها والمشاورة في المهمات، والاستقامة على الحق والقول به وتطبيقه ولو كان فيه ضرر صاحبه ، وهذا الأمر لا يتبعه إلا أصحاب الهدى والرشاد • وأثبت الله تعالى ذلك بقوله الحكيم : (ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ؟) أي أن الشعراء يهيمون في كل واد من أودية القيل والقال ، وفي كل شعب من شعاب الوهم والخيال، وفي كل مسلك من مسالك الغي والضلال • وقد يتطرقون إلى البهتان وشهادة الزور والتكلم بالقول المهجور ، وأين ذلك من القرآن الكريم الذي يهدي للتي هي أقوم ، وينصح العالم بالوجه الأسلم ؟ تعالى القرآن عن ذلك علوا كبيرا • (وأنهم يقولون ما لا يفعلون) غير مبالين بما يتبعه من اللوم على الأكاذيب والمفتعلات •

ولا يلزم من أن القرآن الكريم ليس بشعر وأن الرسول ليس بشاعر وجود بعض أجزاء آيات موافقة لمصرع من بعض الأبحر العروضية ، كما في سورة يوسف ـ عليه السلام ـ (تالله لقد آثرك الله علينا) وكقوله (وأملي لهم إن كيدي متين) لأن المقصود من الشعر أن يكون هنا أبيات مرتبة على تفاعيل بحر من البحور العربية في الأدب ، وإلا فما من رجل يخطب أو يتكلم إلا وأمكن جعل بعض عباراته شطرا من بيت من بحر من تلك البحور كما هو ظاهر . كما لا يلزم من عدم كونه ـ صلى الله عليه وسلم ـ شاعرا أن لا يكون عالما بأيام العرب وشعرائهم وأدبائهم ، فإنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان كبحر مواج في معرفة الناس وأحوالهم وأخلاقهم وأدبهم ونظمهم ونثرهم وربما مدح بعض بيت من الشعراء كما قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «أصدق كلمة قالها الشاعر» قول لبيد :

ألا كل شيىء ماخلا الله باطل

وكل نعيم لا محالة زائل

وقوله تعالى : (إلا الذين آمنوا ، وعملوا الصالحات ، وذكروا الله كثيرا ، وانتصروا من بعدما ظلموا) استثناء للشعراء المؤمنين الصالحين الذين يكثرون ذكر الله ، ويوجهون الناس إلى محاسن الأخلاق والآداب ، وإلى ترك المحرمات وأداء الواجبات ، وترويج الآيات البينات . والشعراء الذين يقابلون ويكافحون شعراء الكفار الهجاة للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودينه وأصحابه ، فانتصروا بذلك وغلبوا عليهم (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون !) تهديد شديد لمن ظلم الإسلام بتشويه آدابه ،

والرسول بقلب صفاته وأخلاقه الحسنة العالية وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ بصفات كانوا مبتعدين عنها ، ويشمل سائر الظالمين المتعدين على حقوق الناس وأرواحهم وأموالهم وأعراضهم إلى غير ذلك أعاذنا الله تعالى منها بمنّه وفضله وكرمه إنه أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين ،وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وأتباعه إلى يوم الدين . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

سورة النمل ، مكية ، وآياتها ثلاث وتسعون

بسم الله الرحمن الرحيم

(طسٓ تِلْكَ آياتُ الْقُرآنِ وكِتابٍ مُبِينٍ(١) هُدًى وبُشْرى لِلمُؤْمِنِينَ(٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلوة ويُؤْتُونَ الزَّكوةَ ، وهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ(٣) إنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعمالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ(٤) أُولئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ ، وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ(٥) وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ)(٦)

قوله تعالى (طسٓ) الكلام فيه كالكلام في أمثاله (تلك آيات القرآن وكتاب مبين) أي هذه السورة المنزلة المعروفة بسورة النمل آيات القرآن المعروف في السماوات والارض ، وآيات كتاب مبين هو القرآن • فهذه الآيات موصوفة بأنها آيات القرآن المتلو المتعبد بتلاوته ، وآيات الكتاب الواضح بالذات الموضح للأحكام على المكلفين • وذلك الكتاب هو اللوح المحفوظ حالكون القرآن أو الكتاب (هدى وبشرى للمؤمنين) يهديهم الى الإعتقاد والأعمال ويبشرهم برحمة من الله ورضوان • ثم نعت المؤمنين بقوله (الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكوة) أي يؤدون الصلاة في أوقاتها مع

رعاية شروطها وأركانها ، أو يروّجونها ويهتمون بها من حيث الوفاء بكل ما يقصد بالصلاة من المناجاة مع الله تعالى ، وحضور القلب معه ، والخشوع والتواضع لجلاله وهيبته • (ويؤتون الزكوة) أي ومع إقامة الصلاة يؤتون زكاة أموالهم المفروضة عليهم للمستحقين بدون تعلل وتأخير (وهم بالآخرة هم يوقنون) أي وهم مع أداء ما وجب عليهم من الصلاة وإعطاء الزكاة يؤمنون بمجيىء يوم الآخرة وهو يوم القيامة ويوم البعث والنشور ويوم حساب الأعمال ووزنها وخلود الكافرين في النار والمؤمنين في الجنة • وإلا فأداء الصلاة وإيتاء الزكاة بدون الإيمان بالآخرة لا اعتبار به قطعا •

(إن الذين لا يؤمِنون بالآخرة) ويحسبون أنهم حدثوا في العالم بدون صانع خالق محدث ، وهم الذين يعدون أنفسهم كالنباتات والحيوانات البهم التي لا يُكَلَّفْنَ ، أو يؤمنون بوجود الصانع ، ولكن لا يؤمنون بمجيىء يوم القيامة كما مرّ (زينا لهم أعمالهم) اللاغية التي يمشون عليها من التنعم بأنواع المأكولات والمشروبات والتلذذ بأنواع الملذات بسبب سوء الفكر ، وقلة النظر ، وعدم الملاحظة للأدلة الواضحة الدالة على وجود الخالق الحكيم للعالم (فهم يعمهون) ويتحيرون ويَتَرَدَّدُونَ في هاوية الافكار الباطلة والاعمال العاطلة (أولئك الذين لهم سوء العذاب) في عالم الدنيا لأنه كما قد قضت النواميس بأن يتمتع الأقوياء برهة من الزمان بمتاع الحياة كذلك قد قضت بأن الدنيا محكمة عدل لابد أن يؤدوا بعض الحقوق وجزاء بعض الاعمال التي جرت ظلما وتعديا على نفوس الناس وحقوقهم (وهم في الآخرة هم الأخسرون) أي أخسر في الآخرة منهم في الدنيا فالحنظل أمر عند النضوج منه عند الخروج (وإنك) أيها الرسول البشير النذير الأمين (لتُلَقّى القُرآنَ) أي لتعطى القرآن (من لدن حكيم) في الأفعال

(عليم) بها وبالأقوال بل وبكل سرّ له تجوال ، فلا يغرب عن علمه شيء من الأشياء .

(إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ : إِنِّي آنَسْتُ نَاراً سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ ، أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ ، لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٧) فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ : أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ، وَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨) يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) وَأَلْقِ عَصَاكَ ، فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ ، وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ ، يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (١٠) إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ ، فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (١١) وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ، فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ (١٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا : هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٣) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ)(١٤)

قوله تعالى (إذ قال موسى لأهله) منصوب بفعل مضمر مفهوم من السياق أي اذكر مما تلقيته من القرآن أحوال موسى إذ قال لأهله أي زوجته (إني آنست ناراً سآتيكم منها بخبر) أي خبر من صادق يرشدنا إلى طريق العابرين على الطريق المستقيم (أو آتيكم بشهاب قبس) أي بشعلة نار مقبوسة ومأخوذة من أصلها فأوقد لكم بها ناراً (لعلكم تَصْطَلُون) أي رجاء أن تستدفئوا وتستريحوا من ألم البرد .

وقد روي أنه ـ عليه السلام ـ لما خرج من مدين مع أهله لزيارة وطنه وذويه في مصر أجازه شعيب وجاء مع أهله متوجها إليها ، وبينما هم في الطريق إذ أتى زوجته المخاض ، والوقت ليل بارد ، وقد انحرفوا عن الطريق العام ، فأراد أن يوقد النار ، فأصلد زنده ولم تخرج منها النار . وفي نفس الوقت بدت من جانب جبل الطور نار فقال ما قال (فلما جاءها) أي جاء النار ، أي المحل الذي ظهرت له فيه لم يجدها، ولكن (نودي) من جانب الطور (أن بورك من في النار ومن حولها) كلمة أن بمعنى أي لأن في النداء معنى القول والمضاف محذوف على النار ، أي بورك من في محل النار والنار هي النار التي ظهرت لموسى ـ عليه السلام ـ ، ولم تكن نارا بل كان نورا مخلوقاً من إرادة الحق سبحانه وتعالى . وذلك المحل هو المعبر عنه بالبقعة المباركة في قوله تعالى (نودي من شاطىء الوادي الأيمن في البقعة المباركة) الآية ... وموسى ـ عليه السلام ـ في وقت النداء كان واقفا في محل النار ، والمراد بمن حولها إما الملائكة الموجودون إذ ذاك أو أهل موسى ـ عليه السلام ـ ، لأن أهله كانت قريبة من محلها ، أو المراد كل مسلم يكون هناك (وسبحان الله رب العالمين) أن يكون هو النار أو النور المتجلي هناك أو مستقرا في مكان ، وإنما صدرت إرادته السنية بأن يتجلى على عبد من عباده المصطفين الأخيار هناك ويرسله إلى ملك عاص جبار ليكسر شهوته وشوكته ويهدم كيانه وعظمته ويعلمه درسا من دروس الحق أنه خاب من طغى وبغى وادعى الألوهية بدون أي شيء إلا أن أمهله في برهة من الزمان ، واستدرجه حتى حصل له الطغيان ففعل به ما فعل .

(يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم) يا موسى إن الشأن والواقع أنا الله الذات الجامع للكمال المنزه عن النقص المعلم بلفظ الله ، ولا يمكن لغيري أن يشاركني في الربوبية والخلق والعبادة وأنا العزيز الغالب على كل

ما أريده لا يمنعني شيء من أي شيء الحكيم في التصرفات السلبيات والإيجابيات في الارض والسماوات • (وألق عصاك) لترى بعض العجائب من المصنوعات (فلـمّا رآها تهتز) أي فألقاها فصارت ثعبانا وقعت في الجولان ، فلما رآها تهتز بكل سرعة (كأنها جان) أي حية صغيرة الجثة خفيفة في التقلب والحركة (ولى) موسى (مدبرا) منهزما منها (ولم يعقب) أي لم يرجع على عقبه فناداه ربه وقال (يا موسى لا تخف) من غيري لا من الحية ولا من غيرها (إني لا يخاف لدي المرسلون) أي لا يناسب المرسلين الذين ينزل عليهم الوحي ، ويستأنسون بأنوار الباري عند نزول كلامه عليهم أن يخافوا من أي شيء بل حقهم الاستغراق في التنور بالأنوار القدسية التي تضيء القلوب وتزيل الشكوك والأوهام عنها • فالكلام منزل على وجه الإرشاد والتنوير لا على وجه الإخبار عن شيء كان أو لا يكون ، فإن الخوف صفة غريزية كسائر الغرائز يشترك الناس فيه سواء العوام والخواص الأولياء والأنبياء والمرسلون • وقد أخبر الباري عن خوف موسى ـ عليه السلام ـ في آيات فقال فأوجس في نفسه خيفة موسى ، وقال هنا فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب •

وأما قوله تعالى (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملئكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون) فبيان لأحوالهم في الآخرة وكذا نظائره • وقوله تعالى (إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فإني غفور رحيم) استثناء منقطع عند كثير من المفسرين • والمراد بمن ظلم غير الأنبياء والمرسلين ، أي لكن من ظلم من سائر العباد ثم تاب فإني أغفر له • ومتصل عند جماعة منهم ، والمراد من صدر منهم من الأنبياء ما هو في صورة الظلم ثم تاب ورجع عنه فإني أغفر له فلا ينبغي أن يخاف أيضا وهو شامل لمن فعل منهم شيئا من ذلك قبل رسالته هذا • ومنهم من

قال يجوز أن يكون المراد أعم مما قبل الرسالة وبعدها وتعبيره عنه بالظلم بالنظر الى علو مقامهم وعزة شأنهم فإن حبة من الغفلة بالنسبة إليهم قبة •

(وأدخل يدك في جيبك) أي جيب قميصك وهو مدخل الرأس منه المفتوح الى الصدر (تخرج بيضاء من غير سوء) وهو احتراس عن أن يتوهم أن البياض حصل من مرض أو عرض مثلاً (في تسع آيات) أي آية واحدة معدودة من جملة تسع آيات وهي : فلق البحر ، والطوفان ، والجراد، والقمل ، والضفادع ، والدم ، والطمسة ، وهي جعل أسبابهم حجارة ، والجَدَبُ في بواديهم والنقصان في مزارعهم (إلى فرعون وقومه) أي اذهب إلى فرعون وقومه ممن له مكانة ومقام (إنهم كانوا قوما فاسقين) أي كافرين (فَلَمّا جاءتهم آياتنا مُبْصِرةً) أي لما ظهرت عندهم آياتنا التسع الصادرة على يد موسى ـ عليه السلام ـ واضحة ، وإسناد الابصار إليها مجاز لأن المبصر لها فرعون وقومه (قالوا : هذا سحر مبين) أي هذا الذي ظهر على يده سحر واضح لاخفاء في كونه سحرا وليست معجزة من الله لإظهار صدقه (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم) أي وكذبوا بها ، والحال أنه استيقنتها أنفسهم ، وعلمت أنها ليست إلا من الله تعالى (ظلما) على أنفسهم وقومهم وسائر من كان يستفيد منها (وعُلُوّاً) على موسى وقومه (فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) في الارض ، أو كيف كانت عاقبتهم في الدنيا ؟ ذهبت عنهم الجنات والعيون والكنوز وغيرها ، واعلم أن عاقبتهم في الآخرة أفظع وأشنع أبد الآبدين •

(وَلَقَدْ آتَيْنا داوُدَ وسُلَيْمانَ عِلْماً ، وَقالا : الحَمْدُ لِلهِ الّذي فَضَّلَنا عَلى كَثِيرٍ مِنْ عِبادِهِ المُؤمِنِينَ(١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ ، وقالَ : يا أَيُّها النّاسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ

وَأُوتِينا مِنْ كُلِّ شيْءٍ ، إنَّ هذا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ(١٦)
وَحُشِرِ لِسُلَيْمانَ جُنودُهُ مِنَ الْجِنِّ والإِنْسِ والطَّيْرِ فَهُمْ
يُوزَعُونَ(١٧) حَتَّى إذا أَتَوْا عَلى وادِي النَّمْلِ قالَتْ نَمْلَةٌ :
يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ
وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ(١٨) فَتَبَسَّمَ ضاحِكاً مِنْ قَوْلِها
وقالَ : رَبِّ أَوْزِعْني أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتي أَنعمتَ عَلَيَّ
وَعَلى والِدَيَّ ، وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضيهُ ، وَأَدْخِلْني
بِرَحْمَتِكَ في عبادِكَ الصّالحِينَ)(١٩)

قوله تعالى : (ولقد آتينا داود وسليمان علما) استئناف لإلقاء بعض علوم غيبية أخرى في الماضي إلى حبيبه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، أي آتينا كل واحد منهما طائفة من العلم لائقة به من علم الشرائع والأحكام (وقالا) أي قال كل منهما شاكرا لهذه النعمة : (الحمد لله الذي فضلنا) بما آتانا من العلم (على كثير من عباده المؤمنين • وورث سليمان داود) أي ناب منابه في النبوة والملك والهيبة ، وخصه بأشياء • (وقال) للإفصاح عن نعم الله وإعلان رسالته وبيان اختصاصه ببعض المواهب : (يا أيها الناس علمنا منطق الطير) المنطق بمعنى النطق والمراد به المنطوق به ، يعني إن الله سبحانه وتعالى علمنا بمنه وإحسانه مدلولات ما يحصل من أصوات الطيور، وهي ما يفهمها بعضهن من بعض من المعاني والأغراض عند تصويتهن في الأوقات • فإن الله سبحانه وتعالى جعل الحيوانات البرية والبحرية أمما مختلفة وأعطاهن قابليات لإدارة أنفسهن وأصواتا للتفاهم بينهن ، وقد لا يكون وسيلة التفاهم الصوت بل يكون نظرا بالعين أو حركة بالبدن أو ببعض أجزائه ، فإنا جربنا بعض الحركات الحادثة من أذناب الحيوانات تدل

على اختلاف الأنواء الجوية ونزول المطر والثلج وغير ذلك • ولله في خلقه شئون وقوله تعالى (وأوتينا من كل شيء) إشارة إلى الملك والسلطة والقوة التي وهبت له • والجملتان المتعاطفتان شارحتان لقوله تعالى (وورث سليمان داود) قوله تعالى (إن هذا) أي المذكور من التعلية والإيتاء (لهو الفضل المبين) والإحسان الواضح إلينا من الله رب العالمين •

(وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير) والمقصود أن الله سبحانه وتعالى منّ عليه وخوّله تسخير مايريد من الإنس والجنّ والطيور لاستخدام ما أراد فيما يريد • ولا يلزم من ذلك تسخير الكل من الكل وذلك ظاهر (فهم يوزعون) أي يحبسون ، يعنى أنه يحبس أولهم ليلحق آخرهم فيأمرهم بما يهمه (حتى إذا أتوا على وادي النمل) أي فساروا في ركب سليمان ــ عليه السلام حتى إذا أتوا على وادي النمل وهو وادٍ بأرض الشام كثير النمل • وقال كعب : هو وادي السدير بأرض الطائف • وقيل : واد بأقصى اليمن ، وهو معروف عند العرب مذكور في أشعارها (قالت نملة) جواب إذا أي صوتت بما فهم سليمان ــ عليه السلام ــ منه معنى قوله (يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون) وليس لقول سليمان ــ عليه السلام ــ حصرٌ حتى يقال إنه فهم منطق الطير ، وكيف يفهم منطق النمل أيضا ؟ مع أنه لم يكتف بقوله علمنا منطق الطير ، بل أضاف إليه قوله وأوتينا من كل شيء (فتبسم ضاحكا من قولها) سرورا بما ألهمت من حسن حاله وحال جنوده وأنهم لا يتعمدون إيذاء شيء ولو صدر منهم إيذاء فهو على الجهل والغفلة لا من التعمد • (وقال : رَبّ أوزعني أن أشكر نعمتك الّتي أنعمتَ عَلَيَّ وعلى والدي) يعنى رب اجعلنى أزَعُ شكر نعمتك أي أكُفّه وَأَرْبُطُه لا يَتَفَلّت عني النعمة التي أنعمت عليّ وعلى والدي من نعم النبوة والرسالة والاحترام

والجاه والجلالة وخدمة الإنسان والجهد في نشر الفضائل وإطاعة الباري وعبادته الخالصة (وَأنْ أعمَلَ صالحاً ترضيهُ)أي وأوزعني أن أعمل عملا صالحا بحيث ترضاه (وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين) أي اثبتني في جملتهم واجعلني من أهل جنتك التي أعدت للمتقين •

(وتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقالَ : ماليَ لا أرَى الهُدْهُدَ أمْ كانَ مِنَ الغائِبِينَ ؟(٢٠) لأُعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَديداً ، أوْ لأَذْبَحَنَّهُ ، أوْ لَيَأتِيَنِّي بِسُلْطانٍ مُبِينٍ !(٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ، فَقالَ : أحَطْتُ بِما لَمْ تُحِطْ بِهِ ، وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ(٢٢) إنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَها عَرْشٌ عَظِيمٌ(٢٣) وَجَدْتُها وقَوْمَها يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ(٢٤) ألاَّ يَسْجُدُوا للهِ الَّذي يُخْرِجُ الخَبْءَ فِي السَّمواتِ وَالأرْضِ ، وَيَعْلَمُ ما تُخْفُونَ وَما تُعْلِنُونَ(٢٥) اللهُ لا إلهَ إلاّ هُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ)(٢٦)

قوله تعالى (وتفقد الطير) كان سليمان ـ عليه السلام ـ يتفقد جنوده ليعلم الموجود منهم والغائب كما هو عادة الملك ، فتفقد الطير فلم ير الهدهد ، وقيل إن سليمان ـ عليه السلام ـ نزل بمفازة لا ماء فيها ، وكان الهدهد يرى الماء في داخل الارض فيخبر سليمان بذلك ، فيأمر الجن فيحفر الارض الى أن يصل الماء ساعة ، فاحتاجوا الى الماء ، فتفقد لذلك الطير ولم يره (فقال : مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ؟) لما تفقده فلم

يره سأل عن سبب عدم رؤيته هل أنه حدث في عينه مانع من رؤيته ، ثم لما تبين له أنه لم يحدث فيه أي مانع من الرؤية أضرَبَ عن ذلك السؤال وقال (أم كان من الغائبين) أي بل كان من الغائبين فتوعده وقال (لأعذبنه عذابا شديدا) قيل بنتف ريشه وإلقائه تحت الشمس ، وقيل بإلزامه مرافقة طير لا يوافقه (أو لأذبحنه ، أو ليأتيني بسلطان مبين) أي بحجة تبين عذره في غيابه (فمكث غير بعيد) أي مكث الهدهد وتوقف عن الحضور زمانا غير كثير . يروى أنه ـ عليه السلام ـ أرْسَلَ العُقابَ لإحضاره فطار يتفقده ، فلما وَجَدَه أمره بالحضور أمام سيدنا سليمان ، فطار معه ووصلا إليه ، ولما سأله ـ عليه السلام ـ عن سبب غيابه أجابه (فقال : أحَطْتُ بما لم تُحِطْ به) أي أحَطْتُ بعلمٍ واطلاعٍ لم تحط به أنتَ (وجئتك من سبأ) أي طِرْتُ للاستطلاع على الدنيا حتى وصلتُ السبأَ وحصلت لي معلومات خطيرة فأتَيتُكَ (بنبأ) عظيم (يقين) لي به علم ثابت جازم مطابق للواقع .

ثم أوضحه بقوله : (إني وجدت امرأة تملكهم) أي تتصرف فيهم بدون اعتراض من أحد (وأوتيت من كل شيىء) من الأشياء التي تحتاج إليها الملوك (ولها عرش عظيم) تقعد عليه صنع له سريرُه من ذهب وقوائمه من جوهر ولؤلؤ حَسَنَ الصنعة غالي الثمن . هذه من ناحية المادة والأُبَّهَة ، وأما من حيث المعنى فـ (وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله) تعالى (وزين لهم الشيطان أعمالهم) التي قوامها عبادة الشمس (فصدهم) أي الشيطان (عن السبيل) أي سبيل الحق (فهم لا يهتدون) وقوله تعالى (ألا يسجدوا لله)قرىء "ألا" بفتح الهمزة وتشديد اللام ، فيحتمل أن يكون أصله أن لا بحذف الخافض ، يعني فصدَّهم الشيطان عن السبيل لئلا يسجدُوا لله ويبقوا على عبادتهم للشمس . ويحتمل أن

يكون ألاّ للتحضيض والكلام مستأنفا من الهدهد ، لأنه ملهمٌ من ربّه ومسبح بِحمدِهِ ، فيقول : ألا يسجدُوا لله • أو يكون كلاما مستأنفا من الله تعالى وقع في البين ، أي ألا يسجدوا لله (الذي يخرج الخبء) أي الشيىء المخفي المكنون (في السموات والأرض) أي يُظهِرُ كُلَّ خفيّ دقيق أو جلي فيهما لشمول علمه بالجزئيات والكليات (ويعلم ما تخفون وما تعلنون) وهو (ألله لا إله إلا هو) وحده لا شريك له (رب العرش العظيم) •

(قالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكاذِبِينَ ؟(٢٧) اِذْهَبْ بِكِتابِي هذا فأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ، ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ ماذا يَرْجِعُونَ(٢٨) قالَتْ : يا أَيُّهَا الملَؤُ إِنّي أُلْقِيَ إِلَيّ كِتابٌ كَرِيمٌ(٢٩) اِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ(٣٠) أَلاَّ تَعلُوا عَلَيَّ ، وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ(٣١) قالَتْ : يا أَيُّهَا المَلَؤُ أَفْتُونِي في أَمْرِي ، ماكُنْتُ قاطِعَةً أَمْراً حَتّى تَشْهَدُونَ(٣٢) قالُوا : نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ ، وَالأَمْرُ إِلَيْكِ ، فَانْظُرِي ماذا تَأْمُرِينَ(٣٣) قالَتْ : إِنَّ المُلُوكَ إِذا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوها وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِها أَذِلَّةً ، وَكَذلِكَ يَفْعَلُونَ(٣٤) وَإِنّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ ، فَناظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ المُرْسَلُونَ(٣٥) فلما جاءَ سُلَيْمانَ قالَ : أَتُمِدُّونَنِ بِمالٍ ؟ فَما آتانِيَ اللهُ خَيْرٌ مِمّا آتَيكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ(٣٦) اِرْجِعْ إِلَيْهِمْ

فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِها ، وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْها أَذِلَّةً وَهُمْ صاغِرُونَ)(٣٧)

قوله تعالى : (قال سننظر أصدقت أم كنتَ من الكاذبين) استئناف بياني كأنه قيل : فماذا فَعلَ سليمانُ ـ عليه السلام ـ عند قوله ذلك ؟ فقيل : قال : سننظر أي فيما ذكرته لنا ، أي تتفكر لِنعلمَ أصدَقْتَ فيما أخبرت به أم كنت من الكاذبين ؟ وقوله (اذهب بكتابي هذا) استئناف مبيّن لكيفية النظر فيقوله (اذهب بكتابي هذا فَألقِه إليهم ، ثم تَولَّ عنهم) أي خذ جانبا منهم (فانظر ماذا يرجعون) أي فانظر ماذا يرجع بعضهم إلى بعض من القول ، أي ماذا يقول بعضهم لبعض في موضوع الكتاب . فيكون الهدهد هناك مراقبا لكلامهم ومشاوراتهم فيما بينهم ، ثم إذا كتبوا جوابَ المكتوب يفهم جانبُ سليمان ـ عليه السلام ـ هل ما في المكتوب موافق لما تكلموا به أم شيىء يتسترون به عنه . ولا يبعد أن يكون الهدهد فاهما لكلامهم بقوة من الله تعالى أي بإلهامه له معنى كلامهم أو بفهمه بالذات كلامهم .

(قالت : يا أيها الملؤ) يعني إن سليمان ـ عليه السلام ـ أمر الكاتب فكتب الكتاب ثم سلمه إلى الهُدهُد وذهب به وألقاه إليهم وتنحى عنهم حسبما كان مأمورا به فسمع من الملكة أنه قالت لملأها (يا أيها الملؤ إني أُلْقِي إليَّ كتابٌ كريم) أي مختوم (إنّه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم) وجملة إنه من سليمان إستئناف وجواب لقول الملأ : ذلك الكتاب الكريم ممن صدر ؟ فقالت : إنه من سليمان . وكذلك جملة إنه بسم الله الرحمن الرحيم استئناف وجواب لقولهم : ماذا في الكتاب ؟ فقالت انه بسم الله أي أن نص الكتاب او ما يؤخذ منه باللغة العربية ، والحال انه مكتوب باللغة العبرية بسم الله الرحمن الرحيم (أن لا تعلوا عليّ وأتوني مسلمين) وأن مفسرة بمعنى

أيْ ومُفَسِّرهُ الكتاب في قوله ألقي إلي كتابٌ كريم ، يريد بمضمون كتابه لهم مقام أن يُحارِبوا سليمان ـ عليه السلام ـ •

ولما قرأت الملكة عليهم الكتاب أو اطلعوا عليه (قالت) مستشيرة (يا أيها الملؤ أفتوني في أمري) أي أشيروا علي بما عندكم من الرأي والتدبير فيما حدث لي وذكرت لكم خلاصته • وأكدتْ استشارتها بقولها (ما كنتُ قاطعةً أمراً حتى تشهدون) أي ما أقطع أمراً من الأمور المربوطة بإدارة الحكم والملك حتى تشهدوا • (قالوا) في جوابها (نحن أولوا قوة) أي في الأَجْسام والأحشام (وأولوا بأس شديد) أي في السيوف والرماح وسائر المعدات الحربية الحديدية وغيرها (والأمر إليك) أي والبتّ في القضية إيجابا أو سلبا إليك (فانظري ماذا تأمرين) به من المقاتلة أو المصالحة (قالت : اِن الملوك إذا دَخَلُوا قريةً أَفسَدوها) بتخريب قلاعها ومواقعها الحصينة (وجعلوا أعزّة أهلها أذلة) لأن الأعزة هم الذين كانوا على دست الحكم قبل دخول الأعداء ، ولما استولى الأعداء ودخلوا بلادهم قبضوا عليهم وأبادوهم بالقتل والتشريد والتبعيد (وكذلك يفعلون) إذا استولى سليمان علينا (وإني مرسلة إليهم) أي إلى سليمان وأهله وقادة جنوده (بهدية) تناسبُ مستوياتهم ، وأطلبُ منهم التحابب فيما بيننا حتى نعيش في ظل الأمان ولا يقتل بعضنا بعضا (فناظِرَةٌ بم يرجع المرسلون ؟) أي بماذا من الجواب يرجع الذين أرسلوا إليهم •

(فلما جاء سليمان) يعني فأرسلت الهدية اللائقة بمقام سليمان ـ عليه السلام ـ إليه ، فلما جاء المالُ سليمان (قال أتمدّونني بمال) أي قال للرسول والمرسل تغليبا للحاضر على الغائب : أتمدّونني بمال أي تساعدونني بمال لأكتفي به وأترُككم على ما أنتم عليه ؟ كلاّ (فما آتاني الله) من النبوة

والملك الذي لا غاية وراءه (خيرٌ مما آتاكم) أي من المال الذي آتاكم ومن جملته ماجئتم به إلي (بلْ أنتم بهديتكم تفرحون) بل أنتم تفرحون بالهدية التي تُهْدى إليكم من جانب الناس لقصور همتكم على الدنيا وحبكم الزيادة فيها (ارجع إليهم) أي ارجع أيها الرسول إلى بلقيس وملأها (فلنأتينهم) أي فوالله لنأتينهم (بجنود لا قبلَ لهم بها) أي لا طاقة لهم بمقاومتها ولا قدرة لهم على مقابلتها (ولنخرجنهم منها أذلة) أي من بلدة سبأ (وهم صاغرون) أي وهم أسرى أذلاء بين أيدينا •

(قالَ : يا أَيُّهَا المَلَؤُ أَيُّكُمْ يَأْتِيني بِعَرْشِها قَبْلَ أَنْ يَأتوني مُسْلِمِينَ ؟(٣٨) قالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ : أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ ، وَإنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ(٣٩) قالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ : أَنَا آتِيك بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إلَيْكَ طَرْفُكَ ، فَلَمَّا رآهُ مُسْتَقِرّاً عِنْدَهُ قالَ : هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّي ، لِيَبْلُوَني ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإنمَّا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ كَفَرَ فَإنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ(٤٠) قالَ : نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ : أَتَهْتَدِي أَمْ تَكونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدونَ ؟(٤١) فَلَمَّا جاءَتْ قِيلَ : أَهكَذَا عَرْشُكِ ؟ قالَتْ : كَأَنَّهُ هُوَ ، وأُوتِينا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ(٤٢) وَصَدَّها ما كانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللهِ إنَّها كانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ(٤٣) قيلَ لَها : ادْخُلِي الصَّرْحَ ، فَلَمَّا رَأَتْه حَسِبَتْهُ لُجَّةً ، وَكَشَفَتْ عَنْ ساقَيْها ،

قالَ : إنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوارِيرَ ، قالَتْ رَبِّ إنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ، وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمانَ للهِ رَبِّ الْعالَمِينَ)(٤٤)

قوله تعالى : (قال يا أيها الملؤ) في الكلام إيجاز حذف أي فرجع الرسول إليها ، وأخبرها بما أقسم عليه سليمان ، فتجهزت للمسير إليه إذ علمت أنه نبي ولا طاقة لها بقتاله ، فتوجهتْ إلى سليمان ــ عليه السلام ــ وكتبت إليه : إني قادمة عليك بملوك قومي حتى أنظرَ ما أمرك وما تدعو إليه من دينك ، فلما كانت على فرسخ من سليمان قال : (يا أيها الملؤ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني) أي بلقيس وقومها (مسلمين ؟) منقادين مطيعين ومقصوده ــ عليه السلام ــ من استدعاء عرشها في سبأ لِيُرِيَهَا القدرة التي هي من عند الله تعالى لتؤمن بالله وحده ويؤمن قومها معها (قال عفريت من الجن) أي جن خبيث مارد (أنا آتيك به) أي بعرشها (قبل أن تقوم من مقامك) أي من مجلسك الذي تجلس فيه للحكومة ، وكان ــ عليه السلام ــ يجلس من الصبح إلى الظهر (وإني عليه لقويٌّ أمين) و (قال الذي عنده علمٌ من الكتاب أَنا آتيك بِهِ قبلَ أَنْ يرتدَّ إليكَ طرفُكَ) .

كثرت أقوال المفسرين في تعيين ذلك الرجل ، وما المراد بعلم من الكتاب ؟ فمنهم من قال : هو جبريل ــ عليه السلام ــ تمثل لهم هناك ، وقال ما قال . ومنهم من قال : هو سليمان نفسه ــ عليه السلام ــ وخطابه في أنا آتيك به مع العفريت ، وكلاهما خلاف الظاهر . أما جبريل فلأنه لم يكن حاضرا في صفوف أصحاب سليمان على العادة فكيف يدعى حضوره اذ ذاك بلا دليل ؟ وأما سليمان ــ عليه السلام فلأن العرش إنما أتى به لأجل سليمان فيبعد خطاب سليمان مع العفريت بقوله أنا آتيك به . ومنهم من قال : هو وزيره وابن أخته آصف بن برخيا من بني إسرائيل ، والمراد بعلمٍ من الكتاب

الاسم الأعظم الذي تلقاه من سليمان ـ عليه السلام ، وإذا قيل : فما دام الامر كذلك فلم لم يأت به سليمان ـ عليه السلام ـ وطلبه من الحاضرين بصورة العموم وقال أيكم يأتيني بعرشها ؟ فالجواب أنه سأل كذلك ليتصدى كل من عنده قابلية لذلك العمل ، وليظهر اختلاف درجاتهم فإن مابين العفريت وبين آصف مابين الثرى والثريا • وليتبين الناس أن من كان في أتباعه شخص يأتي بالخوارق فدرجة نفسه أرقى وأعلى بمراتب كثيرة ، وكيف لا وقد خصه الله تعالى بما لم يتيسر لغيره ؟

ويظهر من المقام أن ذلك العمل كان خارقا معنويا وكرامة لآصف ، ومعجزة لمتبوع سيدنا سليمان ـ عليه السلام ـ ، ولم يكن أمرا مبنيا على علوم مادية وأجهزة دقيقة ، فإن المادة قاصرة عن الوصول إلى مستوى المعنويات التي لا يكون بين الطلب والمطلوب بها إلا ما بين العلة والمعلول الذي بينهما تقدم وتأخر بالذات لا بالزمان • وليتبين أيضا أنه يجوز التوسل بأصحاب القوة القدسية في تحصيل المطالب الشخصية لأنها لا تخرج عن نظام الأسباب والمسببات • وقد قال تعالى وآتيناه من كل شيء سببا فأتبع سببا ، وأنه يجوز هذا الطلب مع إمكان حصوله بالطلب من الله سبحانه وتعالى • والطرف تحريك الأجفان وفتحها للنظر إلى شيء ثم تجوز به عن النظر ، وارتداده انقطاعه بانضمام الأجفان • والمعنى أنا آتيك به قبل أن ينضم جفن عينك بعد فتحه •

(فلما رآه مستقرا عنده) أي فلما رأى سليمان ـ عليه السلام ـ العرش مستقرا عنده على الحالة الطبيعية (قال) تلقيا للنعمة بالشكر : (هذا) الفيض (من فضل ربي) عليّ (ليبلوني) أي ليعاملني معاملة المختبر (ءأشكر) ربي على ذلك بأن أراني خالص كرمه سبحانه وتعالى من غير حول وقوة مني (أم أكفر) ه بأن أجد لنفسي مدخلا في العين (ومن

شكر فإنما يشكر لنفسه) أي لنفعها (ومن كفر فإن ربي غني كريم) لا يهمه كفره بنعمائه. وفي عين الحال له كرم وإمهال لا يؤاخذه بالاستعجال .

(فقال) سليمان ــ عليه السلام ــ : (نكروا لها عرشها) أي اجعلوه نكرة عندها أي بحيث لا تعرفه وتشتبه فيه ، وذلك بقلبه وجعل أسفله أعلاه (ننظر أتهتدي) الى معرفته لحذقها وقوة فكرها (أم تكون من الذين لا يهتدون ؟) الى معرفة العرش (فلما جاءت) أي وصلت بلقيس إلى سليمان ــ عليه السلام ــ (قيل) من جانب سليمان بالذات أو بالواسطة (أهكذا عرشكِ ؟) أي أمثل هذا العرش العجيب الذي ترينه عرشكِ الذي تركته ببلادك (قالت : كأنّه هو) فأجابت بما يدل على كمال عقلها حيث لم تجزم بأنه هو لاحتمال أن يكون مثله ، بل أتت بأداة التشبيه الدالة على غلبة ظن الإتحاد (وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين) إن كان من كلامها فالمعنى أنه يبدو أن هذا العرش هو عرشي ، وقد أوتينا العلم من قبل هذه الحركة بأن سليمان ــ عليه السلام ــ رسول من الله وله معجزات، ومنها نقل عرشي إلى بلاده قبل وصولي إليها ، وكنا مسلمين مؤمنين بالله وبرسالة رسوله . وإن كان من كلام سليمان ــ عليه السلام ــ وملأه فالمعنى أصابت بلقيس في ما قالت وهي عاقلة فاهمة وأوتينا العلم من قبل هذه السفرة بأحوالها وكنا مسلمين ومعتقدين أنها فهمت الحق وأطاعت وأسلمت لله رب العالمين .

وقوله (وصدّها ما كانت تعبد) إما استئناف من جانب الباري سبحانه ، أو من جانب سليمان ــ عليه السلام ــ . والمعنى هي فاهمة ذكية مستعدة بصفاء عقلها للإسلام والإيمان ، ولكن صدّها ومنعها منه ماكانت تعبدُ من دون اللهِ (إنها كانت من قوم كافرين) تعودوا الكفرَ والإشراك وعبادة الشمس ، فلذلك بقيت فيهم على تلك الحالة الفاسدة (قيل لها :

ادخلي الصَّرح) كأنَّ ماقيل لها من الاستفهام عن العرش وقع عندما دخلت في منزل الاستراحة قبل الدخول في القصر الخاص الملكي ، فقيل لها بعد الاستراحة : ادخلي الصرح أي القصر الملكي لشرف اللقاء مع سيدنا سليمان ـ عليه السلام ـ .

روي أنه أمر الجن فبنوا له صرحا وجعلوا له صحنا على طوابق من قوارير كأنها الماء ، وجعلوا في باطن الصحن كلّ ما يكون من الدوابّ في البحر ثم أطبقوه ، ووضعَ سريره في صدره فجلس عليه وعكفت عليه الطير والإنس والجنّ ، وفعلَ ذلك امتحاناً لها أيضا على ماقيل . وقيل ليزيدها استعظاما لأمره وتحقيقا لنبوته وثباتا على الدين .

(فلما رأته) أي رأت صحنه بناء على أن الصّرح بمعنى القصر (حَسِبته لُجّةً) أي ظَنَّتْه ماءً كثيراً (وكشفتْ عن ساقيها)لئلا تبتلّ أذيالُ ألبِستها (قال) سليمان ـ عليه السلام ـ منبها لها على الواقع : (إنّه صرحٌ مُمَرَّدٌ من قوارير) أي إن ما حسبته لجة وماء كثيراً صَرْحٌ مُمَلّسٌ وصحن كذلك مصنوع من الزجاج ، وهو جمع قارورةٍ (قالت : ربّ إني ظلمت نفسي) أي قالت لما عاينتْ هذا البناء العجيب وذلك الصحن المستوي من الزجاج يا رب إني ظلمت نفسي بما كنتُ عليه من عبادة الشمس ، أو ظلمت نفسي باعتقادي أن سليمان ليس بنبي (وأسْلمتُ معَ سليمانَ لله رب العالمين) وكأنّ هذا القولَ تجديدٌ لإسلامها على أتَم وجهٍ وآكده بإعلانه بين الخدم والحشم وملأها الذين كانوا معها ، وإلا فقد اعترفت بإسلام نفسها سابقا بقولها (وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين) .

واختلف في أمرها بعد الإسلام فقيل : إن سليمان ـ عليه السلام ـ تزوجها وأحبّها وأقرها على ملكها ، وكان يزورها في الشهر مرة فيقيم عندها ثلاثة أيام ، وولدت له . والله أعلم .

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنا إلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً : أَنِ اعْبُدُوا اللهَ ، فَإِذا هُمْ فَرِيقانِ يَخْتَصِمُونَ(٤٥) قالَ : يا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ؟ لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللهَ لَعَلَّكم تُرْحَمُونَ !(٤٦) قالُوا : اطَّيَّرْنا بِكَ وبِمَنْ مَعَكَ قالَ : طائِرُكُم عِنْدَ اللهِ ، بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ(٤٧) وَكانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ ، وَلا يُصْلِحُونَ(٤٨) قالُوا تَقاسَمُوا بِاللهِ : لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ، ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ : ما شَهِدْنا مَهْلِكَ أَهْلِهِ ، وَإِنَّا لَصادِقُونَ(٤٩) وَمَكَرُوا مَكْراً ، وَمَكَرْنا مَكْراً ، وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ(٥٠) فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْناهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ(٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خاوِيَةً بِما ظَلَمُوا ، إِنَّ فِي ذلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(٥٢) وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ)(٥٣)

قوله تعالى : (ولقد أرسلنا) عطف على قوله (ولقد آتينا داود وسليمان علما) وأقسم عليه اعتناء بشأن الحكم ، أي (ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا أن اعبدوا الله) أن بمعنى أي للتفسير لأن في الإرسال معنى القول (فإذا هم فريقان يختصمون) أي ففاجأ إرسالنا إلى ثمود تفرقهم فيما بينهم واختصامهم ، ففريق آمن وفريق كفر (قال : يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ؟) يعني نادى صالح الفريق الكافر من قومه بعبارة ترحمية وخصوصية كأنهم كل قومه و (قال : يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ؟) أي لم تستعجلون بسيئة الكفر الموجب لحلول

العقوبة قبل وصولكم إلى الحسنة التي هي التوبة والإيمان الموجب لحسن المآب (لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون !) هلا تستغفرونه قبل نزول العذاب لعلكم ترحمون من الله الرءوف الرحيم فيرفع عنكم الغباوة ويدفع عنكم العذاب (قالوا) في جواب هذه النصيحة المباركة (اِطّيّرْنا بك وبمن معك) أي تطيرنا وتشاءمنا بك وبمن معك حيث تتابعت علينا المصائب والشدائد منذ تدعونا إلى ما تريده وأصل اطير تطير ، قلبنا التاء طاء ، وأدغمناها فيها ، فجلبنا همزة الوصل فصار اطيرنا • (قال) صالح ـ عليه السلام ـ : (طائركم عند الله) أي سبب شؤمكم ونزول المصائب عليكم عند الله ومن قضائه (بل أنتم قوم) اي بل الداعي الى طائركم هو انكم (تفتنون) وتختبرون من الله بتعاقب السراء والضراء • أو أن سبب طائركم أنكم قوم تفتنون وتقعون في فتنة زيغ الشيطان ويلقي إليكم الكفر وتتبعونه فيغضب الله عليكم وينزل العذاب عليكم •

(وكان في المدينة) أي مدينة ثمود المعروفة بالحجر (تسعة رهط) هو اسم جمع ويطلق على الثلاثة فصاعدا إلى العشرة (يفسدون في الأرض) كلها مما كانت لهم السيطرة عليها ومجال الإفساد فيها (ولا يصلحون) وليس في نياتهم الإصلاح أبدا (قالوا) أولئك الجماعة بينهم ، أي قال بعضهم لبعضٍ (تقاسموا بالله) فعل وقع مقولا للقول أو ماض بدل عن قالوا ، أو حال بتقدير قد • أي قالوا وقد تقاسموا بالله : (لنبيتنه وأهله) أي لنباغتن صالحا وأهله ليلا وتتزاحم عليهم حتى يقتلهم بعض منا وهم المقدّمون الواصلون إليهم ، (ثم) إذا أصبحنا وظهر أنهم قتلوا واتهمنا وليّ صالح ورهطه المؤمن به (لنقولن لوليه) أي ليقول الجمع الخلفي منا الذين لم يصلوا إلى صالح وأهله ولم يباشروا قتلهم والله (ماشهدنا مهلك أهله) أي والله ماحضرنا مهلك صالح وأهله (وإنا لصادقون) في حلفنا لأن الحاضرين

على قتلهم هم الجمع المقدمون المباشرون لقتلهم لا نحن المتأخرين خلفهم • والحاصل إنا نذهب جميعا ونقدم بعضا لقتلهم ونبقى نحن وراءهم وغدا نحلف كما ذكرنا ، ولا تلتفتوا إلى غير هذا التفسير فإن هذا بالقبول جدير •

(ومكروا مكرا) أي واحتالوا وتآمروا واتفقوا على قتله وقتل أهله (ومكرنا مكرا) أي وفعلنا شيئا أدق وأوفق بالمقام حيث منعناهم عن الوصول إليه وإلى أهله وهم لا يشعرون بمكرنا وعملنا • روى انه كان لصالح في الحجر مسجد في شعب يصلى فيه فقالوا : زعم أنه يفرغ منا إلى ثلاث ، فنفرغ منه ومن أهله قبل الثلاث فذهبوا إلى الشعب ليقتلوه ، فانحدرت عليهم صخرة فطبقت عليهم فم الشعب فهلكوا ثمة • وهلك الباقون في أماكنهم بالصيحة كما أفاده قوله تعالى (فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين) أي أهلكناهم وقومهم بعضهم بالبقاء في الشعب حتى الموت وبعضا بالصيحة (فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا) أي فتلك البيوت الخاوية الخالية عن الناس الساقطة على قواعدها لو كنت تمر عليها مباشرة بعد تدميرها في عصر صالح بيُوتهم الخاوية • أو تلك البيوت الساقطة على الارض بيوتهم ، وتحولت إلى تلك الحالة بسبب ظلمهم على أنفسهم بالإشراك بالله تعالى وعلى صالح وأهله بالمعارضة والإيذاء وإساءة الأدب والمؤامرة لإبادته مع أهله • وبيوتهم هي التي قال فيها سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأصحابه عام تبوك : « لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين •••» الحديث (إن في ذلك) أي في ذلك التدمير العجيب (لآية) لعبرة عظيمة (لقوم يعلمون) شيئا (وأنجينا الذين آمنوا)

أي صالحا ومن معه (وكانوا يتقون) الكفر وسائر المعاصي إيمانا برب العالمين .

(وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ : أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ؟(٥٤) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ)(٥٥)

قوله (ولوطا إذ قال لقومه) أي وأرسلنا لوطا إذ قال لقومه ، أو اذكر حال لوط إذ قال لقومه مستنكرا ومستقبحا لأعمال قومه (أتأتون الفاحشة) أي أتفعلون الفعلة الفاسدة المتناهية في الفحش والقبح والرذالة ؟ (وأنتم تبصرون) أنفسكم عليها أو وأنتم أهل إدراك وشعور بدناءة العمل وقبحه (أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء ؟) أي هل تقبلون على ضوء العقل أن تقضوا شهواتكم في أدبار الرجال ولا تقضوها في فروج النساء اللاتي خلقن لها وللاستئناس بهن (بل أنتم قوم تجهلون) أي بل أنتم تفعلون فعل الجاهلين بقبيح القبائح ، أي توغلتم فيها وتعودتموها حتى لا تميزون بين القبيح وغيره .

الجزء العشرون

(فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا : أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ ، قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ (٥٧) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (٥٨) قُلِ : الْحَمْدُ لِلَّهِ ، وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ، آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ؟)(٥٨)

(فما كان جواب قومه إلا أنقالوا : أخرجوا آل لوط) أي من تبع دينه معه (من قريتكم) التي بنيتموها وسكنتم بها (إنهم أناس يتطهرون) من أعمالنا التي يعدونها أقذارا (فأنجيناه وأهله) أي بعد تدمير القوم (إلا امرأته قدرناها من الغابرين) أي من الباقين في العذاب (وأمطرنا عليهم مطرا) أي فقلبنا ديارهم عليهم وأمطرنا على مقلوبها

مطرا غير معهود من الحجارة التي كانت تتطاير من السماء بقوة دفع البركان لها إليها ، أو أمطرنا من سماء غضبنا مطراً مخلوقا أجزاؤه من الحجارة (فساء مطرُ المنذَرين) ذلك المطرُ .

وبعد أن أتاك أخبار الأولين وقصص الأنبياء والمرسلين من الله تعالى وإنجاء الرسل مع أتباعهم وأن سنة الله في العالمين تبقى كذلك (قل الحمد لله) على تلك النعم الجسام (وسلام على عباده الذين اصطفى) أشخاصهم لنيل الرسالة . وقل لمن يجوز خطابه وله عقله وحسابه (آلله) الواجب الوجود المنبع لكل خلق وخير وجود (خير) للعبادة له (أمّا) أي ام ما (يشركون) من الاحجار والأخشاب ؟

(أَمَّنْ خَلَقَ السَّموات وَالأَرْضَ ، وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنبَتْنا بِهِ حَدائِقَ ذاتَ بَهْجَةٍ ، ما كانَ لَكُمْ أنْ تُنْبِتُوا شَجَرَها ؟ ءَاِلهٌ مَعَ اللهِ ؟ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ(٦٠) أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَراراً ، وَجَعَلَ خِلالَها أَنهاراً ، وَجَعَلَ لَهَا رَواسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحرَيْنِ حاجِزاً ؟ ءَإِلهٌ مَعَ اللهِ؟ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ(٦١) أَمَّنْ يُجيبُ الْمُضْطَرَّ إذا دَعاهُ ، وَيَكْشِفُ السُّوءَ،وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الأَرْضِ؟ءَإلهٌ مَعَ اللهِ؟قَليلاً ما تَذَكَّرُونَ(٦٢) أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ في ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ؟ ءَإِلهٌ مَعَ اللهِ ؟ تَعالَى اللهُ عمّا يُشْرِكُونَ(٦٣) أَمَّنْ يَبْدَءُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُهُ ، وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ؟ ءَاِلهٌ مَعَ اللهِ قُلْ : هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صادِقِينَ(٦٤) قُلْ :

لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ ، وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥) بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ، بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا ، بَلْ هُمْ مِنها عَمُونَ)(٦٦)

قوله تعالى (أمَّن خَلَقَ السَّموات والارض) أي أم من ، وأم منقطعة ، يعني بل أعرض عن المذكور سابقا واسأل من الذي خلق السماوات والأرض التي هي أصول للكائنات المحسوسة ومنها تظهر المنافع الحيوية (وأنزل لكم) ولانتفاعكم بالوجه المشروع (من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة) أي ذات بهاء ومنظر حَسَنٍ (ماكان لكم أنْ تُنبتوا شجرها ءإله مَعَ الله ؟) يعني أيقرن به غيره ويجعل شريكا له تعالى (بل هم قوم" يَعْدِلون) عن الحق ويتجاوزون عنه (أمَّن جَعَلَ الأرض قراراً) أي مَقَرّاً لبقاء الناس وسكناهم ومنامهم ومقامهم وممشاهم في كسب سعادة المعاش والمعاد (وجَعَل خلالَها) أي في أوساطها (أنهارا) جارية ونافعة للمزارع والمنافع (وجعل لها رواسي) أي جبالا عوالي ثابتة داخلة في أعماق الأرض (وجعل بين البحرين) العذب والمالح حاجزاً يمنعهما عن استيلاء أحدهما على الآخر (ءإله مَعَ الله) أي في هذه التصرفات (بل أكثرهم لا يعلمون) الحق حتى يقدروا على الجواب به أو لا يعرفون الإله الحق الواجب الوجود ولذلك يشركون به •

(أمّن يجيب المضطرّ) وهو الذي ألجأته الحاجة الشديدة إلى اللجوء إلى الله تعالى بعد يأسه عن كل واسطة وسبب (ويكشف) عن المضطر الأمر (السّوء) من النّوائب المدمرة (ويجعلكم خلفاء الأرض) بأن أهلك أهلها وأسكنكم في أماكنهم وتتصرفون فيها تصرف الملاك (ءإله مع الله) في هذا التطوير لأهل الأرض ورفع بعضهم ببعض وجعل قوم خلفاء لقوم (قليلا

ما تذكرون) في تيسير الأسباب من العلم والعمل والعدل والإستقامة وربط الجأش والصبر وحرمان الآخرين منها • (أمّن يهديكم في ظلمات البرّ والبحر) بالشمس والقمر والنجوم ومصابيح الأرض وعلاماتها (ومن يرسل الرياح بشرا) بضم الباء وسكون الشين مخفف بشرا بضمهما جمع بشور كصبور بمعنى المبشر ، فالمعنى ومن الذي يرسلُ الرياح مبشرات (بين يدى رحمته) أي قبل نزول المطر النازل من بحر رحمته أو من ترحمه ؟ (ءإله مع الله ؟) يقدر على شيء من ذلك فيكون شريكا له تعالى ؟ حاشا وكلاّ (تعالى الله عما يشركون) عن إشراكهم أو عن الصنم الذي يشركونه به •

(أمن يبدأ الخلقَ) بدون سبق مادّة وعادة (ثم يعيده) للبعث بجمع الأجزاء من أصل عجب الذنب أو بخلق أمثالها (ومن يرزقكم من السماء) بإنزال المطر والمن والسّلوى وسائر الخيرات (والأرض) بما فيها من الأنهار والعيون والنبات والأشجار المثمرة والكمأة وأمثالها وبالمعادن والمنافع المخلوقة فيها الخارجة بذاتها أو المستخرجة بالعلاج (ء إله مع الله ؟) يفعل شيئا كذلك فإن عاندوا وقالوا نعم (قل : هاتوا برهانكم) على وجود من يفعل شيئا كذلك (إن كنتم صادقين) في دعواكم ذلك • وإذا لم يأتوا بالبرهان بل ولا بشبهة عليه وثبت أنه الخالق ثبت أنه المعبود الحق المبين •

وبعد أن بينت لهم أن القدرة المؤثرة من صفات الله تعالى ، ومعلوم أنها تابعة للإرادة والإرادة تابعة للعلم ، وعلم الخالق لابد من استيعابه للشهادة والغيب (قل) للمشركين الجاحدين المعاندين : (لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله) ولا يطلع على غيبه المضاف إلى الأسباب المادية إلا من وفقه عليها ، ولا على الغيب المضاف إلى الكشف عما وراء

الطبيعة إلاّ من اختاره وخصه بنور منه يتنور له به الأمور المخفية عن الأبصار والبصائر يختص برحمته من يشاء ، وإلا فليس من شئون من في السماوات والارض بالذات (وما يشعرون أيان يبعثون) أي وما يشعرون أين يحيون ويستقرون ولا أين يموتون ، ولا أي زمان يبعثون للحشر والحساب ونيل الثواب والعقاب (بل ادارك علمهم في الآخرة) وأصل إدارك تدارك قلبت التاء الزائدة دالا ، وأدغمت الدال في الدال ، وجلبت همزة الوصل لدفع الابتداء بالساكن . ومعنى تدارك تتابع تقول : تدارك بنو فلان إذا تناهوا في الهلاك . والمعنى تتابع علمهم في الآخرة وأحوالها حتى لم يبق لهم علم بها ، وفني علمهم بذلك الموضوع . والمقصود أنهم لم يقتدوا بالمخبر الصادق ولم يتبعوه فيما بينه لهم من أحوالها وتفكروا حسب أهوائهم وملاحظاتهم لها فحصل من ذلك أن لم يحصلوا على شيء . بل لا مجال بالنسبة إليهم إلى حصول العلم وغاية ماحصل لهم ظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئا (بل هم في شك منها) أي بل ذلك الظن والإدراك الراجح انفلت عنهم لغلبة الإنكار والجحود عليهم فهم في شك وتصوّر ساذج لا رجحان فيه لأحد الطرفين من النسب على الآخر (بل) اضرب عن وجود هذا التصور الساذج لأنهم تعمقوا في المواد الملموسة ولا يصل إدراكهم إلى أيّ أمر مغيب غير مربوط بالمشاعر والحواس ف (هم منها) ومن أحوالها (عمون) لا يبصرون شيئا .

وعمون جمع عم بإعلال قاض وأصله عمي" بالياء كحذر بمعنى الأعمى. ففي الآية الكريمة ترق بالنسبة إليهم من السيىء إلى الأسوء ففي الأول قال بل ادّارك علمهم في الآخرة أي لم يبق علم يقين بها . وهنا كان مجال لوجود إدراك راجح لهم وهو الظن فترقى إلى أنهم في شك أي تصور بلا حكم ، ثم ترقى إلى نفي الإدراك عنهم مطلقا . فقال بل منهم عمون أي قلوبهم

عامية لا تبصر شيئا . إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور . أعاذنا الله من كل جهالة وضلالة وأوصلنا إلى الإيمان بما جاءنا من الرسالة بفضله وكرمه آمين .

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : ءَإِذَ كُنَّا تُراباً وَآباؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ؟(٦٧) لَقَدْ وُعِدْنَا هذا نَحْنُ وآباؤُنا مِنْ قَبْلُ ، إِنْ هـذا إلا أساطِيرُ الأَوَّلِينَ(٦٨) قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ المُجْرِمِينَ(٦٩) وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ، وَلا تَكُنْ في ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ(٧٠) ويَقُولُونَ : مَتى هذَا الوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(٧١) قُلْ : عَسى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ(٧٢) وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاس وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ(٧٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ ما تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وما يُعْلِنُونَ(٧٤) وما مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّماءِ والأَرْضِ إِلاَّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ(٧٥) إِنَّ هذَا القُرْآنَ يَقُصُّ عَلى بَنِي إسْرائيلَ أَكْثَرَ الَّذي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ(٧٦) وَإِنَّهُ لَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ(٧٧) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ العَزِيزُ العَلِيمُ(٧٨) فَتَوَكَّلْ عَلى اللهِ إِنَّكَ عَلَى الحَقِّ المُبِين(٧٩) إِنَّكَ لا تُسْمِعُ المَوْتى،ولا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ(٨٠) وماأَنْتَ بِهادِ العُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا فَهُمْ مُسْلِمُونَ)(٨١)

قوله تعالى : (وقال الذين كفروا : ءإذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخرجون ؟) الهمزة للاستفهام ، وإذا ظرف زمان ، والعامل فيه لمخرجون . وهذه الآية الكريمة بيان لعمى قلوبهم وحيرتهم في أمور الآخرة ، فإن الإنسان الذي له بصيرة في الأمر يؤمن بأن الذي خلق السماوات والارض قادر على إحياء الموتى . وقوله (لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل) أي من قبل بعث محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ (إن هذا) أي ماهذا الكلام الدال على البعث والحساب (إلا أساطير الأولين) وكلماتهم الدائرة بينهم جيلاً بعد جيل ويقوم بها الّذين يَدّعُونَ الرسالة ولا يتفكرون في أنّ وجود الكائنات دليلٌ على وجود خالق موصوف بالكمال ووجوده بتلك الصفة يدل على أنه ماخَلق الإنسانَ عبثا، وأنّ هناك دستوراً للطاعة والمعاملة في الدنيا ، وأنّ عليها مسئولياتٍ ، ولابد من وجود يوم تتحقق فيه المسئوليات ومايترتب عليها من الثواب والعقاب . فإذا قام إنسان مختار من بني آدم فهل يجوز أن يقال إنه صاحب الأساطير ؟ كلاّ فإنهم في بحر الأهواء يسبحون ويمرحون ، ويعارضون كل رسول ناصح أمين بأمثال تلك العبارات الفارغة . (قل) في معارضتهم (سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين) وكيف أهلكناهم ودمرنا بلادهم (ولا تحزن عليهم) أي على تكذيبهم لك (ولا تكن في ضيق) أي حرج صدر (مما يمكرون) أي مما يأتون به في إزعاج المؤمنين وإزعاجك نتيجة لمكرهم ومؤامراتهم .

(ويقولون متى هذا الوعد) أي العذاب الموعود (إن كنتم صادقين ؟) في الأخبار والإنذار بها (قل عَسى أن يكونَ رَدف لكم) أي ردفكم ولحقكم (بعض الذي تستعجلون) أي بعض من العذاب الذي تستعجلون حلوله ونزوله وهو عذابهم يوم بدر بالقتل والأسر والإخزاء (وإن ربك لذو فضل على الناس) بتأخير عذابهم (ولكنّ أكثرهم

لا يشكرون) الرب على ذلك (وإن ربك ليعلم ماتكنّ صدورهم) أي ماتكنّه وتخفيه صدورهم من العناد والعداء لك ولمن يتبعك(وما يعلنون) من الاستهزاء والاستهتار (وما من غائبة) أي خافية (في السماء والارض إلا في كتاب مبين) والمراد به اللوح أو علمه الأزلي (إن هذا القرآن يقصّ على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون) من مباحث الجنة والنار وعزير والمسيح (وإنه لهدًى ورحمة للمؤمنين) لأنّ المعتقد هو المنتفع (إن ربك يقضي بينهم) أي بين بني إسرائيل (بحكمه) أي بدستور حكمه (وَهُوَ الْعَزِيزُ العليمُ • فتوكل على الله) ولا تهتم بأحوالهم (إنك على الحق المبين) ومن كان على الحق المبين فحقه التوكل على رب العالمين (إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين) أي إن أولئك الكفار قلوبهم ميتة لا تدرك الحقائق وآذانهم صمّ لا تسمع المواعظ ، ولاسيما عندما يولون عن الناصح الأمين مدبرين فإنك لا تسمع أولئك الموتى ولا تُسمِعُ أولئك الصم لاسيما إذا ولوا مدبرين • (وما أنت بهادي العُمْيِ عنْ ضلالتِهِم) أي بمخرجهم عن العمى ومرشدهم إلى الصّراط إلا إذا أطاعوا أمرك وانقادوا لحكمك (إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا) حسب علم الله تعالى بتصرفاتهم الحسنة (فهم مسلمون) منتفعون بإرشادك وما على الرسول إلاّ البلاغ المبين •

(وَإذا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أنَّ النَّاسَ كانُوا بِآياتِنا لا يُوقِنُونَ(٨٢) وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآياتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ(٨٣) حَتَّى اِذا جاءُوا قالَ : أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً ؟ أَمَّا ذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ؟(٨٤)

وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِما ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنْطِقُونَ(٨٥)
أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فيهِ وَالنَّهارَ مُبْصِراً ؟
إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)(٨٦)

قوله تعالى (وإذا وقع القول عليهم)... الآية هذه الآية من الآيات الخفية شرحا وبيانا ، وهي من علامات الساعة وقرب حلولها جدا . فيقول الباري سبحانه وتعالى : (وإذا وقع القول عليهم) أي إذا دنا وقرب وقوع مدلول القول المذكور ، أي آن قيامِ الساعة وبعث الأموات (أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم) أي تكلم الناس (أن الناس) الكافرين (كانوا بآياتنا لا يوقنون) ولا يؤمنون بها .

وتكلم المفسرون عن حقيقة هذه الدابة ، وتعيين الارض التي تخرج منها ، وعن معنى قوله (تكلمهم أن الناس) الآية ... أما أصل الدابة فقد وَرَدَ في صحيح مسلم أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : « بادِروا بالأعمال قبل ستٍ : طلوعِ الشمسِ من مغربها ، والدخان ، والدّجال ، والدابة ، وخُويصة أحدكم ، وأمر العامة » وورد فيه أيضا أن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها . وخروج الدابة على الناس ضُحىً ، وأيتهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها قريبا . ولم يرد في الصحيح على ما أعلم ماذكر من صفاتها . وأما الارض التي تخرج الدابة منها فقال بعض : المسجد الحرام ، وقال بعض : هي الصفا . وقيل : تخرج باليمن ، ثم تخرج من بين الركن والمقام حذاء دار بني مخزوم . وأما معنى تكلم بصيغة مضارع باب التفعيل فهو التكلم والنطق المعتاد على ما هو الظاهر . وقيل : هو من الكلم بمعنى الجرح ، والتفعيل للتكثير ، ويؤيده قراءة ابن عباس ومجاهد وابن جبير وأبي زرعة والجحدري وأبي حيوة

(تكلمهم) بفتح التاء وسكون الكاف وكسر اللام وتخفيفها . وكأنه أريد بالجرح النطق بالتوبيخ واللّوم والعتاب . يعني تلوم الناس على ما هم عليه من سوء الاعتقاد وفساد الاعمال ، والغفلة عن البعث وحلول الساعة ودخول يوم القيامة .

فيكون معنى الآية الكريمة : إذا قرب قيام الساعة ووقع وثبت القول في تعذيب الكفار ، وحقت كلمة العذاب على الإنسان فجهلوا المعنويات وعكفوا على الماديات وتمرنوا على الكذب والنفاق .. أخرجْنا لهم دابةً من الأرض تكلمهم نطقا وتجرحهم باللّوم والتوبيخ بأنّ النّاس كانوا بآياتنا لا يوقنون . ولقد جاء وقت المعاينة والمشاهدة لما لم يؤمنوا به .

(ويوم نحشر) أي واذكر يوم نحشر (من كل أمة) من أمم الأنبياء (فوجا) أي جمعا (ممن يكذب بآياتنا) فإن في كل أمة بعث إليها الرسول مصدقين ومكذبين (فهم يوزعون) أي يحبس أولهم على آخرهم حتى يتلاحقوا ويجتمعوا في موقف التوبيخ (حتى إذا جاءوا) إلى موقف السؤال والجواب (قال) الله سبحانه وتعالى : (أكذبتم بآياتي) الدالة على مجيىء هذا اليوم (ولم تحيطوا بها علما ؟) أي والحال أنكم لم تكونوا عالمين بحقيقة الأمر وأن الله قادر على أن يأتي بهذا اليوم (أماذا كنتم تعملون ؟) وهذه الفقرة لمزيد التوبيخ لأنهم لم يكن لهم حال إلا التكذيب . وأماذا أصلها أم ماذا . (فوقع القول عليهم) أي حل بهم العذاب (بما ظلموا) أي بسبب ظلمهم على أنفسهم وتكذيبهم بآيات الله (فهم لا ينطقون) بشيء لأنهم لا حجة لهم حتى يحتجوا بها ولا فائدة في الكلام اللاغي فيسكتون .

ثم رجع الباري سبحانه إلى توبيخ المشركين بعد بيان أهوال الأفواج المحشورة يوم القيامة فقال : (ألم يروا) بالقلب (أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا ؟) أي وجعلنا النهار مبصرا بالإسناد المجازي ، أي

ليبصروا بما فيه من الإضاءة (إن في ذلك) التصرف والجعل (لآيـات) عظيمة (لقوم يؤمنون) بوجوده تعالى وعلمه وقدرته •

(وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمواتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ ، إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللهُ ، وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ (٨٧) وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ، صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (٨٩) وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٠) إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا ، وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ، وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ ، فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ : إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ (٩٢) وَقُلِ : الْحَمْدُ للهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ، وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)(٩٣)

قوله تعالى : (ويوم ينفخ في الصور) معطوف على قوله تعالى (ويوم نحشر من كل أمّة فوجا) ••• الآية أي واذكر يوم ينفخ في الصـور • والمشهور في الدين أن صاحب الصور النافخ فيه هو الملك المسمى باسرافيل إحدى الملائكة الأربع المقربين • والمشهور أن الصور مادة تشبه القرن أو البوق العسكري ، وفيها منافذ بعدد أرواح الأحياء • والنفخ فيه مرتان : مرة لتخريب الجبال والوهدان وجعل الأرض صافية وإماتة الأحياء إلا من

شاء الله . ومرة لإعادة الأرواح وبعث الأموات وسوقهم إلى الحساب . وروي أن مابين النفختين مدة أربعين سنة . ونص الكتاب الكريم على النفختين في قوله تعالى في سورة الزمر (ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض الا من شاء الله . ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) وكيفية ذلك الصور ، ومقداره ، ووضع النفخ فيه موكول إلى علام الغيوب . وماثبت في بعض الأحاديث الشريفة وارد لتفهيم الأمة الموضوع بحسب مستوى قابلياتها والمراد بالنفخ في هذه الآية الكريمة النفخة الثانية . وإليه ذهب كثير من المفسرين .

وقوله تعالى (ففزع من في السموات ومن في الأرض) أي من شدة الخوف والهيبة الجبليين العارضين عند مشاهدة الأمور الهائلة . وقوله تعالى (إلا من شاء الله) استثناء متصل كما هو الظاهر ، والمستثنى هو أصحاب الحسنات لقوله تعالى (وهم من فزع يومئذ آمنون) وقوله تعالى (وكلّ أتوهُ داخرين) أي وكل واحد من الفازعين حضروا الموقف بين يدي رب العالمين أذلاء مطيعين منقادين . وقيل : إن المراد بالنفخة هنا النفخة الاولى لمناسبة قوله (وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب) أي وترى بالعين المجردة الجبال الراسية على الأرض تحسبها جامدة أي ثابتة غير متحركة وهي متحركة وتمرّ في الجو مرّ السحاب أي تتحول إلى الهباء وتنتشر في الفضاء . فإن هذه الأوضاع الواردة على الجبال إنما هي عند النفخة الأولى كما في سورة القارعة (يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنقوش) . ومنهم من قال : إن إحالة الجبال إلى تلك الحالة إنما هي عند النفخة الثانية كالفزع المذكور عند سوق الخلائق للحشر فيبدل الله تعالى الأرض والجبال كما في قوله تعالى (ويسئلونك عن الجبال فقل : ينسفها ربي نسفا فيذرها قاعا صفصفا ، لا ترى فيها عوجا ولا امتا ،

يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له ، وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً) •

(صنع الله الذي أتقن كل شيء) مصدر مؤكد لمضمون الجملة السابقة الحالية يعني صَنَعَهُ صنعَ اللهِ الذي أتقن كل شيء أي أتقن خلقه وسواه على ماتقتضيه الحكمة الإلهية (إنه خبير بما تفعلون • من جاء بالحسنة) من الإيمان وما يتبعه من الأعمال الصالحة (فله خير منها) إذ الحسنة بعشر أمثالها إلى ماشاء الله (وهم من فزع يومئذ آمِنون) أي وهم آمنون من فزع البعث ومابعده (ومن جاء بالسيئة) وهي الكفر ومايتبعه (فكبت وجوههم في النّار) أي كبوا فيها على وجوههم منكوسين ، فالإسناد مجازي (هل تجزون إلا ما كنتم تعملون ؟) وارد على أسلوب الإلتفات لأخذ العبرة بهذه الآيات وقوله تعالى (إنما امرت) استئناف بتقدير قل أي قل يا حبيبي إنما أمرت (أن أعبد رب هذه البلدة) أي مكة المعظمة الرب (الذي حرمها) أي جعلها حرما آمنا (وله كل شيء) خلقا وملكا وتصرفا من غير مشاركة أحدٍ سواه (وأمرت أن أكون من المسلمين) أي استقيم على ما هداني إليه من الإيمان والإسلام (وأن أتلو القرآن) أي وأمرت أن أتلو القرآن (فمن اهتدى) بهدي الحق ومنار الإسلام والتزام الأحكام واتباع الأنام (فإنما يهتدي لنفسه) ومنافع هداه ترجع إليه في أولاه وأخراه • (ومن ضل) عن الهدى فكفر وانحرف (فقل) له : (إنما أنا من المنذرين) • وقد خرجت عن عهدة الإنذار إذ أنذرت وبلغت • (وقل الحمد لله) على ماهداني إليه ووفقني عليه (سيريكم آياته) إن عاجلا أو آجلا (فتعرفونها) والمراد بها ماحلّ بهم من النقمات أو سيحل (وما ربك بغافل عما تعملون) فتأخذون الجزاء كما تستحقون •

سورة القصص ، مكية ، وهي ثمان وثمانون آية نزلت بعد النمل

بسم الله الرحمن الرحيم

(طسم (١) تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ (٢) نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ موسى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَها شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طائِفَةً مِنْهُمْ : يُذَبِّحُ أَبْناءَهُمْ ، وَيَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ ، إِنَّهُ كانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَجُنُودَهُما مِنْهُمْ ما كانُوا يَحْذَرُونَ)(٦)

قوله تعالى (طسم) الكلام فيه مثل ما في أشباهه (تلك آياتُ الكتاب المبين) إشارة إلى السورة وآياتها ، أي إن هذه السورة وآياتها آيات الكتاب المبين والقرآن الواضح الموضح للأحكام (تتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون) أي نتلو ونقرأ ونوضح عليك يا حبيبي (من نبأ موسى وفرعون) بالوجه (الحق) الموافق له الواقع (لـ) إفهام (قوم مؤمنين) قال الجلال السيوطي : لما حكى الباري في الشعراء قول فرعون لموسى (ألم نربك فينا وليدا) ثم حكى سبحانه قول موسى لأهله (إني آنست نارا) وكانا على وجه الإجمال بَيَّنَهُما في سورة القصص

تفصيلاً للمؤمنين . (إن فرعون علا في الأرض) أي تجبر وطغى في أرض مصر وجاوز الحدود المعهودة (وجَعَلَ أهلها شيعا) أي فرقا وطوائف يشيعونه ويتبعونه في كل ما يريد . وذلك لأن الأمة إذا تفرقت إلى طوائف وجماعات تقع بينهم بطبيعة الحال حزازات من اختلاف مصالحهم ، فيحصل بينهم العداء والبغضاء ، فإذا أراد الملك تسخير أيّ طائفة منهم لأغراضه أطاعه بكمال الإطاعة ولا يخالفه خوفا من الطائفة المعادية له ، أو حتى لا تبادر هي للإطاعة وتسبقها ولضعفها في ذاتها ، لأنها ليست إلا حَفْنَةً من مجموعة مرفوعة (يستضعف طائفة منهم) وهي طائفة بني إسرائيل لعداء سابق ثابت بينه وبينهم دينا وسياسة ، وللحذر من صعودهم واستيلائهم على ملك مصر كما علم ذلك من بعض الكهنة والنجومين . وبيان الاستضعاف أنه (يذبح أبناءهم) كلما ولد منهم واحد خوفا من نمائه وبقائه واستيلائه (ويستحي نساءهم) إذ لا منعة فيهن فيبقيهن للاستخدام والاستمتاع (إنه كان من المفسدين) الثابتين في الإفساد ولذلك تجاسر على ذبح المعصومين الأبرياء .

روي أنه رأى بالمنام أن نارا أقبلت من بيت المقدس إلى مصر حتى وصلت واحرقت القبط ، وتركت بني إسرائيل الموجودين فيها ، فسأل العلماء تعبير المنام ، وقالوا له : إنه يخرج من بني إسرائيل ولد يكون هلاك اهل مصر على يده . فقرر مراقبة الحوامل وقتل الذكور من المواليد وإبقاء الإناث . وهذا دليل على أن قتل الأولاد لحفظ الملك كان شريعة فرعونية . (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ، ونجعلهمْ أئمةً) وقدوة في الدين والدنيا (ونجعلهم الوارثين) لجميع ماكان في ملك فرعون مما يناسبهم (ونُرِي فرعَوْن وهامانَ وجنودهما منهم) أي من جانب أولئك المستضعفين (ماكانوا يحذرون) ويتوقون منه من فناء ملكهم وسلطتهم في

الديار المصرية . ولما كان هامان هو رئيس ملأ فرعون والنائب عنه في ما يأمر به وينهى عنه ربطه بفرعون في إضافة الجنود إليهما .

(وَأَوْحَيْنا إلى أُمِّ مُوسى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي اليَمِّ ، وَلا تَخافِي وَلا تَحْزَنِي ، إِنَّا رادُّوهُ إِلَيْكِ وَجاعِلُوهُ مِنَ المُرْسَلِينَ(٧) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَجُنُودَهُما كانُوا خاطِئِينَ(٨) وقالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ: قُرَّةُ عَيْنٍ لي وَلَكَ ، لا تَقْتُلُوه عَسى أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُم لا يَشْعُرُونَ(٩) وَأَصْبَحَ فُؤادُ أُمِّ مُوسى فارِغا إِنْ كادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَنْ رَبَطْنا عَلى قَلْبِها لِتَكونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ(١٠) وَقالَتْ لأُخْتِهِ : قُصِّيهِ ، فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ ، وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ(١١) وَحَرَّمْنا عَلَيْهِ المَراضِعَ مِنْ قَبْلُ فقالَتْ : هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ ناصِحُونَ ؟(١٢) فَرَدَدْناهُ إلى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَلا تَحْزَنَ ولِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ، ولكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ)(١٣)

قوله تعالى (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه) المراد بالإيحاء هنا الإلهام والإيقاع في القلب بصورة يطمئن لها . وقال بعض المفسرين : إنّ الايحاء كان بإرسال مَلَكٍ فأخبرها بما أمر به ربها سبحانه وتعالى . ولا يلزم من إرسال الملك وتكلمه معها النبوة والرسالة ، لأن الملائكة قد

ترسل إلى غير الأنبياء وتكلمهم • وعلى كلٍّ ألهمها الباري سبحانه بما في الآية الكريمة •

وأنْ تفسيرية لأن الإيحاء فيه معنى القول (فإذا خفت عليه) من جواسيس فرعون ونقبائه الذين يقتلون الأبناء (فألقيه في اليم) أي في البحر والمراد به نهر النيل (ولا تَخافي) مِنَ المَضار الواردة (ولا تَحزَني) عليه (إنا رادّوه إليك) قريباً بحيث تأمنين عليه (وجاعلوه من المرسلين • فالتقطه آل فرعون) الفاء فصيحة ، والتقدير ففعلت ما ألهم إليها من إرضاعه وإلقائه في اليم عندما خافت عليه •

روى أنها لما ضَرَبَها الطّلقُ دَعَتْ قابلةً من الموكلات بحبالى بَني إسرائيلَ فعالجتها ، فلمّا وقع موسى على الأرض هالَها نورٌ بين عينيه وارتعشت مفاصلُها ودخل حُبُّه في قلبها بحيث مَنَعَها من السّعاية فأرضعته ثلاثة أشهر ثم ألحّ فرعونَ في طلب المواليد واجتهد العيون في تفحصها فأخذت له تابوتا فقذفته في النيل (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا) اللام للتعليل استعيرت للفاء تشبها لمطلق الغاية بمطلق العلة ، ثم استعملت اللام الموضوعة للتعليل الجزئي في الفاء المستعملة في الغاية الجزئية ، فإنهم لم يلتقطوه إلا لأن يكون أحد الجنود المخلصين لدولة فرعون ، ولكن الله تعالى جَعَلَهُ داءً مهلكاً لملّة فرعون (إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين) في الأصول والفروع والعقائد والأعمال وفي تقرير دستور الاستيلاء على بني إسرائيل وتسخيرهم لخدمة الأقباط ، وإذا كانوا كذلك فلا بدع في قتل الأبرياء المستضعفة لبقاء الكبرياء المزخرفة. ولما أخذ آلُ فرعونَ التابوتَ وفتحوها وأخرجوا موسى منها وأرادوا قتله على دستورهم المقرر (قالت امرأة فرعون) له : (قرة عين لي ولك) نستأنس

به و (لا تقتلوه عسى أن ينفعنا) بعد الكبر بخدمة قصر الملك (أو نتخذه ولدا) وتتبناه (وهم لا يشعرون) بعواقب الأمور .

(و) لما سمعت أم موسى بوقوع التابوت في أيدي آل فرعون وتَبَنِّيه له (اصبح فؤاد أم موسى فارغا) خاليا عن القلق من ابتلاع حوت للتابوت، أو وقوعه في مهلك ، أو اطلاع فرعون عليه وقتله (إن كادت لتبدي بــه) أي إنه كادت أن تصرح بأن الصبي الذي جعل في التابوت ابنها (لولا أن ربطنا على قلبها) بإنزال السكينة والوقار عليه . وإنما ربطنا عليه (لتكون من المؤمنين) أي لتطلع على ما يجري على موسى في المستقبل وتؤمن بأن الله الذي قال لها إنا رادوه إليك يحقق ما ألقاه وألهمه إليها كاملا . (وقالت) أم موسى (لأخته : قصّيه) أي تتبعي أثره وتتبعي خبره (فبصرت به عــن جنب) أي فذهبت على امرأتها وتتبعت فبصرت به موسى عن جنب اي عن بُعْدٍ (وهم لا يشعرون) بأنها أخته وتقص أثره . (وحرمنا عليه المراضع) جمع المرضع أي ومنعناه من أن يرتضع من أية مرضعة بُغْيَةَ أن نرجعــه إلى أمه (مِنْ قبلُ) أي من قبل تتبع أخته أثره (فقالت : هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ؟) أي مخلصــون لا يقصرون في إرضاعه وحضانته وخدمته (فرددناه إلى أمه كي تقرعينهــا ولا تحــزن) بفراقه (ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون) أن ما وعدنا الله به واقــع لا ريب فيه .

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمــاً وعِلْمــاً ، وكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِــنِينَ(١٤) وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فيها رَجُلَيْنِ ، يَقْتَتِلانِ : هذا مِنْ شِيعَتِهِ ، وَهذا مِنْ عَدُوِّهِ ، فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِــنْ شِيعَتِهِ

عَلَى الَّذي مِنْ عَدُوِّهِ ، فَوَكَزَهُ مُوسى فَقَضى عَلَيْهِ ، قالَ : هذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ ، إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ"(١٥) قالَ : رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسي ، فَاغْفِرْ لي ، فَغَفَرَ لَهُ ، إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ(١٦) قالَ : رَبِّ بِما أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ)(١٧)

قوله تعالى (ولما بلغ أشده) أي ولما بلغ موسى المبلغ الذي تتكامل فيه القوة الإدراكية واستوى أي وتم واستقر وصار مهيمنا على المنازعات النفسية (آتيناه حكما) أي نبوة ورسالة موجبة للحكم والتصديق بما أمر به من الإيجابيات ، وما نهى عنه من السلبيات • فإن النبوة والرسالة موقوفة على التكامل النفسي قبل كل شيء ، وإذا تكاملت شرع صاحبها في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ودعوة المكلفين إلى الله الأكبر (وعلما) بالشريعة المنزلة عليه فالحكم عبارة عن التصديق بما يجب التصديق به سلبا أو إيجابا ، والعلم عبارة عن الشريعة الموحاة إليه • وقوله تعالى : (وكذلك نجزي المحسنين) أي وبمثل ذلك الإيتاء الذي كان لموسى نجزي المحسنين للأعمال التبليغية إلى الناس المربوطة بالأمة التي أرسل إليها المرسلون • أي لا تؤتى الحكم والعلم بمعنى الدين والشريعة إلا لمن تعلّق علمنا بأنّه من المحسنين القائمين بأعباء الرسالة في عهده وهذا الإيتاء ، وإن لم يكن جزاء للأعمال بل موهبة من الله تعالى ، لكن لما لم تجر عادة الباري بإيتائه إلا لمن في ذروة الأعمال الحسنة والأخلاق الفاضلة صار كأنه جزاء في مقابل الاعمال • ولا ينافي كون الآية دالة على إعطاء مقام النبوة أن موسى ـ عليه السلام ـ بعدُ ، في مصر ولم يخرج عنها ، ولم يمض عليه زمان السفر إلى شعيب ـ عليه السلام ـ وبقائه عنده كأجير يخدم مواشيه ، وتزوجه لبنته ،

ثم رجوعه إلى مصر لأن سرد الآيات هنا وربط بعضها ببعض بالواو التي هي لمطلق الجمع لا بالفاء ولا بثم فاحفظه .

ومن المفسرين من قال : إن هذه الآية ليست في إيتاء النبوة والرسالة بل المراد بها إيتاء الحكمة ، وعلم تهذيب الأخلاق ، وتدبير المنزل ، وسياسة المدن ، والعلم بالتواريخ التي تزيد الإنسان ثقافة وقوّة في رعاية شئون الناس وبروزه في المجتمع . وذلك لأن النبوة وهبية وليس كسبية محصولة في مقابل الإحسان والأعمال الصالحة . وسياق الآيات لا يناسب بيان إرسال موسى ـ عليه السلام ـ وهو بعدُ في باكورة الشباب ؛ ولم يدخلْ في المشاكل الموجبة لخروجه إلى البلاد البعيدة ثم رجوعه منها ونيله مقام النبوة والرسالة والأمر كما ترون .

(ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها) أي ودخل موسى المدينة التي يتنزه فيها فرعون ، وهي بلدة منف على نهر النيل في وقت لا يتوقع أهلها دخول الناس عليهم ، وكان الوقت بين العشاء والعتمة وذلك أن فرعون ركب يوما وسار إلى تلك المدينة فعلم موسى بركوبه فلحق ودخل المدينة في ذلك الوقت (فوجدَ فيها رَجلين يقتتلان) أي يتحاربان (هذا من شيعته) أي ممن شايعه وتابعه في الدين (وهذا من عدوّه) أي من الأقباط (فاستغاثه الذي مِن شيعته على الذي من عدوه) أي فطلب منه الغوث والنصر عليه (فوكزه موسى) أي فضرب موسى القبطي بجمع كفه أي بكفه المضمومةِ أصابِعُها (فقضى عليه) أي فقتله موسى . وأصله أنهى حياته أي جعلها منتهيةً منقضية ، ولما قتله تندم و (قال : هذا من عمل الشيطان) أي هذا العمل الذي عملته من تزيينه له في عيني (إنه عدو مضل مبين) أي إن الشيطان ولا شك عدو مضل للإنسان عن طريق الخير مبين العداوة وظاهرها .

(قال) موسى : (رب إني ظلمت نفسي) بوكز القبطي بحيث ترتب عليه القتل (فاغفر لي ، فغفر له ، انه هو الغفور الرحيم) أي لما استغفر موسى ـ عليه السلام ـ من ربه غفر الله له لأنه هو الغفور الرحيم ولا يردّ المستغفرين • (قال) موسى ـ عليه السلام ـ : (رب بما أنعمت) أي اُقسم بإنعامك (عليّ) لأمتنعن عن مثل هذا العمل (فلن أكونَ ظهيراً) وعونا (للمجرمين) كالرّجل المستغيث بي •

وإذا نظرنا إلى الواقع علمنا أن الرجل الذي من عدوّه كان من الأقباط المتعودين على قتل بني إسرائيل وذبحهم عند الولادة وتحقيرهم وإهانتهم في الكبر ، ووقع الإسرائيلي تحت سيطرته وخاف من أن يقتله ، ولذلك استغاث بموسى ـ عليه السلام ـ لوجوده في قصر فرعون وحيازة اعتبار وحصانة لنفسه ، فأغاثه موسى ـ عليه السلام ـ على وجه دفع الصائل ، ولم يكن وكزه له مما يقتل الإنسان الكبير غالبا ، ولكنه صادف محلا كان مقتلا وقتله ، وليست هذه الإغاثة ذنبا وجريمة ، بل إنها خصلة حميدة واجبة أو مندوبة ، فاستغفار موسى ـ عليه السلام ـ في القضية لأنه في عقيدته لم يرد إلا معونة للرجل الإسرائيلي لا قتل القبطي ، فكان قتله شيئا كبيرا عنده • والتعبير عن الإسرائيلي المستغيث بالمجرم إما لأن بداية المعركة كانت منه ، أو أنه لما صار سببا لهذا القتل كان كأنه هو القاتل ، فلا تعد القضية من المنافيات لعصمة الأنبياء ـ عليهم الصلوة والسلام ـ • وهذا هو الذي أراه وأعتقده في هذه القضية والله اعلم •

(فَأَصْبَحَ في المَدِينَةِ خائِفاً يَتَرَقَّبُ ، فَإذا الَّذي اسْتَنْصَرَهُ بالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ، قالَ لَهُ مُوسى : إنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبينٌ(١٨) فَلَمَّا أَنْ أَرادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذي هُوَ

عَدُوٌّ لَهُما ، قالَ : يا مُوسى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَما قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ ؟! إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَما تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ(١٩) وجاءَ رَجُلٌ مِنْ أقصى المَدِينَةِ يَسْعى ، قالَ : يا موسى إنَّ المَلأ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلوكَ فاخْرُجْ إِنِّي لكَ مِنَ النَّاصِحِينَ(٢٠) فَخَرَجَ مِنْها خائِفاً يَتَرَقَّبُ قالَ : رَبِّ نَجِّنِي مِنَ القوْمِ الظالِمِينَ)(٢١)

قوله تعالى (فأصبح في المدينة خائفا يترقب) أي فلما صدر من موسى ذلك العمل المستبشع ظاهرا ، وعلم به بعض الناس أصبح موسى ـ عليه السلام ـ خائفا من وصول خبر قتل القبطي إلى فرعون وملأه (يترقب) الحادث في المستقبل (فإذا الّذي استنصره بالأمس) يعني الإسرائيلي الذي قتل موسى القبطيّ في نصرته (يَسْتَصرخه) أي يطلب المعونة والنصر منه على هذا القبطيّ الثاني • والإستصراخ من الصراخ وهو الصياح ، ثم صار مجازا عن الإستغاثة ، فصار منقولا عرفيا لها (قال له موسى : إنك) أيها الإسرائيلي المستغيث بي (لغوي) ضالّ عن الطريق (مبين) واضح الغواية لأنك تريد أن تكون وسيلة لإثارة الفتن وإحياء الأحقاد الميتة • ومع ذلك لما ظن أنّ القبطي قوي وغالب على الإسرائيلي أخذته الغيرة وذهب إليه (فلما أن أرادَ) موسى (أن يَبطِش بالذي هو عدو لهما) أي يأخذه بصولة وسطوة (قال) القبطي له : (يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً)قبطية أخرى بالأمس ؟ (إن تريد) أي ما تريد (إلا أن تكون جبارا في الأرض) أي فاعلا ما أردت فعله لاعتزازك بنفسك وبعمادك (وما تريد أن تكون من المصلحين) في أرض مصر بين الناس بدفع التخاصم وتقوية التفاهم • فامتنع موسى من البطش لأنه علم أن الناس اطلعوا على الجناية

السابقة وهو واقع في الحرج : (و) بينما هو قلِق من أمره (جاءَ رجل من أقصى المدينة) أي مدينة فرعون وملأه وهو الرجل المؤمن الذي كان من آل فرعون (قال : يا موسى إنّ الملأ يأتمرون بك) أي يتشاورون بسبب قتلك للقبطي. وسمي التشاور ائتمارا لأن المتشاورين يأمر بعضهم بعضا ليقتلوك (فاخرج) من البلاد قبل أن يظفروا بك (إني لك من الناصحين . فخرج) فورا من المدينة (خائفا) أي من جنود فرعون (يترقب) لحوقهم به (قالَ : رَبِّ نَجِّني مِنَ القَوْمِ الظالمين) .

(وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقاءَ مَدْيَنَ ، قال : عَسى ربِّي أَن يَهْدِيَني سَواءَ السَّبِيلِ(٢٢) وَلَمّا وَرَد ماءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النّاس يَسْقُونَ ، وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودانِ ، قالَ : ما خَطْبُكُما ؟ قالَتا : لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعاءُ ، وَأَبُونا شَيْخٌ كبِيرٌ(٢٣) فَسَقى لَهُما ، ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ ، فَقالَ : رَبِّ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ(٢٤) فجاءَتْهُ إِحْديهُما تَمْشي عَلَى اسْتِحْياءٍ ، قالَتْ : إِنَّ أَبي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ ما سَقَيْتَ لَنا ، فَلَمَّا جاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ .. قالَ : لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظّالِمِينَ(٢٥) قالَتْ إِحْديهُمَا : يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ(٢٦) قالَ إِنّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدى ابْنَتَيَّ هاتَيْنِ عَلى أَن تَأْجُرَني ثَمانِيَ حِجَجٍ ، فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ ، وما أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُني إِنْ شاءَ اللهُ مِنَ الصّالِحِينَ(٢٧) قالَ : ذلكَ بَيْني وَبَيْنَكَ أَيَّمَا

الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوانَ عَلَيَّ ، وَاللَّهُ عَلى ما نَقُولُ وَكِيلٌ)(٢٨)

قوله تعالى : (ولما توجه تلقاء مدين) كلمة تلقاء في الأصل مصدر انتصب على الظرفية و (مدين) بلدة شعيب ـ عليه السلام ـ سميت باسم مدين ابن إبراهيم ـ عليه السلام ـ ، لأنه كان له إسماعيل من هاجر ، وإسحاق من سارة ، ومدين ومدان • وتوجهه إلى مدين بإلهام من الله تعالى، إذ لم يكن في سلطان فرعون وكان بين مصر وبين مدين مسيرة ثمانية أيام (قال عسى ربي أن يهديني سَواءَ السبيل) لأنه كان مسبوقا بألطاف ربه من جهات كثيرة ، وقد حقق الله ماترجاه • وروي أنه وصل إلى مفرق طرق ثلاث فأخذ الوسطى منها ، وذهب طالبوه على غير طريقه فلم يجدوه (ولما ورد ماء مدين) أي وصل إلى الماء المشهور الذي يستقي منه الناس (وجد عليه أمة من الناس) أي جماعة كثيرة يسقون مواشيهم على ماتعارف بينهم من التناوب (ووجد من دونهم امرأتين تذودان)غنمهما من التفرق والانتشار (قال : ما خطبكما ؟) مما أنتما عليه من التأخر والذود ، ولم لم يأت غيركما ؟ (قالتا) أما تأخرنا فلأنه (لا نسقي) غنمنا (حتى يصدر الرعاء) أي يصرف الراعون مواشيهم بعد ريّها إلى المرعى ، وتخلو أطراف الماء من الناس • وأما أنه لم يأت غيرنا فلأنه ليس عندنا أحد إلا أبونا (وأبونا شيخ كبير) في الجلالة والقدر لا يناسبه الاختلاط بالناس من كل أصناف ، وفي العمر فلم تبق عنده قوة السعي وراء الأغنام ورعيها وسقيها • وأما مجيئنا فلأن مجيىء النساء عادة أهل البلد ولا تخرم المروءة ، فمشينا على ما هو المعتاد •

وقوله تعالى : (فسقى لهما) معناه أنه لما سمع كلامهما ، وعلم أن تأخرهما لعدم الاختلاط والضعف عن مقاومة المتزاحمين هناك قام إلى خدمتهما وسقى لهما أغنامهما • (ثم تولى إلى الظل) الذي كان هناك من شجرة مظللة

واستراح (فقال : ربّ إني لما أنزلت إليّ من خير فقير) أي أنت تعلم أني مسافر غريب ليس لي مأوى ولا ملجأ للعيش الإعتيادي والناس لا يعتدون بمن لا يعرفونه فالأمر موكول إلى رحمتك الواسعة يا ألله (فجاءته إحديهما تمشي على استحياء) أي وبينما هو يدعو ربه وينتظر كرمه إذ جاءته إحدى البنتين اللتين صادفهما على الماء تمشي على استحياء وأدب في مشيها ومجيئها حتى وصلت و (قالت) لموسى ـ عليه السلام ـ (إن أبي يدعوك) إلى حضوره (ليجزيك أجر ما سقيت لنا) أي يجزيك من عنده بلا طلب وقرار مثل جزاء سقيك لنا بدون طلب منك لشيىء ، أو أنت سقيت المواشي ماء العادة وهو يسقيك ماء السعادة ، فقام ملبيا دعوة عمه شعيب ، ومتوكلا على ربه عالم الشهادة والغيب •

(فلما جاءه) واستراح ، وطلب منه شرح حاله (وقص) موسى (عليه القصص) من الأول إلى الأخير (قال) شعيب ـ عليه السلام ـ له مسكنا له ومبشرا : (لا تخف) منهم (نجوت من القوم الظالمين) وليس لهم سلطان على بلدنا وأنت أمين • (قالت إحديهما) وهي التي استدعته إلى أبيها وهي التي زوجها من موسى ـ عليه السلام ـ واسمها صغيراء بالتصغير ، واسم الكبرى الصغراء : (يا أبت استأجره) أي لرعي الأغنام (إن خير من استأجرت القوي الأمين) اطلعت على قوته في جرأته النفسية وحركته الجسمية إذ سقى مواشيهما ، وعلى أمانته بغض البصر من النظر اليهما •

ويؤخذ من الآية الكريمة قياس من الشكل الأول تقريره : موسى قوي على العمل وأمين ، وكل قوي أمين خيرٌ أجير ينتج من الضرب الثاني من الشكل الأول : موسى خير أجير •

فلما توسم شعيب ـ عليه السلام ـ فيه القوة والأمانة وشهدت عليهما من شهد من أهله قال له (إنّي اُريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على

أن تأجرني ثماني حجج ، فإن أتممت عشرا) في الخدمة والعمل (فـ) هو (من عندك) من طريق التفضل لا من عندي بطريق الإلزام (وما أريد أن أشقّ عليك) بإلزام عمل فيه كلفة إياك (ستجدني إن شاء الله من الصالحين) في حسن المعاملة ولين الجانب • (قال) موسى ـ عليه السلام : (ذلك بيني وبينك) أي الذي قلت وعاهدتني ثابت بيننا جميعا لا يخرج عنه واحد منّا (أيما الأجلين) أطولهما أو أقصرهما (قَضَيْتُ فلا عُدوان عليّ) والمراد من أمثال هذا الكلام التسوية بينهما في الانتفاء ، وإلا فهو إذا قضى أطول الأجلين لا يتوجه ولا يتصور أي عدوان من أحد عليه (والله على مانقول) من الشروط (وكيل) أي شهيد •

فان قيل : إن صورة ما جرى بين شعيب وموسى ـ عليهما السلام ـ إن كانت إنشاء عقد النكاح فهي مختلفة من جهة إبهام البنت المزوجة ، وأخذ أجرة عائدة إلى الولي من الزوج ! أجيب بأن ذلك ليس إنشاء العقد بل وعد بإنشائه بعد إتمام مدة الخدمة • ولو سلمنا أنها العقد فشريعة شعيب غير شريعتنا ، وقد جاز العقد في شريعته على الخدمة والرعي مدة معلومة وإبهام المنكوحة لفظا مع نية العاقدين لمنكوحة معينة ، على أنّ جعلَ الصداقِ رعي المواشي جائز على قول بعض الأئمة في شريعة الإسلام •

(فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ ، وَسَارَ بِأَهْلِهِ ، آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَاراً قَالَ لِأَهْلِهِ : امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ : أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٣٠) وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا

جانٌ وَلّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ ، يا مُوسى أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ(٣١) اُسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ، وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَناحَكَ من الرَّهْبِ ، فَذانِكَ بُرْهانانِ مِنْ رَبِّكَ إِلى فِرْعَوْنَ ومَلائِهِ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ(٣٢) قال : ربِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخافُ أَنْ يقتُلُونِ(٣٣) وَأَخِي هرُونُ هُو أَفْصَحُ مِنِّي لِساناً ، فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُني ، إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ(٣٤) قالَ : سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ، وَنَجْعَلُ لَكُما سُلْطاناً ، فَلا يصلون إِلَيْكُما بِآياتِنا ، أَنْتُما وَمَنْ اتَّبَعَكُما الغالِبُونَ)(٣٥)

قوله تعالى (فلما قضى موسى الأجل) أي أتم المدة المعينة للخدمة وتزوج المطلوبة (وسار بأهله) نحو مصر لزيارة أمّه وأخيه وذويه (آنس من جانب الطور نارا) أي رأى نارا من الجهة التي تلي الطور (قال لأهله : امكثوا) أي أقيموا مكانكم ، وأهله كان عبارة عن زوجته وولدين وخادم (إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بخبر) وإيضاح للطريق وقد كانوا ضلوا الطريق (أو جذوة من النار) أي عود مشعول (لعلكم تصطلون) أي تستدفئون •

روي أنه ـ عليه السلام ـ خرج بأهله وماله في فصل الشتاء ، وأخذ على غير الطريق مخافة ملوك الشام ، وامرأته حامل لا يدري أليلا تضع أم نهارا • فسار في البرية لا يعرف طرقها فألجأه السير إلى جانب الطور الغربي الأيمن في ليلة مظلمة مثلجة شديدة البرد ، وأخذ امرأته الطلق ، فقدح زنده فأصلَدَ أي فلم تخرج منه النار • فنظر فإذا نار تلوح من بعد • فقال لأهله : امكثوا (فلما أتيها) أي أتى النار التي آنسها ورآها من بعد (نودي

من شاطىء الوادي الأيمن) أي أتاه النداء من الجانب الأيمن بالنسبة إلى موسى ـ عليه السلام ـ (في البقعة المباركة من الشجرة) بدل من قوله من شاطىء الوادي (أن ياموسى إنى أنا الله رب العالمين) .

قيل : إن حكاية هذا النداء وقعت في صور متعددة بعبارات مختلفة ، وذلك مستشكل ! وأجيب : بأن النداء كان مشتملا على مفاهيم متعددة ، فذكر الله تعالى في كل سورة بعضا منها . وقد يقتضي المقام ذكر بعض الأشياء من وقائع دون بعض .

وللعلماء المفسرين الاجلة عبارات في كيفية سماع موسى ـ عليه السلام ـ كلام الله تعالى . والقضية قضية دقيقة جدا . فمنهم من قال : إنه تعالى خلق الألفاظ الدالة على المعاني في تلك الشجرة ، وانتشر الصوت منها كما نسمع نحن الأصوات من أجهزة المذياع . ومنهم من قال : خلق الله الأصوات في الهواء هناك وأخذها موسى ـ عليه السلام كما هي . والحق أن بيان كيفية سماعه لكلامه سبحانه وتعالى يحتاج إلى توفيق من جانب المبين، وتوفيق من جانب المخاطب الفاهم للبيان ، وأن الله سبحانه وتعالى تكلم مع عبده موسى مباشرة بدون وساطة أيّ واسطةٍ ، كما تكلم مع حبيبه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليلة المعراج ، وفرض عليه وعلى أمته الصلوات المفروضة ، وذكرَ له أشياء أخرى ، وأن موسى ـ عليه السلام ـ استغرق في تجلي الكلام عليه وسمع كلام الحق من كل الجوانب وبالسمع والقلب ، وأنّ ذلك الطور ظاهر على أهله فإن الله قادر على إنطاق كل جزء من أجزاء البدن كاللسان ، وقادر على خلق قوة السمع في كل جزء من أجزائه ، ولذلك اختص باسم الكليم ، وهذا ظاهر عند من له ذوق سليم .

(وأنْ ألْقِ عَصاك) عطف على أنْ يا موسى (فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب) يعني فألقى عصاه امتثالا لأمره تعالى ، ولما ألقاها

رآها تهتز وتتحرك بسرعة زائدة كأنها صغار الحيات الخفيفة الجثة والسريعة الحركة ، وعند إحساسه ـ عليه السلام بها خاف منها وولى مدبرا خوفا من لدغها وإيذائها له ولم يعقب ولم يرجع الى محله السابق •وعند ذلك ناداه الله بقوله (أقبل) إلى عصاك (ولا تخف إنك من الآمنين) من المخاوف، ولا مجال للخوف عند الإيحاء • (اسلك يدك في جيبك) أي أدخلها فيه • وجيب الكساء فتحه من حيث يخرج الرأس (تخرج بيضاء من غير سوء) أي إن أدخلتها فيه ثم أخرجتها منه تخرج بيضاء مشعة بارقة يظهر أثر برقها في مقابلها من غير عروض عيب عليها (واضمم إليك جناحك من الرهب) أي واضمم إليك عضدك وذراعك وهو الجناح (إلى جنبك) من أجل المخافة من العصا أي من أجل دفعها • ومن شأن الإنسان إذا فعل ذلك في وقت فزعه أنه يتخفف ويخلص منه (فذانك) الأمران أي العصا واليد (برهانان) حجتان ظاهرتان على صدقك في دعوى الرسالة (من ربّك) تعالى وقوله (إلى فرعون وملاه) متعلق بمحذوف أي واصلتان إلى فرعون وملاه (إنهم كانوا قوما فاسقين) خارجين من حدود الظلم والعدوان •

(قال : رب إني قتلت منهم نفسا ، فأخاف أن يقتلون) في مقابلها (وأخي هارون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي) حالكونه (ردأً) أي عونا وظهيراً لي في المكالمات حتى يأتي بالحجة الكلامية ويلقيها إليهم علاوة على المعجزة الربانية (إني أخاف أن يكذبون) إذا تكلمت معهم لأن كلامي ضعيف والمعاند لما أدرك الضعف في الكلام غلب على مقابله (قال) سبحانه وتعالى : (سنشد عَضُدَكَ بأخيك) إجابة لك فيما أردته (ونجعل لكما سلطانا) أي سيطرة عظيمة جدا (فلا يصلون إليكما بآياتنا) أي مع وجود آياتنا معكم (أنتما ومن اتبعكما الغالبون) لا غيركم من المعاندين •

(فَلَمَّا جاءَهُمْ مُوسى بِآياتِنا بَيِّناتٍ قالُوا : ما هذا إِلاّ سِحْرٌ مُفْتَرىً ، وَما سَمِعْنا بِهذا فِي آبائِنا الأَوَّلِينَ(٣٦) وَقالَ مُوسى : رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جاءَ بِالْهُدى مِنْ عِنْدِهِ ، وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدّارِ ، إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظّالِمُونَ(٣٧) وَقالَ فِرْعَوْنُ يا أَيُّهَا الْمَلأُ ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي ، فَأَوْقِدْ لِي ياهامانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلى إِلهِ مُوسى ، وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكاذِبِينَ(٣٨) وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنا لا يُرْجَعُونَ(٣٩) فَأَخَذْناهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِي الْيَمِّ ، فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظّالِمِينَ(٤٠) وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلى النّارِ ، وَيَوْمَ الْقِيامَةِ لا يُنْصَرُونَ(٤١) وَأَتْبَعْناهُمْ فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ(٤٢) وَلَقَدْ آتينا مُوسَى الْكِتابَ مِنْ بَعْدِ ما أَهْلَكْنا الْقُرُونَ الأُولى بَصائِرَ لِلنّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)(٤٣)

قوله تعالى (فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات) أي ظاهرات الدلالة على صدقه في دعوى الرسالة من الله لأن تلك الآيات من خوارق العادات ولا يقدر أحد على خلقها إلا الله سبحانه وتعالى ، وقد ادعى موسى الرسالة منه تعالى ، وقالوا له ما حجتك على صدقك فكأنّه قال حجتي أن يخلق لي ربي من عصاي ثعبانا مبينا ، ومن يدي مصباحاً مُضيئاً . وقد أتى بما قاله فَقَد صدَّقه ربه وثبت بين الناس صدقُه . ومع ذلك لمّا جاء موسى

بالآيات (قالوا) أي فرعون وملأه : (ماهذا إلا سحر مفترى) أي مختلف مفتعل لم يسبق له مثيل (ما سمِعنا بِهذا في آباءنا الأولين) واقعا في أيامهم و (قال) موسى ــ عليه السلام ــ بكل سكونة واطمئنان (ربي أعلمُ بمن جاء بِالهُدى من عندِه ، ومن تكون له عاقبة الـدار) وأراد بالموصولين نفسه المباركة يعني لا نهتم بتكذيبكم فإنه عارض يذهب أدراج الريـاح (إنه لا يُفلح الظالمون) أي لأنه ثبت على حسب سنة الله تعالى في العالـم أنه لا يفلح الذين ظَلَمُوا أنفسهم بالكفر والإشراك والمعاصي ، وغيرهـم بالقتل والتعذيب والمآسي . فالدنيا محكمة العدل وإذا بقي شيىء فالآخـرة أجمعُ وأبقـى .

(وقال فرعون) قولا ناشئا من أحد أمرين : فإما كان سيّاسا وحيالا يَعلمُ بوجود الباري تعالى ، ويَعلَمُ أنه ليس في مقام من السماء يصـل إليه ، ولكن علم أن قومه جهلاء حمقى فإذا بنوا له صرحا وصعده ونزل منه إلى الأرض وقال لقومه ماوجدتُ أحدا هناك صدّقوه واعتبروه إلهاً لهم ، وإما أنه كان غبيّاً من الأغبياء ، كما أنه كان من أشقى الأشقياء وظنّ أنه إذا كان موسى صادقا فربه موجود في مستوى معين من السماء ، وإذا صـعد الصرح رآه ، فإن لم يـره فمعناه أنه ليس بموجـود ، ويغلب نفسيا على موسى ــ عليه السلام ــ وهـذا الاحتمال أظهر وأنسـب بتوارثهم على الجهالة العمياء فقال (يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري) إلى يومنـا والآن لما جاء موسى يدعي وجود رب للسماوات والأرض فإذا كان صادقا فلابد أن يكون موجودا في الأرض او في السـماء ومادام ليس في الأرض فهو لابد أن يكون في السماء (فأوقد لي ياهامان على الطين) أي اصـنع لي آجُراً (فاجعل لي) منه (صرحا) أي بناء مرتفعا جدا مكشوفا (لعلي أطلعُ إلى إلهِ موسى) أي لعلي أصعد على الصرح ، وأقرب من السماء ،

وأطلع على إله موسى (وإني لأظنه من الكاذبين) في ما يقول من أن الله موجود وهو رب السماوات والأرض •

(واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق) أي فبنى له هامان صرحا عاليا في مستوى ارتفاع زائد فصعد عليه وبقي زمانا ، واستعمل ما في إمكانه العالمي من أجهزة الاستطلاع والاستعلام ، ولم يصل إلى أيّ نتيجة ، ونزل وبقي على جهله وغبائه وشقائه أقوى مما كان قبل (واستكبر هو وجنوده في الأرض) أي أرض مصر ونظر إلى من عداهم بنظر التحقير (بغير الحق) بل على وجه الأنانية والاستنكاف من رعاية الغير (وظنّوا أنهم إلينا لا يرجعون) أي وظنوا أن لا إله غير فرعون ، وأن لا حياة إلا ما في الدنيا ، وأنهم إذا ماتوا لا يبعثون ، ولا يرجعون إلى الله للحساب وأخذ الجزاء من العذاب والعقاب (فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم) بعد عبور موسى وقومه من النيل (فانظر) يا حبيبي (كيف كان عاقبة الظالمين) المعروفين بأشد المنكرات •

(وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار) أي وجعلناهم لسوء اختيارهم ، وقلة شعورهم ، وترجيح العادة على العقل ، والمعجل على المؤجل والمؤقت على المؤبد ••• قدوة الضلال يدعون من عداهم إلى الكفر والمعاصي والسيئات فأهلكناهم في الدنيا (ويوم القيامة لا ينصرون) بدفع العذاب عنهم قطعا • (وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة) طردا وإبعادا من الله والملائكة والناس على ظلمهم وطغيانهم واعتدائهم على الأبرياء (ويوم القيامة هم من المقبوحين) بين الخلائق أجمعين • (ولقد آتينا موسى الكتاب) بعدما خلص هو وقومه من استيلاء الأقباط وعبورهم النيل (من بعدما أهلكنا القرون الاولى) أقوام الأنبياء المتقدمين (هدى للناس) إلى الشريعة (ورحمة) لهم حيث كان دستورا من مشى عليه سلم (لعلّهم يتذكّرون)

بذلك الكتاب ويذكرون أن الإنسان كائنا من كان إذا تمرد وعصى فعاقبته الخسران ، وإذا آمن وعمل الصالحات فهو من أهل النجاة بين العالمين •

(وَما كُنْتَ بِجانِبِ الغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنا إلى مُوسَى الأَمْرَ ، وَما كُنْتَ مِنَ الشّاهِدِينَ (٤٤) ولكِنّا أَنشَأنا قُرُوناً فَتَطاوَلَ عَلَيْهِمُ العُمُرُ ، وَما كُنْتَ ثاوِياً في أَهْلِ مَدْيَنَ تَتلو عَلَيْهِمْ آياتِنا ، وَلكِنّا كُنّا مُرْسِلِينَ (٤٥) وَما كُنْتَ بِجانِبِ الطُّورِ إِذْ نادَيْنا ، ولكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتيهُم مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرونَ (٤٦) وَلَولا أَنْ تُصيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقولوا : رَبَّنا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آياتِكَ وَنَكونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ !(٤٧) فَلَمّا جاءَهُمُ الحَقُّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا : لَوْلا أوتِيَ مِثْلَ ماأوتِيَ مُوسى ! أَوَ لَمْ يَكْفُرُوا بِما اوتِيَ مُوسى مِنْ قَبْلُ ؟ قالُو : سِحْرانِ تَظاهَرا ، وقالُوا : إِنّا بِكُلٍّ كافِرُونَ (٤٨) قُلْ : فَأْتُوا بِكِتابٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ هُوَ أَهْدى مِنهُما أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٤٩) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّما يَتَّبِعُونَ أَهْواءَهُمْ ، وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَواهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللهِ ؟ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي القَوْمَ الظّالِمِينَ (٥٠) وَلَقَدْ وَصَّلْنا لَهُمُ القَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)(٥١)

ثم أخذ الباري تعالى يبين حقية رسالة حبيبه محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، ويدفع عنها أوهام المتوهمين المعاندين ، فيقول : (وماكنت بجانب الغربي) أي بجانب الجبل الغربي مــن مقام موسى (إذ قضينا إلى موسى

الأمر) أي إذ أنفذنا إليه حكم رسالته والتكلم معه، وأحكمنا نبوته (وما كنت من الشاهدين) أي من جملة الحاضرين للوحي إليه (ولكنا أنشأنا قرونا) من الزمن بعد موسى (فتطاول عليهم العمر) أي فتطاول على أهل القرون الأمد ، فتغيرت الشرائع والأحكام وانحرف الناس عن الحق (وماكنت ثاويا في أهل مدين) أي مقيما في أهل مدين شعيب حتى تسمع منهم بعض ما قصصنا من ورود موسى على ماء مدين ، وما جاء عليه بعد ذلك بحيث (تتلو عليهم) أي تقرأ عليهم بطريق التعلم منهم (آياتنا ولكنا كنا مرسلين) لك وأوحينا إليك آياتنا البينات الناطقة بأحوال موسى من أول نشوئه إلى آخر شئونه (وما كنت بجانب الطور إذ نادينا) موسى وقلنا : يا موسى إني أنا الله رب العالمين (ولكن رحمة من ربك) أي ولكن أوحينا إليك القصص رحمة من ربك (لتنذر قوما ما أتيهم من نذير من قبلك) كطوائف العرب في أم القرى وماحولها (لعلهم يتذكرون) أي يتعظون بهذه الآيات البينات الواصلة إليك .

(ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم) مما اقترفوه من الكفر والمعاصي (فيقولوا : ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا) أي هلا أرسلته إلينا (فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين) وجواب لولا الأولى الامتناعية محذوف أي ما أرسلناك إليهم . ولولا الثانية تحضيضية (فلما جاءهم الحق من عندنا) أي فلما جاء أهل مكة الكلام الحق من عندنا وأنزلناه على حبيبنا محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ (قالوا : لولا أوتي) أي محمد ــ عليه السلام ــ (مثل ما أوتي موسى) ــ عليه السلام ــ من الكتاب المنزل عليه جملة . يعني أنه لو كان ينزل عليه الكتاب جملة واحدة لآمَنّا به ، فرد الله عليهم بقوله (أو لم يكفروا بما أوتي موسى من قبل ؟) والحال أنه نزل عليه جملة واحدة . ومن قبل متعلق بقوله تعالى يكفروا أي كيف يدعون

أنه لو نزل القرآن جملة واحدة كما نزل التوراة على موسى جملة واحدة لآمنّا به ؟ مع أنهم كفروا بما أوتي موسى من قبل هذا الوقت عندما بعثوا رهطاً منهم إلى رؤساء اليهود في عيد لهم فسألوهم عن شأنه ــ عليه الصلاة والسلام ــ فقالوا : (نجده في التوراة بنعته وصفته) فلما رجع الرهط إلى مكة وأخبروهم بما قالت اليهود أنكروا كتاب موسى كما أنكروا القرآن (وقالوا) هما : (سحران تظاهرا) أي التوراة والقرآن سحران تظاهرا وتعاونا بتصديق كل منهما للآخر (وقالوا : إنا بكل كافرون) أي قال أهل مكة : إنا كافرون بكل من القرآن والتوراة . (قل) يا حبيبي لهؤلاء المشركين الكافرين بكل من الكتابين : (فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين) في دعوى أنهما سحران تظاهرا وتعاونا (فإن لم يستجيبوا لك) أي فإن لم يأتوا بكتاب هو أهدى منهما (فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ، ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ؟) وهذا القيد لزيادة التقدير فإنه لا شك في أن من اتبع هواه ليس متلبسا بهدى من الله تعالى (ولقد وصلنا لهم القول) أي ولقد تابعنا المذكرات لأهل مكة فانزلنا آية بعد آية لعلهم يتذكرون فيؤمنون بما فيه .

(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا : آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ، وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ، وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٥٤) وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ، وَقَالُوا : لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ، سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥) إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ

أَحْبَبْتَ ، وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)(٥٦)

قوله تعالى : (الذين آتيناهم الكتاب من قبله) يعني الذين آتيناهم الكتاب من قبل نزول القرآن (هم به يؤمنون) أي هم الذين يؤمنون بالقرآن لا أولئك المشركون الذين قالوا سحران تظاهرا • والآية نزلت في مؤمني أهل الكتاب ، وقيل في أربعين من أهل الإنجيل إثنان وثلاثون جاءوا مع جعفر من الحبشة وثمانية من الشام (وإذا يتلى عليهم قالوا : آمنا به ، إنه الحق من ربنا ، إنا كنّا من قبله مُسْلِمين) ليس إيماننا شيئا مستحدثا وإنما هو عن معرفة تقادم عهدها وتوارثناها (أولئك يؤتون أجرهم مرتين) مرة على إيمانهم بكتابهم ، ومرة على إيمانهم بالقرآن (بما صَبَرُوا) أي بصبرهم وثباتهم على الإيمانين ، أو على الإيمان بالقرآن • (ويدرءون بالحسنة السيئة) أي بالطاعة المعصية ، أو بالحلم أذى الجاهلين، أو بالمعروف المنكر ، أو بالخير الشر ، أو بالعلم الجهل ، أو بالكظم الغيظ ، أو بشهادة لا إله إلا الله الشرك ، أو بالايمان بمحمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ عناد أهل الكتاب (ومما رزقناهم ينفقون) في سبيل الله (وإذا سمعوا اللغو) سقط القول (أعرضوا عنه) تكرّما (وقالوا) للاّغين الطاعنين فيهم على إيمانهم بمحمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ (لنا أعمالنا ولكم أعمالكم) متاركة لهم (سلام عليكم) قالوه توديعا لا تحية وترفيعا (لا نبتغي الجاهلين) أي لا نبتغي صحبتهم (إنك لا تهدي من أحببت) أي كل من أحببته هداية موصلة إلى المطلوب ، وإنما ترشده وتوجهه إلى الحق وتبلغه كلام الله (ولكن الله يهدي من يشاء) هِدايَتَه (وَهُوَ أعْلم بالمُهتَدين) أي بالمستعدين لذلك وهو من علم الله تعالى منه حسن الفكرة والاختيار •

(وقالوا : إنْ نَتَّبِعِ الهُدى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ، أَوَ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا ؟ ولكنَّ أَكْثَرَهُم لا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَكَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَها ؟ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً ، وكُنَّا نَحْنُ الوارِثِينَ (٥٨) وَما كانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ القُرى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا ، وَما كُنَّا مُهْلِكِي القُرى إِلاَّ وَأَهْلُها ظالِمُونَ (٥٩) وَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فمتاعُ الحَيوةِ الدُّنْيا وَزِينَتُها ، وَما عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقى ، أَفَلا تَعْقِلُونَ ؟(٦٠) أَفَمَنْ وَعَدْناهُ وَعْداً حَسَناً فهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْناهُ مَتاعَ الحيوةِ الدُّنيا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ القِيامَةِ مِنَ المُحْضَرِينَ ؟)(٦١)

قوله تعالى : (وقالوا : إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا) نزل في الحرث ابن عثمان ابن نوفل ابن عبد مناف حيث أتى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : نحن نعلم أنك على الحق ، ولكنا نخاف إن اتبعناك وخالفنا العرب ، وإنما نحن أكلة رأس أن يتخطفونا من أرضنا . فرد الله عليهم خوف الخطف ومعنى الخطف الاختلاس بسرعة يعني قالوا : إن اتبعناك وتركنا تقاليد العرب في عبادة الأصنام هاجمتنا واختطفتنا . فقال تعالى في ردهم : (أَوَ لَم نمكن لهم حرماً آمِنا) أي ألم نهيىء لهم مكانا آمِنا وجعلناه حرما محفوظا من أيدي العابثين ومجمعا للخيرات (يجبى إليه ثمرات كل شيء ؟) أي ثمرات كل شيء مثمر من المأكولات والمشروبات والملبوسات حالكونها (رزقاً) صادراً (مِن لدنا) والجواب إذا كان من العاقل (بلى)

(ولكن أكثرهم لا يعلمون) أن الحرم آمن بعصمة الله ، وظنوا أن أمنه من موافقة العرب في عبادة الأصنام مع أن الاصنام وعبادتها من محدثات عمرو بن لحى الجار أمعاءه في النار ، ولا يعلمون أن الثمرات تجبى إليهم إجابة لدعاء إبراهيم ــ عليه السلام ــ ، ويظنون أنها من مسافراتهم بالشتاء إلى اليمن وبالصيف إلى الشام ، ولا يعلمون أن قسما كبيرا من أرزاقهم يأتيهم من الخارج بإلهامنا إلى الناس الطائفين الحجاج والمعتمرين ، وإن كثيرا من التجار يخسرون ولكنهم يربحون بتوفيقي لهم في تيسير اشتراء المواد النافعة وتيسير بيعها للناس فإن معنى قوله (رزقا من لدنا) ليس أن الأرزاق مطلقا تأتيهم من السماء أو من الارض بدون كسب ومحاولة منهم ، فإن ذلك خلاف سنة الله في عباده ، بل معناه أن هناك أسبابا خفية في تحصيل المسببات وتوفيقات وإلهامات في قلوب الناس لتحصيل وسائل المعاش والمعاد ، وذلك لا يوجد إلا من لدن حكيم خبير .

(وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها) أي وكثيرا من أهل معمورة في الارض حالتهم الأصلية كانت فقرا ثم مكناهم في الارض وترفهوا فبطروا واغترّوا ولم يشكروا نعمة الله الذي أنعم عليهم ، فأهلكناهم وخلت ديارهم (فتلك مساكنهم) التي في ممرهم في أسفار التجارة وغيرها وتدمرت بحيث (لم تسكن من بعدهم إلا قليلا) أي إلا زمانا من المارّة والعابرين، أو إلا قليلا من تلك المساكن عمروه وسكنوا فيه (وكنا نحن الوارثين) منهم إذ لم يبق منهم أناس يخلفونهم أو بقي منهم أناس استبشعوا البقاء فيها فتركوها وانتقلوا إلى بلاد أخرى ، وقومك من الذين كانوا في فقر حال فأسكناهم في أرضنا وأغنيناهم فزادت معايشهم واغتروا ، فإذا لم يؤمنوا ولم يستسلموا لله فإنا نحن نعلم ماذا نفعل بهم ونقدر عليهم في كل تصرف شئناه ونحن أحكم الحاكمين .

(وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا) أي آياتنا البينات الواضحة التي تدعوهم إلى الحق وإلى صراط مستقيم ، فإذا قبلوا الدعوة رضيناهم في الدنيا والآخرة، وإذا ردوها رددناهم ودمرناهم على بغيهم وظلمهم (وما كنا مُهْلكي القُرى) أي مُهلكي أهلِها ومُدمري أنفسها (إلاّ وأهلُها ظالمُون) وهذه سنتنا في عبادنا إلى يوم الدين • (وما أوتيتم من شيء) من أمور المعيشة (فمتاع الحيوة الدنيا وزينتها) وتبقى لكم مدة معينة محدودة (وما عند الله) من الجنة ورضوانها ومن محبة الله ورضاه (خير) في حد ذاته لأنه لا ألم معه (وأبقى) وجودا نوعا أو فردا لأنه يستمر ابد الآبدين (أفلا تعقلون ؟) الفرق بين الأمرين أيها العاقلون (أفمن وعدناه وعدا حسنا) في نفسه لأنه من الله وفي متعلقه الموعود به لأنه دخول الجنة (فهو لاقيه) أي فذلك الموصول الموعود مدركه ذلك الأمر الموعود به لأن الله لا يخلف الميعاد (كمن متعناه متاع الحيوة الدنيا) الفانية الفاني ما فيها (ثم هو) أي ذلك الموعود المقطوع (يوم القيامة من المحضرين ؟) للحساب والعقاب والعذاب • والجواب الحق أن ليس الموصولان على حد سواء ، بل الأول فوق الثريا ، والثاني فيما تحت الثرى والأمر كما ترى •

(وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ ، فَيَقُولُ : أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذين كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ؟(٦٢) قالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ : رَبَّنا هؤلاءِ الَّذينَ أَغْوَيْنَا ، أَغْوَيْنَاهُمْ كَما غَوَيْنَا ، تَبَرَّأْنا إِلَيْكَ ما كانُوا إِيَّانا يَعْبُدُونَ(٦٣) وَقِيلَ : ادْعُوا شُرَكائَكُمْ ، فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ، وَرَأَوُا الْعَذابَ لَو انَّهُمْ كانُوا يَهْتَدُونَ(٦٤) وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ ، فَيَقُولُ : ماذا أَجَبْتُمْ

المُرْسلِينَ ؟(٦٥) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَسَاءَلونَ(٦٦) فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً فَعَسى أَنْ يكُونَ مِنَ المُفْلِحِينَ(٦٧) ورَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ ويَخْتارُ ماكانَ لَهُمُ الخِيَرَةُ ، سُبْحانَ اللهِ وَتَعالى عَمَّا يُشرِكُونَ(٦٨) ورَبُّكَ يَعْلَمُ ما تُكِنُّ صُدُورُهُم ، وما يُعْلِنُونَ(٦٩) وهُوا اللهُ لاَ إِلهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الحَمْدُ فِي الأُولى وَالآخِرَةِ ، ولَهُ الحُكْمُ وإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)(٧٠)

قوله تعالى (ويوم يناديهم) ظرف منصوب بأذكر ، أي واذكر يوم يناديهم الله تعالى فيقول : (أين شركائي الذين كنتم تزعمون ؟) أي تزعمونهم شركاء لي ، ولما كان موقف النداء موقف الترهيب والإخافة ، وكان توجيه السؤال إلى المشركين توجيها إلى شركائهم أجاب الشركاء عنهم (وقال الذين حق عليهم القول) أي الشركاء الذين ثبت عليهم مقتضى قوله تعالى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ، أي قال الشركاء المستحقون لدخول النار : (ربنا هؤلاء الذين أغوينا) أي أغويناهم عن عبادتك وحدك (أغويناهم كما غوينا) أي أغويناهم غياً مثل ما غوينا . أي أضللناهم وكانوا مثلنا في الضلال ، (تبرأنا إليك) منهم (ماكانوا إيانا يعبدون) بل كانوا يعبدون هواهم (وقيل : ادعوا شركاءكم) أي فلما تبرأ الشركاء من العبّاد قيل من طرف الله أو من طرف الملك المأمور : ادعوا شركاءكم لعلكم تتفاهمون وتعتذرون (فدعوهم ، فلم يستجيبوا لهم) لعجزهم عن كل معونة ونصر لهم (ورأوا العذاب) لأربابهم (لو أنهم كانوا يهتدون) إلى حيلة لدفع العذاب عنهم لنجوا ،ولكن لم يهتدوا ، أو لو كانوا يهتدون في الدنيا إلى الحق ما وقعوا في هذه المآسي .

(ويوم يناديهم) الله تعالى (فيقول) لهم : (ماذا أجبتم المرسلين ؟ فعميت عليهم الأنباء ، يومئذ) أي فصارت الأنباء كالعمى عليهم لا تهتدي إليهم ، فقد شبهت الأنباء بمن توجه إلى شيء فأتاه العمى ، ولم ير المقصود يومئذ أي يوم القيامة (فهم لا يتساءلون) أي لا يسأل بعضهم بعضا (فأما من تاب) إلى الله في وقت الحياة المستقرة (وآمن) بالله وحده لا شريك له (وعمل صالحا) من كف النفس عن المحرمات وفعل الواجبات (فعسى أن يكون) ذلك التائب المؤمن العامل للعمل الصالح (من المفلحين) الناجين من النار (وربك يخلق ما يشاء) من الأعيان والأعراض (ويختار) ويرجح أحد الجانبين على الآخر بمحض إرادته السنية لا موجب عليه ولا مانع (ماكان لهم) أي للناس (الخيرة) أي التخير في خلق الله وأمره أي لا شريك له لأنه هو الخالق وحده ، ولا موجب ولا مانع عليه لأن الله هو المختار • ومعنى هذا نفي تصرف العباد وعلاقتهم في خلق الله ، وهذا هو الإيمان السليم بأن الله هو الفاعل المختار ، وكل شيء يسند إليه بالذات بدون توسط شييء إلا تلك الأسباب الإعتيادية التي خلقها وأثبتها في قوله وآتيناه من كل شييء سببا •

وليس معنى قوله تعالى (ما كان لهم الخيرة) أي الإختيار في أفعالهم وآثارهم لأن الكلام هنا في أفعال الباري لا في أفعال العباد • وكذلك أثبت للعباد المكاسب والأفعال في آيات • وقال (لها ماكسبت وعليها ما اكتسبت) وقال (والله عليم بما يعملون) وقد ثبت بالأدلة القاطعة أن للعباد أفعالا إختيارية يثابون بها ويعاقبون عليها ، ولكن للعلماء في تحقيق الاختيار آراء ، والمختار منها رأيان : الأول : رأي أبي الحسن الأشعري • والثاني : رأي أبي منصور الماتريدي ــ رضي الله تعالى عنهما ــ •

اما رأي الإمام أبي الحسن الأشعري ـ رضي الله عنه ـ في كسب العبد فهو مقارنة قدرته وإرادته المتوجهة للعمل الذي يفعله بقدرة الباري تعالى وإرادته • وتوضيحه : أن الله تعالى خلق العبد وخلق فيه حواسا سليمة ، وعلما إجماليا بالأفعال الإختيارية قبل صدورها ، وعلما بحسنها وقبحها ، وخلق فيه إرادة تابعة لذلك العلم مرجحة لبعض الأفعال على بعض . وقدرةً متعلقة بالفعل تابعةً لتلك الإرادة بحيث لو كانت مستقلة في الإيجاد لأوجدها • وينبعث من هذه الإرادة شوق ورغبة في إنجاز الفعل ، وعند ذلك يخلق الله تعالى ذلك الفعل الذي رغب فيه • فكسبه عبارة عن توجيه إرادته للقدرة نحو العمل ، وهذا التوجيه سبب إعتيادي لخلق الله تعالى ذلك الفعل له •

وحقق العلامة الكوراني أن مذهب السلف أن للعبد قدرة مؤثرة في العمل بإذن الله تعالى ، وادّعى أن ذلك هو مذهب الاشعري ، لا أنّ قدرته غير مؤثرة أصلا وهذا واضح •

وأما رأي الإمام أبي منصور الماتريدي ـ رضي الله عنه ـ فهو أن الكسب عبارة عن صرف العبد قدرته وإرادته إلى الفعل المرغوب عنده ، وأن ذلك أثر لقدرة العبد وصادرة عنه ، وإيجاد الله تعالى الفعل عقب ذلك خلق ، والمقدور الواحد داخل تحت قدرتين بجهتين مختلفتين ، فالفعل مقدور لله بجهة الخلق والإيجاد ، ومقدور للعبد بجهة الكسب ، أي صرف قدرته وإرادته إليه • وظواهر الآيات شاهدة بأن العبد كاسب وله كسب صادر منه يترتب عليه الثواب والعقاب ، وأن الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل • فاختر ما تشاء من الرأيين ، والله سبحانه وتعالى هو الموفق والمعين • ولما قرر الله تعالى أنه بذاته يخلق ما يشاء ويختار ، وما كان لأحد التخير في أفعاله تعالى أكد ذلك بقوله : (سبحان الله) أي

تنزه تعالى بذاته تنزها خاصا به من أن ينازعه أو يزاحمه أحد في خلقه واختياره (وتعالى عما يشركون) أي عن إشراك الأصنام التي كان المشركون يزعمون مشاركتها له تعالى في أي عمل من أعماله (وربك يعلم ماتكن صدورهم) أي ما يخفونه في صدورهم (وما يعلنون) من عبادات شاهدة على دناءتهم وقصورهم (وهو الله) أي وهو الذات الواجب الوجود الجامع لكمالاته المنزه عن النقائص المعلم بالاسم الأعظم بين الاسماء الحسنى ، وهو (الله) كما بينه العلماء المحققون (لا إله إلا هو) أي لا واجب في الوجود، ولا خالق للموجود ، ولا من يستحق أن يكون معبودا إلا هو (له الحمد في الأولى والآخرة) لأنه هو المنعم بالنعم الباطنة والظاهرة (وله الحكم) في خليقته بالمغفرة لأهل الطاعة والعذاب لأهل المعصية (وإليه ترجعون) للحساب والجزاء والثواب والعقاب .

(قُلْ : أَرَأَيْتُم إنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إلى يَوْمِ الْقِيامَةِ ، مَنْ إلهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُم بِضِياءٍ ؟ أَفَلا تَسْمَعُونَ ؟(٧١) قُلْ : أَرَأَيْتُمْ إنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهارَ سَرْمَداً إلى يَوْمِ القِيامَةِ ، مَنْ إلهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ؟ أَفَلا تُبْصِرُونَ ؟(٧٢) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيلَ والنَّهارَ لِتَسْكُنُوا فيهِ ، ولِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرونَ(٧٣) وَيَوْمَ يُناديهِم فَيَقُولُ : أَيْنَ شُرَكاءِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ؟(٧٤) ونَزَعْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ، فَقُلْنا : هاتُوا بُرْهانَكُمْ ، فَعَلِمُوا أَنَّ الحَقَّ للهِ ، وَضَلَّ عَنْهُمْ ماكانُوا يَفْتَرُونَ)(٧٥)

قوله تعالى (قل أرأيتم) أي أخبروني (إن جعل الله عليكم الليل سرمدا) أي دائما وهو عند البعض من السرد بمعنى المتابعة ، والميم زائدة فوزنه فعمل ، ونظيره دلامِصٌ من الدلاص ، يقال : درع دلاص أي لينة (إلى يوم القيامة) متعلق بسرمدا (من إله غيرُ الله يأتيكم بضياء ؟أفلا تسمعون) الدلائل التي ترشدكم إلى حق اليقين (قل : أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله" غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه ؟ أفلا تبصرون ؟) الآثار والشواهد الدالة على أن الله رب العالمين • فإن قيل إذا جعل الله سبحانه وتعالى الليل أو النهار مستمرا إلى يوم القيامة فلا مجال للإتيان بخلافه لأن يوم القيامة ليس فيه المَلَوان على ما نعلم • أجيب بأن المراد من الجعل إرادته أي أنه إن أراد أحد الأمرين فمن هو القادر على منازعته في إرادته ذلك ؟

(ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه) أي في الليل (ولتبتغوا من فضله) أي بالنهار • ففي الآية أمر بديع معروف باللف والنشر المرتب • ويمكن أن يقال : إن كلا من الليل والنهار قابل للسكون فيه وابتغاء الفضل مما يكفيه ، فالكل للكل • كما يمكن أن يقال : إن الخالق عليم وخبير بأن الليل عندنا نهار والنهار ليل في نصف الكرة المقابل ، فليلنا الذي هو محل لسكوننا نهار بالنسبة إلى أهله والعكس بالعكس ، والمعنى حينئذ من يأتيكم بليل تسكنون فيه أنتم وغيركم يبتغون من فضل الله فيه ؟ لأنه نهارهم ومن يأتيكم بنهار تبتغون فيه من فضل الله أنتم ويسكن فيه غيركم ؟ لأنه ليله (ولعلكم تشكرون) أي ولكي تشكروا نعمته تعالى جعل لكم الظرفين بالوجهين المعروفين (ويوم يناديهم فيقول : أين شركائي الذين كنتم تزعمون ؟) أي تزعمونهم شركائي (وَنَزَعْنا مِن كل أمة شهيدا) يشهد عليهم بما كانوا عليه • وذلك الشهيد الذي شهادته كافية شهادةً نبي تلك

الأمة كما تشهد به الآيات الأخرى • (فقلنا) لكل أمة من تلك الأمم (هاتوا برهانكم) على صحة ماكنتم تدينون به (فعلموا أن الحق لله) في الألوهية لا يشاركه فيها أحد (وضل عنهم) وغاب عنهم (ما كانوا يفترون) •

(إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ ، وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ ما إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ : لا تَفْرَحْ ، إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ(٧٦) وَابْتَغِ فِيما آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ، وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ، وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ ، وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ، إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ(٧٧) قَالَ : إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي، أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً ؟ وَلا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ(٧٨) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ، قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا : يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ ما أُوتِيَ قَارُونُ ، إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ(٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ، وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ، وَلا يُلَقَّيهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ(٨٠) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ ، فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ ، وما كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ(٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ : وَيْكَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ! لَوْلا أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ، وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ !(٨٢)

تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلا فَساداً وَالعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ(٨٣) مَنْ جاءَ بِالحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ إِلاَّ ما كانوا يَعْمَلُونَ)(٨٤)

قوله تعالى : (إن قارون كان من قوم موسى) أي كان من بني إسرائيل، فقيل : إنه كان ابن عم موسى ـ عليه السلام ـ . وقيل ابن خالته . وقوله (فبغى عليهم) أي فطلب الفضل عليهم بأن يكون آمرا لهم يأمرهم وينهاهم، أو تكبر عليهم ، وكان له كبرياء (وآتيناه من الكنوز) أي الأموال الثمينة التي تدخر للمستقبل (ما إنّ مفاتحه) أي المقدار الذي أن مفاتيح صناديقه (لتنوء) أي لتثقل حملاً (بالعصبة) أي بالجماعة الكثيرة من (أولي القوة) قيل في عدده من الخمسة عشر الى الأربعين . وقيل ما بين الثلاثة إلى العشرة . وقيل غير ذلك (إذ قال له قومه : لا تفرح ، إن الله لا يحب الفرحين) أي لا تبطر بهذا المال الوافر ، ولا تتكبر بسببه على ضعفاء الأحوال (إن الله لا يحب الفرحين) كذلك (وابتغ في ما آتيك الله) من الأموال (الدار الآخرة) بصرفها في وجوه الخير (ولا تنس نصيبك من الدنيا) أي حظك من متاعها المباح من المأكل والمشرب والملبس والمسكن والمنكح ... وسائر ما طاب ولذّ حسب العادة (وأحسن) أي إلى عباد الله (كما أحسن الله إليك) بإفاضة هذه الأموال الطائلة عليك (ولا تبغ الفساد في الأرض) بصرفه في طرق الشرور والفسوق والفجور النفسية وإثارة الشغب والعداء بين الناس (إن الله لا يحب المفسدين . قال) قارون بكل صلافة ما آتاني الله بإفادة منه وإفاضة (إنما أوتيته على علم عندي) أي على وجه الاكتساب بالطرق العلمية في الاقتصاديات عندي ، ولم ينظر إلى أن كل إنسان خلقه ورزقه وماعنده بتوفيق منه تعالى (أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من

القرون من هو أشدّ منه قوة وأكثر جمعا ؟) يعنى إن قارون لما قال ما قال في جواب إرشاد المرشدين ونصيحة الناصحين كان معتمداً على قوته الاقتصادية ، وكثرة جماعته وطغى وبغى وجهل وغفل ، ولم يدر أن القوة والعزة لله جميعا ، وأن من طغى وبغى فعاقبته الدمار ؟ أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من أهل القرون الطاغية الباغية على الحق أناساً بغاة طغاة ممن هو أشد قوة من قارون وأكثر جمعا منه ؟ ولا شك أنه سيحيق به ما حاق بهم ويهلكه القادر المقتدر كما أهلك الأولين (ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون) عند حلول وقت الانتقام .

ثم أخذ الباري سبحانه يحكي مقدمات هلاكه وقال : (فخرج على قومه) متبرجا (في زينته) من فرسه وحشمه وأتباعه بحيث حصل تظاهر لهم على عيون الناس حتى (قال الذين يريدون الحيوة الدنيا : ياليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم) أي نصيب كبير لا يقدر قدره (وقال الذين أوتوا العلم) بأمور الآخرة ونعيمها وجحيمها : (ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ، ولا يلقيها) أي ولا يلقى تلك المثوبة الحسنى (إلا الصابرون) على تعب كف النفس عن الشهوات وصرف العزيمة لأداء الواجبات . (فخسفنا به وبداره الأرض ، فما كان له) أي لقارون (من فئة) أي جماعة مشتق من فأوت قلبه إذا ميلته ، وسميت الجماعة بذلك لميل بعضهم إلى بعض ، أو من فاء يفيىء إذا رجع لرجوع الأفراد بعضهم الى بعض أو رجوع كلهم الى سيدهم (ينصرونه من دون الله) بدفع العذاب عنه (وما كان من المنتصرين) الغالبين بنفسه أو من الممتنعين عن عذاب الله تعالى في الآخرة .

(وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس) أي تمنوا نيل ما ناله في الأيام السابقة (يقولون : ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر) أي

يبسطه ويقدره بمقتضى مشيئته لا لكرامة ذلك الشخص عنده ؛ فرب كافر في نعمة ورب مؤمن في زحمة (لولا أن من الله علينا) بأن أعطانا الكفاف ولم يعطنا ما يوجب البغي والخلاف (لخسف بنا) مثل ما خسف بقارون لتوليده فينا ما ولده فيه فخسف بنا لأجله مثل ما خسف به (ويكأنه لا يفلح الكافرون) بالله أو بنعمته أي الذين يعتبرون أرزاقهم من أنفسهم لا من خلاقهم (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض) أي غلبة وقهرا على العباد الصالحين (ولا فسادا) ظلما عليهم (والعاقبة) أي العاقبة الحسنة والعافية المستمرة الهنيئة المريئة (للمتقين) الذين يتقون مخالفة ربهم بإيمان ويقين •

(من جاء بالحسنة) إعتقادية أو عملية (فله خير منها) من عشرة إلى سبعمائة أو أزيد (ومن جاء بالسيئة) كذلك (فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ماكانوا يعملون) وإذا كان ما عمله من باب تسنين السنن السيئة فوزره ووزر من عمل به إلى يوم القيامة له أصل الجزاء لا مضاعفاته •

روي أنه كان يؤذي ــ موسى عليه السلام ــ كل وقت وهو يداريه لقرابته حتى نزلت الزكاة فصالحه عن كل ألف على واحد ، فحسبه فاستكثره، فعمد إلى أن يفضح موسى بني إسرائيل ليرفضوه فأغرى امرأة بغيّة بالمال لترميه بنفسها • فلما كان يوم العيد قام موسى خطيبا ، فقال : من سرق قطعناه ، ومن زنى محصنا رجمناه ، ومن زنى غير محصن جلدناه • فقال قارون:ولو كنتَ•قال:ولو كنتُ•قال:إن بني إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة، فاستحضرت ، فناشدها موسى ــ عليه السلام ــ بالله أن تصدقَ فقالت : جعل لي قارون جعلا على أن أرميك بنفسي ، فخرّ موسى شاكيا منه إلى ربه • فأوحى الله إليه أن مُرِ الأرض بما شئت • فقال : يا أرض خذيه ، فأخذته إلى ركبتيه • ثم قال : خذيه ، فأخذته إلى وسطه ، ثم قال : خذيه،

فأخذته إلى عنقه • ثم قال : خذيه • فخسفت به • وكان قارون يتضرع إليه في هذه الأحوال فلم يرحمه • فأوحى الله إليه : ما أفظك ! استرحمك مرارا فلم ترحمه • وعزتي وجلالي لو دعاني مرة لأجبته • ثم قال بنو إسرائيل إنما فعله موسى ليرثه • فدعا الله تعالى حتى خسف بداره وأمواله •

(إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ ، قُلْ : رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ(٨٥) وما كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ، فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ(٨٦) وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ ، وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٨٧) وَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ، لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)(٨٨)

قوله تعالى (إن الذي فرض عليك القرآن لرادّك إلى معاد) نزلت على الرسول بالجحفة بعد أن خرج ـ صلى الله عليه وسلم ـ من مكة مهاجرا واشتاق إليها • فيقول تعالى (إن) الله (الذي فرض عليك القرآن) أي أنزله عليك وفرض عليك العمل به وتبليغه إلى العالمين وجعلك بحيث يأتيك الملك الموكل بالوحي من عالم الغيب هو يردّك غالبا منتصرا إلى بلدك الذي تشتاقه ، ويسمى بلد الرحيل معادا لأنه ينصرف في البلاد لكسب المعيشة ثم يعود إليه • ويحتمل أن يقال معاد لقب لمكة لأنه يعود إليها الناس في كل سنة لأداء فريضة الحج • (قل ربي أعلم من جاء بالهدى) وهو محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ (ومن هو في ضلال مبين) وهم المشركون المفسدون (وما كنتَ ترجو أن يلقى إليك الكتابُ إلا رحمةً من ربك) أي إن رحمة الله واسعة وقد اختصك الله بحظ وافر منها من

جملتها إنزال القرآن إليك بدون حسبان منك ، إذ ماكنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب بأي وسيلة إلا وسيلة فيضان الرحمة بدون اكتساب لك فيه (فلا تكونن ظهيراً للكافرين) وهذه العبارة تعريض بالناس حتى لا يكونوا عونا للمشركين .

(ولا يصدنك عن آيات الله) أي ولا يمنعنك عن تلاوة آيات الله واتباع أحكامها وتبليغها للناس بعد إذ أنزلت إليك أي بعد استقرارها عندك (وادع إلى ربك) جميع المكلفين في العالم فإنك مبعوث رحمة للعالمين (ولا تكونن من المشركين . ولا تدع مع الله إلها آخر) وابلغ الناس أن لا يدعوا مع الله إلها آخر ، فإن التوحيد أساسُ الإسلام .

(لا إله إلا هو ، كل شيء هالك إلا وجهه) أي كل حي يموت إلا ذاته الذي هو حي لا يموت ، وكل ممكن قابل للهلاك والفناء إلا ذاته (له الحكم) أي القضاء النافذ على الكائنات (وإليه ترجعون) عند البعث والنشور لنيل الجزاء عذابا وعقابا أو جنة ورضوانا . جعل الله رضاءه نصيبنا عند اللقاء برحمته ، إنه أرحم الراحمين .

سورة العنكبوت ، مكية ، وآياتها تسع وستون ، نزلت بعد الروم

بسم الله الرحمن الرحيم

(الم(١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا : آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ؟(٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الكاذِبِينَ(٣) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّآتِ أَنْ يَسْبِقُونا ؟ ساءَ ما يَحْكُمُونَ(٤) مَنْ كانَ يَرْجُو لِقاءَ اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ ، وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ(٥) وَمَنْ جاهَدَ فَإِنَّما يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ ، إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ العالَمِينَ(٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئآتِهِمْ ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ)(٧)

قوله تعالى (الم) الكلام فيه كما في نظائره . وقوله (أحسب الناس) ... الآية نزلت في ناس من الصحابة جزعوا من أذى المشركين ، وقيل : في عمار — رضي الله عنه — وقد عذب في الله تعالى ، وقيل في مهجع مولى عمر بن الخطاب ، رماه عمار بن الحضرمي بسهم يوم بدر فقتله ، فجزع عليه أبواه وامرأته . وحسب هنا من أفعال القلوب فيقتضي مفعولين

أولهما أن يتركوا ، وثانيهما أن يقولوا . وأن في الموضوعين ناصبة . ومعنى الآية الكريمة : أحسب الناس تركهم حالكونهم غير مفتونين لمحض قولهم آمنا بالله ورسوله ؟ لأن الإيمان بالله ورسوله وإن كان ينجي الإنسان من النار لكن يقتضي الصعود في الدرجات التي تترتب على المشاق من المهاجرة والمجاهدة ورفض الشهوات ، وقوله تعالى : (ولقد فتنا الذين من قبلهم) حال من الناس أي والحال إنه جرى أمرنا وقضت سنتنا في العباد بإلقاء المكلفين المطيعين في مشاق الأمر والنهي ، وقد فتنا الذين من قبلهم فلم تمض مدة بدون التبعات والمصائب على المسلمين الذين سبقوهم (فليعلمن الله الذين صدقوا) في قولهم آمَنّا (وليعلمن الكاذبين) في ذلك . وذلك لأن قبول البلاء والمصائب دليل الثبات والإخلاص في الإيمان كما أن المقابل دليل المقابل . ومعنى علمه تعالى بذلك تعلق علمه بحسب الحال الجاري ، وإلا فهو عالم بجميع الأحوال من الأزل إلى الأبد .

وقوله تعالى (أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ؟) معناه كما أن الناس المؤمنين لا يخلصون من الفتن كذلك الناس العاملون للسيئات لا يفوتون من أيدينا ولا يخرجون من دائرة قدرتنا (ساء مايحكمون) به حكمهم بأنهم يسبقوننا وإنا لا نأخذهم ولا نؤاخذهم (من كان يرجو لقاء الله) أي من آمن بالله ورسوله وسعى في الإطاعة ورجا لقاء الخير من لقاء ربه يوم الحساب فإنه فائز بالخير لا شبهة فيه لأن أجل الله أي الأجل المحدود المعين لنيل الجزاء (لآت) لا محالة ولا شك (وهو السميع) لأقوال العباد و (العليم) بأعمالهم وعقائدهم (ومن جاهد) في الدين (فإنما يجاهد لنفسه) وجزاؤه عائد إليه (إن الله لَغنيّ عن العالمين) . (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم) السابقة على الإيمان بالإيمان واللاحقة

بما عمله من الصالحات (ولنجزينهم أجرهم) على الأعمال الحسنة (أحسن الذي كانوا يعملون) أي أحسن جزاء أعمالهم •

(وَوَصَّيْنَا الإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حُسْناً ، وَإِنْ جاهَداكَ لِتُشْرِكَ بِي مالَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما، إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(٨) وَالَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالِحاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ(٩) وَمِنَ النّاسِ مَنْ يَقُولُ : آمَنَّا بِاللهِ ، فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النّاسِ كَعَذابِ اللهِ ، وَلَئِنْ جاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ : إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ • أَوَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِما فِي صُدُورِ العالَمِينَ ؟(١٠) وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ المُنافِقِينَ)(١١)

قوله تعالى (ووصينا الإنسان بوالديه حسنا) أي أمرناه برعايتهما حق الرعاية • ويدخل في ذلك الإنفاق عليهما عند إعسارهما ويسار الولد ، واحترامهما وإطاعتهما حسب العادة في الأمور الحيوية وأمور أخرى مفصلة في محلها (وَإن جاهداكَ لِتُشرِكَ بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما) يعني وإن كلفاك بأن تشرك بي ما ليس لك علم بمشاركته معي في القدرة وسائر صفات الألوهية فلا تطعهما ، لأن الإشراك بالله إهلاك للنفس أبديا ، ولا يرضى به الله ، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق • (إلي مرجعكم فأُنَبئكم بما كُنتم تعملون) أي مرجع من آمن ومن كفر ومن أخذ بتوصيتنا ومن تركها فأجازي كلا منكم ، وأطلعكم على ما تستحقون • والآية نزلت في سعد بن أبي وقاص ، فإنه حين أسلم أمرته أمه أن يتراجع فلم يطعها ، وأمره رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بصلتها والعطف عليها

(والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين) أي في زمرة الخيار منهم في الدين •

(ومن الناس من يقول : آمنا بالله ، فإذا أوذي في الله) أي في سبيل الله بأن عذبهم المشركون على الإيمان بالله تعالى (جعل فتنة الناس) وتعذيبهم له في الدنيا (كعذاب الله) أي كتعذيب الله تعالى له في الآخرة ، فجزعوا من ذلك ولم يصبروا عليه ، وأطاعوا الناس ورجعوا إلى الكفر ، والعياذ بالله (ولئن جاء نصر من ربك) أي للمؤمنين بأن صارت لهم غنيمة (ليقولنّ : إنا كنا معكم) فأشركونا فيما عندكم من الغنائم والخيرات (أو ليس الله بأعلم بما في صدور العالمين ؟) والجواب : بلى أي فيعلم أن أولئك الناس كانوا من الكافرين ولم يكونوا مع المسلمين (وليعلمن الله الذين آمنوا) مخلصين لله (وليعلمن المنافقين) في الدين •

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا : اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ ، وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ ، إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ(١٢) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ ، وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ ، وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ)(١٣)

قوله تعالى : (وقال الذين كفروا للذين آمنوا) أي أنهم لتوغلهم في الكفر وشدة حالهم فيه ومحبتهم له يسعون في إرجاع المسلمين إلى الكفر ويعدونهم بحمل خطاياهم ، كما قال تعالى (وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا) السابق الذي كنتم فيه معنا (ولنحمل خطاياكم) إن كان ذلك خطيئة (وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء) قليل أو كثير (إنهم لكاذبون) في أنهم يحملونها ، لأنّ أحدا لا يحمل أوزار أحد (وليحملن

أثقالهم) أي أثقال ما اقترفوه من الكفر والفسوق والسعي في إرجاع المسلمين إلى الضلال (وأثقالا مع أثقالهم) هي أثقال تسببهم في إضلال المسلمين وإرجاعهم إلى الكفر إذا لم يطيعوهم وما يساوي أثقال كفرهم الإرتدادي إذا أطاعوهم بدون أن ينقص من أثقال المطيعين شيء (وليسئلن يوم القيامة عما كانوا يفترون) من الكلمات الكاذبة التي ينطقون بها في خدع الناس وردهم إلى الضلال •

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إلى قَوْمِهِ ، فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إلاَّ خَمْسِينَ عاماً ، فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وهُمْ ظالِمُونَ (١٤) فَأَنجَيْناهُ وَأَصْحابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْناها آيَةً لِلْعالَمِينَ (١٥) وَإبْراهِيمَ إذْ قالَ لِقَوْمِهِ : اعبُدُوا اللهَ واتَّقُوهُ ، ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمونَ (١٦) إنَّما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثاناً ، وَتَخلقُونَ إفكاً ، إنَّ الَّذِينَ تَعْبُدونَ مِنْ دُونِ اللهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً ، فابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ ، وَاعْبُدُوهَ وَاشْكُرُوا لَهُ ، إلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧) وَإنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ، وَما عَلى الرَّسُولِ إلاَّ البَلاغُ المُبِينُ)(١٨)

قوله تعالى : (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه) تذكير لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بسنته التي مرت في العالم بين الأنبياء وأممهم بإطاعة بعض وعصيان بعض ، وبأن العاقبة الحسنى للمتقين ، فقال : (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم) أي فيدعوهم ويرغبهم في الطاعة ويرهبهم عن المعصية لاسيما الإشراك الذي هو رأس الخطايا (ألف سنة إلا خمسين عاما) والظاهر أن هذه المدة مدة دعوته الناس إلى الله ، وأما عمره قبل ذلك وبعده فغير

مقصود بالذكر ؛ وطول أعمار الأحياء تحت قدرة من بيده الخلق والإحياء والإماتة • ولا مانع من أن يكون هناك أسباب لقوة الأجساد وتركيبها ومقاومتها للأمراض والأعراض فإن ذلك مما يدعيه أهله (فأخذهم الطوفان) عقيب المدة المذكورة على قضاء مقرر من الله • والطوفان مصدر يطلق على كل مايطوف بالشيء على شدة سواء كان سيلا أو نارا أو عدوا أو ريحا أو غيرها (وهم ظالمون) أي والحال أن القوم ظالمون أنفسهم بالإشراك وسائر المعاصي (فأنجيناه) أي نوحا (وأصحاب السفينة) أي من ركب فيها معه من أولاده وأتباعه (وجعلناها آية) أي عبرة وعظة (للعالمين) •

(وابراهيم) منصوب بأذكر (إذ قال لقومه) العابدين للأصنام (اعبدوا الله) أي وحده واتقوه عن أن تشركوا به شيئا (ذلكم خير لكم) مما أنتم عليه في الواقع (إن كنتم تعلمون) أي تعلمون الحقائق وتميزون بين الخير والشر ذلك لأن عبادتكم التي أنتم عليها لا منفعة فيها ، ولا يوافق واقع العقل (إنما تعبدون من دون الله أوثانا و تخلقون) أي وتختلقون (إفكا) أي كذبا (إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا) يصل إليكم لانتفاعكم من المأكل والمشرب والملبس والمسكن وغيرها (فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه) أي اعبدوا الله وحده (واشكروا له) على نعمه التي لا تحصى (إليه ترجعون) فاعبدوه كي ترجعوا إليه وأنتم مقبولون (وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم) ولم تكن عاقبتهم إلا الخسران المبين (وما على الرسول إلا البلاغ المبين) أي التبليغ الواضح للمكلفين •

(أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ؟ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ(١٩) قُلْ : سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ

الآخِرَةَ ؟ إنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ ، وَيَرْحَمُ مَنْ يَشاءُ ، وإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١) وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ ولا فِي السَّماءِ ، وما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (٢٢) والَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللهِ ولِقائِهِ أولئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي ، وَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٢٣) فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إلاَّ أَنْ قالُوا : اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ ، فَأَنجيهُ اللهُ مِنَ النَّارِ ، إنَّ فِي ذلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٤) وَقالَ : إنَّما اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الحَيَوةِ الدُّنْيا ثُمَّ يَوْمَ القِيامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَمَأْويكُمُ النَّارُ وما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ (٢٥) فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقالَ : إنِّي مُهاجِرٌ إلى رَبِّي إنَّه هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ (٢٦) وَوَهَبْنا لَهُ إسْحقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالكِتابَ وَآتَيْناهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنيا ، وَإنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ)(٢٧)

قوله تعالى (أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق) كلام من جانب الباري سبحانه يستنكر به إنكار الناس للبعث وإهمالهم للنظر في الدلائل الدالة على وجود خالق واجب الوجود يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد . أي أو لم ينظروا إلى كيفية خلق الله تعالى للحوادث سواء كانت لها مادة سابقة كالأولاد من النطف ، والشجرات والمزارع من البذور ؟ أو لم تكن لها مادة كذلك كخلقه تعالى لبعض أشجارٍ ونباتِ أورادٍ لم تكن أمثالها موجودة في البلاد (ثم يعيده ؟) أي ثم بعد فناء ذلك المخلوق في وقته المعين يعيده

في السنة التالية مثل ماكان أو أحسن منه . فهذه الحوادث المرئيّة التي يرونها بالعين ثم تفنى ثم تعاد دليل على أن الله سبحانه وتعالى يخلق عباده في الدنيا ويربيهم ويرزقهم ثم يميتهم ، وإذا جاء وقت البعث يعيدهم ويبعثهم وليس ذلك من قدرة الله تعالى إلا كخلق النبات والأوراد (إن ذلك) المذكور من الخلق وإفنائه ثم الإعادة (على الله) تعالى (يسير) سهل لا تعب فيه بالنسبة لقدرته تعالى فإن الممكنات متساوية بالنسبة إليه تعالى (قل) يا إبراهيم لقومك سيروا في الأرض وانظروا إلى الموجودات المدركة فيها (كيف بدأ الله الخلق) فأنشأها من العدم ورباها وأوصلها إلى منتهى ما قرر لها من المراتب وهي على أطوار متنوعة وعلى جهات شتى من الأفكار والأعمال . فهذا البدء والإنشاء المعلومان دليل على قدرته تعالى على الإعادة ، فإذا تفكرتم فيها علمتم أنه تعالى يبدأ خلق ما شاء ثم يفنيه ويميته (ثم الله) تعالى (ينشىء النشأة الآخرة) بعد هذه النشأة الأولى التي ترونها (إن الله على كل شيء قدير) وإذا جاء وعد الآخرة (يعذب من يشاء) من عباده (ويرحم من يشاء) منهم (وإليه) تعالى لا إلى غيره (تقلبون) أي تردّون (وما أنتم بمعجزين) لله (في الأرض) أي بالهرب منه والالتجاء إلى ملجأ (ولا في السماء) كذلك (وما لكم من دون الله من ولي) يتولى أمركم فيحرسكم من البلايا ويمنع نزولها (ولا نصير) يدفعه عنكم .

(والذين كفروا بآيات الله) البينات الدالة على قدرته في كل ما أراد التصرف فيه (و) كفروا بـ (لقائه) أي بالبعث بعد الموت (أولئك يئسوا من رحمتي وأولئك لهم عذاب) مهين محقر لهم على رءوس الأشهاد في الآخرة و (أليم) شديد الألم لا يستطاع تحمله في هذه النشأة ولكن لا ممات في النشأة الآخرة فيبقون معذبين (فما كان جواب قومه) أي قوم إبراهيم ــ عليه السلام ــ (إلا أن قالوا) أي أمراؤهم لغلمانهم أو بعضهم لبعض

(اقتلوه) أي إبراهيم (أو حرّقوه) واتفقت كلمتهم أخيرا على إحراقه فأوقدوا له نارا ملتهبة عديمة النظير ، ورموه فيها بالمنجنيق ، وكان اليوم يوما مشهودا رهيبا فأنجاه الله من النار كما قال تعالى (قلنا : يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم • إن في ذلك لآيات) عجيبة عظيمة عالمية (لقوم يؤمنون) بالله وآياته •

(وقال) إبراهيم ـ عليه السلام ـ مخاطبا لهم بعد نجاته منها : (إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مَوَدَّةَ بينكم في الحيوة الدنيا) أي لتجعلوا عبادتها والاجتماع عندها ذريعة لمحبة بعضكم مع بعض في ما بينكم لاستفادة ماينفعكم في الحياة الدنيا أي أن عقلاءكم وساستكم يعلمون أن ليس وراء عبادتها منفعة واقعية إلا هذه الأشياء التي ذكرناها (ثم يوم القيامة) عندما يظهر الحق ويزهق الباطل (يكفر بعضكم ببعض) أي بعض الكفار الصغار يكفر بالبعض من الكبار ، ويقول له : أنتم الذين أغويتمونا وعودتمونا على هذه الخرافات (ويلعن بعضكم بعضا) أي يلعن فريق منكم فريقا آخر على المنهج نفسه (ومأويكم) جميعا الكافر والمكفور واللاعن والملعون (النار) نار جهنم التي برزت للغاوين (وما لكم من ناصرين) يخلصونكم هناك كما خلصني ربي من ناركم الموقدة في هذه الدنيا (فآمن له لوط) أي فآمن به ابن أخيه لوط عندما استنبأ الله إبراهيم واستقر على الدعوة إلى التوحيد (وقال) إبراهيم بعد النجاة من النار (إني مهاجر) من وطني العراق ومن قومي الوثنيين (إلى ربي) أي إلى الجهة التي أمرني ربي بالمهاجرة إليها (إنه هو العزيز الحكيم) •

(ووهبنا له إسحق ويعقوب) أي ووهبنا لإبراهيم إسحق ولدا من صلبه ويعقوب نافلة له (وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب) فمن ذريته إسماعيل وسيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما أن من ذريته إسحاق

ويعقوب ونسله الأسباط الاثنا عشر الذين انتشرت فيهم النبوة والكتاب ، وكما أن من ذرية ابنه مدين شعيب ـ عليهم السلام ـ (وآتيناه أجره في الدنيا) بإنجائه من النار ومن نمرود الجبار ، وتوفيقه على بناء الكعبة المشرفة ، وقبول دعوته في ذريته ، وإبقاء لسان الصدق له في الآخرين (وإنه في الآخرة لمن الصالحين) أي الراسخين في الصّلاح المثابين بجزيل الثواب إلى أبد الآبدين .

(وَلُوطاً إذْ قالَ لِقَوْمِهِ : إنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ ما سَبَقَكُم بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ العالَمِينَ (٢٨) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ ، وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ ، وَتَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ الْمُنْكَرَ ؟ فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إلاَّ أَنْ قالُوا : ائْتِنا بِعَذابِ اللهِ إنْ كُنْتَ مِنَ الصّادِقِينَ (٢٩) قالَ رَبِّ انْصُرْني عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (٣٠) وَلَمّا جاءَتْ رُسُلُنا إبْراهِيمَ بِالْبُشْرى قالُوا : إنّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ ، إنَّ أَهْلَها كانُوا ظالِمِينَ (٣١) قالَ : إنَّ فِيها لُوطاً ، قالُوا : نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيها ، لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إلاَّ امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ (٣٢) وَلَمّا أنْ جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ ، وَضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً ، وَقالُوا : لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إنّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إلاَّ امْرَأَتَكَ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ (٣٣) إنّا مُنْزِلُونَ عَلى أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (٣٤) وَلَقَدْ تَرَكْنا مِنْها آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)(٣٥)

قوله : (ولوطا) عطف على إبراهيم ومنصوب بفعل مقدر ، أي اذكر لوطا (إذ قال لقومه) موبخا لهم (إنكم لَتَأتونَ الفاحِشة) أي الفعلة الفاحشة حالكونها (ما سَبَقكم بها مِنْ أَحَدٍ مِنَ العالمين) أي إنكم أبدعتم هذه الفاحشة فعليكم وزرها ووزر من يعمل بهاإلى يوم القيامة . ثم استفهم على سبيل الاستنكار وقال : (أئنكم لتأتون الرجال) أي تطأونهم (وتقطعون السبيل) أي تقطعون الطريق المعتاد لسير الناس مخافة أن تفعلوا بهم هذه الفاحشة (وتأتون في ناديكم المُنْكر ؟!) من الهمز واللمز والحذف بالمارين وغير ذلك من أعمالكم القبيحة الحقيرة (فما كان جوابَ قومِهِ إلا أن قالوا ائتِنا بعذاب الله إنْ كُنتَ مِنَ الصادقين) فيما تهددنا به وأنت على بصيرة عن وقوعه ونزوله . ولما أن جاوبوه بهذه العبارة (قال : رب انصرني على القوم المفسدين) بابتداع الفاحشة وغيرها من وجوه الفساد . (ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى) أي بالبشارة بإسحاق ويعقوب (قالوا) أي لإبراهيم (إنا مهلكوا أهل هذه القرية) أي قرية سدوم وهي أكبر قرى قوم لوط (إن أهلها كانوا ظالمين) بابتداع الفاحشة وغيرها من أنواع المعاصي . (قال) أي إبراهيم (إن فيها لوطا) فكيف تهلكون أهلها (قالوا : نحنُ أعلَمُ بمن فيها ، لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين) أي الباقين في القرية حتى تهلك مع أهلها .

(ولما أن جاءت رسلنا لوطا سيء بهم) أي عرض المساءة والسآمة عليه انفعالا وتألما من ترقب تعرض أهل قريته لهم (وضاق بهم ذرعا) أي وضاق بتدبير أمرهم ونجاتهم طاقته فإن ضيق الذرع كناية عن عدم القدرة بالأمر (وقالوا : لا تخف ولا تحزن) أي لا تخف من تمكنهم منّا ولا تحزن على سوء قصدهم إيانا أبدا (إنا منجوك وأهلك) فلا يصيبكم العذاب (إلا امرأتك إنها كانت) في قضاء الله (من الغابرين) أي الباقين في العذاب .

وقوله تعالى (إنا منزلون) أي إنا منزلون بأمر الله تعالى (على أهل هذه القرية) الظالم أهلها (رجزا من السماء) أي عذابا نازلا منها (بما كانوا يفسقون) أي بسبب فسقهم ، ثم قال تعالى (ولقد تركنا منها) أي من قرية لوط (آية بينة) أي علامة واضحة على عظمتنا وغلبة قدرتنا وهي الآثار الباقية المشهودة . وقيل : هي الماء الأسود على وجه الارض . وقيل : هي الحجارة التي أمطرت عليهم ... وتلك الآية نافعة (لقوم يعقلون) .

(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً ، فَقَالَ : يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ ، وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦) فَكَذَّبُوهُ ، فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ، فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٣٧) وعاداً وثَمُودا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ، وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (٣٨) وقَارُونَ وفِرْعَوْنَ وهَامَانَ ، ولقد جَاءَهُمْ موسى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ ، وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (٣٩) فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً ، ومِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ، ومِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ ، ومِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا ، وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ ، وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)(٤٠)

تقع بين الشام والحجاز

قوله تعالى (وإلى مدين) أي أرسلنا إلى أهل مدين (أخاهم شعيبا ، فقال) لهم (يا قوم اعبدوا الله) وحده (وارجوا اليوم الآخر) أي وتوقعوا رحمته ومغفرته عند ذلك . وأما إذا لم تعبدوا الله وحده فأنتم كافرون ولا مجال لتوقع المغفرة (ولا تعثوا في الأرض مفسدين) أي ولا تفسدوا

في الأرض بما يقال له إفساد قليلا أو كثيرا ؛ فالحال مؤكدة لمعنى العامل ومعنى التأكيد ذلك (فكذبوه) في رسالته ونصيحته وتهديده (فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجفة) أي الزلزلة الشديدة ، وجاء في سورة هود (وأخذت الذين ظلموا الصيحة) ولا منافاة فهناك ذكر السبب وهنا المسبب فإن الرّجفة نشأت من تلك الصّيحة . وإذا قيل : إن الصيحة والصوت الشديد كان من انشقاق الأرض فالانشقاق أيضا حادث بقدرة الله والملك الصائح مأمور من الله (فأصبحوا في دارهم جاثمين) أي باركين على الرُّكَب ، وهو كناية عن الموت أي فأصبحوا ميتين . ولا يلزم من ذلك بقاء جثثهم لأن منهم من وقع تحت الارض ، ومنهم من دفعته الزلزلة إلى غير المحلّ المستقرّ ، والمقصود أنهم ماتوا هناك (وعادا وثمودا) أي وأهلكنا عادا وثمودا (وقد تبين لكم من مساكنهم) أي وقد ظهر لكم إهلاكهم من مشاهدة تدمير مساكنهم ويجوز أن يكون الفاعل من بمعنى بعض أي وقد ظهر لكم بعض أجزاءِ مساكنهم المدمرة بحيث تطلعون من ذلك على فناء سكانها (وزين لهم الشيطان أعمالهم) بالاغترار والأهواء الباطلة (فصدهم عن السبيل) المعهود لعباد الله المؤمنين (وكانوا مستبصرين) أي عقلاء بصراء في الدنيا وكان بإمكانهم التمييز بين الحق والباطل لو كانوا متفكرين .

(وقارون ، وفرعون ، وهامان) أي وأهلكنا . وإنما قدم قارون للدلالة على أن الاغترار بالمال ربما يكون أفحش من الاغترار بالسلطنة والجاه ، ولتسلية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في ابتلائه على أيدي أقاربه وذلك لأن قارون كان ابن عم موسى أو ابن خالته ، ومع ذلك حفر له بئرا يضيع فيها شخصه وشرفه ، ولكن لا يحيق المكر السيء إلا بأهله (ولقد جاءهم موسى بالبينات) بالأدلة الواضحة على وجود الله تعالى وقدرته

وثبوت شريعته ورسله (فاستكبروا في الأرض) من قبول الإيمان (وما كانوا سابقين) أي فائتين أمر الله أي ماخلصوا وقد أدركهم رب العالمين •

(فَكُلاًّ أخذنا بذنبه) وإذا علمت استكبارهم فاعلم أن كلا منهم أخذناه وعذبناه بسبب ذنبه (فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا) أي ريحا شديدة الهبوب والتموج فيها حصباء تلقيها عليهم وهم قوم عاد ولوط (ومنهم من أخذته الصيحة) وهم قوم ثمود ومدين (ومنهم من خسفنا به الأرض) وهو قارون (ومنهم من أغرقنا) وهو فرعون ومن معه وكذا قوم نوح ـ عليه السلام ـ (وما كان الله ليظلمهم) أي وما كان الله تعالى محبا للمعاملة معهم معاملة تشبه الظلم ، أي يأخذهم بدون كفر وعصيان (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) بالإشراك والاعتداء على نفوس الناس وأموالهم وأحوالهم •

(مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً ، وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ(٤١) إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٤٢) وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ(٤٣) خَلَقَ اللهُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ(٤٤) اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ ، وَأَقِمِ الصَّلٰوةَ إِنَّ الصَّلٰوةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ ، وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ)(٤٥)

قوله تعالى : (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت) المثل الشأن والصفة العجيبة • والعبارة تحتمل تشبيه المفرد بالمفرد • ويحتمل

التشبيه المركب وبما أنّ المقصود من التشبيه لا يتحقق بتمامه إلا بملاحظة الملابسات فالأحسن أن يعتبر من التشبيه المركب ، وحاصله أن صفة الذين اتخذوا من دون الله أولياء من الأصنام المصنوعة الجامدة التي لا يحصل منها أي نفع أو ضرر مع أنهم يعتمدون عليها ويفرحون بها كمثل العنكبوت حيث اتخذت بيتا وسكنته واطمأنت به ، وتحسبه مستقرا رصينا حصينا ، (والحال إنّ أوهن البيوت) المبنية من جانب الإنسان والسّباع والطيور والحشرات (لَبيتُ العنكبوت لو كانوا يعلمون) بالمآل لمحاولاتهم اليائسة اليائسة ما اتخذوا الأوثان والأصنام أولياءً ولكن لا يعلمون •

(إن الله يعلم مايدعون من دونه من شيء) وما إما نافية أي يعلم أنهم لا يدعون شيئا له قيمة ، أو استفهامية ومعلقة لما قبلها عما بعدها ، أو موصولة أي يعلم الذي يدعونه من دونه فيكون من شيىء بيانية ، كما يحتمل أن تكون مصدرية (وهو العزيز) الغالب على أمره (الحكيم) في الإمهال والاستعجال للكافرين (وتلك الأمثال نضربها للناس) لتوضيح المعقول بتشبيهه بالمحسوس ولتزكية النفوس عن أقذار الجهل وأوساخ الكفر (وما يعقلها إلا العالمون) أي وما يفهم الدقائق المودعة في تلك الأمثال ونتائجها ومدى تأثيرها في العقول إلا العالمون بالأمور المتبصرون (خلق الله السموات والأرض) وما فيهما وما في ضمنهما وما عليهما وما يصدر من سكانهما (بالحق) أي الوجه المطابق للواقع فكيف يكون الخلق أو إرسال الرسل وإنزال الكتب عبثا ؟ بل كل ذلك حق روعي فيه الحكم والمصالح (إن في ذلك لآية للمؤمنين) •

(اتل ما أوحي إليك من الكتاب) أي لازم تلاوته لأنها شرح للصدر ، وتيسير للعسر ، وتقرب إلى الله ، ورفعة للدرجات (وأقم الصّلوة) أي أقمها كما تعلمها أنت وبكيفياتها التي شرعت لها (إن الصلوة) المعهودة التي تؤدى

كمناجاة مع الله سبحانه وتعالى (تنهى عن الفحشاء والمنكر) أي تدفع اتصاف المصلي بها ، ويبقى نظيفا عفيفا وترفعه عن المتوسخ بها فإنها دواء يعالج به الداء . ذلك لأن الصلاة ذكر الله أي تذكر وجوده وآلائه وجوده وحضور للنور الحاصل في ركوع المصلي وسجوده (ولذكر الله أكبر) ثوابا ودرجة من غيره لأن غيره وسيلة والذكر غاية وأين البداية من النهاية ؟ (والله يعلم ما تصنعون) من الخير والطاعة فيجازيكم على ذلك أحسن المجازاة .

ومما يصنعه الناس صلاتنا في الأوقات الخمس ، وعليها درجات في فعلها على مقدار إحسان فاعلها ، ودركات في تركها . ونسأله تعالى الفوز برحمته والخلاص من موجبات نقمته ، إنه هو السميع المجيب .

الجزء الحادي والعشرون

وَلا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا : آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ ، وَإِلهُنا وَإِلهُكُمْ واحِدٌ ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ(٤٦) وكذلِكَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ فَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ، ومِنْ هؤلاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ، وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلاَّ الْكافِرُونَ(٤٧) وَما كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ ، ولا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ، إِذاً لارْتابَ الْمُبْطِلُونَ(٤٨) بَلْ هُوَ آياتٌ بَيِّناتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ، وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلاَّ الظالِمُونَ)(٤٩)

قوله (ولا تجادلوا أهل الكتاب) أي لا تتكلموا معهم في قالب المناظرة والجدال (إلا بالتي هي أحسن) أي إلا بالخصلة أو الصورة التي هي أحسن الصور الممكنة هناك كمعارضة الخصومة بالصداقة ، والخشونة باللين ، والمشاغبة بالمناصحة (إلا الذين ظلموا منهم) بالتجاوز عن حدود الدين بأن لا يستساغ كلامه ومرامه ، وكلما تأدبت معه عذبك بالقول البذيء فعند ذلك دافع عن دينك بما هو الحق إذا أمكنك ، وإلا فسلم عليه واتركه ومالديه • (وقولوا آمنا بالذي أنزل الينا وأنزل إليكم) من القرآن الكريم الجليل والتوراة والإنجيل (وإلهنا وإلهكم واحد) لا شريك له ولا مثيل ولا ولد ولا ظير (ونحن له مسلمون) فإن هذه العبادة الصحيحة السّليمة تكون بيانا للجهة الجامعة وجهة الوحدة الإسلامية لمن يريد الإسلام (وكذلك

أنزلنا إليك الكتاب) أي وكما أنزلنا إلى الرسل السابقين الكتاب من عندنا وبوحي منا بحيث لم يرد عليه أي خلل أنزلنا إليك الكتاب المستبين وهو القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه (فالذين آتيناهم الكتاب) وهديناهم إلى السعادة كعبدالله بن سلام وأضرابه، (يؤمنون به ، ومن هؤلاء) أي من العرب (من يؤمن به) وهم الذين هداهم الله لما يحبه ويرضاه (وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون) المتعمقون في الضلال .

(وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك) وقد أنزل عليك الكتاب جامعا لسعادة الدارين من كافة النواحي ومانعا من كل الرذائل النفسية والأعمال السيئة ، ولو نظر عاقل منصف إليك لعلم أنك لرسول وأن كتابك وحي منه ، ولو كنت تتلو وتخط قبل (إذا لارتاب المبطلون) . (بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم) أي أعرض عن كل قول صادر عن جاهل أو معاند متجاهل ادعى أن القرآن كتاب استنسخه محمد ـ عليه السلام ـ من بعض الناس الذين أملوه عليه ، فإن ذلك لا يمت إلى الواقع قطعا فإن العالم المشاهد له علم أنه لم يكن يقرأ ولم يكن يكتب ومادارس ومامارس أهل القراءة والكتابة ، ولم يكن في جزيرة العرب آنذاك رجل فصيح بليغ يتكلم بكلام عربي مبين يسمع منه ويكتب كلامه فضلا عن إنسان تصل درجة فصاحته وبلاغته إلى مايقارب درجة القرآن الكريم ، وإنما القرآن آيات بينات واضحات الدلالة على المعتقدات والأحكام وماتحتاج إليه الأمة من كافة نواحي الحياة ، وهي ثابتة في صدور الذين أوتوا العلم ، نزلت أولا على قلب سيد من أوتي العلم وهو محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقرأه على أصحابه فحفظوه في صدورهم ، فكانت سطورهم في صدورهم ، ولم يستقر إلا في قلوب صافية عن الأكدار وممتلئة من الأنوار ، ولحفظه وبقائه بمرور الزمان أمرَ الكُتّاب الأمناء ليكتبوه ،

فيكون المكتوب سندا لما حفظوه ، وما حفظوه سندا لما كتبوه ، فيكونان أي المحفوظ والمكتوب متعاونين في بقاء هذا النبراس بين طبقات الناس، وقد بقي مأمونا محفوظا بصيانة الله تعالى كما قال تعالى:(إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) فصدور الذين أوتوا العلم عبارة عن صدور الملك جبريل وسيدنا محمد الجليل وأصحابه الكرام الأمناء الحافظين للتنزيل ، وتشمل كل من يحفظه من المسلمين جيلا بعد جيل . (وما يجحد بآياتنا) المنزلة مع الروح الأمين على حبيبي المبعوث رحمة للعالمين ولا يقول أنها ليست من الله وإنما هي مأخوذة من بعض الكتاب الأجانب (إلاّ الظّالمون) على العلم والعقل وعلى التأريخ والنقل .

(وَقالُوا : لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ ، قُلْ : إِنَّما الْآياتُ عِنْدَ اللهِ ، وَإِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ(٥٠) أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ ؟ إِنَّ في ذلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(٥١) قُلْ : كَفى بِاللهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً ، يَعْلَمُ ما فِي السَّمواتِ وَالْأَرْضِ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْباطِلِ وَكَفَرُوا بِاللهِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ(٥٢) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ ، وَلَوْلا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجاءَهُمُ الْعَذابُ ، وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ(٥٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ ، وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ(٥٤) يَوْمَ يَغْشاهُمُ الْعَذابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ : ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)(٥٥)

قوله تعالى : (وقالوا) الضمير راجع إلى أهل الكتاب . أي قالوا لولا أنزل عليه آيات من خوارق العادات مثل ناقة صالح . وعصا موسى ـ عليهما السلام ـ (قل) في جوابهم (إنما الآيات) الخوارق الكونية (عند الله) ينزلها حسب مشيئته وليست داخلة تحت تصرفي (وإنما أنا نذير مبين) فمن أنذر أعذر . (أو لم يكفهم) أي أولئك الطالبين لنزول الخوارق (أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ؟) أي أليس من الخوارق في الكائنات والآيات البينات (أنا انزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم) فيسمعونه ويفهمونه ، ويعلمون أنّه عبارة عن آيات فيها جُمل" ومفردات مصوغة من حروف الهجاء التي أمام أيديهم وهم أهل اللغة والأدب والفصاحة والبلاغة مع أنهم يتحيرون من سماعه ويندهشون من أقراعه ولا يقدرون على أن يأتوا بمثل كله أو سورة من مثله (أو لم يكفهم) أنه كتاب استوعب نظام الحكم بالعدالة بين كافة الناس من كافة الجهات وأنه يراعي كل فرد وجماعة ويؤتي كل ذي حق حقه ؟ (أو لم يكفهم) أنه كتاب أخبر عن قصص الأمم الماضية وأنبيائها وتكلم عن مصيرهم وأنبأ عن مغيبات أخرى لم يدركها أحد من الناس ؟ (أو لم يكفهم) أنا أنزلنا عليك كتابا يتطرق إلى الإلهيات والماديات من العلويات والسفليات بحيث يتحير فيه أكابر العلماء الفلكيين والرياضيين ؟ (أو لم يكفهم) أنا أنزلنا عليك الكتاب الآتي بالصدق في المدح والقدح ولم يتجاوز الحق والواقع قيد شعرة عند أهل الشعور ؟ فحقيقة الخارقة الكونية ذلك وليس منحصرا في عصا تنقلب حية ،أو نهر يتوقف عن التموج ويتفرق جانب منه عن جانب بل تلك خارقة تدهش عقول الماديين ، وهذا الكتاب خارق يدهش أرباب الروحانيات والمعنويات وأصحاب الأفكار السليمة المتطورة ، وأين تلك من هذا ؟ (إن في ذلك) الكتاب (لرحمة) عظيمة عامة (وذكرى) أي تذكرة هامة (لقوم يؤمنون) أي لقوم همهم بل أهم

مطالبهم الإيمان بخالق هو بديع السماوات والأرض الذي بيده مفاتيح الغيب (قل) لأولئك الناس الذين يدعون أنك لستَ برسول الله أو لست بمبلغ آياته إلى الناس (كفى بالله بيني وبينكم شهيدا) أي عالما حق العلم برسالتي إلى الناس كافة وبتبليغي اياها إليهم حسب الأصول حالكونه (يعلم ما في السموات والأرض) لا يخفى عليه شيء من الأشياء فضلا عن شأني وشئونكم (والذين آمنوا بالباطل) وهو ما اتخذوه من الأصنام (وكفروا بالله) الذي هو الواجب الخالق المعبود (أولئك هم الخاسرون) المغبونون في الدنيا والدين (ويستعجلونك) أي كفار قريش (بالعذاب) على وجه الاستهزاء (ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب) حسب استعجالهم (وليأتينهم بغتة) أي فجأة (وهم لا يشعرون) بإتيانه (يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لحيطة بالكافرين) يعني أنهم يستعجلون عذاب الآخرة تعنتا واستهزاء وإن جهنم لمحيطة بالكافرين استيعابا وعذابا أي إن ما طلبوه من عذاب الآخرة إنما طلبوه لجهلهم به وبشدته وباستيعابه وإحاطته وإن جهنم لمحيطة بالكافرين . ولو علموا بذلك ماطلبوه (يوم يغشيهم العذاب من فوقهم) أي من فوق رءوسهم (ومن تحت أرجلهم ، ويقول) القائل الصادق (ذوقوا ما كنتم تعملون) أي جزاء ما كنتم تعملون .

(يا عِبادِيَ الَّذينَ آمَنُوا إنَّ أَرْضي واسِعَةٌ فَإيّايَ فَاعْبُدُونِ (٥٦) كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ المَوْتِ ثُمَّ إلَيْنا تُرْجَعُونَ (٥٧) وَالَّذينَ آمنوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الجَنَّةِ غُرَفاً تَجْري مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ خالِدينَ فيها ، نِعْمَ أَجْرُ العامِلينَ (٥٨) الَّذينَ صَبَرُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٥٩) وَكَأَيِّنْ مِنْ دابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَها ، اللهُ

يَرْزُقُها وَإيَّاكُمْ ؟ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ (٦٠) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّموات وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ ؟ لَيَقُولُنَّ : اللهُ ، فَأَنَّى يُؤْفَكُون ؟(٦١) اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ، إنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٢) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحْيا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِها ؟ لَيَقُولُنَّ : اللهُ ، قُلِ : الحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (٦٣) وَما هذِهِ الحَيوةُ الدُّنيا إلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ)(٦٤)

قوله تعالى : (يا عبادي الذين آمنوا) نزل في المستضعفين من المؤمنين بمكة ، امروا بالهجرة عنها . يقول تعالى : (يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياى فاعبدونِ) أي ان لم تمكنكم العبادة في مكة فهاجروا إلى المدينة مثلا . وقال بعضٌ : الحكم عام لكل من لم تتسهل العبادة له في أرض ، أي إذا لم تتيسر لكم العبادة في أرض فاخرجوا منها إلى حيث تمكنكم العبادة برحابة الصدر .

ويظهر أنه إذا كانت الفتن عامة لم يبق فرق بين أرض وأخرى فالأحسن البقاء في الأرض التي هو فيها ، ويلزمَ خويصةَ نفسه .

فالفاء في قوله تعالى : فإياي جزائية للشرط المحذوف ، وإياي مفعول لفعل محذوف يفسره الفعل المذكور ، ولا يجوز أن يكون معمولا له لاشتغاله بضميره ، فإن أصله فاعبدوني بالياء ، وذلك الفعل المحذوف جزاء الشرط ، حذف وعوض عنه هذا المعمول . الفاء في فاعبدون هي الفاء الواقعة في الجزاء ، إلا أنه لما وجب حذفه جعل المفسر المؤكد له قائما مقامه . وقوله

تعالى (كل نفس ذائقة الموت) جاء للترغيب في العبادة الخالصة والهجرة من أرض لا تسهل العبادة فيها إلى غيرها ، والمقصود أن الحياة لا تستمر لأي ذي روح ولا قيامة لها ، وما دام الأمر كذلك فالهجرة النافعة نافعة . وقوله : ثم إلينا ترجعون جملة مقررة لما سبق .

(والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفا) والغرف العلالي ، ومن الجنة بيان لها قدم عليها . وقوله (تجري من تحتها الأنهار) صفة الغرف و (خالدين فيها) حال عن المفعول و (نعم أجر العاملين) للمدح (الذين صبروا) على أذى المشركين (وعلى ربهم يتوكلون) لا على غيره (وكأين من دابة لا تحمل رزقها) لعدم قابليتها لذلك (الله يرزقها وإياكم) والمعنى الدواب التي لا تقدر على حمل أرزاقها تساوي الإنسان العاقل الذي يحملها في أصل تقدير الرزق وتيسيره ، وإن كان الثاني أقوى من الأول في تدبير تحصيله وأخذه ، (وهو السميع) للأقوال (العليم) بالأحوال (ولئن سألتهم) أي أهل مكة (من خلق السموات والارض) بهذه الوضعية المشاهدة (وسخر الشمس والقمر) للاستفادة منهما (ليقولن الله) إذ لا مجال لهم لإنكاره (فأنى يؤفكون ؟) أي إذا كان الأمر كذلك فكيف يصرفون عن الاعتراف بتفرده تعالى بتلك الأمور ؟ (الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له) أي يضيق عليه (إن الله بكل شيء عليم) رزقا أو مرزوقا أو غيرهما (ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن : الله ، قل الحمد لله) على اعترافهم بذلك (بل أكثرهم لا يعقلون) ولا يعترفون بهذه الحقائق .

(وما هذه الحيوة الدنيا إلا لهو ولعب ، وإن الدار الآخرة لهي الحيوان) . يقايس الله تعالى فيهذه الآية الكريمة بينالحياتين الحياة الدنيوية المحدودة والمتناهية والحياة الأخروية الأبدية الباقية ، فيقول : إن هذه

الحياة الأولى ليست إلا كما يلهو ويلعب به الصبيان ؛ يجتمعون عليه ساعة من الساعات ثم يتفرقون عنه ، وأما الحياة الثانية فهي حياة مستمرة باقية أبدية لا يدرك العقل لها منتهى . هذه بالنسبة إلى نفس الحياتين لا مع ملابساتهما ، وإلا فالحياة الدنيا قد تكون مع أفراح وأشواق ولكن آلامها ومعارضاتها من الألم النفسي والبدني ، والعمى والعرج ، والمرض والحرج ، وضيق المعيشة ، وسوء معاملة الناس معه ، أو سوء معاملته مع الناس ، والحقارة ، والذل والهوان ، وما يعرض عليه من فراق الأحباب بالغياب والموت ، وفقدان الخير وما شاكل ذلك ... وحرمان الإنسان من الوصول إلى المقاصد .. فمن هذه الجهات أتعس وأشد وأقسى الأمور الموجودة في العالم ، فالغرض من الآية أو نقول : الغاية منها هي أنها منتهية لا قيمة لها بالنسبة إلى الحياة الأخروية فليس من المعقول الاعتماد عليها ، والإطمئنان بها ، ولاسيما بصرفها في الأمور التي تعود على الإنسان بالخسران والآلام في الدنيا والآخرة . وإلا فليس المقصود أن لا يهتم بالحياة الدنيا بل المقصود أنه يجب صرفها في المنافع وأسباب الثواب والخير ويجب السعي فيها بالتعليم والتربية والعمل الصالح ، وتعمير البناء النافع من المساجد والمدارس والمساكن المشروعة ، والسعي في الصناعات النافعة له والدافعة للبلايا الواردة من الأعداء ، وتوفير وسائل الراحة والاقتصاديات وفنون الطب التي يعالج بها الأمراض والعاهات فإن كل ذلك من مهمات الإسلام لأن الإسلام جاء للتعاون مع العقل في سلوك سبيل سعادة الدارين . (لو كانوا يعلمون) شرط جوابه لما اختاروا عليها الحياة الفانية الموقتة .

(فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٦٦) أَوَلَمْ يَرَوْا

أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً ، وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ؟ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ يَكْفُرُونَ (٦٧) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ؟ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكَافِرِينَ (٦٨) وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ، وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)(٦٩)

قوله تعالى (فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين) يعني إن أولئك الكافرين المشركين اعترى عليهم مرض يعارض عقولهم ، فإنهم عاقلون ويعلمون أن المؤثر في الكائنات وخالق الأرض والسماوات ومنزل الأمطار هو الله وحده ، وإذا سألتهم أجابوا بالحق ، وكذلك (إذا ركبوا في الفلك) ووجدوا هناك علامة على حراجة الموقف وتموج البحر علموا أن لا منجي لهم إلا الله ف (دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجيهم إلى البرّ) عاودهم المرض النفسي ، ودعاهم إلى الشرو (إذا هم يشركون) على عادتهم السيئة السابقة ، فلا تهتم بهم وخلوهم وضلالتهم (ليكفروا بما آتيناهم) من النعم الجلية والخفية التي يعلمونها (وليتمتعوا) بما أمكنهم (فسوف يعلمونَ) عاقبة ذلك .

ثم أخذ الله تعالى يعدد عليهم من نعمه التي يكفرون بها ما لا مجال لإنكاره ، وقال (أو لم يروا أنا جعلنا) أي بلدهم (حرما) مكانا حرم فيه كثير من الأشياء التي ليس حراما في غيره كقلع الأشجار وقطعها وأخذ النبات وقصها إلا نوعا محدودا وصيد الحيوان ، و (آمنا) أهله محفوظين عن التعرض ، (ويتخطف الناس من حولهم) أي يختلسون بالأخذ والقتل والنهب (أفبالباطل) وهو الأصنام (يؤمنون) ولا يستحق أي نظر واهتمام

(وبنعمة الله) وهي الإيمان والأمان والرزق الموفور المجلوب لهم من كل مكان (يكفرون ؟) وهي تستوجب الشكر للمنعم وحده والعبادة له وحده ، ويكذبون على الله تعالى بأنه رضي بإشراك الصنم له في العبادة (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) وقال إنه يرضى بعبادة الصنم ، (أو) أظلم ممن (كذب بالحق ؟) وهو توحيده وإنزاله الكتاب وإرساله الرسول المرشد إلى طريق الصواب (أليس في جهنم مثوى) ومقام ومقر للكافرين . واعملوا أن أولئك الكافرين بالله ونعمه نبقيهم في الضلال لأنهم لا يقتبسون من نور الهدى فبقوا حائرين .

(والذين جاهدوا فينا) واجتهدوا لأجل تحصيل مرضاتنا بأن آمنوا بنا وبرسولنا والتزموا ديننا (لنهدينهم سبلنا) أي لنرشدنهم ولنوصلنهم إلى سبل رضانا فنوفقهم كلا حسب ما يناسبه من كثرة العبادات البدنية ، أو التزكية النفسية،أو الإرشادات العلمية، أو إطعام الطعام،أو الخدمة للأنام، وإخراجهم من الشدائد والظلام ، وسائر الأعمال التي كل منها كركن من أركان السعادة في الدارين ، ومنها مثلا التوسل لخلاص المقهورين وإصلاح ذات البين وتربية اليتامى وخدمة الغرباء المحرومين ، ومعاونة المعوزين بالمال والجاه عند أهل النفوذ في الدنيا وغير ذلك مما لا يحصى من أعمال المسلمين ... ذلك لأن المجاهد المذكور محسن (وإن الله لمعَ المُحْسنين) أحسن اللهُ بفضله إلينا في الدنيا والدين برحمته إنه أرحم الراحمين .

سورة الروم ، مكية ، وهي ستون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(الــمٓ(١) غُلِبَتِ الرُّومُ(٢) في أَدْنى الأَرْضِ وَهُمْ مِـــنْ
بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ(٣) في بِضْعِ سِنِينَ ، للهِ الأَمْرُ مِـــنْ
قَبْلُ ومِنْ بَعْدُ ، وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المُؤْمِنُونَ(٤) بِنَصْـرِ
اللهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ(٥) وَعْـدَ اللهِ
لا يُخْلِفُ اللهُ وَعْـدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَـرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ(٦)
يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الحَيوةِ الدُّنيا وَهُمْ عَـنِ الآخِرَةِ هُمْ
غافِلونَ(٧) أَوَ لَـمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِـهِمْ ما خَلَـقَ اللهُ
السَّموات وَالأَرْضَ وما بَيْنَهما إِلاَّ بالحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمّىً ؟
وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ لَكافِرُونَ(٨) أَوَ لَـمْ
يَسيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ كانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثارُوا الأَرْضَ وعَمَرُوها
أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوها وَجاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالبَيِّنَاتِ ؟ فَما كـانَ
اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ(٩) ثُمَّ كانَ
عاقِبَةَ الَّذِينَ أَساؤُوا السُّوءى أَنْ كَذَّبُوا بِآياتِ اللهِ وَكانُوا بِها
يَسْتَهْزِئُون)(١٠)

قوله تعالى (الم) الكلام فيه مثل مافي أمثاله (غُلِبَتِ الرومُ في أدنى الأرض) الفعل مجهول ، والروم أمة عظيمة وكان مقر سلطنتها في وقت نزول الآية بلدة (قسطنطينية) فتلك الأمة كانت تحارب الفرس ، وقد غلبت في واقعة في أرض تقع بين أذرعات وبُصرى ، وهما بلدان من بلاد الشام ، وتلك أدنى الأرض أي أقرب أرض من أراضي دولة الرّوم إلى الحرم المكي . وتلك الواقعة وقعت بعد بعث الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقبل الهجرة إلى المدينة المشرفة (وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين) والبضع ما بين الثلاث إلى التسعة أو العشرة . وقد غلبت الروم على الفرس كما ذكر في الآية الكريمة . روي أن فارس غزوا الروم فوافوهم بأذرعات وبصرى فغلبوهم فبلغ ذلك النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه وهم بمكة ، فشق ذلك عليهم . وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ يكره أن يظهر الأميون من المجوس على أهل الكتاب من الروم . وفرح الكفار بمكة وشمتوا ، فلقوا أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم فقالوا : إنكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب ، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من أهل الكتاب ، وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرن عليكم ، فأنزل الله تعالى (الم غلبت الروم) الآيات ... فخرج أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ إلى الكفار فقال : أفرحتم بظهور إخوانكم على إخواننا ؟ فلا تفرحوا ، ولا يقرن الله تعالى عينكم فوالله تعالى ليظهرن الروم على فارس ، أخبرنا بذلك نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقام إليه اُبيّ بن خلف فقال : كذبتَ . فقال له أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ : أنت أكذب ياعدو الله تعالى أناحبك [أي أراهنك] عشر قلائص مني وعشر قلائص منك ، وإن ظهرت الروم على فارس غرمتَ ، وإن ظهرت فارس غرمتُ إلى ثلاث سنين فناحبه ثم جاء ابو بكر الى النبي ـ صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقال ـ عليه الصلاة

والسلام ـ : « ما هكذا ذكرتُ ، إنما البضع ما بين الثلاث إلى التسع ، فزايدْهُ في الخطر ومادّهِ في الأجل » فخرج أبو بكر فلَقِيَ أبيًا ، فقال : لعلك ندمتَ . قال : لا تعالَ أزايدك في الخطر وأمادّك في الأجل فاجعلها مائة قلوص إلى تسع سنين . قال : قد فعلتُ . فلما أراد أبو بكر الهجرة طَلَبَ منه أُبَيٌّ كفيلا بالخطر إن غلب فكفل به ابنه عبدالرحمن . فلمّا أرادَ أُبَيٌّ الخروج ، إلى أحد طلبه عبدالرحمن بالكفيل فأعطاه كفيلا ومات أُبَيٌّ من جُرْحٍ جرحه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وظهرت الروم على فارس لما دخلت السنة السابعة .

وروي أنه لما ظهرت الروم على فارس أخذ أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ الخطر من ورثة أبي وجاء به إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ تَصَدَّق به . (لله الأمر من قبلُ ومن بعدُ) أي إن القضاء بيد الله قبل الغلبة وبعدها . ولا يتوهمن أحدٌ أن أي الفريقين يغلب الآخر بدون إرادة الباري وقدرته (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله) أي وفي ذلك الوقت يفرح المؤمنون ، ويستبشرون بنصر الله أهل الكتاب على من لا كتاب له ، أو يفرح المؤمنون بنصر الله تعالى لهم على المشركين لأن تلك الغلبة كانت بعد الهجرة وحين ظهرت شوكة للمؤمنين وقوة بعث السرايا إلى أطراف البقاع ، ولم يبق زمان الضعف الذي كان في مكة المكرمة (ينصر من يشاء) من عباده على من شاء منهم (وهو العزيز الرحيم) أي المبالغ في العزة والرحمة .

(وعد الله) مصدر مؤكد لمضمون الجملة المتقدمة في قوله تعالى (سيغلبون). (لا يخلف الله وعده ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أنّ الله لا يخلف وعده ، لأنهم ليسوا مؤمنين بالله العلي العظيم بما يجب له ، وما يجوز له ، وما يمتنع . وإنما يعلمون منه اسماً فقط (يعلمون ظاهراً من الحيوة الدنيا)

وهو ما يحتاجون إليه في المعيشة وما يدخر منه ووسائل تحصيله (وهم عن الآخرة هم غافلون) أي وهم غافلون عن البعث والنشور وسائر أوضاع الآخرة ولقاء الله تعالى • ولو كانوا يعلمون تلك الأمور لتنبهوا لمعرفة الذات القادر عليها وعلموا أن الله صادق الوعد ولا يخلف الميعاد •

ثم وبخهم على غفلتهم وقصر نظرهم وقال : (أو لم يتفكروا في أنفسهم ؟) يعني أو لم يتفكروا بأنفسهم بدون ملاحظة الناس وسماع أقاويلهم واشتباهاتهم حتى يعلموا أنه تعالى إله قادر حكيم عظيم ، وأنه (ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق) أي بالوجه الحق الموافق للحكمة ، وخالق الكائنات بالحق والحكمة ، يكون صادق الوعد والوعيد (وأجل مسمى) أي ما خلق ماخلقه إلا محدودا بأجل ووقت معين وهو وقت قيام الساعة التي لا يبقى فيها هذه المظاهر والآثار ، وإذا جاء ذلك الوقت تحقق فيه وعده تعالى بلقاء الله وحساب الأعمال (وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون) ومن كفر باللقاء كفر بوعده تعالى وبقيام الميزان والحساب •

(أو لم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة ؟) أي كانوا أقدر منهم على التمتع بالحياة الدنيا (وأثاروا الأرض) أي قلبوها للحرث والزراعة وحفر الأنهار ، (وعمروها أكثر مما عمروها) أي وعمروها عمارة أكثر من عمارة هؤلاء الموجودين حالا (وجاءتهم رسلهم بالبينات) أي بالمعجزات التي تشهد لهم بالصدق كالبينة على الدعوى أو بالآيات الواضحات لبيان العقائد وتشريع الأحكام (فما كان الله ليظلمهم) ويعاملهم معاملة تشبه الظلم صورة (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) أي ولكن هم ظلموا أنفسهم حيث تعاموا عن إبصار المعجزات وتصامموا عن سماع المواعظ والإرشادات وتغافلوا عن إدراك الحقائق

وعاندوا الرسل ، وقوله تعالى (ثم كان عاقبة الذين أساؤا السوءى) كلمة ثم فيه للتراخي في الرتبة ، وكان ناقصة ، وعاقبة خبرها ، والسوءى اسمها ، أي وكانت الخصلة السوءى عاقبة الذين أساءوا مع الرسل عليهم السلام . وقوله (أن كذبوا) بتأويل المصدر بدل من السوءى (وكانوا بها) أي بالآيات (يستهزءون) عطف على كذبوا وداخل معه في حكم البدلية وهذا الاعراب إحتمال من احتمالات كثيرة في الآية .

(أللهُ يَبْدَؤُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُهُ ثُمَّ إليْهِ تُرْجَعُونَ (١١) وَيَوْمَ تَقُومُ السّاعَةُ يُبْلِسُ المُجْرِمونَ (١٢) ولَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكائِهِمْ شُفَعاءُ وكانُوا بِشُرَكائِهِمْ كافِرِينَ (١٣) وَيَوْمَ تَقُومُ السّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (١٤) فَأَمّا الّذينَ آمَنُوا وعَمِلوا الصّالِحاتِ فَهُمْ في رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (١٥) وَأَمّا الّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا ولِقاءِ الآخِرَةِ فَأُولئِكَ فِي العَذابِ مُحْضَرُونَ (١٦) فَسُبْحانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ الحَمْدُ فِي السَّمواتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨) يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ ، وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ ، وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها ، وَكَذلِكَ تُخْرَجُونَ)(١٩)

قوله تعالى : (الله يبدأ الخلق) يعني أن الله ينشيء الخلائق فيخلقهم ويسويهم ويربيهم ويبقيهم إلى الأجل المسمى فيميتهم ، ثم بعد أن مات كلّ حي يخليه في البرزخ إلى يوم البعث (ثم يعيده) إلى عالم الجسم والتركيب السابق (ثم إليه ترجعون) للحساب والجزاء (ويوم تقوم الساعة يُبلِسُ

المجرمون) أي يسكتون لوقوعهم في دهش ورهبة من هيبة الباري وملاحظة أعمالهم السيئة أو الناقصة التي لا تناسب تقديمها للحساب (ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء) على مازعموا حتى يجيروهم من العذاب (وكانوا بشركائهم كافرين) أي كافرين بوجود شركائهم فضلا عن عزتهم وقابليتهم للشفاعة (ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون) أي يتفرق كل الخلائق إلى أصناف وجماعات بحسب أعمالهم وأحوالهم وبحسب إخلاصهم وآمالهم (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة) واسعة تسع أهلها (يحبرون) أي يسرون ويفرحون بما آتاهم الله من فضله .

(وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة) أي وأما الذين كذبوا بآياتنا الدالة على وجوب التزام الاحكام الإلهية ومن ذلك كذبوا بلقاء الآخرة ، وبالبعث بعد الموت فإنه من البديهي أن الذين كذبوا بالآيات يكذبون بالبعث ولقاء الله ولقاء دار الآخرة وما فيها من الثواب والعقاب (فاولئك في العذاب محضرون) موجودون لا يغيبون عنه ولا ينفك عنهم والعياذ بالله (فسبحان الله حين تمسون ، وحين تصبحون ، وله الحمد في السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون) وإذا علمتم أحوال الناس ومآلهم فلا سبيل إلى الخلاص من العقاب ولا إلى نيل الثواب إلا بالطاعة والذكر والتسبيح ، فقولوا : سبحان الله حين تمسون أي تدخلون في المساء ، وحين تصبحون أي تدخلون في الصباح . وقوله : (وله الحمد) مربوط بتقدير القول أي وقولوا وله الحمد في السماوات والأرض وعشيا معطوف على حين تمسون ، وحين تظهرون أي تدخلون في الظهر أي نصف النهار . وحاصل الآية الكريمة وما دامت أحوال الناس كما عرفتم فمنهم من دخل الجنة والرضوان ومنهم من دخل في عذاب النيران داوموا واستمروا على تسبيح الباري تعالى وتحميده في الأوقات المذكورة حتى

يغلب عليكم الذكر ، ولا تكونوا من الغافلين . ومنهم من فسر التسبيح بالصلاة أي فصلوا حين تمسون صلاة العصر وصلاة المغرب ، وحين تصبحون صلاة الصبح ، ووعشيا صلاة العشاء ، وحين تظهرون صلاة الظهر .

(يخرج الحي من الميت) أي الإنسان من النطفة (ويخرج الميت من الحي) كعكسه (ويحيي الأرض بعد موتها) ويخلق فيها قوة الإنبات والتنمية بعد أن لم يكن فيها لأنها باليبس والجدب تتعطل تلك المبادىء عن العمل ، وإذا نزل المطر عليها تنبعث وتدخل في دور العمل (وكذلك تخرجون) أنتم من الأرض عند البعث والنشور ، فقدرة الباري على هذا مثل قدرته على ذلك .

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ(٢٠) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ، وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(٢١) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ(٢٢) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ(٢٣) وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً ، وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ(٢٤) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥) وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (٢٦) وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)(٢٧)

قوله تعالى (ومن آياته أن خلقكم من تراب) أي ومن أدلته الباهرة الدالة على كمال قدرته أن خلقكم أي خلق أصلكم وهو آدم ــ عليه السلام ــ من تراب (ثم إذا) مفاجأة (أنتم بشر تنتشرون) في ربوع الارض لأغراضكم ومقاصدكم ، وفي البحر لاستخراج ما ينفعكم أو للسير عليه إلى أماكن تستفيدون ، وفي الجو لاكتشاف حقائق علوية ترشدكم إلى معلومات أخرى لم يكن في أذهانكم اكتسابها . (ومن آياته) الدالة على رحمانيته ولطفه (أن خلق لكم من أنفسكم) ونوعكم المألوف المرغوب (أزواجا) تألفكم وتألفونها (لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة) بالزواج الذي جمع بينكم وبينهن ، فالمودة للألفة النفسانية ، والرحمة للعلاقة الإنسانية في وقت المرض والغيبة والحاجة ، وبعد الموت لإدارة أولاد المتوفى (إن في ذلك لآيات) عظيمة دالة على دقائق آثار قدرته (لقوم يتفكرون) في ما يحصل من هذه الألفة والتواد والتراحم .

(ومن آياته) الظاهرة الدلالة على أنه حي عليم قادر قيوم (خلق السموات) بموادها الأثيرية ، وكواكبها النيرة الساكنة والسيارة (والأرض) بما فيها من المنابع والمعادن ، وما عليها من النبات والأشجار والأحجار (واختلاف ألسنتكم) في تقطيع الهواء السيار الذاهب والراجع من الشفتين إلى ما فوق الحلقوم على مقاطع مختلفة ذاتا وصفة (و) اختلاف (ألوانكم) من البياض والسواد والسمرة والحمرة وغيرها ، وإن كان للمناخ والقرب والبعد من مدار الشمس ومجاورة البحار والسكون في قمم الجبال وأعماق الوديان تأثير واضح جلي ، فإن النوع له أصناف معلومة ، وكل فرد من

أي صنف إذا تحول من وطنه إلى وطن مغاير تحول وضعه من البياض إلى السواد ومن اللين إلى الخشونة والعصبية ، ومن الطول إلى القصر ومن ملامح وجهه إلى ملامح أخرى كما هو معلوم بالتجارب في الأيام (إن في ذلك لآيات للعالمين) بأن الله تعالى جعل في كل مناخ نوعا من السببية لتلك الاختلافات .

(ومن آياته منامكم بالليل والنهار) أي جعل النوم غالبا عليكم بالليل والنهار فيزول عنكم الشعور المعتاد وتستريح القوى النفسانية ، إذ لا تشتغل بالأخذ من الحواس وتقوى القوى الطبيعية (وابتغاؤكم من فضله) أي ومن آياته قوة طلبكم مايكفيكم أو يزيد عليه من فضله أي من رزقه أو أسباب تحصيل الرزق من العلوم والصناعات بالليل والنهار (إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون) الإرشادات والمواعظ سماع قبول (ومن آياته يريكم البرق) أي أن يريكم البرق (خوفا وطمعا) أي إخافة لكم من التضرر به ، وإطماعاً في المطر النازل بعده (وينزل من السماء ماء فيحي به الأرض) ويجعل فيها قوة الإنبات والتنمية (بعد موتها) من الجدب (إن في ذلك لآيات) دالة على قدرة الباري للتصرف في السماوات والأرض (لقوم يعقلون) أي يستعملون عقولهم في إدراك الأسرار الدقيقة (ومن آياته أن تقوم السماء والارض بأمره) أي بحكمه ونفوذ قدرته فطبقات السماوات الأثيرية من السماء الدنيا إلى السماء السابعة وما فيها من كرات الكواكب سواء كانت سيارة أو ثابتة وكذلك كرة الأرض الممزوجة مع الماء ككرة واحدة ، كل ذلك حافظة لنفسها في الحركة حول مركز نفسها ، وفي الحركة حول الشمس ، وكذلك الشمس لها قوة حافظة لنفسها ، ومانعة لها من السقوط في فضاء العالم الواسع جداً (ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون) أي ومن آياته قيام السماء والارض بأمره ثم خروجكم

من قبوركم الموجودة في الأرض بسرعة إذا دعاكم للحساب ، وذلك عند البعث الناشيء من النفخة الثانية • وقوله (وله من في السماوات والارض) كالتعليل لما قبله والمعنى وخروجكم من قبوركم عند الدعوة إنما هو لأن له ملكا وتصرفا مَنْ في السموات والارض من الإنس والجن والملك (كل له) أي للباري تعالى (قانتون) مطيعون (وهو الذي يَبْدَأُ الخلق ثم يُعيده) بعد الموت (وهو أهوَنُ عليه) أي والإعادة في النشأة الثانية أهون على الباري تعالى من البدء في مجاري عقولكم وعاداتكم لأن الإبداء خلق بدون مادة وأصل مناسب ظاهرا ، وأما الإعادة فهي خلق الإنسان مثلا في المرة الثانية على الأجزاء السابقة الثابتة بمادتها ، ولو تحولت إلى التراب أو الماء أو الهواء (وله المثل الأعلى) أي ولله تعالى الوصف والشأن العجيب الأعلى الذي ليس لغيره ، لأن شئون واجب الوجود أرقى درجةً بل لا مناسبة لها بشئون الممكن الخاص الموجود ، وهذا المثل جار (في السموات والارض وهو العزيز) الغالب على مايريد (الحكيم) في فعله المنزه المجيد •

(ضَرَبَ لَكُم مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ : هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيمانُكُمْ مِنْ شُرَكاءَ فِيما رَزَقْناكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَواءٌ تَخافُونَهم كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ ؟ كذلك نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ(٢٨) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْواءهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللهُ ؟ وَما لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)(٢٩)

قوله تعالى (ضرب لكم مثلا من أنفسكم) أي ذكر الله سبحانه وتعالى لكم قصة عجيبة متعلقة بأنفسكم وتعلمونها على حسب وجدانكم

في إبطال اعتقاد الشرك ووجود الشريك (هل لكم من ماملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم) يعني هل يوجد لكم شركاء من مماليككم وعبيدكم الذين ملكتموهم ملك اليمين في مارزقناكم (فأنتم فيه سواء) أي أنتم ومماليككم على مقام وعلاقة متساوية بينكم أي كما أنكم تتصرفون في مارزقناكم كذلك يتصرف فيه عبيدكم ومماليككم حالكونكم (تخافونهم) تخافون من أولئك المماليك الشركاء في التصرف في مارزقناكم بدون إجازتهم (كخيفتكم أنفسكم ؟) أي كما تخافون من شركائكم الأحرار في التصرف فيه بدونها والجواب لهذا الاستفهام : حاشا وكلا . والمقصود أنتم أيها الكفار المشركون كيف تتجاسرون على اعتقاد الشركاء من الأصنام لله تعالى في السموات والارض مع أنكم لا تقبلون أن يكون لكم عبيد يشاركونكم فيما رزقناكم مع أنهم اناس مثلكم ويجوز أن يكون بعض منهم أرقى وأعلى شأنا منكم في العقل والعلم . (كذلك) التفصيل بالتمثيل والتشبيه (نفصل الآيات لقوم يعقلون) أي يستعملون عقولهم في إدراك الأشياء (بل) إضراب عن مخاطبتهم وتنويرهم بالتمثيل لأنه (اتبع الذين ظلموا أهواءهم) الزائفة (بغير علم ، فمن يهدي من أضل الله ؟) أي لا يوجد هاد لمن أضله الله تعالى (وما لهم) أي لأولئك المتبعين للأهواء (من ناصرين) في الآخرة أبدا .

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ، فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ، وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلوةَ ، وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا

شِيَعاً ، كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ(٣٢) وَإِذا مَسَّ النّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ، ثُمَّ إِذا أَذاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ(٣٣) لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ فَتَمَتَّعُوا ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ(٣٤) أَمْ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمْ سُلْطاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِما كانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ؟(٣٥) وَإِذا أَذَقْنا النّاسَ رَحْمَةً فَرِحوا بِها ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذا هُمْ يَقْنَطُونَ(٣٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ ؟ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(٣٧) فَآتِ ذا الْقُرْبى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ، ذلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ ، وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٣٨) وما آتَيْتُمْ مِن رِباً لِيَرْبُوَ فِي أَمْوالِ النّاسِ فَلا يَرْبُو عِنْدَ اللهِ ، وَما آتَيْتُمْ مِنْ زَكوةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ)(٣٩)

قوله تعالى (فأقم وجهك للدين حنيفا) أي لما علمت بإنزالنا الآيات البينات هدى ورحمة فتلقاها المشركون بالإباء والعناد ، ولم يأخذوا سبيل الرشاد فلا تهتم بهم ، بل توجه إلى الله وارجع إلى نفسك لتوجيهها إلى جانب قدسك وأقم وجهك للدين حنيفا أي اقصد واعزم على إخلاص نفسك لله في إقامة دينه مائلا عن كل الأمور التي اعتادها أولئك الغافلون والزَمْ (فِطْرَتَ اللهِ التي فطر الناس عليها) روي عن انس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أنه قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فطرة الله التي

فطر الناس عليها هو دين الإسلام . والمراد بفطرهم على ذلك أن الإنسان المتميز بالعقل السليم والحواس السليمة إذا خلي وطبعه اعترف بوجود خالق للكائنات حي عليم قادر مريد ، والتزم النظام السليم الذي هو خير وسيلة لسعادة الدارين ، ومتكفل برعاية الحقوق ورفض العناد والعقوق ؛ وهذه الفطرة خلق الله ، ولا تبديل لخلق الله ، فإذا خالفها إنسان فمثله كمثل بصير يعمى عينه ، وناطق يقطع لسانه بنفسه فيقع في الدار بين أعمى وأخرس ، فالباري سبحانه جهز الإنسان للإحسان ، وإذا منع الإنسان نفسه عنه فقد ظلم نفسه (ذلك الدين القيم) أي ذلك المذكور وهو إقامة الوجه لله هو الدين القيم المستوي الذي لا انحراف فيه (ولكن أكثر الناس لا يعلمون . منيبين إليه) حال من الناس في قوله تعالى فطر الناس عليها . أي حالكون الناس الباقين على الفطرة منيبين إلى الله تعالى راجعين إليه ، ثم غير الأسلوب إلتفاتا إلى الخطاب فقال (واتقوه وأقيموا الصلوة ، ولا تكونوا من المشركين) المبدلين للفطرة الحسنة بالفعلة السيئة واتباع الأهواء والإشراك بالواجب وصاروا من الضالين (من الذين فرقوا دينهم) الواحد بتوحيد معبودهم إلى أصناف ، وارتكبوا خلاف الحق وكانوا شيعا طوائف مختلفة على أهواء مزيفة مختلفة يعاند بعضهم بعضا . و (كل حزب بما لديهم فرحون) أي فرحون بما يوجد لديهم من العقيدة والرأي لأنها توافق أهواءهم ، وعما قليل يتندم منم العاقلون . (وإذا مس الناس ضرّ) أي شدة (دعوا ربهم منيبين إليه) راجعين إليه مستغيثين (ثم إذا أذاقهم منه رحمة) يسرا وخلاصا منها (إذا فريق منهم بربهم يشركون . ليكفروا بما آتيناهم) من المال والمنال (فتمتعوا) أيها المغترون بما أتاكم بعدما آذاكم وكان الواجب أن تشكروا لا أن تكفروا (فسوف تعلمون) مآل هذه الغفلة والفراغ عن ذكر رب العالمين (أم أنزلنا عليهم سلطانا) أم منقطعة أي بل أانزلنا عليهم

سلطانا أي حجة وبرهانا على هذه الأهواء الباطلة والأعمال العاطلة (فهو يتكلم بما كانوا به يشركون) أي يدل دلالة قاطعة وينتج إنتاجا ساطعا بحقية ما به يشركون رب العالمين من أصنام وأوثان يبول عليها الثعلبان •

(وإذا أذقنا الناس رحمة) من صحة وثروة وجاه وعشيرة (فرحوا بها) وبطروا (وإن تصبهم سيئة) شدة وبؤس (بما قدمت أيديهم) أي جزاء على ما قدمته أيديهم من السيئات (إذا هم يقنطون) من رحمته تعالى مع أن باب الرحمة واسع على مصراعيه • ورحم الله من قال : إن أشد البلايا على الإنسان قنوطه • (أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء) أن يبسطه وليس ذلك الإنعام بنفسه من الإكرام (ويقدر) أي ويضيق الرزق على من يشاء وليس ذلك من الإهانة بل كل ذلك مبني على تدبير وتخطيط وتقدير رباني موافق لحكمة الملك العلام •

فاذا وجدت الناس على هذه الأحوال ، وقل من يعتمد منهم على ربه المتعال فتجاوز عنهم (وآت ذا القربى حقه) من الصدقة وصلة الأرحام (والمسكينَ وابنَ السبيل) بما يستحقانه من كثير أو قليل و (ذلك) الإيتاء (خير للذين يريدون وجه الله وأولئك) القائمون بهذه الآداب (هم المفلحون) وهذه العطايا هي التي يستفيد منها المسلمون المعطون والآخذون (وما آتيتم من ربا) أيها المتعاملون المستدينون (ليربو) ويزيد ذلك (في أموال الناس) المعطين حتى يتعاملوا على ذلك الذي أخذوه بالربا والآخذين لها (فلا يربو عند الله) لأنه حرام والحرام نار والنار محرقة لا منمية (وما آتيتم من زكوة تريدون) به (وجه الله فأولئك هم المضعفون) أي يزيدون في أموال المعطين أضعافا مضاعفة ببركة الاخلاص لله رب العالمين •

(اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ، ثُمَّ رَزَقَكُمْ ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ، هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ

شَيْءٍ ؟ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٠) ظَهَرَ الفَسَادُ فِي البَرِّ والبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرجِعُونَ (٤١) قُلْ : سِيرُوا فِي الأرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ ، كانَ أكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ (٤٢) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ القَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لامَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ ، يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (٤٣) مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ، وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلأنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْ فَضْلِهِ ، اِنَّهُ لا يُحِبُّ الكَافِرِين)(٤٥)

قوله تعالى (الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم) يحتمل أن يكون الاسم الجليل مبتدأ والموصول مع صلته خبره ؛ كما يحتمل أن يكون الموصول وصلته صفة له ، وجملة هل من شركائكم خبره ؛ لكنّ الإعراب الأول انسب بسياق الكلام مع المشركين والاعراب ، لأنهم لا يعترفون بالإحياء والبعث فلا تكون أجزاء الصلة كلها معهودة ومعلومة لهم • والمعنى اعبدوا الله وحده فإن الله هو (الذي خلقكم ثم رزقكم) في بطون أمهاتكم وبعد الخروج منها إلى مماتكم (ثم يميتكم) عند آجالكم (ثم يحييكم) بالبعث والنشور • ومن كانت هذه الأفعال صادرة منه فهو المستحق للعبادة ف (هل من شركائكم) المزعومين (من يفعل من ذلكم من شيىء ؟) والجواب لا • فقل (سبحانه وتعالى عما يشركون • ظهر الفساد في البر والبحر) بالجدب والموتان وكثرة الحرق والغرق ومحق البركات وغيرها (بما كسبت أيدي الناس) أي بشؤم معاصيهم التي نشأت من قوتهم، فلا عجب فيذلك الفساد ليكون جزاء وفاقا(ليذيقهم) أي الناس (بعض

الذي عملوا) أي جزاء بعض أعمالهم السيئة (لعلهم يرجعون) إليه ويتوبوا عن تلك السيئات • وهذه سنة الله في خلقه ، فإن صدقوا بها فذاك ، وإن أنكروها فـ (قل : سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل) لتشاهدوه (كان أكثرهم مشركين) فابتلاهم الله تعالى بالتدمير والإهلاك فكانوا من الهالكين (فأقم وجهك للدين القيم) القائم المستقيم جدا (من قبل أن يأتي يوم لا مرد له) من أيّ رادّ لأنه كان (من الله) وقد شاءه وما شاء الله كان (يومئذ) أي يوم البعث الذي لا مردّ له (يصدعون) أي يتفرقون فريقا فريقا ، ففريق إلى الجنة وفريق إلى السعير • (من كفر فعليه كفره) ولا ينال جزاء كفره غيره (ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون) أي فيمهدون ويسوون لأنفسهم منزلا في الجنة (ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله ، إنه لا يحب الكافرين) فلا يجزيهم إلا بما يستحقون •

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ، وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(٤٦) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إلى قَوْمِهِمْ فجاءُوهمْ بِالبَيِّنَاتِ ، فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ، وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ(٤٧) أَللهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سحاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ ، وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً ، فترى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ ، فإذا أَصابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ(٤٨) وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ(٤٩) فَانْظُرْ إلى آثارِ رَحْمَتِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ؟ إنَّ ذلِكَ لَمُحْيِي المَوْتى ، وَهُوَ

عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٥٠) وَلَئِنْ أَرْسَلْنا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرّاً لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ(٥١) فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى ، وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ(٥٢) وَما أَنْتَ بِهادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا فَهُمْ مُسْلِمُونَ)(٥٣)

قوله تعالى : (وَمِنْ آياته أن يرسل الرياحَ مُبَشرات) الرياح المبشرات بالأمطار هي الشمال والصبا والجنوب ، فإنها رياح الرحمة . وأما الدبور فريح العذاب . ومنه قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « أللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا » وذكروا أن الثلاثة الأول تلقح السحاب الماطر وتجمعه ، فلذا كانت رحمة . وأما الدبور فللبلاء ، وأهونها أن تثير غبارا .

(وليذيقكم) أي الباري تعالى عند هبوب الرياح (من رحمته) يريد المنافع التابعة لها لسقي الاشجار ، وتصفية الحبوب في البيادر ، وإزالة الغبار عن أوراق الأشجار ، وتنشيط المرضى والمتعبين (ولتجري الفلك بأمره) يعني السفن التجارية (ولتبتغوا من فضله) أي ولتطلبوا بالرياح ركوب السفن البحرية التي كانت تسير بقوتها عند الهبوب (ولعلكم تشكرون) بظهورها لأنها أمارات الخير (ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات) أي فكذبوهم (فانتقمنا من الذين أجرموا) بالتكذيب (وكان حقا علينا نصر المؤمنين) .

(الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء) متصلا (كيف يشاء) سائرا أو واقفا (ويجعله كسفا) أي قطعات متفرقة منفصلة (فترى الودق) أي المطر (يخرج من خلاله) في حالتي الاتصال والانفصال (فإذا أصاب به من يشاء من عباده) بالأمطار النازلة على مزارعهم ومراتعهم

(إذا هم يستبشرون • وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله) أي من قبل السحاب (لمبلسين) أي آيسين قانطين (فانظر إلى آثار رحمت الله) أي المطر (كيف يحي الأرض بعد موتها ، إن ذلك) الخالق القادر الحكيم الذي أحيا الأرض بعد موتها (لمحي الموتى) أي لقادر على أن يحيي الموتى (وهو على كل شيء قدير • ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا) أي فرأوا السحاب الحاصل منها مصفرا يدل على عدم وجود المطر فيه (لظلوا من بعده يكفرون) بالله جهلا وسفها وتزلزلا من قلوبهم السخيفة فأولئك الناس موتى في القلوب و (إنك لا تسمع الموتى) إلا بقدرة الله تعالى (ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين) وإنما قيده بالظرف لأن الأعمى المستقبل قد يدرك شيئا بعلامة ما ، وأما الأعمى المستدبر فكما لا يسمع لا يرى العلامة على الدعوة حتى تحصل له حالة تشبه السماع (وما أنت بهادي العمي) عَمىً ناشئا (عن ضلالتهم) أي عمى ناشئا عن فقد البصيرة وفقد الإيمان (إن تسمع) وتهدي (إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) ومنقادون لما تأمرونهم به •

(أللهُ الَّذي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ، ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ، ثُمَّ جَعَلَ مِنَ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً ، يَخْلُقُ ما يَشاءُ ، وَهُوَ العَليمُ القَديرُ(٥٤) ويَومَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ المُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ، كَذلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ(٥٥) وَقالَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ وَالإيمانَ : لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللهِ إلى يَوْمِ البَعْثِ ، فَهذا يَوْمُ البَعْثِ ، وَلكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ(٥٦) فَيَوْمَئِذٍ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ(٥٧) وَلَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذا القُرْآنِ مِنْ

كُلِّ مَثَلٍ ، وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا : إِنْ أَنْتُمْ إِلاّ مُبْطِلُونَ(٥٨) كذلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ(٥٩) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ)(٦٠)

قوله تعالى (الله الذي خلقكم من ضعف) استدلال على وجوده الواجب بنفوذ قدرته في التكوين وتصرفه في المواد الضعيفة فيحولها إلى مادة قوية ثم يرجعها إلى شيء ضعيف • ومعنى العبارة : خلقكم من شيء ذي ضعف، أو أنه مثل خلق الإنسان منعجل أي أنالإنسان لما خلق خلق بلا قوة كأنه خلق من عرض الضعف ، أي ابتدأكم ضعفاء وجعل الضعف أساس أمركم (ثم جعل من بعد ضعف قوة) بأن أوصلكم إلى درجة النشاط الدموي وقوة الأعصاب والعضلات (ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة) بأن جعل الدم قليلا وجريانه كذلك ، والعظم بلا رطوبة ، والعضلات يابسة ، والمعدة باردة فضلا عن الأمور التي تساعد الهرم والشيبوبة (يخلق ما يشاء) من الضعف والقوة (وهو العليم) بكيفية الخلق و (القدير) على تنفيذ ما يعلمه (ويوم تقوم الساعة) ويحشر الناس للحساب والميزان (يقسم المجرمون) أنهم (ما لبثوا) في الدنيا (غير ساعة) أي زمانا قليلا أو جزء من أربعة وعشرين جزء من يوم ، وذلك لقلة زمان حياتهم الدنيوية بالنسبة إلى بقائهم في البرزخ أو موقفهم الطويل في المحشر (كذلك كانوا يؤفكون) أي مثل ذلك الإفك والصرف عن الصدق كانوا يؤفكون عنه في الدنيا • أي كذبهم هنا في الآخرة مثل كذبهم في الدنيا باختلاق الأصنام وغيرها •

(وقال الذين أوتوا العلم والإيمان) من كبار الإنس المؤمنين (لقد لبثتم في كتاب الله) أي علمه مدة متمادية من أيام الدنيا والبرزخ (إلى) أن

وصلتم (يوم البعث ، فهذا يوم البعث) الذي كنتم تنكرونه (ولكنكم كنتم لا تعلمون • فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا) في الدنيا (معذرتهم) في الآخرة (ولا هم يستعتبون) أي ولا هم يزال عتبهم بالتوبة والندم ، إذ لا توبة هناك ولا ينفع الندم إذ ذاك من قولهم : استعتبني فلان فاعتبته أي استرضاني فأرضيته •

(ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل) أي ولقد وصفنا الناس بالصفات الكثيرة المناسبة لهم كالمؤمنين والمخلصين والكافرين والمشركين ، أو لقد ذكرنا لهم من كل قصة عجيبة أو وصف عجيب يفيدهم التنبه والتوجه إلى الله وتوحيده والاستقامة عليه (ولئن جئتهم بآية) من آيات الله لحملهم على الإيمان والإذعان بحقية دينكم (ليقولن الذين كفروا : إن أنتم إلا مبطلون • كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون) أي لا يعلمون الحقائق أو أمور الدين ، أولا يطلبون العلم وإنما يحبون الخرافات والأوهام (فاصبر) أي على أذاهم (إن وعد الله) أي بنصرك عليهم والانتقام منهم (حق) لا ريب فيه (ولا يستخفنك الذين لا يوقنون) أي ولا يحملنك على الخفة والاضطراب والقلق النفسي بعباراتهم وجساراتهم (الذين لا يوقنون) ولا اكتسبوا الإيقان والإيمان بالشريعة السماوية التي نزلت عليك من القرآن المبين •

سورة لقمان ، مكية ، وهي أربع وثلاثون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(الم(١) تلك آيات الكتاب الحكيم(٢) هدى ورحمة
للمحسنين(٣) الذين يقيمون الصلوة ويؤتون الزكوة ،
وهم بالآخرة هم يوقنون(٤) أولئك على هدى من ربهم
وأولئك هم المفلحون(٥) ومن الناس من يشتري لهو
الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ، ويتخذها هزوا
أولئك لهم عذاب مهين(٦) وإذا تتلى عليه آياتنا ولى
مستكبرا كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقرا ، فبشره
بعذاب أليم(٧) إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم
جنات النعيم(٨) خالدين فيها ، وعد الله حقا ، وهو العزيز
الحكيم(٩) خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى في
الأرض رواسي أن تميد بكم ، وبث فيها من كل دابة ،
وأنزلنا من السماء ماء ، فأنبتنا فيها من كل زوج
كريم(١٠) هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من
دونه ؟ بل الظالمون في ضلال مبين)(١١)

قوله تعالى (الـم) الكلام فيه كما في أمثاله (تلك آيات الكتاب الحكيم) أي تلك الآيات المشرفة على النزول آيات القرآن الموصوف بالحكمة في إنزاله مرة من اللوح إلى سماء الدنيا وتنزيله منها إلى رسوله محمد ــ عليه السلام ــ في مدة ثلاث وعشرين سنة ، ودلالته وتشريعاته للعقائد والأحكام ومقابلته لطبقات الناس بمقتضى الحال والمقام ، حالكون الكتاب (هدى ورحمة للمحسنين) أي هدى للمهتدين ورحمة للداخلين في الدين العاملين الحسنات بقوة الإيمان والإخلاص لرب العالمين . ثم كشف عن المحسنين بقوله المتين (الذين يقيمون الصلوة) أي الفرائض في أوقاتها الخاصة بخشوع وتمكين (ويؤتون الزكاة) من أموالهم للمستحقين (وبالآخرة هم يوقنون) أي ومع أدائهم للواجب يوقنون بمجيء يوم القيامة ونيل الناس جزاءهم ثوابا أو عقابا (أولئك) الناس الموقنون بذلك (على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) أي الناجون من عذاب رب العالمين .

(ومن الناس من يشتري لهو الحديث) أي الحديث الذي يلهي الإنسان عما يعني كالأحاديث التي لا أصل لها ، وفضول الكلام ، والمضاحيك والتي تجذب الإنسان إلى ما لا تحمد عواقبه . وغايته من ذلك أن يضل الناس عن طريق الحق كما قال تعالى (ليضل عن سبيل الله) قالوا : نزلت في النضر بن الحرث اشترى كتب الأعاجم ، وكان يحدث بها قريشا ويقول : إن كان محمد يحدثكم بحديث عاد وثمود فأنا أحدثكم بحديث رستم وأسفنديار (ويتخذها هزوا) أي ليضل الناس عن سبيل الحق ويتخذ ذلك السبيل سخرية ومهزوءً به في المجتمع (أولئك) الناس (لهم عذاب مهين) لإهانتهم بالحق فيكون جزاؤه موافقا لعمله وقصده (وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا) استدبر مستكبرا عن الاستماع لها (كأن لم يسمعها ،

كأن في أذنيه وقرا) وهنا تشبيهان ففي الأول تشبه حاله في الاستكبار الموجب للإعراض عن الكلام الحق بحال من لم يقرع سمعه صوت ولو أراد سماعه ولم يستكبر كان يسمعه . وفي الثاني ترق إلى درجة أنه صار استكباره وعتوه موجبا لعاهة في أذنيه منعتهما عن وصول الصوت إليهما ، حتى أنه لو أراد أن يستمع ليسمع لم تكن فيه قابلية لذلك (فبشره بعذاب أليم) مؤلم جدا ، لأنه علاوة على استكباره عن أخذ طريق الحق يمنع الناس عن سلوكها .

ولما ذكر أولئك الناس المستحقين للعذاب الأليم ذكر مقابلهم وقال : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم) أي اختصت بهم على اقتضاء رحمته تعالى جنات" حاوية على النعيم الثابت أبدَ الآبدين . (وعدَ اللهِ حقّاً) أي وعد الله بذلك وعداً وأحقه حقا (وهو العزيز) الذي لا يقدر عليه أحد (الحكيم) الذي كل أفعاله مقرون بحكمة جلية أو خفية (خلق السماوات بغير عمد ترونها) أي ليس لها عمد ولو كان لها عمد لرأيتموها ، أو خلقها بعمد هي قوة لا ترى أودَعَها الله فيها تَحفظُ بها نفسها عن الاختلال في سكونها وحركات المتحرك منها بحيث تبقى على استمرارية الوضع (وألقى في الارض رواسي) أي جبالا عالية ثابتة (أن تميد بكم) أي كراهة أن تميد بكم وتميل وتنحرف إلى غير المحل المقرر والمدار المعين (وبث فيها) أي نشر فيها (من كل دابة) أي من كل زوج وصنف مما تعلق به إرادته ومشيئته من الحيوانات الماشية على القدمين أو الأقدام القليلة أو الكثيرة ، ومن الزحافات والحيوانات البحرية والطيور وغيرها مما لا تحصى . وفي كل دلالة على سعة علمه وقدرته وحكمته (هذا) المقدار المذكور (خلق الله) ومخلوقه الذي أخرجه من العدم إلى الوجود (فأروني) أي أعلموني (ماذا خلق الذين من دونه ؟) من الأصنام

المفتعلة (بل الظالمون) المشركون (في ضلال مبين) لا يستحسن أن يسأل عنهم ويستفهم .

(وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ، وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ(١٢) وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ : يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ، إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ(١٣) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ(١٤) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، فَلَا تُطِعْهُمَا ، وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ، وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ، ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(١٥) يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ(١٦) يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ ، وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ ، إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ(١٧) وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ، وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ(١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ، وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ ، إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ)(١٩)

قوله تعالى : (ولقد آتينا لقمان الحكمة) كلام مستأنف سيق لبيان بطلان الشرك وانه نهى عنه كل عاقل ذي حكمة . وفي حكاية هذه الجملة

عن لقمان إرشاد إلى أن حق الإنسان أن يأخذ الحكمة من أي شخص كان ، وأنها كالماء الزلال يشربه العطشان في أي ظرف كان . والحكمة علم بأحوال الموجودات من الأعيان والأعراض بقدر الطاقة البشرية ، فإن كان في تلك الأحوال اختيار للبشر فالعلم بها حكمة عملية كتهذيب الأخلاق وتدبير المنزل وسياسة المدن ، وإلا فالحكمة حكمة نظرية منها طبيعية كعلم الطب ، ورياضية كالفلكيات ، وإلهية كالعلم بالباري تعالى وصفاته ، وقد تفسر الحكمة بالقيام بالأمور على ما ينبغي علماً أو عملاً . وهذا المعنى هو المراد في الآية . ولقمان كان ابن أخت أيوب ـ عليه السلام ـ أو ابن خالته . (أن اشكر لله) أي اشكر لله ، فتكون أن مفسرة (ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه) لأن الشكر من أعظم الطاعات وثوابها عائد إلى أصحابها (ومن كفر فإن الله غني حميد) أي غني عن العالمين فلا يحصل بعدم شكره نقص في شأنه تعالى ولائق للحمد والشكر في حد ذاته بتجليات صفاته فمن حمده أو لم يحمده لا يزيد به ولا ينقص .

(وإذ قال لقمان لابنه) بيان لبعض جمل جميلة من حكمته الجليلة أي واذكر إذ قال لقمان لابنه تاران أو ماثان (وهو يعظه) أي والحال أنه يعظه موعظة الوالد الحنون لابنه العزيز (يا بني لا تشرك بالله) أي احداً (إن الشرك لظلم عظيم) لا يساويه ذنب آخر فإن الله واجب الوجود وأكبر الموجودات وأعظمها ، والإشراك به أعظم الخطايا وأشدها وأقساها ، فذلك ظلم عظيم لا يساويه ظلم آخر . وقوله تعالى (ووصينا الإنسان) كلام مستقل وجملة معترضة أثناء كلام لقمان وكأنه إشارة إلى أنه كلما وجهت العباد إلى توحيدي وعبادتي وجهتهم إلى إطاعة الوالدين وبرهما ولما لم يكن في موعظة لقمان ذلك أذكركم به وأقول ووصينا الإنسان (بوالديه) . أما الوالد فلأنه الأصل الأصيل لوجوده . وأما الوالدة فلما أقوله وهو أنه

(حملته أمه وهنا على وهن) أي ضعفا على ضعف أي في حال ضعف على ضعف . وليست التثنية مقصودة ، وإنما المراد تتابع الضعف فإنها تضعف في حمـ أولا ثم يزداد الضعف كلما ازداد وزنه في بطنها ، وتضعف في مخاض الولادة وتضعف في عسرها وربما تموت وتضعف في جريان الدم في النفاس وتضعف في حمله في حضنها وتربيته ، ولا سيما في سهرها عليه بالليالي وفي مرضه .

وكلما تأذى بأذى فهو في عينها قذى (وفصاله) أي فطامه (في عامين أي في انقضاء عامين . وظاهر الآية أن مدة الرضاع عامان . وعليه الإمـ الشافعي ، والإمام أحمد ، وأبو يوسف ، ومحمد وروي عن مالك ، وذهـ الإمام أبو حنيفة إلى أن مدة الرضاع ثلاثون شهرا (أن اشكر لي ولوالديك تفسير لقوله وصينا (إلي المصير) أي المرجع يوم القيامة وعندي ما تستحقونه من الثواب (وإن جاهداك) أي الوالدان أو أحدهما (على أن تشـرك بي ما ليس لك به علم) أي ما ليس لك علم باستحقاقه لشراكته معه بل لك عـ لو تفكرت بعدم استحقاقه لها (فلا تطعهما) إذ لا طاعة لمخلـوق في معصية الخالق (وصاحبهما في الدنيا معروفا) أي صحابا معروفا بأن تتأدب منهـ وتنفق عليهما ، وتتحمل أذاهما ، وتعاهد المريض منهما وما شاكل ذلك ... (واتبع سبيل من أناب إلي) أي رجع إلي بالتوحيد وإخلاص العمل (ثـ إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون) وبعد الإنباء أجازيكم حق الجزاء .

روي أن هذه الآية نزلت في سعد بن أبي وقاص قال : كنت رجـلا باراً بأمي ، فلما أسلمتُ قالت : يا سعد وما هذا الذي أراك قد أحدثت ؟ لَتَدَعَنَّ دينك هذا أولا آكل ولا أشرب حتى أموت فَتُعَيَّرَ بي فيقال : ياقاتل أمِّه ! قلت : لا تفعلي يا أمّه فإني لا أدع ديـني هـذا لشـيء . فمكثتْ يوماً وليلة لا تأكلْ ، فأصبحت قد جَهَدَت ، فَمكثت يوماً وليلة لا تأكل فأصبحت قد اشتد جهدها . فلما رأيت ذلك قلت يا أمه تعلمين والله

لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسا نفسا ماتركت ديني هذا لشيء فان شئت فكلي وإن شئت لا تأكلي ، فلما رأت ذلك أكَلَتْ فنزلت هذه الآية .

ثم رجع سبحانه وتعالى إلى بقية موعظة لقمان لابنه حيث قال (يا بني) تصغير ابن للترحم (إنها) أي الخصلة أو الفعلة الناشئة من المكلف (إن تك مثقال حبة من خردل) أي إن تكن مثلاً في الصغر كحبة الخردل (فتكن في صخرة) أي فتكن مع كونها صغيرة جدا في أخفى مكان وأحرزه كجوف الصخرة (أو) تكن (في) العالم العلوي كـ (السماوات ، أو في) العالم السفلي كـ (الأرض يأت بها الله) أي يعلمها الله تعالى ويبينها ويحسبها للمكلف أو عليه (إن الله لطيف) يصل علمه إلى كل شيء . (خبير . يابني أقم الصلاة) المفروضة عليك تكميلا لنفسك وإخراجاً لها من الظلمات إلى النور (وأمر بالمعروف) في الدين (وانه عن المنكر) فيه تكميلا لغيرك (واصبر على ما أصابك) من الأذى والبليات سواء كانت في مقابل الأمر والنهي أو من القضاء الإلهي في الأبواب المنتظرة أو غيرها كالمرض والوفيات والفقر والذل وما شاكل ذلك (إن ذلك) أي الصبر على المصائب (من عزم الأمور) أي من معزومات الأمور ، أي من الأمور التي قطعها وقررها الله ، وجعلها مركز دائرة الأعمال والأخلاق الحسنة (ولا تصعر خدك للناس) أي لا تُمِلْه عنهم ولا تُولِهِمْ صفحة وجهك على عادة المتكبرين (ولا تمش في الأرض مرحا) أي لا تمش في الأرض التي هي أحطّ الأماكن منزلة بطراً وفرحا ؛ فانك تدفن فيها وتتمزق فيها (إن الله لا يحب كل مختال فخور) أي كل متبختر في المشي فخور على غيره (واقصد في مشيك) واعتدل فيه لا مسرعا متعجلا ولا متباطئا متكاسلا (واغضض من صوتك) أي وانقص بعض صوتك وحطّ من درجته (إن أنكر الأصوات) الناشئة من الإنسان والحيوان (لصوت الحمير) لجهارة زفيرها وشهيقها ، والإنسان إذا رفع

صوته وخرج من العادة الحسنة يشبه صوته صوتها • وأنكر أفعل التفضيل المصوغ من المجهول على خلاف القياس • والحمير جمع حمار • وكفى بهذا التشبيه تقبيحا للأصوات الإنسانية المرفوعة الخارجة عن العادة •

(أَلَمْ تَرَوا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّمواتِ وَما فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وَباطِنَةً ؟ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتابٍ مُنِيرٍ(٢٠) وَإِذا قِيلَ لَهُمُ : اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللهُ قالُوا : بَلْ نَتَّبِعُ ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا ، أَوَ لَوْ كانَ الشَّيْطانُ يَدْعُوهُمْ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ(٢١) وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ وهو مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى ، وَإِلَى اللهِ عاقِبَةُ الأُمُورِ(٢٢) وَمَنْ كَفَرَ فَلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ ، إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ(٢٣) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلى عَذابٍ غَلِيظٍ)(٢٤)

قوله تعالى : (أَلَم تَروا أنّ الله سَخر لكم ما في السموات وما في الأرض) رجوع إلى سنة التنزيل وإلقاء الوحي الجليل بدعوة الناس من الأحرار والعبيد إلى الاعتراف بوجود الواجب ، والتزام التوحيد ببيان قدرته وآثارها ، وذكر إفاضة النعم وإظهارها • فيقول ألم تروا يا من تمكن لهم الرؤية ان الله تعالى سخر لكم (ما في السموات) من الشمس والقمر وسائر الكواكب الثابتة والسيارة المشعة والمشتعلة التي تكون وسيلة لمنافع معلومة (وما في الأرض) من المعادن والنبات والأشجار والأنهار والجبال

الراسية ذوات المنابع والعيون والأوراد والأزهار (وأسبغ عليكم نعمه) أي أتم وأوسع عليكم نعمه التي لا تحصى ظاهرة محسوسة وباطنة معقولة ، ومن أهمها حسن الصورة والسيرة، وإعانة الإنسان بالعقول المتفكرة الجساسة، والمشاعر والحواس الحساسة ، والمشي على الرجلين والبطش باليدين إلى غير ذلك ...

(ومن الناس من يجادل في الله) أي في وجوده وتوحيده (بغير علم) مستفاد مكتسب من الاستدلال (ولا هدى) مأخوذ من رسول ذي الجلال (ولا كتاب منير) للقلوب نازل من الله سبحانه وتعالى أي ذي نور في ذاته واضح معقول (وإذا قيل لهم) أي لأولئك الناس (اتبعوا ما أنزل الله) من توحيده تعالى وسلوك شريعته (قالوا : بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا) من عبادة ما يعبدونه من دون الله (أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير) أي أو لو كان آباؤهم يدعونهم إلى اتباع الشيطان وهو يدعوهم إلى عذاب السعير (ومن يسلم وجهه إلى الله) بأن يفوض إليه تعالى جميع أموره (وهو محسن) أي وهو يعبد ربه بحيث لا يوجد في عبادته شوب الرياء (فقد استمسك) ذلك الإنسان بالعروة الوثقى أي فقد تمسك بأوثق عروة يتمسك بها وهو القرآن الكريم الذي جاء به من الله تعالى رسوله الموصوف بالخلق العظيم المعروف بأنه رءوف رحيم . (وإلى الله عاقبة الأمور) أي أن الأقوال والأفعال الصادرة من المكلف راجعة إلى الله سبحانه وهو الذي يقبل منها ما يقبل ، ويرد منها مايرد وهو الذي يجازي عليها بالثواب والعقاب (ومَن كفر فلا يحزنك كفره) أي فلا يهمنك ذلك كل يعمل على شاكلته ولاتزر وازرة وزر أخرى (إلينا مرجعهم) رجوعهم (فننبئهم بما عملوا) أي بعملهم أو بالذي عملوه أو بجزائه (إن الله عليم بذات الصدور) أي بما يختلج فيها من كل دقيقة (نمتعهم قليلا) أي تمتيعا

قليلا في مدة محدودة (ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ) ثقيل لا يتحمل عادة إلا بالتحميل الاضطراري .

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ : مَنْ خَلَقَ السَّمواتِ والأَرْضَ ؟ لَيَقُولُنَّ اللهُ . قُلِ الْحَمْدُ للهِ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ(٢٥) للهِ ما في السَّمواتِ والأَرْضِ إِنَّ اللهَ هُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ(٢٦) وَلَوْ أَنَّ مافِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ ، مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ... ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللهِ ، إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٢٧) ما خَلْقُكُمْ ولا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ واحِدَةٍ ، إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ(٢٨) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ ، وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وسَخَّرَ الشَّمْسَ والْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إلى أجَلٍ مُسَمًّى ، وَأَنَّ الله بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(٢٩) ذلِك بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ ، وَأَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الباطِلُ ،وأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الكَبِيرُ)(٣٠)

قوله تعالى : (ولئن سألتهم : من خلق السموات والارض ؟ ليقولن : الله) أي ليقولن : خلقهن الله . (قل : الحمد لله) أي على أنهم اعترفوا بهذا الحق وألزموه وألجئوا إليه (بل أكثرهم لا يعلمون) أي لا يعلمون أن التزامهم ذلك يوجب عليهم أن لا يشركوا به . يعني أن اعترافهم بأن الله خالق السماوات والارض لو كان اعتراف إنسان عارف بالأمور لاقتضى أن لا يشركوا به شيئا ولكنهم جاهلون بالحقائق يعلمون بعضا منها علماً ساذجا تقليديا ، ولو كان علما عن نظر واستدلال لامتنعوا عن الإشراك به تعالى .

(لله ما في السموات والأرض) خلقا وملكا وتصرفا ، ومع ذلك (إن الله هو الغني) عن كل ما سِواه وحميد" ومستحق للحمد في كل ما سو"اه .

(ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام) يكتب بها (والبحر) أي البحر المحيط لتبادره (يمدّه) أي يكون مدادا وحبرا للكتابة بها (من بعده سبعة أبحر) إذا نفد البحر المحيط نابت عنه في الكتابة بها (ما نفدت كلمات الله) لكون هذه الأقلام والمدادات محدودة متناهية وكلمات الله ومعلوماته الأزلية الأبدية لا متناهية (إن الله عزيز) غالب على كل شيء (حكيم) لا يخرج عن حكمته شيىء (ما خلقكم) أيها الناس أو أيها المشركون من العدم وإخراجكم إلى الوجود (ولابعثكم) للنشور وأخذ الأجور (إلا كنفس واحدة) أي إلا كخلق وبعث نفس واحدة ، لأنه إذا أراد شيئا فإنما يقول له كن فيكون (إنه سميع) لأقاويل الناس (بصير) بأعمالهم (ألم تر) يا من يتمكن من الرؤية بالبصر أو بالبصيرة (أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل) أي جعل زمانهما في الاعتدال على السواء ، وكلما انحرف المدار وبعد عن الاعتدال لحصل الزيادة والنقصان في الليل والنهار ، فإما تدخل حصة النهار في الليل فينقص النهار ويطول الليل ، أو العكس فبالعكس (وسخر الشمس والقمر كل يجري إلى أجل مسمى) محدود معين في علمه تعالى (وأن الله بما تعملون خبير ؟) أي ألم تر أنه بما تعملون خبير وتخصيص ذلك بالذكر لأنه هو مدار السعادة والشقاء .
(ذلك) المذكور المقرر ثابت (بأن الله هو الحق) الواجب الوجود لا غيره (وأن ما يدعون من دونه الباطل) أي غير الثابت ذاتا أو صفة (وأن الله هو العلي) العالي على كل ما يتصور (الكبير) المتعالي من أن يكون له شريك .

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ ؟ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣١) وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، فَلَمَّا نَجَّيْهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ، وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ)(٣٢)

قوله تعالى : (ألم تر أن الفلك تجري في البحر) بيان لبعض من نعم الله تعالى من نعمه التي لا تحصى وأن العباد قاصرون عن شكرها فيقول : ألم تر أننا ألهمنا عبادنا صنع السفن للمشي عليها في البحار للتجارة وكسب أسباب المعيشة ، وذلك (ليريكم من آياته) أي بعض آياته الدالة على شمول قدرته ، وذلك من سعة البحار وشدة أمواجها وهياجها ، وكثرة الحيوانات البحرية الهائجة والهادئة ؟ (إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور • وإذا غشيهم) أي أتاهم (موج كالظُّلَلِ) مثلَ ما أظل الناس من سحاب أو جبل (دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد) أي سالك للطريق المستقيم ومنهم منحرف (وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار) أي غدار (كفور) بالنعم •

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ ، وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً ، إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ، فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا ، وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ (٣٣) إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ، وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ

ماذَا تَكْسِبُ غَداً ، وما تَدْري نَفسٌ بِأيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)(٣٤)

قوله تعالى (يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما) نداء عام للناس يطلب إقبالهم عليه ليأخذوا تعاليمه القدسية ، فيقول : (اتقوا ربكم) أي احفظوا أنفسكم عن مخالفة أمر ربكم ، أي ونهي ربكم فإنّ التقوى الإيمان والإيمان سعادة الدارين • ثم يذكرهم ببعض مخاوفَ هامةٍ فيقولُ (واخشَوا يوماً) أي واخْشَوا عقابه في يوم (لا يجزي والدٌ عن وَلَدِهِ) أي لا يغني والد عن ولده ولا يُفيدُه شيئا (ولا مولودٌ هو جاز عن والده شيئا) أي واتقوا عذاب يوم لا مولود هو جازٍ عَنْ والِدِه شيئاً باقتضاء الرّحم يجزي عن والده شيئا في ذلك اليوم • فلفظ مولود عطف على والد وفاعل يجزي ، وقوله هو جاز عن والده شيئا جملة وقعت صفة للمولود ، والمنفي عنه محذوف وهو يجزي عن والده شيئا كما قدرناه (إن وعد الله) أي بالثواب والعقاب (حق) لا خلف فيه ، فمن واجب العاقل التقوى حتى ينال سعادة الدارين (فلا تغرنكم الحيوة الدنيا) بلذاتها ومغرياتها عن التقوى والطاعة (ولا يغرنكم بالله الغرور) أي الشيطان الذي يغر الناس بخداعه •

وقوله (إن الله عنده علم الساعة) الآية ••• نزل بعد أن جاء رجل إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقال له الوارث ، فقال : يا محمد متى قيام الساعة ؟ وقد أجدبت بلادنا فمتى تخصب ؟ وقد تركت امرأتي حبلى فما تلد ؟ وقد علمت ما كسبت اليوم فماذا أكسب غدا ؟ وقد علمت بأي أرض ولدت فبأي أرض أموت ؟ فنزلت هذه الآية أي إن الله تعالى عنده علم حلول الساعة وهي يوم القيامة ، وهذه من العلوم التي استأثر الله

بها لا يعلمها إلا هو ، وقد سئل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عنها فقال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل ، (وينزل الغيث) في وقته بلا تقديم ولا تأخير ، فتنزيله للغيث فعله ، وعنده علمه القطعي بالذات ، (ويعلم ما في الأرحام) بالذات ويدري أنه ذكر أم أنثى أم خنثى . فإنه هو الخالق له . والخالق عالم بالمخلوق (وما تدري نفس) بالذات (ماذا تكسب غدا) أي في الوقت المستقبل وإلا أن يعلمه ربه ، كنبي أعلمه به ربه (وما تدري نفس بأي أرض تموت) إلا إذا أعلمه الله بها (إنّ الله عليمٌ خبير) بهذه المغيبات وبغيرها .ومعنى الآية الكريمة أن الله سبحانه وتعالى عنده العلم بهذه الأشياء علما قطعيا لا شبهة فيه علما ذاتيا غير مكتسب وأما غيره تعالى فليس له علم بها بالذات فإن كان المعلوم مما استأثر الله به فلا يعلمه أحد إلا هو وإلا فيجوز أن يعلمه بإعلام الله تعالى أو بوسيلة سبب لذلك العلم كجهاز يكشف به الأمور البعيدة أو الأمور المغيبة . وأما ذاتا فلا يعلمه قطعا .

بسم الله الرحمن الرحيم

(الم(١) تَنْزِيلُ الكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ العالَمِينَ(٢) أمْ يَقُولُونَ افْتَرِيهُ ؟ بَلْ هُوَ الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتيهُمْ مِنْ نذيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ(٣) اللهُ الَّذي خَلَقَ السَّمواتِ وَالأَرض وما بَيْنَهُمَا في سِتَّةِ أَيَّامٍ ، ثُمَّ اسْتَوى عَلَى العَرْشِ ، مالَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ ولا شَفِيعٍ ، أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ ؟(٤) يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الأَرْضِ ، ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ(٥) ذلِكَ عالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهادَةِ العَزِيزُ الرَّحِيمُ(٦) الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ، وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسانِ مِنْ طِينٍ(٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ(٨) ثُمَّ سَوّيهُ ؛ وَنَفَخَ فيهِ مِنْ رُوحِهِ ، وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ ، وَالأَبْصارَ ، وَالأَفْئِدَةَ ، قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ)(٩)

قوله تعالى : (الم تنزيل الكتاب) الآية ... إن جعل الم اسما للسورة أو القرآن فمحله الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هذا الم ، وقوله تعالى

تنزيل الكتاب خبر بعد خبر وقوله لا ريب فيه خبر ثالث ، وقوله من رب العالمين خبر رابع . ويحتمل أن يكون الم مبتدأ ومابعده إخبارا له أي المسمى بالم الكتاب المنزل . ويحتمل أن يكون تنزيل الكتاب مبتدأ ومابعده خبراً له سواء بقي على ظاهره ، أي هذا التنزيل لا ريب فيه ، أو بعد اعتبار التنزيل صفة مضافة مؤولة باسم المفعول ، أي الكتاب المنزل لا ريب فيه ، وهو من رب العالمين لا علاقة فيه بمن سواه . (أم يقولون : افتريه ؟) أي أبل يقولون افتريه ؟ يعني اختلقه على الله وليس كلامه تعالى . (بل هو الحق من ربك) أي بل هو الكلام الحق لفظا ومعنى ونسبة ونزل من ربك (لتنذر قوما ما أتيهم من نذير من قبلك) وهم قريش ، فإن هذا القوم بل ومن قبلهم إلى عدنان لم يأتهم نذير من قبل مجيء الرسول محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ إليهم . وهذا مبني على أن دعوتي موسى وعيسى لم تكونا دعوة عامة لبني إسرائيل والعرب ، وهو كذلك وأما دعوة إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ ، وإن كانت شاملة لهم لكنهم وقعوا في زمن الفترة وانقطاع الوحي ، ولم ينذروا قبل زمان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما تشهد بذلك آيات عديدة (لعلهم يهتدون) بهذا الكتاب المبارك المنزل إليهم ، والمعنى راجيا الاهتداء لهم به . والترجي في كلام الباري مستعار لمعنى الإرادة أو المحبة .

(الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام، ثم استوى على العرش) بالمعنى الذي أراده سبحانه وتعالى أو استولى على العرش المحيط بالكل بلا منازع (مالكم من دونه من ولي ولا شفيع) أي مالكم إذا تجاوزتم عن الالتجاء إلى الله تعالى من ولي ناصر لكم ينصركم بالقوة ولا شفيع يترجى لكم من الله العفو والمغفرة إذا أشركتم به أو عصيتم أمره (أفلا تتذكرون ؟) أي أفلا تستمعون هذه الآيات كي تتذكروا بها في عاقبة أموركم (يدبر

الأمر) أي أمر العالم وشئونه (من السماء إلى الأرض) بالملك المأمور بذلك (ثم يعرج) أي الملك يصعد (إليه) أي إلى المحل الذي عينه الله تعالى (في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) لو كنتم أنتم تباشرون ذلك العروج • والحاصل أن الله سبحانه وتعالى يأمر الملك المأمور المخصوص بتدبير أمور الدنيا وشئونها من الأمطار والرياح والخصب والغلاء والسلم والبلاء وغير ذلك • فينزل مع ملك الأوامر إلى الأرض وبعد اكمالها يعرج إلى المحل الخاص المعين له في داخل يوم ووقت لو كنتم أنتم تباشرون العمل فيه لأخذ مدة ألف سنة وأما ذلك الملك فيجوز أن يقطع تلك المسافة في لحظة • وأمثال هذه الأمور موكولة إلى العليم الخبير وربطه المسببات بالأسباب ، وإلا فهو غني عن كل مباشر للأمور التي أرادها لأنه قال إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون (ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم) أي ذلك الخالق الموصوف بتلك الصفات السابقة عالم الغيب والشهادة أي العالم بكل ما غاب عنكم وماتشهدونه أنتم ، وإلا فلا غيب عند الله سبحانه العزيز الرحيم الغالب الذي لا يغالَبُ والرحيم بعباده فيما يطالب (الذي أحْسَنَ كل شيء خَلَقه) أي أحْسَنَ وأتْقن خلق كل شيء خلقه على حسب تعلق إرادته الأزلية بخلقه ليس في شيء من الصنع المتعلق بأي مصنوع فطور وقصور ، وإن كان بين أفراد المخلوقات وأصنافها وأنواعها تفاوت في النقص والكمال حسب الخطوط المرسومة ، وذلك لأن كمال الإنسان وفضله بالنسبة إلى الحيوانات والنبات والمعادن معلوم (وبدأ خلق الإنسان) المعهود وهو آدم ـ عليه السلام (من طين) كما خلقه بقدرته ونفخ فيه الروح من رحمته (ثم جعل نسله من سلالة من ماءٍ مَهين) أي من ماء النطفة وهو ماء لا يعتنى به (ثم سواه) أي النسل وصوره كما أراد (ونفخ

فيه من روحه) أي نفخ فيه نفخا كائنا من الملك المأمور بذلك ويسمى بالروح للطافته وأضيف إلى الله للتشريف •

ويفسر هذه الآية الشريفة قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما رواه ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ (إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح •••) الحديث • وفي فتح الباري : ومعنى إسناده لذلك أن يفعله بأمر الله • والمراد بإسناده إلى الله تعالى أن يقول له كن فيكون • ثم قال تعالى مخاطبا عباده على وجه الالتفات (وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة) وتقديم السمع لكثرة فوائده فإن أكثر أمور الدين لا تعلم إلا من جهته وأفرد لأنه في الأصل مصدر • وقيل : للإيماء إلى أن مدركه نوع واحد وهو الصوت ، بخلاف البصر فإنه يدرك الضوء واللون والشكل والحركة والسكون والاجتماع والافتراق (قليلا ما تشكرون) هذه النعم الكثيرة الجليلة • أي شكرا قليلا أو في زمان قليل تشكرونها •

(وَقَالُوا : أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ؟ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١٠) قُلْ : يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ، ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١١) وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ : رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢) وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ، وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣) فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ ، وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)(١٤)

قوله تعالى : (وقالوا : أئذا ضللنا في الأرض) روي أن القائل بهذا القول هو أُبَيّ بن خَلَف ، وإنما نسب القول إلى الجميع لرضاهم به . أي أئذا ضِعنا وصار الجسد من التراب الضائع في الأرض (أئنا) بعد ذلك (لفي خلق جديد ؟) ونشوء ثان مستوعب للقوة الحيوية ولوازمها (بل هم بلقاء ربهم كافرون) أي أعرض عن قولهم هذا إنهم كافرون بلقاء ربهم ، وكافرون بالله تعالى ، وينكرون وجوده في الواقع ، وإلا فلو كانوا مؤمنين به لعلموا أن الإحياء والبعث للحساب والجزاء من أسهل ما يكون (قل) لهم يا حبيبي أنتم تموتون ولا شبهة أنه (يتوفيكم) ويقبض أرواحكم (ملك الموت الذي وكل بكم) أي وكل بقبض أرواحكم (ثم إلى ربكم ترجعون) بالبعث والإحياء والإعادة كما كنتم وتحاسبون بين يدي الله رب العالمين .

ثم يستعرض الباري تعالى أحوالهم يوم القيامة فيقول : (ولو ترى) يا حبيبي (إذ المجرمون) وهم الذين أنكروا البعث (ناكسوا رءوسهم عند ربهم) أي مطرقو الرءوس لا يرفعونها من الخزي والخجل قائلين : (ربنا أبصرنا وسمِعنا) أي تحولنا إلى أناس مبصرين وسامعين بعد أن كنا عمياً في الدنيا عن إبصار الأدلة ، وصما عن استماع الآيات البينات والمواعظ الحسنة ، (فارجعنا) إلى الدنيا (نعمل صالحا) حسب اقتضاء الآيات (إنا موقنون) أي مؤمنون يقينا بالله ورسوله وكتابه المنزل ، ولم تبق لنا شبهة فيها .

وقوله تعالى (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها) مقدر بقول في جواب الذين قالوا ربنا أبصرنا وسمعنا ، أي ونقول لهم في جواب كلامهم (لو شئنا لآتينا كل نفس هداها) في الدنيا وكان الناس كلهم مهتدين قسراً واجباراً ، (ولكن) أحبْبنا أن نعرض الناس للتكليف فيها حتى يتبين المكلف المطيع والمسيء باختياره ،وكنتم من القسم الأخير وكفرتم بي وبرسولي

فـ (حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) من المعاندين منكم ومن سائر العاصين (فذوقوا) عذاب جهنم (بما نسيتم لقاء يومكم هذا ، وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون) والذوق الأول ذوق على سوء الاعتقاد ونسيان لقاء رب العباد . والثاني على المعصية وعمل الفساد .

(إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ(١٥) تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ(١٦) فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(١٧) أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً ؟ لا يَسْتَوُونَ(١٨) أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(١٩) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَيهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا ، وَقِيلَ لَهُمْ : ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ(٢٠) وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ(٢١) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ)(٢٢)

قوله تعالى (إنما يؤمن بآياتنا الّذين إذا ذكروا بها) جملة مستأنفة لحصر الهدى في غير المعاندين أعني العباد (الذين إذا ذكروا بها) أي وعظوا وأرشدوا بها (خَرُّوا سُجَّداً) من غير توقف وتردد (وسَبَّحُوا بحمد ربهم) أي ونزهوه تعالى عن النقائص حامدين له على نعمه الفائضة (وهم

لا يستكبرون) عن الإيمان والاعتراف باللسان والعمل بالأركان (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) حالكونهم ترتفع جنوبهم الملصقة بفراش الاستراحة عن مضاجعهم يتوضأون ويصلون و (يدعون ربهم) ويطلبون من ذي الجلال بالتضرع والابتهال (خوفا) من سخطه عليهم من سوء العقيدة والأعمال (وطمعا) في فيض رحمته الواردة في كل وقت وحال (ومما رزقناهم) من العلم والجاه والمال (ينفقون) على المستحقين لله المتعال (فلا تعلم نفس) أي أية نفس من النفوس (ما أخفي لهم) أي لأولئك الذين سبقت أوصافهم الحميدة (من قرة أعين) أي من درجات وجنات وهبات تقرّ بها أعينهم وذلك (جزاء بما كانوا يعملون) زائدا بدرجات على مايستحقون •

(أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا ؟) أي أفمن كان مؤمنا موصوفا بتلك الحسنات ومستحقا لهذه الدرجات كمن كان فاسقا خارجا عن الإيمان والطاعات (لا يستوون) لا استواء ولا مماثلة بينهم بوجه من الوجوه وتفصيل الفرق فيما يلي (أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى) أي جنات هي مأويهم في الآخرة حالكونها (نُزُلاً) أعدت لهم (بما كانوا يعملون • وأما الذين فسقوا) أي كفروا وخرجوا عن إطاعة الباري تعالى (فمأويهم النار) المستعرة (كلما أرادوا أن يَخرجوا منها) أي من تلك النار (أُعيدوا فيها) جَبْراً استمراراً لعذابهم (وقيل لهم ذوقوا عذاب النارِ) العذابَ (الذي كنتم به تكذبون) في الدنيا بالاستمرار (ولنذيقنهم منَ العذاب الأدنى) في هذه الدنيا من القحط والمرض والبلاء (دون العذاب الأكبر) الذي سيلقونه في الآخرة على تقدير دوام عنادهم (لعلهم يرجعون) إلى الهدى والرشاد ، أو لعل من عاصرهم يتوب فإذا تابوا تابوا ، وإذا استمروا على العناد استحقوا العذاب لأنهم هم الظالمون (وَمَنْ أَظْلم ممن ذكر بآيات ربه) أي لا بآية واحدة من آياته (ثم

أعْرَضَ عنها ؟) بأسرها (إنّا من المجرمين) وهم المعرضون عن الآيات (منتقمون) .

(وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِن لِقائِهِ ، وَجَعَلْناهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرائيلَ(٢٣) وَجَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا لَمَّا صَبَرُوا وَكانُوا بِآياتِنا يُوقِنُونَ(٢٤) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ(٢٥) أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ ؟(٢٦) أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنّا نَسُوقُ الْماءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ ؟(٢٧) وَيَقُولُونَ : مَتى هذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ ؟(٢٨) قُلْ : يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمانُهُمْ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ(٢٩) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ)(٣٠)

قوله تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب) استئناف لبيان رسالة موسى ـ عليه السلام ـ وتوجيه الرسول إلى أنه كان صاحب كتاب سماوي مثلك ، ومع ذلك آذاه الإسرائيليون من وجوه كثيرة ، ولكنه مع ذلك لما صبر هو وأتباعه نجحوا وجعلنا منهم أئمة للهدى وقادة في الجهاد والإرشاد فيجب عليك وعلى خواص أصحابك أن تصبروا وتجاهدوا وترشدوا الناس ليكون النصر حليفكم وتحصل منهم سادة قاده وقد لبوا هذا التوجيه الوجيه فصبروا وجاهدوا وأرشدوا ونجحوا حتى اهتز العالم بهم فيقول سبحانه

وتعالى : (ولقد آتينا موسى الكتاب) أي التوراة (فلا تكن في مرية من لقائه) أي لقاء موسى ذلك الكتاب وتبليغه للإسرائيليين (وجعلناه) أي موسى أو كتابه (هدى لبني إسرائيل ، وجعلنا منهم) أي من بني إسرائيل (أئمة) للناس (يهدون بأمرنا) فإن كانت الأئمة بمعنى الأنبياء فمعناه يهدون الناس بوحينا ، وإن كانت خيار الأمة فمعناه يهدون الناس على حسب أمرنا علماء الدين وقدوة الأمة أن يهدوا ويرشدوا الناس إلى الحق • وقوله تعالى (لما صبروا) ظرف لقوله تعالى وجعلنا ، أي ولما صبرو او تحملوا الأذى جازيناهم بأن جعلناهم أئمة للأمة • ومعناه أن الدرجات العالية تكون من نصيب أهل الصبر وقوله (وكانوا بآياتنا يوقنون) عطف على قوله صبروا لإفادة أن الصبر وحده لا يكفي للنجاح إذا لم يكن مقرونا بالإيمان الثابت واليقين الراسخ ، وتلك سنة الله تعالى في خليقته فكل قوم صبروا في الجهاد وأيقنوا بآيات رب العباد نجحوا (إن ربك هو يفصل بينهم) أي بين أولئك الأئمة ومن خالفهم (يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) وكذلك يفصل بينك مع أصحابك وأمتك المجاهدين المخلصين وبين الناس الذين عاندوهم وآذوهم يوم حشر الأمة أجمعين •

ثم رجع الباري إلى توبيخ المشركين فقال : (أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون) حالكونهم (يمشون في مساكنهم ؟) أي في مساكن أولئك المهلكين في تجاراتهم • وكم في محل النصب مفعول أهلكنا والمعنى أغفلوا ولم يهدهم إلى الحق كثرة إهلاكنا للأمم السابقة المعاندة للرسل ــ عليهم السلام ــ كديار عاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة (إن في ذلك) البحث المذكور والوضع المشهور (لآيات) كثيرة للناس (أفلا يسمعون ؟) آياتي •

(أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز) أي التي لا نبات بها كأنه انقطع عنها أو انقطع عنها المطر . وهي صفة مشبهة ، وفيها أربع لغات : ضم الفاء والعين ، أو سكونها ، وفتح الفاء وسكون العين ، أو فتحها : (فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم) كالبقول والحبوب التي يقتاتها الإنسان (أفلا يبصرون ؟) في الحالتين أي حالة المحل وحالة البقل فمن الذي أنزل المطر عليها (ويقولون) على سبيل الاستهزاء : (متى هذا الفتح) أي الفصل للخصومة بيننا وبينكم (إن كنتم صادقين ؟) في أن الله يفصل بين المحقين والمبطلين (قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون) يعني لا تستعجلوا فإن الفتح لا شك في حلوله ، ولكن انظروا إلى ندمكم بلا فائدة عنده ، فإنه لا ينفع الذين كفروا إيمانهم إذ ذاك ولا هم ينظرون أي يمهلون لتأجيل العذاب . (فأعرض عنهم) أي عن هؤلاء المكذبين ولا تهتم بهم (وانتظر) وقت النصر لانصركم عليهم وأهلكهم (إنهم منتظرون) أي للغلبة عليكم أو إنهم منتظرون هلاكهم في الواقع ، وإن لم يؤمنوا بوقوعه في المستقبل .

وروى أحمد والدارمي والترمذي والنسائي والحاكم وصححه عن جابر قال : كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا ينام حتى يقرأ ألم تنزيل السجدة ، وتبارك الذي بيده الملك . وروى البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة قال : كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقرأ في الفجر يوم الجمعة (ألم تنزيل السجدة) و (هل أتى على الإنسان) .

سورة الاحزاب ، مدنية ، وهي ثلاث وسبعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(يا أَيُّها النَّبيُّ اتَّقِ اللهَ وَلا تُطِعِ الْكافِرينَ وَالْمُنافِقينَ ، إنَّ اللهَ كانَ عَليماً حَكيماً(١) واتَّبِعْ ما يُوحى إلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إنَّ اللهَ كانَ بِما تَعْلَمُونَ خَبيراً(٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ، وَكَفى بِاللهِ وَكيلاً(٣) ما جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ في جَوْفِهِ ، وَما جَعَلَ أَزْواجَكُمُ اللائي تُظاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهاتِكُمْ ، وما جَعَلَ أَدْعياءَكُمْ أَبْناءَكُمْ ذلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْواهِكُمْ واللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدي السَّبيلَ(٤) اُدْعُوهُمْ لآبائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ فَإنْ لَمْ تَعْلَمُوا آباءَهُمْ فَإخْوانُكُمْ في الدّينِ وَمَواليكُمْ ، وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ ، جُناحٌ فيما أَخْطَأْتُم بِهِ ولكِنْ ما تَعَمَّدتْ قُلُوبُكُمْ ، وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحيماً)(٥)

قوله تعالى : (يا أيها النبي اتق الله) افتتح الله تعالى هذه السورة بنداء حبيبه بوصفه الذي هو أرفع أوصافه • وأمره بالتقوى التي هي أقرب صلات العبد بمولاه تشريفا له وتكبيفا • أما الأول فلأن النبوة تنبىء عن رفعة الرتبة والمنزلة الثابتة عند الله • وأما الثاني فلأنه اشتملت هذه

السورة على أمور هامة نفسية وعائلية واجتماعية يحتاج الإنسان في الثبات عندها على تقوى راسخة وحالة نفس مطمئنة لا يتزلزل بشيء مما يرد عليه ، ولا يهتم بأمر من الأمور كيف كان ، ويجعل رضاء مولاه نصب عينه إلى لقائه • فيقول (يا أيها النبي اتق الله) في جميع الاحوال (ولا تطع الكافرين) في العقائد الفاسدة ، والأعمال الكاسدة ، واتباع الهوى والانحراف من الهدى (والمنافقين) المضمرين لكل سوء في كلامهم المعسول وعملهم المرذول (واتبع ما أنزل إليك من ربك إن الله كان) ولم يزل (عليما) بك وبغيرك و (حكيما) فيما يفعله بك وبغيرك • والمراد اثبت على ماأنت عليه ولا تهتم بهم فانهم لا قدر لهم عند ربك ، ولا يقدرون على الإضرار بك إلا ما شاء الله •

روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه نزلت عندما دعاه بعض أهل مكة أن يرجع عن قوله وعن دعوى التوحيد وخوفه المنافقون واليهود بالمدينة انه ان لم يرجع عما هو عليه قتلوه •

(واتبع ما يوحى إليك من ربك) في كل ما تفعل وتترك (إن الله كان بما تعملون خبيرا) فإذا أراد الأعداء بك مكيدة فإنه يحفظك عنها ، إنه كان لك نصيرا (وتوكل على الله) وفوض جميع أمورك إليه تعالى (وكفى بالله وكيلا) حافظا موكولا إليه الأمور (ماجعل الله لرجل من قلبين في جوفه) روي أنها نزلت في أبي معمر الفهري كان أهل مكة يقولون : له قلبان من قوة حفظه • وكانت العرب تزعم أن كل لبيب أريب له قلبان حقيقة ، وأبو معمر هذا اشتهر بين أهل مكة بذي القلبين • وروي أيضا أنها نزلت عندما كان المنافقون يقولون : إن له قلبا معكم وقلبا مع أصحابه (وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم) وهذه الجملة الجميلة إبطال لما كان في الجاهلية من إجراء أحكام الأمومة على المظاهر منها ، وكان الناس

في الجاهلية إذا قال زوج لزوجته : أنتِ عليَّ كظهر أمي ، والمعنى أنت محرمة عليّ لا أركب عليك كما لا أركب على ظهر أمي كناية بالظهر عن البطن ، وخصوا الظهر لأنهم يستقبحون ذكر الفرج .. حرمت الزوجة عليه ، فأبطلها الإسلام وقرر على من أتى بهذه العبارة أو بأمثالها وجوبَ كفارةٍ مِن : عتق رقبة ، أو صيامِ شهرين متتابعين ، أو إطعام ستين مسكينا إذا عَجزَ عن الصيام . والتفصيل في كتب الفقه .

(وما جعلَ أدعياءَكم أَبناءكم) إبطال لما تقرر في الجاهلية وصدر من الإسلام من أنه إذا تبنى الرجل ولد غيره أجريت أحكام البنوة عليه . وقد تبنى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قبل البعثة زيد بن حارثة . والأدعياء جمع دعي ، وهو الذي يُدْعى ابنا (ذلكم قولكم بأفواهكم) الإشارة متوجهة إلى الجمل الثلاث المذكورة . يعني أن وجود قلبين لإنسان واحد ، وصيرورة الزوجة أمّاً للمظاهر ، وكون الدعي ابنا للمتبنى .. قول يجري في العادة على اللسان ولا حقيقة له . ورأى بعض أنها إشارة إلى الجملة الأخيرة فقط بقرينة قوله تعالى (ادعوهم لآبائهم) والاقتصار عليه (والله يقول الحق) أي الأمر المحقق المطابق للواقع (وهو يهدي السبيل) أي يهدي الناس إلى طريقه (ادعوهم لآبائهم) أي انسبوا الأدعياء إلى آبائهم وخصوهم بهم (هو أقسط عند الله) أي تلك النسبة والاختصاص أعدل عند الله لأنها ليس فيها إلا رعاية العطف والمحبة وهذه النسبة فيها المحبة وموافقة الواقع (فإن لم تعلموا آباءهم)فتنسبوهم إليهم (فإخوانكم في الدين ومواليكم) أي وأولياؤكم في الدين فادعوهم بالأخوة والمولوية وقيل : معنى مواليكم عتقاؤكم وقيل بنو أعمامكم وذلك يكون تطييبا لقلوبهم وتحبيبا لهم (وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به) أي وليس عليكم جناح وإثم فيما فعلتموه من ذلك مخطئين جاهلين قبل النهي (ولكن

ماتعمدت قلوبكم) أي ولكن الإثم في ماتعمدتموه بعد النهي بأن تدعوهم باسم الأبناء على أصول التبني ، وأما إذا قال شخص لآخر يا ابني أو يا بني بالتصغير على معنى الشفقة أو التلمذة والتربية أو على سبيل التشبيه بالابن في رعاية حقوقه فلا بأس فيه قطعا . ومما ينبغي العلم به أنه إذا جعل التبني أمرا مقررا في الناس ففيه مخالفة صريحة للنهي فيكون حراما من الكبائر ، وفيه أضرار كثيرة من حيث الدين لأنه يجعل الأجنبي بمنزلة المحرم بين أفراد العائلة من البنات والزوجات والأخوات ، فينظر إليهن وينظرن إليه ، ويجعل غير الوارث وارثا ، وربما يحجب الورثة كما إذا كان للرجل المتبني إخوة أو بنو إخوة أو أعمام أو بنو أعمام . علاوة على بعض أضرار أخرى كدناءة الطبع أو مرض موروث عند الولد المتبني إلى غير ذلك من المفاسد فليحذر (وكان الله غفورا) لما فرط منكم سابقا (رحيما) بهم في غفران ذنوبهم .

(النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وأولوا الأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ مِنَ المُؤْمِنِينَ وَالمُهاجِرِينَ ، إِلاَّ أَنْ تَفْعَلُوا إِلى أَوْلِيائِكُمْ مَعْرُوفاً ، كانَ ذلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً(٦) وإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ ، وَمِنْكَ ، وَمِنْ نُوحٍ ، وَإِبْرَهِيمَ ، ومُوسى ، وعيسى ابْنِ مَرْيَمَ ، وأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً(٧) لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً أَلِيماً)(٨)

قوله تعالى : (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) روي أنه ــ عليه الصلاة والسلام ــ أراد غزوة تبوك فأمر الناس بالخروج فقال أناس منهم :

نستأذن آباءنا وأمهاتنا فنزلت • يعني إن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أولى بالمؤمنين من أنفسهم في الأمور كلها فإنه لا يأمرهم ولا ينهاهم إلا بما فيه الخير والحكمة ، بخلاف النفس فإنها أمارة بالسوء • وعلى تقدير سكونها واطمئنانها فإنها جاهلة بالحقائق والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يأتيه الوحي فيجب عليهم أن يكون أحب إليهم من أنفسهم • أي فلا مجال للتوقف والتردد قطعا في فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه • وقرىء (وهو أب لهم) أي في الدين ، فإن كل نبي أب لأمته (وأزواجه أمهاتهم) أي منزلات منزلتهن في تحريم النكاح واستحقاق التعظيم والاحترام وفيما عدا ذلك كالنظر والخلوة وغيرها كالأجنبيات (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض) أي في التوارث • وهذه ناسخة لما كان في صدر الإسلام من التوارث بالهجرة والموالاة في الدين • وقوله : (في كتاب الله) أي في ما أنزل وهو هذه الآية أو آية المواريث والمفضل عليه (من المؤمنين والمهاجرين) أي من المؤمنين بحق الدين ومن المهاجرين بحق الهجرة ، أي فالميراث بعد نزول الآية للأقارب حسب الأصول المقررة لا للمؤمنين والمهاجرين الأجانب • وقوله تعالى (إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا) استثناء من أعم ما يقدر الأولوية فيه من النفع ، والمراد بالمعروف الوصية • ومعنى الكلام وأولو الأرحام أولى من الأجنبي من المؤمنين والمهاجرين في كل نفع من صدقة وهدية وميراث ، إلا في الوصية ، فالأجنبي أحق بها من القريب الوارث ، فإنها لا تصح لوارث (كان ذلك) المذكور من الأحكام (في الكتاب) أي اللوح المحفوظ أو القرآن (مسطورا) •

(وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم) أي واذكر وقت أخذنا من النبيين كافة عهودهم بتبليغ الرسالة والصبر على أذى الأعداء ، ونصرة بعضهم لبعض ، وإعلان التوحيد (ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن

مريم) وتخصيصهم بالذكر مع اندراجهم في النبيين لإظهار شرفهم على من سواهم لكونهم من أولي العزم • وأكد أخذ الميثاق بقوله (وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) عظيم الشأن قويا وأخذ ذلك الميثاق في وقته (ليسئل الصادقين عن صدقهم) أي يوم القيامة (وأعد للكافرين عذابا أليما) أعاذنا الله منه •

(يا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ : إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلنا عَلَيْهِمْ رِيحاً وجُنُوداً لَمْ تَرَوْها ، وَكانَ اللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً(٩) إِذ جاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ ومِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ، وَإِذْ زاغَتِ الأَبْصارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الحَناجِرَ ، وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونا(١٠) هُنالِكَ ابْتُلِيَ المُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزالاً شَدِيداً(١١) وإِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ : ما وَعَدَنا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُروراً(١٢) وَإِذ قالَتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ : يا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ، وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ : إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ ، وما هِيَ بِعَوْرَةٍ ، إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِراراً(١٣) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطارِها ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لأَتَوْها ، وَما تَلَبَّثُوا بِها إِلاَّ يَسِيراً(١٤) وَلَقَدْ كانُوا عاهَدُوا اللهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الأَدْبارَ ، وَكانَ عَهْدُ اللهِ مَسْئُولاً(١٥) قُلْ : لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ المَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ ، وَإِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً(١٦) قُلْ : مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللهِ إِنْ أَرادَ

بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرادَ بِكُمْ رَحْمَةً ، وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً(١٧) قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقائِلِينَ لِإِخْوانِهِمْ : هَلُمَّ إِلَيْنا ولا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً(١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذا جاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ ، كَالَّذِي يُغْشى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ، فَإِذا ذَهَبَ الخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمالَهُمْ ، وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً(١٩) يَحْسَبُونَ الْأَحْزابَ لَمْ يَذْهَبُوا ، وإِنْ يَأْتِ الْأَحْزابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بادُونَ فِي الْأَعْرابِ يَسْئَلُونَ عَنْ أَنْبائِكُمْ ، وَلَوْ كانُوا فِيكُمْ ما قاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلا)(٢٠)

قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم) شروع في قصة الأحزاب • وهي واقعة الخندق ، ووقعت في شوال سنة خمس من الهجرة • أي اذكروا نعمته عليكم وتوفيقه • (إذ جاءتكم جنود) والمراد بالجنود الأحزاب ، وهم قريش ويقودهم أبو سفيان ، وبنو أسد ويقودهم طليحة ، وغطفان ويقودهم عُيَينة ، وبنو عامر ويقودهم عامر بن الطفيل ، وبنو سليم ويقودهم أبو الأعور السلمي، وبنو النضير ورؤساؤهم حُيَي بن أخطب وأبناء أبي الحقيق ، وبنو قريظة سيدهم كعب بن أسد ، وكان بينهم وبين رسول الله عهد ونبذه بسعْي حيي ، وكان مجموعهم عشرة آلاف ، وفي قول خمسة عشر ، وقيل : اثنا عشر ألفا • فلما سمع رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بإقبالهم حفر خندقا قريبا من المدينة المنورة محيطا بها بإشارة

سلمان الفارسي أعطى كل أربعين ذراعا لعشرة • ثم خرج ـ عليه الصلاة والسلام في ثلاثة آلاف من المسلمين فضرب معسكره والخندق بينه وبين القوم ، وأمر بالذراري والنساء فدفعوا في الآطام ، واشتد الخوف وظن المؤمنون كل ظن ، ونجم النفاق كما قص الله تعالى • ومضى قريب من شهر على الفريقين لا حرب بينهم سوى الرمي بالنبال والحجارة من وراء الخندق إلا أن فوارس من قريش منهم عمرو بن عبد ود ، وكان يعد بألف فارس ؛ وعكرمة ابن أبي جهل ، وضرار بن الخطاب ، وهبيرة ابن أبي وهب ، ونوفل ابن عبدالله قد ركبوا خيولهم وتيمموا من الخندق مكانا ضيقا فضربوا بخيولهم فاقتحموا فجالت بهم في السبخة بين الخندق والسلع • فخرج علي ابن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ في نفر من المسلمين ـ رضي الله عنهم ـ حتى أخذ عليهم الثغرة التي اقتحموها ، فأقبلت الفرسان منهم وقتل علي ـ كرم الله وجهه ـ عمرا في قصة مشهورة ، فانهزمت خيله حتى اقتحمت من الخندق هاربة ، وقتل مع عمرو منبه بن عثمان بن عبدالدار ، ونوفل بن عبدالعزى ، وقيل : وجد نوفل في جوف الخندق فجعل المسلمون يرمونه بالحجارة فقال لهم : قتلة أجمل من هذه : ينزل بعضكم أقاتله فقتله الزبير بن العوّام • وذكر ابن إسحاق أن عليا ـ كرم الله وجهه ـ طعنه في ترقوته حتى أخرجها من مراقه فمات في الخندق ، وبعث المشركون إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يشترون جيفته بعشرة آلاف فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « هو لكم ، لا نأكل ثمن الموتى » ثم أنزل الله النصر وذلك قوله تعالى (فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لّم تروْها) وهم الملائكة ـ عليهم السلام ـ ، وكانوا على ما قيل ألفا • روي أن الله تعالى بعث عليهم صبا باردة في ليلة باردة فأخصرتهم وسفت التراب في وجوههم ، وأمر الملائكة ـ عليهم السلام ـ فقلعت الأوتاد ، وقطعت الأطناب ، وأطفأت

النيران ، وأكفأت القدور ، وماجت الخيل بعضها في بعض ، وقذف في قلوبهم الرعب ، وكبرت الملائكة في جوانب عسكرهم ، فقال طليحة ابن خويلد الاسدي : أما محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد بدأكم بالسحر فالنجاء النجاءَ فانهزموا (وكان الله بما تعملون بصيرا) أي بصيرا بما فعلتم من حفر الخندق وترتيب مبادىء الحرب إعلاء لكلمة الله تعالى ، ولذلك فعل ما فعل من نصركم عليهم • وقوله تعالى (إذ جاءوكم) بدل من إذ جاءتكم أي اذكروا نعمة الله عليكم بالنصر والمدد إذ جاءوكم أي الأعداء (من فوقكم) اي من أعلى الوادي من جهة المشرق (ومن أسفل منكم) أي من أسفل الوادي من جهة المغرب • والجائي من ذلك قريش ومن تابعهم من الأحابيش وبني كنانة وأهل تهامة • وقيل الجائي من فوق بنو قريظة ومن أسفل قريش وأسد وغفطان وبنو سليم وقيل غير ذلك • ويحتمل أن يراد من ذكر الجهتين الإحاطة من جميع الجوانب (وإذ زاغت الأبصار) أي مالت عن عادتها فشخصت (وبلغت القلوب الحناجرَ)أي تزلزلت واضطربت حتى كنت تظن أن القلب وصلت إليها وإلا فالقلبُ لا يتحرك لاسيما نحو الصعود (وتظنون بالله الظنونا) فيظن المنافقون أنه يُدَمّرهم ولا يفلتُ منهم أحد ، ويظن بعض المخلصين أن الله يبتليهم للإمتحان ، وبعض آخر أن الله ينصرهم نصرا عزيزا (هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا) أي اضطربوا اضطرابا شديدا •

وقوله (وإذ يقول) معطوف على إذ زاغت وصيغة المضارع لاستحضار الصورة أي وإذ يقول (المنافقون والذين في قلوبهم مرض) وضعف من وساوس المنافقين وإلقائها في قلوبهم (ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا) أي وعد غرور أو قولا باطلا (وإذ قالت طائفة منهم) هم عبدالله بن أبي بن سلول ومن معه ، وقيل غيرهم (يا أهل يثرب) اسم للمدينة المنورة ، أو اسم بقعة

وقعت المدينة في ناحية منها ، واستعمل قبل الهجرة وكره استعماله بعدها لدلالته على التثريب واللوم • (لا مقام لكم) أي لا تمكن الإقامة لكم عند الخندق في مقابلة الأحزاب (فارجعوا) أي إلى منازلكم بالمدينة هي أحصن لكم وأستر ، ومرادهم من ذلك القول أمرهم بالفرار (ويستأذن فريق منهم النبي) ـ صلى الله عليه وسلم ـ روي أنهم بنو حارثة بن الحرث قيل أرسلوا أوس بن قيظي وهو منهم للاستئذان (يقولون : إن بيوتنا عورة) أي ذليلة الحيطان يصعد منها السراق بسهولة (وما هي بعورة) كما يقولون (إن) نافية أي ما (يريدون) بقولهم هذا واستئذانهم (إلا فرارا) من الحرب مع الأحزاب (ولو دخلت) أي البيوت او المدينة والفاعل محذوف ، أي ولو دخل الداخل وهو العدو (عليهم من أقطارها) أي من جوانبها (ثم سئلوا الفتنة) أي الردة أو مقاتلة المسلمين (لأتوها) أي لأعطوها أي قبلوها (وما تلبثوا بها إلا يسيرا) أي وما توقفوا من إجابتهم إلا زمانا قليلا •

(ولقد كانوا) أي اولئك المستأذنون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ للخروج (عاهدوا الله من قبل) أي قبل يوم الخندق (لا يولون الأدبار) وتولية الأدبار كناية عن الفرار والانهزام (وكان عهد الله مسئولا) عن الوفاء به ويجازي على إخلافه بلا عذر مشروع (قل : لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل) أي لن ينفعكم ذلك ولن يدفع عنكم ماأبرم في الأزل (واذا لا تمتعون الا قليلا) اي ولو فرضنا جدلا انه ينفعكم بان رفع عنكم ما أبرم ومنعتم فلم يكن ذلك التمتيع إلا تمتيعا قليلا فيما بقي من العمر المفروض بقاؤه • (قل من ذا الذي يعصمكم من الله) أي يحفظكم من عذاب الله ونقمته (إن أراد بكم سوء) وقوله (أو أراد بكم) على تقدير أو يمنع الخير منكم إن (أراد بكم رحمة) ويجوز الاكتفاء بما في العصمة من معنى المنع • والخلاصة أن ما قدره الله تعالى لا مغير له ، (ولا يجدون) أي أولئك

المستأذنون (وليا) ينفعهم (ولا نصيرا) يدفع الضرر عنهم (قد يعلم الله المعوقين منكم) أي الناس المثبطين للناس عن رسول الله (والقائلين لإخوانهم هلم إلينا) أي ويعلم الناس القائلين لإخوانهم هلم إلينا أي أقبلوا إلينا حتى تسلموا من القتل والجروح (ولا يأتون البأس إلا قليلا) اي وهؤلاء لا يأتون الحرب إلا قليلا من الزمان (أشحة عليكم) أي حالكونهم بخلاء بالإنفاق عليكم (فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم) أي أحداق عيونهم من الاضطراب وشدة الخوف (كالذي يغشى عليه من الموت) أي كدوران عين الذي يغشى عليه من الموت أي من معالجة سكراته (فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد) أي وإذا جاء وقت الأمن آذوكم بكلام خشن بألسنة حداد أشحة على الخير أي بخلاء حريصين على مال الغنائم أو على أموالهم التي ينفقونها ، وقيل بخلاء بأن يتكلموا بكلام فيه خير (أولئك لم يؤمنوا) أي أولئك الناس الموصوفون بهذه الصفات الذميمة لم يستقر الإيمان في قلوبهم (فأحبط الله أعمالهم) وأسقطها عن درجة الاعتبار (وكان ذلك) أي ذلك الإحباط (على الله يسيرا • يحسبون الأحزاب لم يذهبوا) أي هم في حالة من الجزع والخوف بحيث بعد أن هدم الله الأحزاب يظنون أنهم لم يذهبوا (وإن يأت الأحزاب) أي كرة ثانية (يودوا لو أنهم بادون في الأعراب) تمنوا أنهم خارجون إلى البدو وساكنون مع الأعراب (يسألون عن أنبائكم) أي لا يعرفون أخباركم إلا إذا سألوا عن القادمين من المدينة (ولو كانوا فيكم ماقاتلوا إلا قليلا) وذلك رياء أو خوفا من سوء السمعة وأناس هذا حالهم ليس فيهم خير بكل حال •

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً(٢١) ولمّا رأى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا : هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ

وصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُه ، وَمازَادَهُمْ إلاّ إيمَاناً وَتَسْليماً(٢٢) مِنَ المُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ ، وَما بَدَّلُوا تَبْدِيلاً(٢٣) لِيَجْزِيَ اللهُ الصّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ، وَيُعَذِّبَ المُنافِقِينَ ، إنْ شاء ، أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ، إنَّ اللهَ كانَ غَفُوراً رحيماً(٢٤) وَرَدَّ الله الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنالُوا خَيْراً ، وَكَفى اللهُ المُؤْمِنِينَ القِتالَ ، وَكانَ اللهُ قَوِيّاً عَزِيزاً(٢٥) وأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ ، وَقَذَفَ فِي قُلوبِهِمُ الرُّعْبَ : فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وتَأْسِرُونَ فَرِيقاً(٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيارَهُمْ وأمْوالَهُمْ ، وَأَرْضاً لَمْ تَطَؤُها ، وكانَ اللهُ عَلى كُلِّ شيْءٍ قَدِيراً)(٢٧)

قوله تعالى : (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) الأسوة الخصلة والصفة والمراد بها الثبات والصبر على مقاساة الشدائد ، والمخاطب عبارة عن المؤمنين المخلصين الذين ظهر في قوله تعالى (يسألون عن أنبائكم) أي لا شك أنه كان وحصل وظهر لكم في شخص رسول الله خصلة حسنة من أعظم خصال الإنسان وهي الثبات والصبر ، وهذا (لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ؛ وذكر الله كثيرا) أي هذه الخصلة لا تكون صفة إلا لنفس من كان يؤمن بالله ويرجو منه الخير والعفو والستر ، ويرجو جزاء اليوم الآخر أي الثواب فيه • (و) علاوة على ذينك (ذكر الله كثيرا) حتى تنور قلبه • ويحتمل أن تكون الأسوة بمعنى المؤنس به والمقتدى ، وكينونته في رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنما يكون على رعاية صفة التجريد ، وهو أن

ينزع من شخص ذي صفة شخص آخر مثله فيها مبالغة في اتصافه بذلك الوصف ، نحو لقيت من زيد أسدا ، ويكون بكلمة في نحو لهم فيها جنات النعيم ، وبمن كهذا المثال والآية كالمثال الأول . وقد تحققت تلك الصفة الحميدة في المؤمنين المخلصين كما يظهر من قوله تعالى (ولما رأى المؤمنون) أي المخلصون الكاملون في الإيمان (الأحزاب) الواردين على أطراف المدينة المنورة (قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله) أي هذا الإبتلاء بهذا الجيش العظيم هو الذي وعدنا الله تعالى به في قوله (أحسب الناس ان يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ؟) وفي قوله : (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ؟) وكذا وعدَ به رسوله في إرشاداته ومواعظه بأنكم تبتلون بالمحن على ضوء الآيات الواردة الدالة على ذلك الموضوع . وروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لأصحابه : « إن الأحزاب سائرون إليكم تسعا أو عشرا » أي في آخر تسع ليال أو عشر ليال من وقت الإخبار ، أو من غرة الشهر ؛ فلما رأوهم قد أقبلوا للميعاد قالوا ذلك فمرادهم بذلك ما وعد بهذا الخبر وتعقبه ابن حجر بأنه لم يوجد في كتب الحديث (وما زادهم إلا إيمانا وتسليما) أي إيمانا بصدق ما وعد الله به ورسوله . وتسليمهم لذلك . (من المؤمنين) أي المخلصين الذين ذكرت صفاتهم (رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه) أي صدقوا في ذلك وثبتوا مع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثباتا حائزا للقبول . وفي المراد بأولئك الرجال أقوال :

الاول : إنهم أنس بن نضر وسائر الشهداء في واقعة أحد . ويقال إن فيهم نزلت (من المؤمنين رجال صدقوا) ... الآية .

الثاني : إنهم عثمان بن عفان ، وطلحة ابن عبيدالله ، وسعيد بن زيد ، وعمرو بن نفيل ، وحمزة ابن عبدالمطلب ، ومصعب ابن عمير وغيرهم ...

الثالث : إنهم أهل العقبة السبعون أهل البيعة .

ثم إنهم انقسموا قسمين كما قال سبحانه وتعالى (فمنهم من قضى نحبه) أي قضى أجله المحتوم والنحب في اللغة النذر المحكوم بوجوبه ، ثم استعمل في الموت لوجوب تحققه (ومنهم من ينتظر) يوما فيه جهاد فيقضي نحبه فيه، ويؤدي نذره (وما بدلوا تبديلا) ماعاهدوا الله عليه بأمر آخر مخالف لذلك (ليجزي الله الصادقين بصدقهم) أي بسبب صدقهم (ويعذب المنافقين إن شاء) تعذيبهم (أو يتوب عليهم) إن شاء ذلك فإنه تعالى قادر على كل ممكن فيمكن أن يغفر للمنافقين من الكفار لكنه أخبر بانه لا يقع منه ذلك حيث قال : (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) .

ثم ذكر الباري سبحانه تتمة قصة الأحزاب فقال : (وردّ الله الذين كفروا) وجاؤا متظاهرين متعاونين على الباطل لإزهاق الحق فرجعوا خائبين خاسرين متلبسين (بغيظهم) وحقدهم (لم ينالوا خيرا) بزعمهم وهو الظفر بخير البشر ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ولم يؤثروا في كيان الحق والإسلام بل غلب الحق وانهزم الباطل بدون قتال (وكفى الله المؤمنين القتال) أي وقاهم وعصمهم من ذلك (وكان الله قويا) على إضعاف كل قوي (عزيزا) غالبا على كل ما أراده (وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم) أي كما أنه تعالى رد الأحزاب إلى مأويهم الذي جاؤا منه خائبين خاسرين أنزل اليهود الذين كانوا متعاونين معهم في المجيء الى حرب الرسول وأصحابه ، وهم أهل الكتاب الذي فيه نعوته ونعوتهم مع أن الواجب عليهم أن يتعاونوا معه في رد الأعداء لا أن يتعاونوا عليه في زيادة البلاء فنزلهم من صياصيهم وحصونهم المنيعة التي كانوا يتحصنون بها في المخاوف (وقذف في قلوبهم الرعب) أي الخوف الشديد من الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ

وأصحابه (فريقا تقتلون وتأسرون فريقا) أي تقتلون فريقا منهم وهم الرجال المقاتلون المتعاونون وتأسرون فريقا غيرهم من الشيوخ والنساء والذراري انتقاما منهم على نقض العهد والتعاون مع الأعداء الأشداء المتآمرين المتظاهرين على إبادة الرسول وأصحابه • قيل : لم لم يناسب في الجملتين المتعاطفتين بتقديم المعمولين أو العاملين ؟ وأجيب بأنه : لما لم يفرق الله في الحكم عليهم بين القتل والأسر ، ولم يجعل هناك واسطة لا تقتل ولا تؤسر بل يبقى بعض منهم في محله لم يفرق بين الفعلين في اللفظ ، وقدم فعل القتل لأنه أهم للمسلمين في الأمان من كيدهم وعودهم مرة أخرى ، وللغاية المتحققة عينها في إمحاء المقاتلين قدم المفعول على الفعل • وأما في جملة الأسر فمشى على الترتيب الواقعي من تقديم العامل على المعمول لأن الأسر هو المطلوب والمأمول (وأورثكم أرضهم) التي عليها مدار حياتهم من المزارع والمراتع والبساتين (وديارهم) أي دورهم السكنية وقلاعهم الأمينة (وأموالهم) من الأثاث والنقود والمواشي وما إلى ذلك (و) كذلك أورثكم (أرضا لم تطؤها) لحد الآن تشمل جميع ما فتحت ووقعت تحت أيديهم • ولو لم تصر من الغنائم كمكة المكرمة التي فتحت بعد هذا التأريخ بسنتين ، ولكن روي عن مقاتل ويزيد بن رومان وابن زيد أنها أرض خيبر التي فتحت بعد بني قريظة • (وكان الله على كل شيء قديرا) روي أنه بعد رجوع الأحزاب إلى أماكنهم ورجوعه ــ صلى الله عليه وسلم ــ الى المدينة المنورة مع أصحابه أتاه جبريل ــ عليه السلام ــ فقال : أتنزع لأمتك والملائكة لم يضعوا السلاح ؟! إن الله يأمرك بالسير إلى بني قريظة وأنا عامد" إليهم فأذن في الناس أن لا يصلوا العصر إلا في بني قريظة فحاصرها إحدى وعشرين أو خمسا وعشرين حتى جهدهم الحصار ، فقال : تنزلون على حكمي ؟ فأبوا • فقال : على حكم سعد بن معاذ فرضوا به • فحكم سعد بقتل

مقاتليهم وسبي ذراريهم ونسائهم . فكبر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال : لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة . فقتل منهم ستمائة او أكثر ، وأسر منهم سبعمائة .

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ : إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً(٢٨) وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً(٢٩) يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ، وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً)(٣٠)

قوله تعالى : (يا أيها النبي قل لأزواجك) إستئناف لأمره تعالى حبيبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يخير أزواجه بين الدين والدنيا ، بين الله ورسوله وبين طبع الإنسان ومأموله ليتبين أهل الإخلاص من غيره فيقول (قل لأزواجك إن كنتن تردن الحيوة الدنيا) أي التنعم والبطر فيها (وزينتها) أي زخرفها وبهجتها من الملابس الفاخرة والمساكن العالية والأثاث وما شاكلها (فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا) أي فأقبلن عليّ حتي أسرحكن وأطلقكن طلاقا لا يعود به ضرر عليكن من طول العدة وغيرها وأعطيكن حق المتعة الثابتة بالفراق (وإن كنتن تردن الله ورسوله) أي رضاء الله ورسوله أي إطاعة الله في الحقوق التي أوجبها وإطاعة الرسول في أداء حقوق الزوجية (والدار الآخرة) أي ثواب الدار الآخرة ونعيمها الباقي أبد الابدين (فإن الله أعد للمحسنات منكن) وهن من أردن الله ورسوله (أجرا عظيما) لا تستقصى عظمته .

روي أنهن سألنه ثياب الزينة وزيادة النفقة فنزلت فبدأ بعائشة ـ رضي الله عنها ـ فخيرها فاختارت الله ورسوله ، ثم اختارت الباقيات اختيارها ، فشكر الله لهن ذلك فأنزل : (لا يحل لك النساء من بعد) وتقديم التمتيع على التسريح وإن كانت المتعة ناشئة من التطليق من الكرم وحسن الخلق ، ثم قال تعالى مؤدبا لأهل البيت (يا نساء النبي من يات منكن بفاحشة مبينة) أي بمعصية كبيرة ظاهرة القبح (يضاعف لها العذاب ضعفين) الحصة الاولى على ارتكاب المعصية ، والثانية على تشويه سمعة بيت النبوة والرسالة وفتح الباب لجسارة أهل الضلالة (وكان ذلك) أي تضعيف العذاب (على الله يسيرا) سهلا فإنه لا مانع من حكمه كيف كان .

الجزء الثاني والعشرون

(وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُؤْتِهَا
أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ، وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً(٣١) يَانِسَاءَ النَّبِيِّ
لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ؛ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ
فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ، وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً(٣٢)
وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ، وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ
الْأُولَى، وَأَقِمْنَ الصَّلَوةَ، وَآتِينَ الزَّكَوةَ، وَأَطِعْنَ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ
الْبَيْتِ، وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً(٣٣) وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي
بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً
خَبِيراً(٣٤) إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ، وَالْمُؤْمِنِينَ
وَالْمُؤْمِنَاتِ، وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ، وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ،
وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ، وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ،
وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ، وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ،
وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ، وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً
وَالذَّاكِرَاتِ ... أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً)(٣٥)

(ومن يقنت منكن لله ورسوله) أي تخشع وتطع عن أدب القلب وسكينته (وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين) أي ضعفين مرة على القيام بالحسنة، ومرة على تشجيع غيرها من أمثالها على مثل تلك الطاعة (واعتدنا لها رزقا كريما) عظيم القدر لا يناله إلا أمثالها •

ولما نصحهن الله على إطاعة الله ورسوله وعلى عدم الاعتناء بزينة الدنيا وعلى تضاعف الأجر على الطاعة والوزر على المعصية أدبهن في رعاية بعض الدقائق التي تكون سببا في رعايتها للكمال وفي الخروج عنها للاختلال فقال : (يا نساء النبي لستن كأحد من النساء) قال صاحب روح المعاني روّح الله روحه : إن أحد الذي لا يستعمل إلا في النفي معناه إنسان بإجماع أهل اللغة ، وأحد الذي يستعمل في الإثبات معناه الفرد من العدد ، فإذا تغاير مسماهما تغاير اشتقاقهما ، لأنه لابد فيه من المناسبة بين اللفظ والمعنى، ولا يكفي فيه أحدهما ، فإذا كان المقصود به الإنسان فهو الذي لا يستعمل إلا في النفي ، وهمزته أصلية ، وإن قصد به العدد ونصف الاثنين فهو الصالح للإثبات والنفي وألفه منقلبة عن واو إنتهى • ولا يخفى أنه إذا سلم الفرق المذكور ينبغي أن تكون الهمزة هنا أصلية • وإلى أن همزة الواقع في النفي أصلية ذهب أبو حيان فقال : إن ماذكره الزمخشري من قوله : ثم وضع في النفي العام غير صحيح لأن الذي يستعمل في النفي العام مخصوص بمن يعقل • وذكر النحويون أن مادته همزة وحاء ودال ومادة أحد بمعنى واحد أصله واو وحاء ودال ، فقد اختلفا مادة ومدلولاً • وذكر أن ما في قوله تعالى (لا نفرق بين أحد من رسله) يحتمل أن يكون الذي للنفي العام ، ويحتمل أن يكون بمعنى واحد ، ويكون قد حذف معطوف ، أي بين واحد وواحد من رسله •

ثم قال : وقال الراغب : أحد يستعمل على ضربين في النفي لاستغراق جنس الناطقين ويتناول القليل والكثير على الاجتماع والانفراد نحو ما في الدار أحد أي لا واحد ولا اثنان فصاعدا لا مجتمعين ولا متفرقين . وهذا المعنى لا يمكن في الإثبات لأن نفي المتضادين يصح . ولا يصح إثباتهما فلو قيل : في الدار أحد لكان إثبات أحد منفرد مع إثبات ما فوق الواحد مجتمعين ومتفرقين وهو بيّن الإحالة . ولتناوله مافوق الواحد صح نحو (وما منكم من أحد عنه حاجزين) وفي الإثبات على ثلاثة أوجه استعماله في الواحد المضموم إلى العشرات كأحد عشر وأحد وعشرين واستعماله مضافا أو مضافا إليه بمعنى الأول نحو (أما أحدكما فيسقى ربه خمرا) وقوله يوم الأربعاء ، واستعماله وصفا وهذا لا يصح إلا في وصفه تعالى شأنه . أما أصله أعني وحد فقد يستعمل في غيره سبحانه كقول النابغة :

كأنّ رحلي وقد زال النهار بنا

بذي الجليل على مستأنس وَحَدٍ

وهو محتمل لدعوى انقلاب همزته عن واو مطلقا ، ولدعوى انقلابها عنها في الإستعمال الأخير . ثم قال : ولا يخفى على المنصف أن كون المعنى في الآية ماذكره الزمخشري ، وهو قوله إن المعنى لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء .. أظهر ، وتفضيل كل واحدة من نسائه ـ صلى الله عليه وسلم ـ على كل واحدة واحدة من سائر النساء لا يلزم أن يكون لهذه الآية ، بل هو لدليل آخر إما عقلي أو نص مثل قوله تعالى : (وأزواجه أمهاتهم) وقيل : يجوز أن يكون ذلك لها فإنها تفيد بحسب عرف الإستعمال تفضيل كل منهن على سائر النساء لأن فضل الجماعة على الجماعة يكون غالبا لفضل كل منها . إنتهى ما نقلته عن روح المعاني .

وإذا تأملت في ذلك بإنصاف علمت أن الحق هو ما قاله الراغب ، وهو أن استعمال أحد في النفي لاستغراق جنس الناطقين ويتناول القليل والكثير على الاجتماع والانفراد ، وذلك لأن الاحتمالات في الآية الكريمة أربعة : نفي مساواة الجماعة للجماعة ، ونفي مساواة الواحدة للواحدة ، ونفي مساواة الواحدة للجماعة، ونفي مساواة الجماعة للواحدة . وهذا الاحتمال الأخير لا قيمة له ، إذ ليس المقصود أن جماعتكن ليست كواحدة من النساء قطعا ، وتبقى الاحتمالات الثلاثة صحيحة موافقة للمقصود ، لأنه إذا أريد أنه ليست جماعتكن كأية جماعة من النساء يلزمه غالبا أن لا تكون أية واحدة منهن كأية واحدة من سائر النساء . وإذا اريد أن ليست واحدة منهن كجماعة من النساء بل أشرف منهن .. أفاد المدح الزائد لثبوت شرف الواحدة على الجماعة فعلى الفرد يكون بالأولى . وإذا أريد أن ليست واحدة منكن كواحدة من النساء يلزمه أن لا تكون جماعتهن كجماعة من النساء . وهذه الاحتمالات السليمة كلها توافق ما قاله الراغب من استعمال أحد في النفي لاستغراق الجنس قليلا أو كثيرا ، وهذا واضح .

وقوله (ان اتقيتن) شرط وجوابه قوله تعالى (فلا تخضعن بالقول) أي لا تجعلن قولكن ذا لين وخنث (فيطمع الذي في قلبه مرض) ، أي نية فاسدة (وقلن قولا معروفا) أي معتادا من الحرائر بعيدا عن الريبة . (وَقَرْنَ في بُيُوتِكُنّ) من قر يَقَرّ من باب علم أصله إقْرَرْنَ ، فحذفت الراء الأولى ، وألقيت فتحتها على ما قبلها ، وحذفت الهمزة للاستغناء عنها بتحريك القاف أي اسكُنَّ في بيوتكن ولازِمْنَها . وملازمة البيوت أمر مطلوب من سائر النساء .

أخرج الترمذي عن ابن مسعود ـ رضي الله تعالى عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ « أن المرأة عورة إذا خرجت من بيتها استشرفها

الشيطان . وأقرب ما تكون من رحمة ربها وهي في قعر بيتها » وأخرج البزار عن أنس قال : النساء جئن إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقلن : يا رسول الله ذهب الرجال بالفضل والجهاد في سبيل الله تعالى ، فهل لنا عمل ندرك به فضل المجاهدين في سبيل الله تعالى ؟ فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « من قعدت منكن في بيتها فإنها تدرك عمل المجاهدين في سبيل الله تعالى » . وقد استثني من خروج النساء ما فرضه الشرع أو أباحه وسنه ، كالخروج للحج ، وزيارة الوالدين ، والأولاد ، وعيادة المرضى وتعزية أهل الميت ، والتداوي ، واشتراء ماتحتاج إليه إذا لم يكن لها من يكفيها ، وزيارة من تصادقها من النساء أو الأقارب المحارم كالعم والخال ونحو ذلك . ولكنه يجب عليها غض البصر عن النظر المحرم في خارج البيت وداخله . ومن المحرمات خروجهن متعطرات ومتزينات بدون ضرورة كالسيل وخوف الحرق وأمثالها .

(ولا تبرّجن تبرج الجاهلية الأولى) والتبرج : أن تخرج فتلقاها بدون خمار على رأسها يستر عنقها وقرطها وقلائدها فيبدو ذلك منها . وقال المبرد : التبرج أن تظهر من محاسنها ما يجب عليها ستره . وقال الليث يقال : تبرجت المرأة إذا أبدت محاسنها (وأقمنَ الصّلوةَ وآتينَ الزكوة . وَأطِعْنَ الله ورسوله) في كل ما تأتِنّ وتَذَرْنّ ، لاسيما فيما أُمِرْتُنّ به ونهيتُنّ عنه (إنما يريدُ الله) بأمره ونهيه خطاباً معكن (ليذهب عنكم الرجس) أي الإثم في الدنيا والعذاب في الآخرة الخالدة يا (أهلَ البيت ويطهركم) مما صدر جهلا وغفلة ونسيانا (تطهيرا) بليغا مناسبا لمقام الرسول وبيته وأهله في الدنيا والدين ونصب أهل في أهل البيت على النداء أو على المدح أو على الاختصاص والمراد بأهل البيت أزواجه ـ صلى الله عليه وسلم ـ المخاطبات بالأوامر والنواهي الواردة قبلُ . والبيت : هو البيت

المصنوع من الطين والخشب ، وذلك للقرائن الدالة على ذلك من الآيات السابقة واللاحقة مع أنه ـ عليه الصلاة والسلام لم يكن له بيت يسكنه سوى سكناهن ، روى ذلك غير واحد . فقد أخرج ابن أبي حاتم وابن عساكر عن طريق عكرمة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما أنه قال نزلت (إنما يريد الله) ... الآية في نساء النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاصة. وأخرج ابن مردويه عن طريق ابن جبير عنه ذلك بدون لفظ خاصة وقال عكرمة : من شاء باهلته أنها نزلت في أزواج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن عكرمة أنه قال في الآية ليس بالذي تذهبون إليه إنما هو نساء النبي ـ صلى الله عليه وسلم . وروى ابن جرير أيضا ان عكرمة كان ينادي في السوق أن قوله تعالى (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت) نزل في نساء النبي عليه الصلاة والسلام. وتوحيد البيت لأن بيوت الأزواج الطاهرات باعتبار الإضافة إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بيت واحد ، وجمعه في ما سبق باعتبار الأزواج المطهرات اللاتي كن متعددات، وجمعه في قوله تعالى : (يا ايها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم) دفعا لتوهم إرادة بيت زينب التي نزلت الآية عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ في بيتها . وأورد ضمير جمع المذكر في (عنكم) و (يطهركم) رعاية للفظ الأهل وهذا كما في قوله تعالى خطابا لسارة زوجة الخليل ـ عليه السلام ـ : (أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت انه حميد مجيد) . قيل المراد بأهل البيت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأزواجه الطاهرات وضمير جمع المذكر لتغليبه ـ عليه السلام ـ عليهن . وقيل : المراد بالبيت مايعم بيته ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبيت النسب ، وكان في البيت إذ ذاك الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعلي والحسن والحسين وفاطمة ـ رضي الله عنهم ـ .

فقد أخرج الترمذي والحاكم وصححاه وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في سننه من طرق عن أم سلمة ــ رضي الله تعالى عنهـا قالت : في بيتي نزلت (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت) وفي البيـت فاطمة وعلي والحسن والحسين فجلّلهم رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بكساء كان عليه ، ثم قال : هؤلاء أهل بيتي فَأذْهِب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا .

(واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله) أي القرآن (والحكمة) وهي السنة فالذكر بالنسبة إلى القرآن الكريم عبارة عن تلاوته وحفظـه وفهم معناه ونشره بين المسلمات والمسلمين ، وبالنسبة إلى السنة عبارة عـن حفظها وفهم معناها ونشرها بين الفريقين من أهل الدين . (إن الله كان لطيفا خبيرا) يعلم كل شيء وما يناسب كل فرد أو فئة مما له فيه مصلحة في الدين .

وإنما جعلت قوله تعالى : (إن اتقيتن) شرطا لما بعده لأن ماتقدمه ليس مقيدا به في اعتقادي ، لأن المقصود من الآية الشريفة أنكن يا نساء النبي ، يا أمهات المؤمنين ، يا مرجع المؤمنات في أخذ أحكام الآيات البينات والسنة السنية النبوية مقامُكنّ غيرُ مقام باقي النساء المؤمنات في الدنيا فإنكنّ قدوة ، وإنكن في مقام عال على المقامات ، وكيف عشتن سابقا ولاحقا فكلامي معكن كلامي مع نساء سيدات زلة" صغيرة" منهن كبيرة" عند العالم ، وحبة ترد عليهن قبة في نظر الناظرين ، وليس كلامي مع أشخاصكن بل كلامي معكن بحسب مقامكن من بيت الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، فاتركن من الأحوال الشخصية الاعتيادية والاجتماعية كل قول وفعل ، وكل عادة تخالف جلالة مقام الرسالة فإن اتقيتن مخالفة أمر الله ورسوله (فلا تخضعن) إلى آخر الآيات ففضيلتهن فضيلة مكتسبة من إطاعتهن لله ولرسوله ، ورعايتهن لذلك البيت الرفيـع ، ولا كلام مع أية واحدة منهن في ذاتها بدون ملاحظة ذلك . وإلا فكل صالح

وصالحة في عالم الإسلام حقه محفوظ ونصيبه ملحوظ بلا إضاعة لحقوق أحد .

(إن المسلمين والمسلمات) الداخلين في الإنقياد لحكم الله تعالى (والمؤمنين والمؤمنات) المصدقين بما يجب التصديق به إجمالا أو تفصيلا (والقانتين والقانتات) أي كل من دخل في الطاعة والعبادة المفروضة والنافلة لله (والصادقين والصادقات) في الأقوال (والصابرين والصابرات) على المتاعب والشدائد والمكاره ومخالفة النفس والشيطان (والخاشعين والخاشعات) لله تعالى في أداء العبادات ، أو المتواضعين والمتواضعات للناس حياءً من الله (والمتصدقين والمتصدقات) على الناس أموالهم بالصدقات المفروضة أو المندوبة ، والصائمين والصائمات صياما مفروضا أو تطوعاً (والحافظين فروجهم والحافظات) فروجهن عما لا ير[illegible] الله تعالى (والذاكرين الله كثيرا والذاكرات) بالألسنة والقلوب . [illegible] أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « إذا أيقظ الرجل امرأته من الليل فصليا ركعتين كانا تلك الليلة من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات » (أعد الله لهم) بسبب أحوالهم السابقة (مغفرة) لما اقترفوا من الصغائر لأنهن مكفرات بالأعمال الصالحة (وأجرا عظيما) على طاعاتهم لله مخلصين . أخرج ابن جرير عن قتادة قال : دخل نساء على نساء النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقلن : قد ذكركن الله تعالى في القرآن وما ذكرنا بشيىء ، أما فينا مايذكر ؟ فأنزل الله تعالى : (إن المسلمين والمسلمات) الآية ...

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا)(٣٦)

والآية ، على ما روي عن ابن عباس ، نزلت في زينب بنت جحش من عمته ـ صلى الله عليه وسلم ـ أُميمة بنت عبدالمطلب وأخيها عبدالله ، خَطَبَها رسولُ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لمولاه زيد بن حارثة ، وقال « إني أريد أن أزوجك زيد بن حارثة ، فإني قد رضيته لكِ » فأَبَتْ وقالَتْ : يا رَسُولَ الله لكني لا أرضاه لنفسي ، وأنا أيّمُ قومي وبنت عمتك ، فلَمْ أكُنْ لأَفْعَلَ . وفي رِواية أنها قالت : أنا خَيْرٌ منه حَسَباً ، ووافقها أخوها عبدُالله على ذلك . فلما نزلت الآية رضيا وسلما . فأنكحها ـ صلى الله عليه وسلم ـ زيداً بعد أنْ جَعَلَت أمرَها بيده ، وساقَ إليها عشرة دنانير وستين درهما مهرا ، وخمارا وملحفة ودرعا وإزارا وخمسين مدا من الطعام وثلاثين صاعا من تمر .

قوله تعالى (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة) أي ما صح وما استقام لرجل ولا لامرأة من المسلمين (إذا قضى الله ورسوله أمرا) أي قضى رسول الله على وحي من الله بأمر من الأمور (أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) أي أن يختاروا من أمرهم ما شاؤا ، بل يجب عليهم أن يجعلوا رأيهم تبعا لرأيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ . والخيرة مصدر من تخير كالطيرة من تطير ، ولا ثالث لهما على ما قالوا (ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبينا) أي واضح الانحراف عن سنن الصّواب .

(وَإذ تَقُولُ لِلَّذِي أَنعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ : أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوجَكَ وَاتَّقِ اللهَ ، وتخفي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبديهِ ، وَتَخشَى الناسَ ، وَاللهُ أَحقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ، فَلَمَّا قَضى زَيْدٌ مِنهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَها لِكَيْلا يَكُونَ عَلَى المُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزواجِ أَدْعِيَائِهِمْ ، إذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً ، وكانَ

أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً(٣٧) ما كانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيما فَرَضَ اللهُ لَهُ ، سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ، وكانَ أمْرُ اللهِ قَدَراً مَقْدُوراً(٣٨) الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إلا اللهَ ، وكَفَى بِاللهِ حَسِيباً(٣٩) ماكانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ ولكِنْ رَسُولَ اللهِ وخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ، وَكانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً)(٤٠)

قوله تعالى : (وإذ تقول) الآية ... خطاب للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أي اذكر وقت قولك للرجل الذي أنعم الله عليه بأن رزقه صحبتك، وألهمه اختيار بقائه عندك لما أتاه أبوه يطلب رجوعه إلى محله ، وانت خيرته بين البقاء عندك وذهابه مع أبيه فاختارك ، ووفقه للإسلام فأسلم وحسن إسلامه (وأنعمت عليه) بتبنيه في وقته ، وجعله من أفراد عائلتك ، ثم عتقه وتزويجه من بنت عمتك ورعاية شئونه باعطاء مهر زوجته وتزويده بما يحتاج إليه في بيته : (أمسك عليك زوجك) زينب بنت عمتك ، وذلك أنها كانت ذات حدة في الطبع ، وتفخر على زيد بشرفها حسباً ونسبا ، ويسمع منها ما يكره ، فجاء رضي الله عنه يوما إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يا رسول الله إن زينب قد اشتد علي لسانها ، وأنا أريد أن أطلقها . فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « أمْسِكْ عليك زوجك واتق الله » في أمرها فإن الطلاق غير محبوب عند الله ، ولا تطلقها تعللا بتكبرها واشتداد لسانها عليك (وتخفي في نفسك ما اللهُ مُبديه) وهو على ما أخرج الحكيم الترمذي وغيره عن علي بن الحسين ـ رضي الله عنهما ـ عبارة عما أوحى الله تعالى به إليه أن زينب سيطلقها زوجها وتتزوجها أنت وإلى هذا ذهب أهل التحقيق من المفسرين كالزهري ، وبكر بن العلاء ، والقشيري ، والقاضي

أبي بكر بن العربي وغيرهم (وتخشى الناسَ) أي تستحي من قولهم أن محمدا تزوج زوجة ابنه ، والناس هنا هم المنافقون لأن المؤمنين الصادقين علموا أن حكم التبني قد نسخ ، وأنه يعتبر الدَّعِيّ أجنبيا (والله أحق أن تخشيه) أي والله تعالى وحده أحق أن تخشاه في كل أمر ، وتفعل ما أباحه لك وأذن لك فيه بدون مبالاة بغيره (فلما قضى زيد منها وَطَرا) أي الحاجة النفسية من الزوجة ، أو أكمل وانفذ مدة الحاجة إليها وصار بحيث لم يقدر على صحبتها وطلقها وفارقها (زوجناكها) أي جعلناها زوجة لك وأمرناك بتزوجها (لكيلا يكون على المؤمنين حرج) أي إثم وذنب (في أزواج أدعيائهم) أي في تزوج أزواج أولاد أجانب وذكروا باسم أبنائهم على التوهم والعادة الجاهلية (إذا قضوا منهن وطرا) أي إذا طلقهن الأدعياء فيكون تزوجهن أمرا مشروعا لأن تلك النساء كن زوجات لرجال أجانب عن الأب الموهوم (وكان أمر الله مفعولا) محققا لا محالة .

ثم أعلن الباري سبحانه وتعالى أن هذا الزواج كان زواجا مشروعا حكم به الحق ، وأن خرق هذا الحجاب الجاهلي الموهوم على يد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان بأمر الله ووحيه وتشريعه الحق فقال : (ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له) أي ما صح وما استقام في الحكمة أن يكون عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ حَرَج وعتب فيما فرض الله له وقسم له وقرر وقدر وشرع له من تزوج زوجة دعيه بعد طلاقه لها (سنة الله في الذين خلوا من قبل) بل سنّ الله للرسول سنة كسنته في الأنبياء الذين خلوا من قبل أي من قبل هذا الزمان . فقد كانت في العهود السابقة أحكام مشروعة أو عادات متبعة ، ولما جاء عهد الرسول اللاحق نسخ تلك الشريعة السابقة أو تلك العادة القديمة (وكان أمر الله قدرا مقدوراً) أي وكان أمر الله تعالى بتشريع أيّ حادث في العالم إرادة أزلية جارية في

الأزل وواقعة في المستقبل أي تابعا لإرادة أزلية يتحقق المراد بها بلا شك وشبهة • وقوله تعالى : (الذين يبلغون) صفة للذين خلوا أي الأنبياء والرسل الذين كانوا يبلغون (رسالات الله) إلى القوم بدون مبالاة بعتاب ولوم (ويخشونه) أي وكانوا يخافون الله تعالى في كل ما يفعلون ويتركون (ولا يخشون أحداً إلا الله) ولا يخشون ولا يخافون في تبليغ الوحي أحدا إلا الله (وكفى بالله حسيبا) فإن قلت قد أثبت الله لنبيه خشية من الناس فكيف ينفيها هنا ؟ قلنا : تلك الخشية الثابتة لم تكن خوفا منهم ، بل كانت استحياء من انتشار كلماتهم الهوجاء أو أن الخشية المنفية الخشية في تبليغ الوحي لا خشية وخوف آخر من أي ظالم أو عدو أو سبع كما سبق في قوله تعالى (فأوجس في نفسه خيفة موسى) • وكان أساس ذلك الاستحياء اشتهار بنوة زيد لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، فكانوا يدعونه بزيد ابن محمد مع أنه لم يكن ذلك الاشتهار ناشئا عن الواقع كما قال تعالى (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم) حتى تحرم عليه زوجته (ولكن رسول الله وخاتم النبيين) وبصفة رسالته السماوية وكونه خاتم الأنبياء ، ولا يكون بعده نبي أو رسول إلى قيام الساعة كان من المهم أن يزيل الاشتباهات الواردة المستقرة في قلوب الناس من أي باب لاسيما في باب الزواج الذي هو وسيلة التناسل وبقاء النوع الإنساني ، فقدر الله تعالى أن يطلق دعيُّهُ وهو زيد بن حارثة زوجته وأمرَ اللهُ حبيبه أن يتزوجها لخرق ذلك الحجاب الموهوم • وإلا فلو كان له ــ صلى الله عليه وسلم ــ رغبة في نكاحها لتزوجها أول الأمر بكل سهولة ، لكنه تعالى أراد أن يرفع به الحجاب الموهوم ويصعد بتشريعاته إلى أوج المقام المعلوم • (وكان الله بكل شيء عليما) ذاتا وصفة ذاتية أو اعتيادية فلا يغيب عن علمه شيء من الأشياء •

(يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً(٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً(٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلى النُّورِ ، وَكانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً(٤٣) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ ، وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً(٤٤) يا أَيُّها النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً(٤٥) وَداعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِراجاً مُنِيراً(٤٦) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلاً كَبِيراً(٤٧) وَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَالْمُنافِقِينَ وَدَعْ أَذاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ، وَكَفى بِاللهِ وَكِيلاً)(٤٨)

قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله) من سنة الله تعالى في كتابه الكريم أنّه كلما نزلت آيات في أمور هامة تشغل القلوب بالبحث عن أخطار واردة أو أوهام باطلة عقبها بآيات تدعو المؤمنين إلى الرجوع إلى الله بذكره والإنابة • فعلى هذا المنهج عاد الباري تعالى إلى سنته في كتابه وقال : (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا) يشمل أحوالكم وأوقاتكم بحيث تعدون من الذاكرين لا من الغافلين فإن القلب مائدة الفوائد والعوائد ، فإذا أهملت نهبت الشياطين ماعليها (وسبحوه بكرة وأصيلا) أي ونزهوا ذاته وصفاته عن كل ما لا يليق وتخصيص الوقتين لأنهما محيطان بأوقات العمل وتعقيب الأمل ، فإذا استعملا في الخير لا يتسرب الشر إلى ما بينهما • وعن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ أن المراد بالتسبيح الصلاة وقوله تعالى : (هو الذي يصلي عليكم وملئكته) استئناف جار مجرى التعليل لما قبله ، يعني أنه مادام الباري ــ عز وجل ــ يفيض عليكم الرحمة والنعمة وملئكته الكرام يدعون لكم بأمره تعالى فمن حقكم أن لا تتوانوا

دقيقة من الزمن في تسبيحه وتحميده وذكره وشكره والاشتغال بما يقربكم إليه • والصلاة إذا نسبت إلى الله تعالى فمعناها الرحمة وإفاضتها ، أو إلى الملائكة فالاستغفار، أو إلى الإنس والجن فالدعاء • واستعمالها هنا في المعنيين الأولين إما مبني على جواز استعمال المشترك في معنيين أو أكثر أو بطريق عموم المجاز وهو أن يراد من اللفظ معنى مجازي عام لتلك المعاني كالاعتناء بالشأن أو نحوه وذلك (ليخرجكم من الظلمات إلى النور) أي ظلمات الجهل إلى نور العلم ، أو من ظلمات المعاصي إلى نور الطاعة ، أو من أنوار هي ظلمات بالنسبة إلى مقامكم إلى أنوار أخرى هي نور بالنسبة إليها كما يقال حسنات الأبرار سيئات المقربين (وكان) أي الباري تعالى (بالمؤمنين رحيما) كامل الرحمة (تحيتهم يوم يلقونه سلام) أي تحية المؤمنين يوم يلقون ربهم سلام منه عليهم • ورد أن الله تعالى يقول لهم يوم القيامة ووقت اللقاء : سلام عليكم عبادي أنا عنكم راض فهل أنتم عني راضون ؟ فيقولون بأجمعهم : يا ربنا إنا راضون كل الرضاء • وقيل تحييهم الملئكة بذلك يوم القيامة إذا دخلوا الجنة كما قال تعالى والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم (وأعد لهم أجرا كريما) أي وهيأ لهم ربهم ثوابا حسنا يرضونه ويطمئنون به •

ثم توجه إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو مركز دائرة الوصول فقال : (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا) على كل من بعثت إليه بإطاعته لله أو بعصيانه وخروجه عن حكمه (ومبشرا) للمطيعين بالجنة والرضوان (ونذيرا) للعصاة بعذاب النيران (وداعيا إلى الله) جميع المكلفين من الجن والإنس (بإذنه) أي بتسهيله وتيسيره (وسراجا منيرا) للقلوب المظلمة بما تلقيه إليها من نور الإيمان والتوحيد (وبشر المؤمنين) المخلصين (بأن لهم من الله فضلا كبيرا) وهو اطمئنان القلب وانشراح

الصدر في الحياة وأخذ البشرى عند الممات ، وسلام الملائكة عند النشور والسير في العرصات ، وسلام الله تعالى لهم في الجنات ، ولقاء وجهه الكريم من زيادة الهبات (ولا تطع الكافرين والمنافقين) في اقتراحاتهم فإنك إن أطعتهم ضيعوك وإن خالفتهم سلمك الله ورفعك (ودع أذاهم) أي ولا تبال ولا تهتم بأذاهم أي بإيذائهم لك أو أهلك أو أصحابك بالمعاندة والافتراءات وسوء المكالمات ، فإن كل أذية توجب لكم مزية (وتوكل على الله) في كل ما تفعله لله أو تتركه لله (وكفى بالله وكيلا) حافظا للذي يفوض الأمور إليه ويعتمد عليه في الدنيا والدين .

(يا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا إذا نَكَحْتُمُ المُؤْمِناتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَما لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَها ، فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَراحاً جَميلاً(٤٩) يا أَيُّها النَّبِيُّ إنَّا أَحْلَلْنا لَكَ أَزْواجَكَ اللاَّتي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمامَلَكَتْ يَمينُكَ مِمَّا أَفاءَ اللهُ عَلَيْكَ ، وبَناتِ عَمِّكَ ، وَبَناتِ عَمَّاتِكَ ، وَبَناتِ خالِكَ ، وَبَناتِ خالاتِكَ اللاَّتي هاجَرْنَ مَعَكَ ، وامْرَأَةً مُؤْمِنَةً ، إنْ وَهَبَتْ نَفْسَها لِلنَّبِيِّ ، إنْ أَرادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحها ، خالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ المُؤْمِنينَ قَدْ عَلِمْنا ما فَرَضْنا عَلَيْهِمْ في أَزْواجِهِمْ وَما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ، وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحيماً(٥٠) تُرْجِي مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَّ ، وتُؤْوي إلَيْكَ مَنْ تَشاءُ ، وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فلا جُناحَ عَلَيْكَ ، ذلِكَ أَدْنى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلا يَحْزَنَّ ، وَيَرْضَيْنَ بِما

آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ، وَاللهُ يَعْلَمُ ما فِي قُلُوبِكُمْ وكانَ اللهُ عَلِيماً حَلِيماً(٥١) لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ ، وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ ، وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ، إِلاَّ ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ ، وَكانَ اللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً)(٥٢)

قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات) عود إلى ذكر النساء ، والنكاح هنا العقد أي إذا عقدتم على المؤمنات عقد الزواج الصحيح الجامع للشرائط والأركان (ثم طلقتموهن من قبل أن تمسّوهن) أي تطأوهن (فما لكم عليهن من عدة تعتدونها) لأن العدة ، وإن كان فيها شوب التعبد ، لكن الحكمة الأساسية معرفة براءة رحم المرأة ، وما دامت غير موطوءة فلا احتمال للعلوق حتى توجب العدة (فمتعوهن) أي فأعطوهن مالاً تسمى المتعة لتمتعها به ، ولدفع الوحشة الناشئة عن الفراق (وسرحوهن سراحا جميلا) أي أخرجوهن من منازلكم إخراجا مقرونا بكلام جميل لين موافق لدفع وحشة المفارقة . وهذا الطلاق طلاق بائن بينونة صغرى لا تحل الزوجة بعدها إلا بعقد لأنه جرى قبل الدخول . وضابط الطلاق البائن والرجعي أنه إن استوعب العدد الثلاث فبائن بينونة كبرى لا تحل للزوج إلا بعد أن تنكح زوجا غيره ، وإلا فإن كان قبل الدخول مطلقا أو بعده بعوض فبائن بينونة صغرى ، وترجع إليه بعقد جديد جامع لجميع الآداب ، وإلا فالطلاق رجعي يجوز للزوج رجعتها في العدة بنفسه ، فإن تركها حتى انقضت عدتها فبائن أيضا ويحتاج رجوعها إلى عقد جديد .

ثم انتقل المولى إلى أحكام زواج الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : (يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن) أي أعطيتهن مهورهن ، وسميت المهور أجورا لأنها في معنى الأجور على

الاستمتاع بها بوجوه التمتع المشروع في الدين ، وتقييد الإحلال بإعطاء الأجور لإيثار الوجه الأفضل لا لتوقف الحل عليه (وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك) أي من الجواري المسبيات في الجهاد التي أرجعها الله إليك وجعلها مملوكة لك ، وتقييد المملوكة بقوله مما أفاء الله عليك لرعاية الواقع لأنه لم تكن عنده جارية مشتراة ، أو لأن المشتراة لا يعلم بدء أمرها لاحتمال أن السبي لم يكن بوجه مشروع . وما يقال أن مارية القبطية ـ رضي الله عنها ـ لم تكن مسبية بل هدية له من أمير القبط جريج بن مينا صاحب الأسكندرية .. فيجاب عنه بأن هدايا أهل الكفر الذين في صدر الحرب حكمها حكم السبايا . أو لأن إهداءها كان قبل نزول الآية الكريمة (وبنات عمك ، وبنات عماتك ، وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك ، وامرأة مؤمنة) أي أحللنا لك امرأة مؤمنة (إن وهبت نفسها للنبي ، إن أراد النبي أن يستنكحها) وهذا الشرط شرط لإفادة الوهب، أي إنما تفيد هبتها نفسها له ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن أراد النبي أن يستنكحها ، وإلا فلا تفيد شيئا .

واختلف في تعيين الواهبة فعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنها ميمونة بنت الحرث الهلالية . وعن علي بن الحسين ـ رضي الله عنهما ـ أنها أم شريك غزية بنت جابر بن حكيم الدوسية ، ولكن لم يقبلها ـ عليه الصلاة والسلام ـ فلم تتزوج حتى ماتت وعن عروة والشعبي هي زينب بنت خزيمة من الأنصار كانت تدعى في الجاهلية أم المساكين لإطعامها إياهم ، فقبلها ولم تلبث عنده ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا قليلا حتى توفيت ـ رضي الله عنها ـ . وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها خولة بنت حكيم وقد أرجأها ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتزوجها عثمان بن مظعون ـ رضي الله عنه ـ بإذنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ . وعلى هذه الروايات فالواهبات

المقبولات ثنتان ميمونة بنت الحرث وزينب بنت خزيمة . وأنكر بعضهم وقوع الهبة وقال : إن جملة (إن وهبت) مصدرة بكلمة إن وكذا تنكير امرأة يؤيدان هذا الرأي ، فالمراد الإعلام بالإحلال في هذه الصورة إن وقعت. وأنكر بعضهم قبوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مطلقا .

خالصة لك من دون المؤمنين . قد علمنا مافرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم) وتقرر واشتهر بين الناس . والمعنى أن الله تعالى قد علم ما ينبغي من حيث الحكمة وفرضه على المؤمنين في حق الأزواج والإماء ، وعلى أي حدّ وصفة ينبغي أن يفرض عليهم ففرضه واختصك سبحانه وتعالى بالتنزيه واختيار ما هو أولى وأفضل في دنياك حيث أحل لك جل شأنه أصناف المنكوحات ، وزاد لك الواهبة نفسها من غير عوض (لكيلا يكون عليك حرج) أي ضيق في دينك وتكون لك سَعَة فيما تشاء من موجبات راحتك (وكان الله غفورا رحيما) وافر الرحمة ، ولذا وسع عليك بما أباح لك . (ترجي من تشاء منهن) أي تؤخر من تشاء من أزواجك وتترك مضاجعتها (وتؤوي إليك من تشاء) أي وتضم إليك من تشاء منهن (ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك) أي ومن طلبت رجوعها إليك ممن تركت مضاجعتها فلا جناح عليك (ذلك) أي ذلك التفويض إليك بأن تعاملهن حسب مشيئتك ورغبتك (أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزنّ ويرضين بما آتيتهن كلهن) لأن ذلك التفويض إلى اختيارك حكم كلهن فيه سواء ، ثم إن سويت بينهن وجدن ذلك تفضلا ورحمة منك ، وإن رجحت بعضهن على بعض علمن أنه بحكم الله تعالى (والله يعلم ما في قلوبكم) خطاب له ـ صلى الله عليه وسلم ولأزواجه الطاهرات على سبيل التغليب ، أي يعلم ما في قلوب الجميع من الاطمئنان ومحبة صحبة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والرضا بما يعامل به معهن (وكان الله عليما) بما في القلوب

(حليما) لا يستعجل عقوبة المخالف لعله يرجع إلى الحق . وهذه الآية الكريمة ، كما ترون ، دليل قاطع على أن أمر القسم مفوض إليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ومع ذلك فقد اتفق أهل السير على أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لازم القسم كما هو العدل بحيث لم تظهر منه مخالفة إلى وفاته ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

وقوله تعالى : (لا يحل لك النساء) الآية ... أخرج ابن سعد عن عكرمة قال : لما خَيَّرَ رسول الله أزواجه واخترنه أنزل الله تعالى هذه الآية أي لا يحل لك النساء بعد هؤلاء الأزواج اللاتي اخترنك فحرم عليك تزوج غيرهن علاوة عليهن ، أو بطريق التبدل كما قال (ولا أن تبدَّل بهن مِن أزواج ، ولو أعجبك حسنهن) صورة أو سيرة (إلا ما ملكت يمينك) وقد أخذ جاريةً من زينب بنت عمته اسمها نفيسة وهبتها له ـ صلى الله عليه وسلم ـ في شهر ربيع الأول الذي قبض فيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ (وكان الله على كل شيء رقيبا) أي مراقبا وعالما بكل ما يجري في العالم .

ومما يستحسن معرفته أنه كان له ـ صلى الله عليه وسلم ـ إحدى عشرة زوجة؛ ستة من قريش : خديجةُ بنتُ خويلد ، وعائشة بنت أبي بكر ، وحفصة بنت عمر ، وأمّ حبيبة بنت أبي سُفيان ، وأمّ سلَمَة بنت أبي اُمَيَّة ، وسودة بنتُ زَمْعَةَ . وأربعٌ عربيات : زينب بنتُ عمته أميمة، وميمونة بنت الحارث الهلالية ، وزينب بنت خزيمة الهلالية أمّ المساكين ، وجُوَيرية بنت الحارثِ المُصطَلَقية . وواحدة غير عربية من بني إسرائيل وهي صفية بنتُ حُيَيْ من بني النَّضير . وماتت عنده ـ صلى الله عليه وسلم ـ اثنتان منهن : خديجةُ ، وزينبُ أمّ المساكين . ومات ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن التسع الباقيات. وأنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ

اختصه الله بإباحة الزوجات زائدة على سائر المؤمنين لحكم ومصالح دينية لا لأمر آخر ، فإنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ تزوج خديجة بنت خويلد في مكة وعمره خمس وعشرون سنة وعمرها أربعون ، وبقيت عنده إلى سنة خمسين ، ولما توفيت تزوج سودة بنت زمعة ، وهي كبيرة السن ، لرعاية أولاده وبناته ، وتزوج عائشة بنت الصديق بعد سنتين من الهجرة وعمره ـ صلى الله عليه وسلم ـ اثنتان وخمسون ، وباقي زوجاته تزوجهن إما لمصلحة تقوية الارتباط بينه وبين الاصهار ، وإما لكونها أرملة ذات صغار كأم سلمة ، أو لتقريب عشيرتها إلى الإسلام كأم حبيبة بنت أبي سفيان ، أو لدفع النزاع بين الناس كصفية ، أو لتعليم النساء أحكام الإسلام وآداب النساء فإنها لا تمكن بامرأة أو اثنتين ، فإن كلا من عائشة وحفصة وأم سلمة كن كمعلمات لنساء المسلمين ، كما يعلم من كتب السيرة النبوية . وأما الجواري فكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ في أمرهن مثل باقي الناس ، فإن عددهن ليس محدودا في ملك اليمين لأي إنسان ، وكان له منهن أربع : مارية القبطية ام ابراهيم ابن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أهداها له المقوقس عظيم القبط في الأسكندرية . وريحانة القرظية ، وماتت قبل وفاته ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ونفيسة جارية زينب بنت عمته وهبتها له ـ صلى الله عليه وسلم ـ والرابعة أصابها في بعض السبي .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ ، إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ ، لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ ، وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا ، فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا ، وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ، إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ ، وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ، وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ، ذَلِكُمْ

أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ، وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ ، وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً ؛ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللهِ عَظِيماً(٥٣) إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوه فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً(٥٤) لا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبائِهِنَّ ، وَلا أَبْنَائِهِنَّ ، وَلا إِخْوانِهِنَّ ، وَلا أَبْنَاءِ إِخْوانِهِنَّ ، وَلا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ ، وَلا نِسَائِهِنَّ ، وَلا ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُنَّ ، واتَّقِينَ اللهَ ، إِنَّ اللهَ كانَ عَلى كُلِّ شيْءٍ شَهِيداً)(٥٥)

قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي) شروع في بيان بعض الحقوق الواجبة على الناس المتعلقة به ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا كان عند نسائه ، والحقوق الواجبة المتعلقة بهن ـ رضي الله عنهن ـ . والآية نزلت يوم تزوج ـ صلى الله عليه وسلم ـ زينب بنت جحش . روي عن أنس قال : لما تزوج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ زينب بنت جحش دعا القوم فطَعِموا ، ثم جلَسوا يتحدثون ، وإذا هو كأنه يتهيّأ للقيام فلم يقوموا . فلما رأى ذلك قام ، ولما قام قام من قام وقعد ثلاثة نفر . فجاء النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليدخل فاذا القوم جلوس ، ثم إنهم قاموا فانطلقت فجئتُ فأخبرتُ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنهم قد انطلقوا ، فجاءَ حتى دخل فذهبتُ أدخُلُ ، فألقى الحجابَ بيني وبينه فأنزل الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي) ... الآية والنهي للتحريم والباء المقدرة في قوله (إلا أن يؤذن) للسببية أي لا تدخلوا بيوت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا بسبب أن يؤذن لكم ، والأقرب أن تكون للمصاحبة أي لا تدخلوها في حال من الأحوال إلا في حال مصاحبتكم لإذنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ . وقوله إلى طعام متعلق

بيؤذن • وقوله (غير ناظرين إنيه) حال من ضمير المخاطب ، وقيد للفعل السابق أي إلا في حال عدم انتظار طبخ الطعام •

والحاصل أن دخول البيت الشريف مقيد بقيدين : الأول الإذن فيه • والثاني أن لا يكون في حال انتظار طبخ الطعام بأن تدخلوا وقت حصوله حتى لا تبقوا فيه زمانا طويلا • وقوله تعالى (ولكن إذا دعيتم فادخلوا) استدراك مما يتوهم أن الدخول بالإذن المطلق كاف في الدخول ، فاستدرك ذلك بأن المراد من الإذن الدعوة إلى الطعام ، أي إذا دعيتم فادخلوا (فإذا طعمتم فانتشروا) مباشرة وقوله (ولا مستأنسين لحديث) معطوف على ناظرين أي وإلا غير مستأنسين لحديث بعضكم بعضا أو لحديث أهل البيت بالتسمع له (إن ذلكم كان يؤذي النبي) لأنه ـ عليه الصلاة ـ له وقت نفيس يصرفه في غير هذه الأمور التافهة التي لا تفيد (فيستحي منكم) أن يصرح بأن له شغلا يحتاج فيه إلى الفراغ (والله لا يستحي من الحق) أي من بيان الواقع المفيد النافع (وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب) أي وإذا طلبتم من أمهات المؤمنين شيئا تنتفعون به مما تحتاجون إليه من المواعين وغيرها فاسألوهن من وراء حجاب أي فاطلبوه منهن وراء السترة حتى لا تواجهوهن (ذلكم) الطلب وراء الحجاب (أطهر لقلوبكم وقلوبهن) أي أكثر تطهرا وابتعادا لقلوب الجانبين من الخواطر النفسية • (وما كان لكم) أي وما صح وما استقام لكم (أن تؤذوا رسول الله) بعمل يستكرهه ـ صلى الله عليه وسلم ـ (ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده) أي من بعد وفاته أو من بعد فراقه لها بشرط المباشرة فإن ذلك مما يؤذي قلبه الشريف إيذاء عائداً إلى وجوب رعاية الدين لأن الإنسان ربما تجري التخيلات الفاسدة في نفسه فيتمنى موته ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو فراقه لإحدى زوجاته فيتزوجها ، وفي ذلك فتح الباب لعدم الاعتناء بمقامه الشريف

(إن ذلكم كان عند الله عظيما) أي إن ذلك الإيذاء لقلبه الشريف كان عند الله عظيما أي أمرا عظيما وخطبا هائلا ولا يعرف مقدار ذلك إلا من يعرف مقداره عند الله العظيم • (إن تبدوا شيئا) مما يتجول في قلوبكم (أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء) خفي أو جلي (عليما) علما شاملا لا يعزب عنه ما دخل في الوجود أو بقي في ستار العدم •

(لا جناح عليهن في آبائهن ولا أبنائهن ولا إخوانهن ولا أبناء إخوانهن ولا أبناء أخواتهن) وهذه الآية الكريمة إستئناف لبيان من لا يجب عليهن الإحتجاب عنه • روي أنه لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب : أو نحن يا رسول الله نكلمهن أيضا من وراء حجاب ؟ فنزلت ••• ولم يذكر الله العم والخال لأنهما بمنزلة الوالدين أو لأنه اكتفى عن ذكرهما بذكر أبناء الإخوة وأبناء الأخوات • والمعنى أنه لا إثم عليهن في ترك الحجاب من آبائهن وسائر المذكورين في الآية ، وفي حكمهم كل ذي رحم محرم من نسب أو رضاع (ولا نسائهن) أي النساء المؤمنات (ولا ما ملكت أيمانهن) الظاهر أنه يشمل العبيد والإماء وإليه ذهب الإمام الشافعي ومذهب أبي حنيفة أنه مخصوص بالإماء (واتقين الله) في كل ما يخالف رضاه إيجابا أو سلبا (إن الله كان على كل شيء شهيدا) حاضرا عالما لا تخفى عليه خافية •

(إنَّ اللهَ وملائِكَتَه يُصَلُّونَ على النَّبِيِّ ، يا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صلوا عَلَيْهِ وسَلِّمُوا تَسْلِيماً)(٥٦)

إستئناف لبيان شرف الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند الله تعالى وأنه وملائكته يصلون عليه وإشارة إلى التعليل لما سبق • يعني أن النبي الزكي الذي شرفه بالصلاة عليه وأمر ملائكته بأن يصلوا عليه حقيق جدّاً

بوجوب رعاية قدره واحترامه وعدم إيذائه بأي وجه من الوجوه • وذكره باسم النبي إفادة لاستحقاق الصلاة عليه بصفة الرسالة بالطريق الأولى بناء على أن درجة الرسالة أعلى من درجة النبوة •

أخرج الإمام مالك وأحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه عن أبي حميد الساعدي أنهم قالوا : يا رسول الله كيف نصلي عليك ؟ فقال ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « قولوا أللهم صل على محمد وأزواجه وذريته كما صليت على آل إبراهيم ، وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد » • وأخرج الإمام أحمد والبخاري والنسائي وابن ماجه وغيرهم عن أبي سعيد الخدري قلنا : يا رسول الله هذا السلام عليك قد علمنا فكيف الصلاة عليك ؟ قال : « قولوا أللهم صل على محمد عبدك ورسولك كما صليت على إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم » ووردت بروايات أخرى كيفية الصلاة عليه ــ صلى الله عليه وسلم ــ بعضها أطول من بعض ويستفاد منها أن ليس المقصود الحصر في رواية واحدة وكيفية بل المقصود التوسعة في عبارات الصلوات عليه ــ صلى الله عليه وسلم ــ كيف كانت ، بل نقل عن جمع من الصحابة ومن بعدهم ــ رضي الله عنهم ــ أن كيفية الصلاة عليه ــ صلى الله عليه وسلم ــ لا يوقف فيها مع المنصوص ، وأن من رزقه الله تعالى بيانا فأبان عن المعاني بالألفاظ الفصيحة الصريحة التي تعرب عن كمال شرفه ــ صلى الله عليه وسلم ــ وعظيم حرمته فله ذلك • واحتج له بما أخرجه عبدالرزاق وعبد بن حميد وابن ماجه وابن مردويه عن ابن مسعود ــ رضي الله عنه ــ قال : إذا صليتم على النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ فأحسنوا الصلاة عليه ، فإنكم لا تدرون لعل ذلك يعرض عليه • قالوا : فعلمنا • قال : قولوا أللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك

على سيد المرسلين وإمام المتقين وخاتم النبيين محمد عبدك ورسولك إمام الخير وقائد الخير ورسول الرحمة ، أللهم ابعثه مقاما محمودا يغبطه به الأولون والآخرون ، أللهم صلى على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد .

وأفضل الكيفيات في الصلاة عليه ــ صلى الله عليه وسلم ــ ما علمه رسول الله ــ عليه الصلاة والسلام ــ لأصحابه بعد سؤالهم إياه لأنه لا يختار ــ صلى الله عليه وسلم ــ لنفسه إلا الأشرف والأفضل . ونقل ابن عرفة عن ابن عبدالسلام أنه لابد في الصلاة عليه ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن يزيد التسليم ، كأن يقول : أللهم صل على محمد وسلم تسليما ، أو صلى الله تعالى عليه وسلم تسليما . واستدل النووي رحمه الله تعالى بالآية الكريمة على كراهة إفراد الصلاة عن السلام وعكسه لورود الأمر بهما معا فيها . والأمر في الآية عند الأكثرين للوجوب بل ذكر بعضهم إجماع الأئمة والعلماء عليه ، فقيل : واجبة في التشهد مطلقا ، وقيل : واجبة في مطلق الصلاة ، وقيل : يجب الإكثار منها من غير تعيين عدد ، وقيل : تجب في كل مجلس مرة وإن تكرر ذكره ــ صلى الله عليه وسلم ــ مرارا . وقيل : تجب في كل دعاء . وقيل : تجب كلما ذكر ــ عليه الصلاة والسلام ــ . وبه قال جمع من الحنفية منهم الطحاوي ، وعبارته : تجلب كلما سمع ذكره من غيره أو ذكره بنفسه . وجمع من الشافعية منهم الإمام الحليمي والاستاذ أبو إسحاق الأسفرائني والشيخ أبو حامد الأسفرائني وجمع من المالكية منهم الطرطوشي وابن العربي والفاكهاني وبعض من الحنابلة .

(إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ ، وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيناً(٥٧) وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ المُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا ، فَقَدِ احْتَمَلُوا

بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً(٥٨) يا أَيُّها النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِساءِ الْمُؤْمِنِينَ : يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ ؛ ذلِكَ أَدْنى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ ، وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً(٥٩) لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ، وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ، ثُمَّ لا يُجاوِرُونَكَ فِيها إِلاَّ قَلِيلاً(٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَما ثُقِفُوا ، أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً(٦١) سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً)(٦٢)

قوله تعالى : (إن الذين يؤذون الله ورسوله) عام في كل من يؤذي الله ورسوله ــ صلى الله عليه وسلم بأي وجه من الوجوه فمن إيذاء الله ورسوله الكفر بالله والإشراك به تعالى وقول اليهود (يد الله مغلولة) أو قولهم (عزير ابن الله) وقول النصارى : المسيح عيسى ابن مريم ابن الله ، وسلب أية صفةٍ كمالية عنه تعالى الله عن ذلك كله • ومن إيذاء الرسول قولهم فيه : هو ساحر ، أو كاهن ، أو شاعر ، أو مجنون • أو إيذاؤه بإساءة الأدب مع زوجاته أمهات المؤمنين في أيّ وقت وبأي وجه من الوجوه وإساءة الأدب مع آله وأصحابه ، أو نسبة الخيانة إليهم في شئون الدين ونسبة الضلال إلى جمهرة أمته ــ صلى الله عليه وسلم ــ وايذاء أولياء الله تعالى من العلماء العاملين والصالحين وغير ذلك مما هو مشروح في الكتب المعتمدة كالشفاء والمواهب اللدنية وغيرهما وخبر أهل التحقيق (لعنهم الله) في الدنيا والآخرة في المبتدأ والمنتهى أي طردهم وأبعدهم من رحمته بحيث لا ينالون شيئا منها (وأعد لهم عذابا مهينا) وهذا في حق الله ورسوله مباشرة (و) أما (الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير

ما اكتسبوا) أي بغير جناية يستحقون بها الأذية حسب الشرع الشريفه ويدخل فيه طرق الإيذاء كلها من هتك الأعراض ونهب الأموال وسلب الجاه والحال والسعاية فيهم والوشاية عليهم والبهتان ، وما التحق بها (فقد احتملوا بهتانا) أي فعلا شنيعا يبهت عليه الرجل أو المرأة المظلومة ؛ وذكره بعبارة البهتان إيماء إلى فظاعة البهتان بين وجوه الإيذاء (وإثما مبينا) ذكره للتأكيد على أن ذلك الإيذاء إثم واضح وفسوق فاضح .

وبعد إنزال التهديد على الناس الناسين لحقوق الله ورسوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ والمؤمنين والمؤمنات التفت إلى الحبيب وأمره بأن يقول لأهله خاصة ولغيرهن عامة أن يدركن خطر موقفهن من الناس ويحترمن حقوقهن حتى لا يتورطن في عقوقهن ، فقال تعالى : (ياأيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن) أي يقربن على أبدانهن جلابيبهن أي السترات الزائدة على الكسوة المعتادة بحيث تسترُ الرءوسَ والرقاب والنحور والصدور ومواقع الزينة منهن ، وهذا حكم شامل لنساء النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ وبناته ونساءِ المؤمنين بلا فرقٍ وتفاوت بينهن ؛ وأما الحجاب بمعنى ستر جميع البدَن من الرأس إلى القدم بحيث لا يظهر أشخاصهن فهذا خاص بأمهات المؤمنين وبناتهِ ــ رضي الله تعالى عنهن بنص قوله تعالى : (وإذا سألتموهن متاعا فاسئلوهن من وراء حجاب) لأنهن عندما سئلن متاعاً فربما تسأل إحدى الأمهات وربما تسأل إحدى البنات ، لأن الكلام جرى في دخول بيوت النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، فرعاية احترام المقام لا تفرق بين الأمهات والبنات . هذا إذا كان الناس سالكين مسلك السداد ، وأما إذا سلكوا مسلك الفساد فلا يبقى فرق عند ذاك بين نساء المؤمنين وسائر النساء من حيث وجوب التستر وتغطية الوجوه عن أنظار الفاسدين ، وإلا كان التبرز إفسادا للدين . ثم

عاد إلى تأكيد الرعاية بقوله الكريم : (ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين) أي ذلك المذكور من إدناء الجلابيب عليهن وانتهاج منهج الأدب أقرب إلى حصول نتيجة هي أن يُعْرفن بأنهن من نساء النبي وبناته أو من نساء المؤمنين الحرائر العفيفات فيحتشمن ولا يؤذين من جانب أصحاب الأمراض النفسية بالتحرش بهن ، والوقوف على طريقهن ، والنظر إليهن ، وغير ذلك من سوء الآداب ... (وكان الله) ولم يزل (غفورا) كثير المغفرة للمتجاوزين عن الحدود (رحيماً) كثير الرحمة وإلا صب على الناس العذاب صَبّاً فلم تبق معذرة لأي مؤمن ومؤمنة بأنه سيقف للمحاسبة عند الله رب العالمين .

وبعدَ أن سَدَّ باب الفساد بالمواعظ والإرشاد وإحكام الأحكام التَفَتَ من جانب المؤمنين الصادقين إلى المارقين المنافقين فقال مهددا متوعدا لهم : (لَئِن لَم يَنْتَهِ المنافِقون) عما هم عليه من إثارة الفساد بين العباد (و) لم ينته (الذين في قلوبهم مرض) من ضعف الإيمان أو اضطراب الحال (والمُرْجفونَ في المدينة) أي المزلزلون للقلوب فيها بنشر أخبار السوء عن المسلمين الداخلين والخارجين، وهم اليهود الحاقدون على الإسلام وأهله دينا ودنيا بجهاتهما (لنُغرينكَ بهم) أي لنأمرنك بقتالهم وإبادتهم حتى لا تنتشر المفاسد العائقة عن الإسلام (ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا) افنائهم بالمرة أو ابتعادهم عن الحرة (ملعونين) منصوب على الذم ذما أينما كانوا وبانوا لأنهم خانوا (أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا) وصيغة التكثير لتأكيد التدمير ، وليس هذا الحكم سنة مشروعة في الحال بل (سنة الله في الذين خلوا من قبلُ) أي سن سنته هذه في تدمير المعاندين قبل وتجد باستمرار الحال إلى الاستقبال (ولن تجد لسنة الله تبديلا) فلا تغيير لقضائه الأزلي فيما لا يزال وهو الكبير المتعال .

(يَسْئَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ ، قُلْ : إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ ، ومايُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً(٦٣) إِنَّ اللهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً(٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ، لَا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً(٦٥) يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ :يالَيْتَنَا أَطَعْنَا اللهَ وأَطَعْنَا الرَّسُولا(٦٦) وَقَالُوا: رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ(٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً)(٦٨)

قوله تعالى (يسئلك الناس عن الساعة) أي عن وقت قيامها (قل إنما علمها عند الله) لا يطلع عليه أحدا لا ملكا ولا إنسا ولا جنا • ثم خاطب حبيبه فيقول : (وما يدريك) أي أي شيء يعلمك بها أي لا يعلمها أحد إلا الله (لعل الساعة تكون قريبا ؟) أي لعلها توجد في زمان هو قريب من زمانكم هذا وكان المشركون يسألونه عن وقتها تعنتا وتعاندا واستهزاء بها وبوجود العذاب فيها ثم قال تعالى (إن الله لعن الكافرين) كلهم (وأعدّ لهم سعيراً) أي نارا شديدة الاتقاد وشديدة الالتهاب (خالدين فيها) أي حالكونهم خالدين فيها (لا يجدون وليا) يتولى أمورهم ويحفظهم ويمنعهم عن دخولها (ولا نصيرا) ينصرهم فيخرجهم منها وذلك (يوم تقلب وجوههم في النار يقولون : ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا) حتى لا نبتلي بهذا العذاب الشديد • (وقالوا) عند ابتلائهم به : (ربنا إنا أطعنا سادتنا) أي ماوكنا وأمراءنا (وكبراءنا) أي وجهاء منا في المجتمع للذين كنا نستمع لهم (فأضلونا السبيلا) بما دعونا إليه وأغرونا به وزينوه عندنا (ربنا آتهم ضعفين من العذاب) أي عذابين يماثل كل الآخر عذابا على كفرهم في أنفسهم ،

وعذابا على إضلالهم لنا ونحن جاهلون (والعنهم لعنا كبيرا) أي واطردهم من بيت رحمتك وسدّ عليهم باب الرجوع •

(يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسى فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قَالُوا ، وَكَانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهاً(٦٩) يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً(٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)(٧١)

قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا) نزلت عندما سمع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من المؤمنين الضعفاء النفوس المختلطين باليهود والمنافقين بعض كلمات تافهة مؤلمة ، فيقول سبحانه وتعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا) ضعفاء في العقول والنفوس ولا تستمعوا لأقوالهم ولا تكونوا (ك) الأسرائيليين (الذين آذوا موسى) بنسبته إلى بعض العيوب كالأدرة ؛ ولم تكن فيه (فبرأه الله مما قالوا) أي فأظهر براءته من قولهم أو من العيب الذي قالوه في حقه بأن أظهر على مرأى ومسمع منهم أنه ليس فيه ذلك العيب • أخرج الإمام أحمد والبخاري والترمذي من طريق أبي هريرة قال قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إن موسى كان رجلا حييا ستيرا لا يرى من جلده شيء استحياء منه فآذاه من آذاه من بني إسرائيل ، وقالوا: مايستتر هذا الستر إلا لعيب بجلده إما برص واما أدرة وإما آفة، وأن الله أراد أن يبرئه مما قالوا ، وأن موسى ـ عليه السلام ـ خلا يوما وحده ، فوضع ثيابه على حجر ثم اغتسل ، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها ، وأن الحجر غدا بثوبه ، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر ، فجعل يقول : ثوبي حجر ، ثوبي حجر • حتى انتهى إلى ملأ بني إسرائيل ، فرأوه عريانا أحسنَ

ما خَلَقَ الله وبرأه مما يقولون ، وقام الحجرُ فأخذَ ثوبه فلبسه ، وطفق بالحجر ضربا بعصاه » (وكان عند الله وجيها) أي ذا جاه ومنزلة عند ربه تعالى .

واخرج ابن أبي حاتم عن الحسن أنه قال (وجيها) مستجاب الدعوة . وزاد بعضهم : ما سأل شيئا الا أعطي إلا الرؤية في الدنيا . ولا يخفى أن استجابة الدعوة من فروع موافقة القدر (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله) في كل ماتفعلون وتتركون حتى تكون سلبيات أموركم وإيجابياتها على مرضاة الله تعالى (وقولوا) في كل ما تتكلمون به أو عنه (قولا سديداً) مستحكم الأساس موجبا للخلاص ومصلحا للنفس والناس (يصلح لكم أعمالكم) بالإثابة عليها (ويغفر لكم ذنوبكم ، ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما) لا يقدر قدره إلا الله .

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمواتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ ، فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ، وَحَمَلَها الإِنْسَانُ ، إِنَّه كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً(٧٢) لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ ، وَيَتُوبَ اللهُ عَلَى الْمُؤمنين وَالْمُؤْمِنَاتِ ، وكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً)(٧٣)

قوله تعالى (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال) ... الآية كثرت أقوال المفسرين في بيان المراد بالأمانة في هذه الآية الشريفة على أساس روايات عديدة عنه ـ صلى الله عليه وسلم ففسروها بالإيمان وبالتوحيد وبالصلاة والصيام والغسل من الجنابة والوفاء بالعهود وبرعاية القوى الإنسانية وبالحواس . وقال أبو حيان : والظاهر أنها كل ما يؤتمن عليه من أمر ونهي وشأن دين ودنيا ، وتشمل الأمانة بهذا المعنى كل ما يجب

رعايته فعلا من الواجبات وتركا من المحرمات ، وتخصيصها ببعض ما ورد في الأحاديث الشريفة ليس للحصر ، وإنما هو لبيان المهم بحسب المقام ، وكذلك تكلموا في أن عرض الأمانات على السماوات والأرض والجبال مع أنها جوامد على أي وجه يكون ، فمنهم من قال إن المقصود من ذلك ليس العرض في الواقع بل التمثيل بمعنى أن القيام بهذه الأمانات في درجة من الأهمية لو كان الله سبحانه وتعالى عرضها على تلك الأجرام العظيمة ما كانت تقبلها اختيارا لصعوبة القيام بحقها ومع ذلك حملها الإنسان .

ومنهم من قال : إن الآيات والأحاديث أدلة متضافرة على أن كل موجود له إدراك مناسب لشخصه وعلاقة شريفة وارتباط بجانب قدسه ، كما أن الإنسان مزود بالعقل الذي يستتبع العلم بالضروريات ، ويصلح لاكتساب النظريات ، فهو سبحانه وتعالى لما خَلَقَ هذه الأجرام خلق فيها فهما ، وقال لها : إني فرضت فريضة وخلقت جنة لمن أطاعني فيها ، ونارا لمن عصاني. فقلن : نحن مسخرات على ما خلقتنا لا نبتغي فريضة ولا نبغي ثوابا ولا عقابا . ولما خلق آدم عرض عليه مثل ذلك فحمله فكان الحامل لتلك الأمانة ظلوماً لنفسه بتحمل مشاقها وجهولاً بوخامة عاقبتها .

وقوله تعالى : (ليعذب الله) ... الآية متعلق بقوله عرضنا ، واللام لام العاقبة ، أي فكان عاقبة ذلك العرض وإباء الموجودات وتحمل الإنسان أن (يعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ، ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات ، وكان الله غفورا رحيما) حيث عفا عن كثير من أهل العصيان وترحم وأفاض الرحمة على عباده من الإنسان والجن . ومما يجب الانتباه له أن نوع الجن من حَمَلة الأمانة كالإنسان والرسل الكرام أرسلوا إليهم كما أرسلوا إلى الإنسان ، لكن اكتفى عن ذكره بذكر مقابله لأن الكلام في ظلم الإنسان وجهالته ، ولاسيما من عاصر سيدنا محمدا خاتم الأنبياء والرسل ــ عليهم الصلاة والسلام ــ .

سورة سبأ ، مكية ، وهي أربع وخمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَهُ ما في السَّموات وما فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ(١) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وما يَخْرُجُ مِنْهَا ، وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ، وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ(٢) وقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : لاتَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ : بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ ، وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْبَرُ إلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ(٣) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ(٤) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنا مُعاجِزِين أولئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٍ(٥) وَيَرَى الَّذِين أوتُوا الْعِلْمَ الَّذي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ ، وَيَهْدِي إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)(٦)

قوله تعالى : (الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض) أي له السماوات والأرض وما فيهما خلقا وملكا وتصرفا (وله الحمد في الآخرة)

أي له الحمد على آلائه ورحمته ونعمته في الآخرة كما له الحمدُ في الاولى . وقال بعض إن في الآية الكريمة احتباكا أي حذف شيىء سابقا بقرينة موجودة في اللاحق وبالعكس . وبيانه : الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض في الدنيا ، وله الحمد على ما في الآخرة من الثواب والنعيم الخالد في الآخرة . وذكر الآخرة رد على من قال : إن نعيم الآخرة من متفرعات العبادة والطاعة في الدنيا ، ويجب عليه إفاضته فلا يستحق الحمد عليها . ووجه الرد أن واجب الوجود خالق لكل موجود فكل طاعة ناشئة من العباد ومن مخلوقاته تعالى إذ لو كانت من مخلوقاته لأتى كلُّ عابدٍ بعبادة تفوق سائر العبادات ، على أن التوفيق على اكتسابها لا دخل لأحد فيه إلا الله تعالى (وهو الحكيم) الذي يفعل ما يفعله مقرونا بالحكمة ويترك ما يترك مقرونا بها (الخبير) بمبادىء كل موجود وعواقبه وبسريات كل إنسان وبجهرياته ، فلا تخفى عليه خافية من كائناته .

وقوله تعالى : (يعلم ما يلج في الأرض) ... الآية استئناف لبيان إحاطة علمه تعالى بالأشياء أو لتفسير الخبير فيقول : (يعلم ما يلج) أي يدخل (في الأرض) فيشمل ما يدخل بذاته من الحشرات والذرات الدقيقة التي يصعب دركُها بالعين المجردة ، أو يدخل فيها بالمعالجة كالأموات ، وما يسري في أَعْماقها من الأمطار والسيول (وما يخرج منها) من النبات بأصنافه ، أو من الحشرات المُنبعثة منها بإرادته تعالى وإجراء سنته الكونية ؛ فإن كل ما يكسب الوجود فهو ممكن من الممكنات ويجب أن يكون له مرجح يرجح وجوده على عدمه ، وليس ذلك شيئا مثله ، وإنما هو فاعل يستغني في وجوده عن غيره أو من المعادن النابعة السيالة كالماء والنفط وما شاكلهما (وما ينزل من السماء وما يعرج فيها) من الملائكة والطيور

والأمطار والثلوج والبرد والصواعق والهواء ، وسائر المواد النازلة منها كالمنّ النازل في مواسم معينة ، وغيرها مما لا يعلمه إلا الله .

ومنه ما حدث في عصرنا من صعود الصواريخ والإنسان والحيوانات والكواكب والأقمار الصناعية التي تصعد وتنزل وتدور في الجوّ ، ولم يخطر شيء منها ببال أحدٍ ، ويمكن حدوث أشياء أخرى في المستقبل القريب أو البعيد ، فإن كل ذلك مما تعلق به علمه تعالى (وهو الرحيم) بالعباد في الإنزال والإصعاد والخروج والعروج (الغفور) لذنوب المؤمنين المغترين بمكاسبهم العلمية غافلين عن أن كل ما يجري مشمول لعلمه تعالى ويحدث بالأمر (وقال الذين كفروا) بالله وعلمه وقدرته وبخروج أنفسهم وخروج الكائنات من العدم إلى الوجود بقدرة واجب الوجود . متناسيا كل ذلك : (لا تأتينا الساعة) أي الساعة الموعودة الواقعة بعد فناء هذا العالم وإيجاد عالم آخر ، وبعث الموتى من القبور للحساب والميزان والجنة والناس (قل : بلى وربي لتأتينكم) أي الساعة الموعودة (عالم الغيب) بدل من ربي أي عالم كل شيء لاسيما الأمر الغيب عندكم من الساعة وما وراءها (لا يعزب) أي لا يبعد (عن) علمه (مثقال ذرة) مقدار أصغر نملة (في السماوات ولا في الأرض) وقولهُ (ولا أصغرُ من ذلك ولا اكبر) منه (إلا في كتاب مبين) جملة مؤكدة لنفي العزوب مبتدأ وخبر، والخبر، قوله : الا في كتاب مبين. والمراد بالكتاب المبين هو اللوح المحفوظ . وقوله (ليجزي الذين آمنوا) متعلق بقوله لتأتينكم أي لتأتينكم الساعة ليجزي الذين آمنوا (وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة) لما فرط منهم (ورزق كريم) لا تعب فيه (والذين سعوا في آياتنا) أي ردها ومعاندتها حالكونهم (معاجزين) أي مسابقين للرسول وأصحابه أو لنوابهم في مستقبل الأزمان (أولئك لهم عذاب من رجز) أي من سيىء العذاب (أليم) أي مؤلم .

وقوله تعالى : (ويرى الذين) ابتداء كلام مسوق للاستشهاد بأولي العلم على أولي الجهل المعاندين أي ويرى الذين (أوتوا العلم) من أصحاب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن يأتي بعدهم أو من آمن من علماء أهل الكتاب وقوله : (الذي أنزل إليك من ربك) مفعول أول وقوله (هو الحق) مفعول ثان ، والمراد بالموصول القرآن الفاصل بين الحق والباطل ، وقوله (ويهدي إلى صراط العزيز الحميد) معطوف على الحق عطف الفعل على الاسم لأنه في تأويله .

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ، إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ؟(٧) أَفْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ ؟ بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ(٨) أَفَلَمْ يَرَوْا إِلى ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وما خَلْفَهُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ ؟ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ ، أَو نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ(٩)

قوله تعالى : (وقال الذين كفروا) القائلون هم كفار قريش فقال بعضهم لبعض على وجه التعجب : والاستهزاء (هل ندلكم على رجل) يريدون به سيدنا محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ (ينبئكم) أي يخبركم بأمر مستغرب جدا ، وهو أنه (إذا مزقتم كل ممزق) وصرتم ترابا في القبور (إنكم لفي خلق جديد) أي إنكم إذا متم وتبدلتم بمادة ترابية فإنكم تبعثون من قبوركم وتعودون الى الصورة والسيرة السابقة في الدنيا (أفترى على الله كذبا أم به جنة ؟) أي أكذب على الله متعمدا بكل عقل وشعور ؟ أم كذب عليه وهو متلبس بالجنون والاختلال في العقل ؟ وخلاصته : أنهم

قرروا أنه كاذب في إخباره بذلك ، ولكن رَدَّدُوا بين الكذب على التعمد أو على الجنون والاختلال في العقل (بل الذيــن لا يؤمنــون بالآخــرة في العذاب والضلال البعيد) إبطال لما قاله الكافرون بقسميه بمعنى أنه ليــس ما أخبر به من الكذب لا تعمدا ولا جنونا ، ولكن الذيــن لا يؤمنــون في شعور فاسد يوجب حلول العذاب بهم في الآخرة وفي الضلال البعيد عن الحق وبعد أن رد عليهم زعمهم الفاسد ذَكَّرَهُم بما يَقطَعُ عِرقَ الضلالِ أو يقلعه من أساسه إذا نَظَرُوا إليه نَظَرَ الاعتبار فقال : (أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم ؟) إلى الحقائق التي أحاطت بهم من كل جانب من السماء والأرض ، ونحن في إمكانية بحيث (إن نشأ نخسف بهــم الأرض) كمــا خسفناها بقارون (أو نُسقِطْ عليهم كسفاً) أي قِطعا كباراً من الســماء حتى تهلكهم وتدمرهم (إن في ذلك) التذكير (لآية) واضحة الدلالــة على أن الإعادة وبعث الأموات عندنا كبدء خليقتهم ، وأن لا صعب علينا . وهذه الآية نافعة (لكل عبد منيب) راجع إلى الله ويريد أن يكون مــن عبــاده العقــلاء المتفكريــن .

(وَلَقَدْ آتَيْنا داوُدَ مِنَّا فَضْلاً ، ياجِبالُ أَوِّبِي مَعَــهُ ، وَالطَّيْرَ ، وَأَلَنَّا لَهُ الحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سابِغاتٍ ، وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ، واعْمَلُوا صالِحاً إِنِّي بِمـا تَعْمَلُونَ بَصِيـرٌ (١١) وَلِسُلَيْمانَ الرِّيـحَ غُدُوُّهَا شَـهْرٌ ، وَرَواحُهـا شَـهْرٌ ، وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ القِطْرِ ، وَمِنَ الجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ، وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنا نُذِقْهُ مِنْ عَذابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ ما يَشاءُ مِنْ : مَحارِيبَ ، وَتَماثِيلَ ، وجِفانٍ كَالجَوابِ ،

وقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ ، اعْمَلُوا آل دَاوُدَ شُكْراً ، وقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ(١٣) فلمَّا قَضَيْنَا عليه المَوْتَ ما دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إلاَّ دَابَّةُ الأرضِ تَأْكُلُ مِنْسأَتَهُ ، فَلَمَّا خَرَّ تَبيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَو كانوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مالَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ)(١٤)

قوله تعالى (ولقد آتينا داود مِنّا فضلا) أي نعمة زائدة على رتبة النبوة والرسالة وهي التي تستفاد من الآيات التالية من حسن الصوت البارع ، وتسبيح الجبال والطير معه ، وإلانة الحديد له . قيل : وباختصاصه بولد شاركه في رتبة النبوة ، واختص بملك لم يكن لأحد من الملوك بعده . وقوله (يا جبال أوبي معه) بدل من فضلا بتقدير قولنا بالنصب ، أو من آتينا بتقدير قلنا ، أي ولقد آتينا داود منا فضلا قولنا يا جبال أوبي معه أو ولقد آتينا داود منا فضلا قلنا (يا جبال أَوبي معه) أي سَبّحي معه قاله ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ . والفعل أمر للمخاطبة من التأويب ، والمراد رجعي معه التسبيح وردّديه . روي أنه ــ عليه السلام ــ كان إذا سبح سبحت معه الجبالُ مثل تسبيحه بصوت يسمع منها . وذلك خارق للعادة خلقه الله له كتسبيح الحصى في كف الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ . وقوله (والطير) بالنصب بإضمار فعل تقديره وسخرنا له الطير ، أي للتسبيح معه كالجبال (وألنّا له الحديدَ) أي وجعلناه في يده كالشمع والعجين يصرفه كما يشاء من غير نار ولا ضربٍ بآلة . والفعل ماض للمتكلم مع الغير من باب الإفعال مجرده لان ، أجوف يائي نقل إلى بابه وأعلّ بحذف العين . وقوله : (أن اعمل سابغات) أن مصدرية ، وهي على حذف حرف الجر ، أي وألنا له الحديد لعمل سابغات أي دروعٍ سابغات أي كاملات واسعات وقوله (وَقدرْ في السَّرد) معطوف على قوله أنِ اعمل سابغات أي لتقدير السرد أي لتقدير النسج في الدّروع بحيث تكون حلقاتها متناسبة.

وقوله : (واعملوا صالحا) خطاب لداود وآله ــ عليهم السلام ــ (إني بما تعملون بصير) أي لا أُضيعُ عملَ عاملٍ منكم في الدين .

وقوله : (ولسليمان الريح) أي وسخرنا لسليمان الريح فيقعد هو وأتباعه على الفرش المخصوص فتحركه الريح وتصعد به إلى مستوى مناسب للسير وتوصلهم إلى المكان المعين المقصود (غدوها شهر ورواحها شهر) أي حركتها بهم بالغداة مسيرة شهر وحركتها بالعشي كذلك (وأسلنا له عين القطر) وأريد بعين القطر معدن النحاس ، ولكنه سبحانه وتعالى أساله كما ألانَ الحديدَ لداود فنبع كما ينبع الماء من العين . وقال بعضهم : القطر النحاس وعين بمعنى الذات ، ومعنى أسلنا أذبنا ، فالمعنى اذبنا له النحاس على نحو ما كان الحديد يلين لداود ــ عليه السلام ــ ، فكانت الأعمال تتأتى منه وهو بارد دون نار . عن ابن عباس والسدي ومجاهد قالوا : اجريت له ــ عليه السلام ثلاثة أيام بلياليهن وكانت بأرض اليمن ، وقيل : كان يسيل له في الشهر ثلاثة أيام أي لسد حاجته بذلك .

(ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه) أي أن الله تعالى سخر له الجن لأعمال مقصودة منه (ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير) أي في دار الآخرة . وقال بعض : في الدنيا وقوله تعالى : (يعملون له ما يشاء) إستئناف لبيان نوعية أعمال الجن فقال تعالى (يعملون له) أي لسليمان (ما يشاء) عمله (من محاريب) جمع المحراب بمعنى القصر أي يعملون له القلاع الحصينة والقصور المنيعة . والمحراب في الأصل صيغة مبالغة اسم لمن يكثر الحرب فسمي به القصر تسمية للمكان باسم المتمكن . ويطلق على المكان المعروف الذي يقف الإمام بحذائه في وسط الحائط ، ولم يكن ذلك في الصدر الأول ، وأحدثوه بعدُ إشارة إلى جهة الكعبة الشريفة زادها الله شرفا . (وتماثيل) جمع تمثال والمراد بها صور الملائكة والأنبياء

والصلحاء السابقين ، ولم يكن التصوير في شريعته حراما (وجفان) جمع جفنة وهي ما يوضع فيها الطعام (كالجواب) جمع جابية بمعنى الحوض ، أي جفان واسعة جدا • (وقدور) جمع قدر وهو ما يطبخ فيه الطعام (راسيات) أي ثابتات في أماكنها لا تنزل عنها لكبر حجمها (اعملوا آل داود شكرا) بتقدير القول أيوقلنا اعملوا آل داود شكرا كثيرا مكافئا لبعض النعم (وقليل من عبادي الشكور) لأن الشكور هو الذي يشكر ربه على كل حال • (فلما قضينا عليه) أي على سليمان ــ عليه السلام ــ (الموت) وتوفيناه (مادلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل مِنْسَأَتَهُ) الدابة هنا السوس والمنسأة العصا (فلما خرّ) أي سقط سليمان عند سقوط منسأته (تبينت) أي علمت (الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب) كما زعموا (ما لبثوا في العذاب المهين) أي لعلموا بموت سليمان ــ عليه السلام ــ ، ولم يستمروا على الأعمال التي سخرهم لها ، وروي في القصة روايات أقومها أن داود ــ عليه السلام ــ أسس بناء بيت المقدس في موضع فسطاط موسى ــ عليه السلام ــ فمات قبل أن يتمه فوصى به إلى سليمان فأمر الجن بإتمامه فلما بقي من عمره سنة سأل الله تعالى أن يُعمي عليهم موته حتى يفرغوا من بناء المسجد ولتبطل دعواهم علم الغيب وكان من عادة سليمان ــ عليه السلام ــ أنه إذا دخل المحراب للعبادة لا يتكلم معه أحد ولا يزعجه حتى يفرغ منها ، فأتى محل عبادته حسب عادته واعتمد على عصاه وبينما هو كذلك توفاه الله ، وبقي كما كان على عصاه ولم يتجاسر أحد على تنبيهه أو ازعاجه حتى يعلموا بموته ، فأرسل الله السوس تأكل عصاه حتى سقطت فسقط سليمان ــ عليه السلام ــ ، وعلم بوفاته فنقلوه ودفنوه في المقبرة الخاصة ، فعلمت الجن وغيرهم أن الجن لا يعلمون الغيب كما زعموا معرفتهم له وإلا كانوا يعلمون بموت سليمان قبل سقوط عصاه وسقوطه عليها وما

استمروا على العمل في بناء المسجد ، ولكنهم جهلوه فعملوا حتى تم بناء المسجد ولله تعالى في شئونه حِكَم لا يدرك إلا قليل منها • بقى أن في هذه الرواية أشياء •

الأول أن قوله : إن داود أسس بناء بيت المقدس معناه خطط تجديد بناء المسجد القديم الذي أسسه جدهم إبراهيم ـ عليه السلام ـ لما روي من أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ هو الذي أسس بيت المقدس بعد الكعبة بأربعين ثم خرب وأعاده داود ومات قبل أن يتمه ، فتم بناؤه على يد سليمان إلا قليل منه كمل بعد موته ، ولم يعلم العمال به •

الثاني أن الفسطاط وهو نوع من البناء كغرفة خاصة لم يبنه موسى ـ عليه السلام ـ لموته في التيه وكأنه كان بناءً رمزيا بناه يوشع ـ عليه السلام ـ بعد فتح بيت المقدس إبقاء لاسم سيدنا موسى بينهم • وما روي من أن سليمان فرغ من بناء بيت المقدس وتعبد فيه وتجهز بعده للحج شكرا لله تعالى على ذلك •• فإن صحت الرواية فمعناه أنه قرب إتمام المسجد الأساس وصلى فيه وأعلن أنه ينوي حج بيت الله الكعبة شكرا لله تعالى ، لكنه توفى قبل الوفاء بما نواه ، ولله حكم في ماقضاه والله أعلم •

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ : جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ ، كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ(١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ، وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ(١٦) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ؟(١٧) وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً ، وَقَدَّرْنَا فِيهَا

السَّيْرَ ، سِيرُوا فِيها لَيالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ(١٨) فَقالُوا : رَبَّنا باعِدْ بَيْنَ أَسْفارِنا ، وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ وَمَزَّقْناهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ(١٩) وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَما كانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْها فِي شَكٍّ ، وَرَبُّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ)(٢١)

قوله تعالى : (لقد كان لسبأ) جملة سيقت لتذكير الناس بأن جزاء من كفر بأنعم الله الابتلاء بالنقمة كقوم سبأ . وهو اسم لجد القبيلة . وفي بعض الأخبار عن فروة بن مُسَيّك قال : أتيت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقلت : يا رسول الله أخبرني عن سبأٍ ، أرجلٌ هو أم امرأة ؟ فقال : « هو رجل من العرب ، وَلَدَ عشرة ، تيامنَ منهم ستة (أي أخذوا جهة اليمين من البلاد) وتشاءم منهم أربعة (أي أخذوا جهة الشمال) فأما الذين تيامنوا : فالأزد ، وكندة ، ومَذحج ، والأشعريون ، وأنمار . ومنهم بجيلة وأما الذين تشاءموا : فعاملة، وغسان، ولَخْم، وجذام » والسبأ بن يشجب كينصر بن يَعْرب بن قحطان . والسبأ أوّل ملوك اليمن في قولٍ ، واسمه عبد شمس ، وإنما سمي سبأ لأنه أول منْ سَبا السَّبْيَ مِن ولد قحطانَ فيقول اللهُ سبحانه (لقد كان لسأ) أي القبيلة المشهورة باسم أبيها الأعلى (في مسكنهم) أي في موطنهم الذي استقروا فيه (آية) آية عظيمة دالة على توفير نعمة الله لهم وقوله (جنتان) بدل من آية (عن يمين وشمال) أي إحديهما عن يمين المسكن والأخرى عن شماله (كلوا من رزق ربكم) أي فقلنا لهم على لسان نبيهم ، أو بلسان الحال الذي يفهمه أهل الحكمة

(واشكروا له) برعاية العدل فيها ، فلا يظلم أحد أحداً بالاستيلاء على حقه وتنقيص رزقه ، وأدوا واجب الله منها للمستحقين واثبتوا على عبادة من أنعم عليكم بها ، ولا تشركوا به أحداً (بلدة طيبة ، ورب ّ غفور) أي هذه البلدة المحفوفة بالجنتين (بلدة طيبة) المناخ والهواء ، وافرة الرزق كثيرة الفواكه ، حلوة المناظر . (و) الرب الذي رزقكموها (رب غفور) كثير المغفرة لأهل الإنابة والندم والرجوع إليه . فأعرضوا عن الشكر وأنكروا نسبة النعمة إلى منعمها (فأرسلنا عليهم سيل العرم) من إضافة الموصوف إلى الصفة أي السيل الباطش الشديد إذا أتى على شيء قلعه عن أساسه ولم يبق له أثرا . وذلك السيل حصل من انشقاق السد الذي بنوه بين الجبلين وخزنوا فيه المياه الكثيرة الكافية للجنان والمزارع والشرب وسائر الحاجيات ... وبعد أن انشق السد اختل توازن الماء مع الجنان فهلكت وضاعت ، ولم يبق منها إلا أشواك تعيش بلا ماء كما قال تعالي (وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط) أي ثمر مر ّ لا ينجرع (وأثل) وهو ضرب من الطرفاء (وشيىء من سدر قليل . ذلك) الجزاء (جزيناهم بما كفروا) أي بسبب كفرهم بالله وبنعمته (وهل نجازي) مثل هذا الجزاء (إلا الكفور) بأنعم الله الشكور . (و) كما جعلنا لهم جنتين عن يمين وشمال يسقيان بماء السد ّ في الايام والليالي كذلك (جعلنا بينهم) أي بين سكان البلدة (وبين القرى التي باركنا فيها) أي بكثرة الأرزاق والأمتعة وسائر الأشياء الاقتصادية ، وهي دمشق وما حولها ، وكانوا يتاجرون فيذهب أهل السبأ إلى الشام وأهل الشام إلى سبأ براحة (قرى ظاهرة) على خط طريق المرور كبلاد مهيأة للنزول بعد السير في النهار والاستراحة فيها . ومعنى ظهورها عمارتها وتخطيطها على الشارع العام للقوافل وتهيئته المواد الاستهلاكية شأن القرى التي على خطط الطرق (وقدرنا فيها السير) أي جعلنا المسافة بينها

على نسب محدودة متناسبة مع أهل القوافل (سيروا فيها ليالي وأياما آمنين) بتقدير القول ، أي وقلنا لهم بلسان الحق : سيروا فيها أي في تلك القرى ليالي وأياماً آمِنين عن الأذى الوارد على السابلة لرعاية الجوانب الأمنية فيها من كل جهة (فقالوا : ربنا باعد بين أسفارنا) أي ثم كفروا بنعمة الله الواردة عليهم داخلا وخارجا ، في الحضر والسفر وبطروا واغتروا بالأوهام والاعتبارات السافلة واعتمدوا فقط على الأسباب المادية ونسوا قدرة الخالق المسبب وتيسيره للأسباب فكأنهم دعوا الله تعالى لإزالة مابهم من النعمة فقالوا : ربنا باعد بين أسفارنا أي اجعل المنازل التي كنا ننزل فيها في تجاراتنا متباعدة لا يصل الإنسان من نقطة إلى أخرى بدون تهالك وزحمة أو هذا كناية عن زوال النعمة والأرزاق وقلة ذات اليد وضيقها ، بحيث لم يبق عندهم طاقة المسافرات والتجارات (و) منشأ كل ذلك أنهم (ظلموا أنفسهم) بمقابلة النعمة بالكفران ، والحقوق بالعقوق ، والطاعة بالعصيان (فجعلناهم أحاديث) فجعلنا أحوالهم ، وما جرى عليهم كحكايات يتحدث بها الناس في المجالس للاستراحة (ومزقناهم كل ممزق) أي مزقناهم كل تمزيق أي بعدنا بعضهم عن بعض لا يعرف الأخ أين مات أخوه ولا الولد أين ذهب بنوه • وصارت قصتهم مثلا سائرا فيقال عن قوم جرت عليهم المصائب (تفرقوا أيادي سبأ) • (إن في ذلك) الحادث الرهيب (لآيات) عديدة (لكل صبار) على الشهوات ليكف نفسه عنها حتى يفوز ببقاء النعمة وابتعاد النقمة (شكور) لله على ما أنعم به عليه حتى تزيد نعمته إلى أن يرجع إليه (ولقد صدّق عليهم إبليس ظنه) أي وجد ظنه بهم صادقا فإن الشيطان ظن بأكثرية الناس ومنهم أهل سبأ الفساد والغرور والعناد ، فوجد ظنه مطابقا للواقع (فاتبعوه) أي اتبع سبأ أو الناس الشيطانَ (إلا فريقا من المؤمنين) من سبأ أو من باقي الناس (وما كان له عليهم من سلطان)

أي وما كان لإبليس على أولئك الناس الفاسدين من سلطان وقوة فعلية يجبرهم بها على الكفر والعصيان ، وما اتبعوه لعلة من العلل (إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك) أي واتبعه من اتبعه ليتعلق علمنا في ما يزال بمن يؤمن بالآخرة ويترك الشكوك والاوهام ممن هو منها أي من الآخرة في شك (وربك على كل شيء حفيظ) أي وكيل قائم على أحواله وعالم بماضيه وحاله ومآله •

(قُلْ : ادعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمواتِ ، وَلا فِي الأَرْضِ ، وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ ، وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ(٢٢) وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ، حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا: ماذا قَالَ رَبُّكُمْ ؟ قَالُوا : الْحَقَّ ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ(٢٣) قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمواتِ وَالأَرْضِ ؟ قُلِ : اللهُ ، وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ(٢٤) قُلْ : لا تُسْئَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا ، وَلا نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ(٢٥) قُلْ : يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ، ثم يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ ، وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ(٢٦) قُلْ : أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ ، كَلاَّ بَلْ هُوَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٢٧) وما أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ)(٢٨)

قوله تعالى : (قل ادعوا الذين زعمتم) أي قل يا حبيبي للمشركين الذين ضرب لهم المثل بقصة سبأ ادعوا الذين زعمتم أي زعمتموهم آلهة من

دُونِ اللهِ • وقوله (لا يملكون مثقال ذرة) كلام مستأنف في موقع الجواب ، ولم يمهلهم ليجيبوا هم بأنفسهم إشعارا بأن هذا الجواب متعين ، فلا فرق بيننا وبينهم في الإتيان به (في السموات ولا في الارض) أي في عالم العلويات والسفليات (وما لهم فيهما) أي في السماوات والارض (من شرك) أي شركة أي نصيب (وما له منهم) أي من جانب الآلهة المزعومة (من ظهير) أي معين يعينه على ما أصابه من العذاب والآلام (و) إذا زعموا أنهم يشفعون لهم في وقت الحاجة فاعلم أن زعمهم هذا موهوم إذ (لا تنفع الشفاعة عنده) لأي شخص (إلا لمن أذن له) الرحمن أن يشفع ولا أذن لأي شافع يشفع لأن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء (حتى إذا فزع عن قلوبهم) أي يتربصون وينتظرون صدور الإذن بالشفاعة حتى إذا كشف الفزع عن قلوب الشافعين والمشفوعين لهم بالإذن (قالوا : ماذا قال ربكم ؟) في الشفاعة (قالوا : الحق) أي قالوا قال القول الحق ، وهو الإذن بالشفاعة لمن ارتضى وهم المؤمنون • (وهو العلي الكبير) إن كان من تتمة كلام الشفعاء فهو من جملة ما حمدوا به ربهم ، وإن كان مستأنفا من الحق سبحانه وتعالى فهو ثناء منه على ذاته بعلوه وكبريائه على برياته •

(قل : من يرزقكم من السموات والارض ؟) أمر الله سبحانه وتعالى حبيبه أن يقول لهم تبكيتا لهم (قل : الله) فإن الجواب الحق هو هذا (وأنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين) أي وإن أحد الفريقين منا ومنكم إما مهتد أو معتدٍ • وأو للإبهام على سبيل إرخاء العنان ، وإلا فالأمر جلي لا يحتاج إلى البيان • (قل) لهم يجب على كل عاقل أن يعرف حاله ويطلب حسن مآله ؛ فإنه يأتي يوم الحساب (لا تسئلون عما أجرمنا ولا نسئل عما تعملون • قل يجمع بيننا) أي بين الفريقين (ربنا) يوم القيامة (ثم يفتح بيننا بالحق) أي يقضي بيننا به (وهو الفتاح العليم) القاضي العليم بما

ينبغي القضاء به (قل) لهم (أروني الذين ألحقتم به شركاء) له بالدعوى (كلا) زجر لهم عن اقتراف اكبر الكبائر (بل هو الله العزيز الحكيم وما أرسلناك إلا كافة للناس) الظاهر أن كافة حال قدم على صاحبه فيفيد بظاهره ما يفيده قوله المبين وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين (بشيرا) للمطيع بالثواب (ونذيرا) للعاصي بالعقاب (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) فيدعوهم الجهل إلى البقاء على ضلالهم المبين •

(وَيَقُولُونَ : مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ؟ (٢٩) قُلْ : لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ (٣٠) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ : يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا : لَوْلا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا : أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ ؟ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا : بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَاداً ، وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ، وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا : هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ؟)(٣٣)

قوله تعالى : (ويقولون : متى هذا الوعد) أي يقول المشركون استهزاء وتعنتا متى هذا الوعد أي وعد الجمع بيننا وبينكم للحساب (إن

كنتم صادقين ؟) فيه (قل : لكم ميعاد يوم) أي وعد يوم الجمع بيننا وبينكم للحساب (لا تستأخرون عنه ساعة) إذا فاجأكم (ولا تستقدمون) هاتان الجملتان المتعاطفتان ملحوظتان معا كالمتضائفين • والمعنى إن الوعد جِدّيٌ وحَدّي لا يقبل التخلف ولا التغير في وقته بأن يتحقق الموعد قبل الوقت أو يتحقق بعده (وقال الذين كفروا) وهم مشركو العرب : (لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه) كالإنجيل والتوراة ولكنهم سفهاء الأحلام خفاف العقول لا يعرفون ماذا أمامهم من شدة البعث والنشور والحساب والميزان (ولو ترى) يا رسولي (إذ الظالمون موقوفون عند ربهم) حالكونهم (يرجع بعضهم إلى بعض القول) والجواب لرأيت أمرا عجيبا (يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا : لولا أنتم) أي منعتمونا عن الإيمان (لكنا مؤمنين) بما جاء به الرسول (قال الذين استكبروا للذين استضعفوا : أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم ؟! بل كنتم مجرمين) في حد ذواتكم ، ولم يكن إجرامكم ناتجا عن صدنا لكم عن الهدى (وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا) إضرابا عن إضرابهم : (بل مكر الليل والنهار) أي بل صدنا ومنعنا عن الإيمان مكركم بنا واحتيالكم علينا في الليل والنهار (إذ تأمروننا) بدل من الليل والنهار (أن نكفر بالله ونجعل له أندادا) أي أن نكفر بالله الواحد • ونجعل له أندادا أي أمثالا في الألوهية أو أضداداً في الصفات والأفعال (وأسروا الندامة لما رأوا العذاب) لأنهم بهتوا لما عاينوه (وجَعَلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا) سواء المستكبرون والمستضعفون في أصل العذاب ، ولكن يختلف الأمر بمقدار تأثير الكبير في إضلال الفقير (هل يجزون) أي أولئك الناس (إلا ما كانوا يعملون ؟) والجواب : لا ، فلا يجزون إلا مثل الذي كانوا يعملونه •

(وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا : إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ(٣٤) وقَالُوا : نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ(٣٥) قل : إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ(٣٦) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وعَمِلَ صَالِحاً، فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا ، وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ(٣٧) والَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِين أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ(٣٨) قُلْ : إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ، وما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ، وهوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ(٣٩) ويَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ، ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ : أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ؟(٤٠) قَالُوا : سُبْحَانَكَ أَنْتَ ولِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ ، بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ، أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ(٤١) فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً ولا ضَرّاً ، وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا : ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ)(٤٢)

قوله تعالى : (وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها) أي أهل الترف والراحةوالنعمة فيها (إنا بما أرسلتم به كافرون) أي لا نصدق بالرسالة ولا بالمرسل ولا بالرسول (وقالوا) في بيان الحجة على ما قالوا : (نحن أكثر أموالا وأولادا ، وما نحن بمعذبين) أي إنه إن كان الإله موجودا فمادام أعطانا أموالا وأولادا كثيرة فقد أحبنا ، والمحب لا يعذب من أحبه ،

وإن لم يكن موجودا فأموالنا وأولادنا من عند أنفسنا ومن استحقاقنا والمستحقون للكرامة في هذه الدنيا لا يعذبون في دنيا أخرى. (قل) لهم (إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) أي وينقصه وليس زيادة الرزق دليل الكرم والإكرام ولا تقديره دليل الإهانة (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) وإذا تستكبرون بوجود الأموال والأولاد (فما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى) أي قربى مصدر من معنى الفعل لا من لفظه. وقوله (إلاّ من آمن) استثناء منقطع أي لكن من آمن (وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف) من إضافة المصدر إلى المفعول، أي يجزيهم الله بالجزاء المضاعف. وقد قرر على الحسنة عشر أمثالها فيجزيهم عليه عشرين، ويزيد على حسب اقتضاء رحمته وحكمته وذلك (بما عملوا) أي بسبب ما عملوه من الصالحات (وهم في الغرفات) أي غرفات الجنة ومنازلها (آمنون) مما يؤذي قلوبهم (والذين يسعون في آياتنا) أي في ردها بالطعن فيها (معاجزين) بحسب زعمهم ودعواهم أنهم يقدرون على ردها (أولئك) الناس الفاسدون المفسدون (في العذاب محضرون) ولا ينفعهم أيّ نافع. (قل: إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده) أي يوسعه عليه (ويقدر له) أي ويضيقه على من يشاء منهم، فانفقوا لله ولاتنافقوا، وتقربوا اليه ولا تبتعدوا (وما أنفقتم من شيىء فهو يخلفه) أي يعطيكم بدله خَلَفا عنه وعوضا (وهو خيرُ الرازقين) وقد أخرج الشيخان عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما: أللهم اعط مُنفِقا خَلَفا، ويقول الآخر: أللهم أعْطِ مُمسكا تلفا » (ويوم يحشرهم) أي المستكبرين جميعا (ثم يقول للملئكة: أهؤلاء إياكم كانوا يَعبدون؟ قالوا) أي الملائكة (سبحانك أنت ولينا من دونهم) أنت الذي نواليه ونحبه ولا نواليهم

ولا نحبهم فلا علاقة بيننا وبينهم فكيف يعبدوننا (بل كانوا يعبدون الجن) أي شياطين الجن (أكثرهم بهم مؤمنون) وموالاتهم معهم (فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا) من كلام الباري سبحانه وتعالى مع أولئك الملائكة معلنا في اليوم المشهود أن الملك والنفع والضر لله الواحد القهار (ونقول للذين ظلموا) بعبادة الملائكة أو الجن أو الإنس : (ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون) •

(وإذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالوا : ما هذا إلاّ رَجُلٌ يُريدُ أنْ يَصُدَّكُمْ عَمّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُكُمْ ، وقالوا : ما هذا إلاّ إفْكٌ مُفْتَرىً ، وقالَ الّذينَ كَفَروا لِلْحَقِّ لَمّا جاءَهُمْ : إنْ هذا إلاّ سِحرٌ مُبينٌ (٤٣) وَما آتَيْناهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَها ، وما أَرْسَلْنا إلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذيرٍ (٤٤) وَكَذَّبَ الّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَما بَلَغوا مِعْشارَ ما آتَيْناهُمْ فَكَذَّبوا رُسُلي فَكَيْفَ كانَ نَكيرِ ؟ (٤٥) قُلْ : إنَّما أَعِظُكُمْ بِواحِدَةٍ : أَنْ تَقومُوا للهِ مَثْنى وفرادى ثُمَّ تَتَفَكَّروا ما بِصاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ ، إنْ هُوَ إلاّ نَذيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَديدٍ (٤٦) قُلْ : ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ، إنْ أَجْرِيَ إلاّ عَلى اللهِ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهيدٌ (٤٧) قُلْ : إنَّ رَبّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلاّمُ الغُيوبِ (٤٨) قُلْ : جاءَ الْحَقُّ وَما يُبْدِئُ الْباطِلُ وما يُعيدُ (٤٩) قُلْ : إنْ ضَلَلْتُ فَإنَّما أَضِلُّ عَلى نَفْسي ، وإنِ اهْتَدَيْتُ فَبِما يُوحي إليَّ رَبّي ، إنَّهُ سَميعٌ قَريبٌ (٥٠) وَلَوْ تَرى إذْ فَزِعوا فَلا

فَوْتَ ، وَأُخِذُوا مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ(٥١) وَقالُوا : آمَنَّا بِهِ ، وَأَنَّى لَهُمْ التَّناوُشُ مِنْ مَكانٍ بَعِيد ؟(٥٢) وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ ، وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ(٥٣) وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ما يَشْتَهُونَ كما فُعِلَ بِأَشْياعِهِمْ مِنْ قَبْلُ ، إِنَّهُمْ كانُوا فِي شكٍّ مُرِيبٍ)(٥٤)

قوله تعالى : (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات) بيان لصنف آخر من أصناف ما عاندوا به الكتابَ المبين بطعنهم فيمن نزلت عليه بأن (قالوا : ماهذا) أي هذا الرجل الذي جاءكم بها ويقصدون به الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ (إلا رجل يريد أنْ يَصُدكم) أي يمنعكم بشتى الوسائل للمنع (عما كان يعبد آباؤكم) ليجعلكم من اتباعه (وقالوا ما هذا) الكلام المنزل عليه (إلا إفك مفترى) أي كلام منحرف عن الحق لا مصداق له في الواقع ، مختلق ومفترى بإسناده إلى الله العزيز (وقال الذين كفروا للحق) أي لأمر النبوة والرسالة (لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين) أي واضح لا شك في كونه سحرا ، وذلك لأنه يدهشهم فلا يمكنهم رد معناه ومغزاه الواقع لأنه يدعو إلى الاعتراف بالخالق وبنظام الدين المعين للعقل وبوجوب تعلم العلم والاستفادة منه مع رعاية النظام ، وكلامٌ يجري هكذا لا مجالَ لرده بالأباطيل • (وما آتيناهم من كتب يدرسونها) تقتضي صحة ما يدعون ومن جملته أباطيل الشرك (وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير) يعلمهم مايتكلمون به اليوم ، وحاشا رب العباد إذا أنزل كتبا للإرشاد أن يكون فيه ما يوجب الفساد وحاشاه إذا أرسل الرسل أن يرسل غير من يوجه الناس إلى الرشاد، ولكن المراد من الجملتين أن دعاواهم ليست مبنية على كتب مدروسة معقولة ولا أقوال أنبياء منقولة ، فإنكار وحدة الخالق العلاّم

للغيوب ليس إلا كلاما نابعاً من قلوب مريضة تستر الحقائق وتظهر الأوهام وتوجب الريوب •

(وكذب الذين من قبلهم) أي كذب الكفار الذين كانوا من قبل كفار قريش رسلهم الذين أرسلوا إليهم (وما بلغوا) أي كفار مكة (معشار ما آتيناهم) أي عشر ماآتيناهم، وقال بعض المعشار عشر العشر أيجزء منمأة جزء من الشيء ؛ يعني أن قوتهم المالية والعددية والجوارية بالاستعانة من المجاورين كانت تفوق ما عند كفار مكة بمأة على واحد أو بعشرة عليه (فكذبوا رسلي) فكذبت عاد هودا، وثمود صالحا (فكيف كان نكير ؟) ي أي إنكاري عليهم بالتغرير والتدمير • فليعتبر كفار مكة بهم فإنهم مثلهم ، فقياس المساواة ، أو أدنى منهم فقياس الأولى لأن الأضعف يبتلى أضعاف ما يبتلى به الأقوى •

(قل) يا حبيبي لكفار مكة : (إنما أعظكم بواحدة) أي بخصلة واحدة هي (أن تقوموا لله) أي أن تجتهدوا لوجه الله (مثنى وفرادى) إثنين إثنين أو واحدا واحدا حتى تكونوا في أمان من الازدحام المشوش للأفكار (ثم تتفكروا) في صفات الرسول وأعماله وأخلاقه حتى تعلموا (مابصاحبكم من جنة) أي جنون واختلال عقلٍ • فكلمة ما نافية ، ومن زائدة في النفي ، وتقدير تعلموا إما لدلالة التفكر عليه أو أن قوله تعالى تتفكروا مجاز عن تعلموا ، ولذا عمل في الجملة المعلق عنها أعني مابصاحبكم من جنة (إن هوَ إلاّ نذير لكم بين يَدَي عذابٍ شديد) هو عذاب الآخرة • (قل) لهم يا رسولي (ماسألتكم من أجر) ونفع على التبليغ (فهو لكم) ولا أريده وهذا كناية عن نفي السؤال بدليل قوله (إن أجري إلا على الله ، وهو على كل شيء شهيد) حاضر عالم مراقب مطلع فيعلم صدقي وإخلاصي (قل إن ربي يقذف بالحق) أي يرمي بالدفع المقارن للهيبة كلامه الحق وهو القرآن

إلى قلبي حتى أحفظه وأبلغه إلى المكلفين ، وأسعى في سبيل الهدف الشريف ، وهو التوحيد لله رب العالمين • (وهو علام الغيوب) فيعلم حيث يجعل رسالته (قل جاء الحق) أي الإسلام أو التوحيد (وما يبدىء الباطل) أي الكفر أو الشرك (وما يعيد) أي ذهب الباطل واضمحل ولم يبق له أثر ، فإن الحي قد يبدىء شيئا ويعيده أي يعمل شيئا ابتداءويعيده ويكرره ثانيا • وإذا مات لا يعمل شيئا فلا يبدىء ولا يعيد • ويحتمل أن يكون الباطل عبارة عن الصنم أي جاء الحق أي التوحيد ، واستقر الإيمان بالله الواحد القادر الذي يبدىء الخلق في الدنيا ثم يعيده في النشأة الثانية • وأما الباطل وهو الصنم فقد ظهر أنه لا يبدىء شيئا ولا يخلفه ابتداء ولا يعيده يوم البعث ، فبين الحق والباطل بَوْنٌ شاسع •

(قل إن ضللت) أي عن طريق الحق (فإنما أضل على نفسي) ولا يرد عليكم ضرر من جانبي (وإن اهتديت) أي إلى الحق (فبما يوحي إلى ربي) فإن الاهتداء في الواقع إنما يكون من الله (إنه سميع قريب) من الضال والمهتدي وإليه ترجع الأمور • ثم استعرض الباري أحوال الكافرين في يوم القيامة وما سيجري عليهم فقال : (ولو ترى إذ فزعوا) أي ولو ترى المشركين يوم القيامة إذ فزعوا واعتراهم الانقباض النفسي والبهت (فلا فوت) ولا خلاص لهم من عذاب الله (وأخذوا من مكان قريب) من الملائكة المأمورين بإلقاء القبض عليهم فيأخذونهم ويسوقونهم إلى النار (وقالوا) هناك: (آمنا به) أي بالله عز وجل وقد ابتعدوا عن الإيمان المقبول بمسافة مابين الدنيا والآخرة (وأنى لهم التناوش) أي مناوشة الإيمان وأخذه والاتصاف به بعد ذهاب وقته (من مكان بعيد عنه) فإن الإيمان كان فاكهة الصيف في الدنيا وقد وقعوا في زمهرير شتاء الآخرة •

(وقد كفروا به) أي والحال أنهم كفروا به من قبل (و) كانوا (يقذفون بالغيب) أي يتكلمون بالكلام الغيب أي الخفي الغير الظاهر عندهم . فكانوا يقولون : الملائكة بنات الله ، والقرآن إفك مفترى ، والرسول كاهن أو ساحر أو مجنون ، وكل تلك الجمل التي خرجت عن أفواههم الخبيثة كانت جملا مغيبة عنهم غير ظاهرة ، بل كانت أكاذيب توارثوها عن آبائهم الوثنيين واحدا تلو الآخر إلى الشيطان ، فإن مصدر هذه الأباطيل هو إبليس الشيطان الرجيم . وقذفهم بالغيب كان (من مكان بعيد) من جهة بعيدة عن حظيرة القدس الذي تكلموا عنه مثل الباري تعالى ورسوله الكريم (وحيل بينهم وبين مايشتهون) أي وقد وقعت الحيلولة بينهم وبين ما يشتهون وهو نفع الإيمان في الآخرة أو الرجوع إلى الدنيا ليؤمنوا إيمانا نافعا (كما فعل بأشياعهم من قبل) أي كما فعل بأمثالهم من الكفار السابقين أي أنهم يؤمنون في الآخرة ولا ينفعهم ذلك (إنهم) أي السابقين ، أو اللاحقين ، أو كلا الفريقين إذ كانوا أحياء في الدنيا (كانوا في شك) في وجود الله تعالى ووحدته وقدرته وسائر صفاته ، وفي رسوله وصدقه في تبليغ الحق (مريب) ذلك الشك أي موقع للناس في ريبة وشبهة نكراء . أعاذنا الله منها رب العالمين .

سورة فاطر ، مكية ، وآياتها خمس واربعون

بسسم الله الرحمن الرحيم

(اَلْحمدُ للهِ فاطِرِ السَّموات ِ وَالأَرْضِ ، جاعِلِ الْمَلئِكَةِ رُسُلاً أولي أَجْنِحَةٍ : مَثْنى ، وثُلاثَ ، ورُبـاعَ ، يَزِيـدُ فِي الْخَلْقِ ما يَشاءُ ، إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(١) ما يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَها ، وَما يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الحَكِيمُ)(٢)

قوله تعالى (الحمد لله فاطر السموات والأرض) أي موجدهما من غير مثال ، ومبدعهما بقدرته وإرادته بدون وجوب أو إيجاب وبلا واسطة في التأثير ، فإن الرأي السائد في المسلمين اقتداء بسيد المرسلين ــ صلى الله عليه وسلم ــ هو أن الله خالق كل شيىء بلا واسطة يتوقف الخلق عليه وبالاختيار الكامل من دون ضرورة تدعو إليه ، وكل ما يكون له دخل في حصول أمر وحدوثه كالنطفة للاولاد ، والبذور للنبات ، والامطار للتنمية ، والاشعة للتربة الى غير ذلك من أسباب تعلقت إرادة الباري تعالى بها مع المسببات ، فليست المسببات حاصلة بها ، بل حاصلة بإرادته معها ، فإنكار الاسباب جهل وخرق لسنة الله تعالى في الكائنات ونسبة الآثار إليها بالفاعلية

من الأباطيل والخرافات ، والمؤمن العاقل يباشر الاسباب من كل باب ويتوكل للنتيجة على الله الوهاب (جاعل الملئكة رسلا أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلـق ما يشاء) •

والملائكة أجسام لطيفة نورانية يخلقها الله بالإبداع بدون التوقف على التناسل والتوالد ، فليست الملائكة ذكورا ولا إناثا ، بل عبـاد مكرمـون ، لا يسبقونه بالقول وهم بأمـره يعملون ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون • والمعلوم عندنا على ضوء السنة الواردة أنها أربعة أصـناف : الكروبيون ، والروحانيـون وحملـة العـرش ، والمقربون • فالكروبيون مأمورون للعذاب في الدنيا والآخرة • ومنهم الملائكة المأمورون بتعذيب أهل النار ورئيسهم هناك اسمه (مالك) • والروحانيون ملائكة الرحمة المأمورون بتربية ما يحتاج إليها وحفظه • يقول تعالى : (له معقبات من بين يديه ومـن خلفه) • وحملة العرش أربعة في النشأة الأولى ، ويصيرون ثمانية في النشأة الاخرى • والمقربـون : جبريل وميكائيل وعزرائيل وإسرافيل • وجبريل مأمور بالوحي والتنزيل أي يأتي بالآيات من الله تعالى للانبياء وبالإلهـام إليهم وإلى سائر الصالحين المُلهَمـين • وعزرائيل مأمـور بقبض الارواح لكل ذي روح • وإسرافيل مأمور بالنفخ في الصور فينفخ فيها مرتين : مرة لإماتة الأحياء ، ولهدم الجبال وتمزيقها وتفشيتها كالعهن المنفوش وتسطيح الأرض • ومرة لاحياء الموتى • (ويسئلونك عن الجبال فقل ينسفها ربـي نسفا فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتاً) ومن الروحانيين من هو مأمور في الجنة ويستقبلون أهلها بسلام ، ورئيسهم رضوان • والقرآنُ الكريمُ صريح في وجود الملائكة الحافظين للاشياء والمأمور على كتابة الاعمال والمأمور على السؤال في القبر وعلى تعذيب أهله أو تنعيمه حسب الأمـر ، والأحاديث دالة على ذلك • وكل ما جرى مبني على سنة الله تعالى في العالم

وإلا فالعالم في قبضة قدرته ، (ألله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل) وإذا كانت الأمور مبنية على الاسباب فلا مانع من أن تكون هناك أرواح بشرية صافية عن الكدورات منورة بالطاعات ، لها مأمورية محدودة في بعض الأمور ، فإن خواص البشر أفضل من خواص الملائكة ، ولا مانع من وجود المأمورية لهم كبعض الملائكة ومنهم من قال تعالى في حقه (فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدُنا علماً) كما أنه تعالى خلق من البشر رسلا مبشرين ومنذرين . وكما قال تعالى (جاعل الملائكة رسلا) أي إلى الأنبياء والرسل بالوحي والإلهام ، وكذا جعلهم واسطة لإلهام الصالحين كما هو معلوم لأهل الدين .

ويجوز أن يراد برسالتهم ارسالهم إلى أماكن من البر والبحر والسماء والارض لتنفيذ ما أمروا بها . وكذلك في عالم الآخرة كما في عالم الدنيا ، ولله في ملكه شئون .

وقوله تعالى : (أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع) الظاهر أن الأجنحة جمع جناح بمعنى الجناح الجسمي ، ولكن كيفية تركيبها في الجسم غير معلومة لنا، وأن قوله مثنى وثلاث ورباع صفة للأجنحة والعدد فيها ليس للحصر بل إشارة إلى الاختلاف بينها في القوة والضعف فتفسير الأجنحة بالقوى المعنوية تأويل بلا داع يدعو إليه ، وقد أخرج الشيخان والترمذي عن ابن مسعود في قوله تعالى (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) أنه رأى جبريل له ستمأة جناح ، فهذه الرواية أيضا تدل على أن ليس المقصود من الآية الحصر بل التفاوت في الاجنحة . وكذلك قوله تعالى : (يزيد في الخلق) أي يزيد في خلق أجنحة الملئكة ما يشاء بدون الاقتصار على ماذكر ، فيجوز الزيادة عليها إلى ما شاء الله ، فالجملة استئناف مقرر لما قبلها من تفاوت الملائكة في عددها .

(إن الله على كل شيء قدير) تعليل لما تقرر فإن شمول قدرته لجميع الأشياء مما يوجب قدرته على خلق كل ما يشاء خلقه • (ما يفتح الله للناس من رحمة) أي ما يرسله للناس من رحمته من أي جانب من الجوانب المتصورة عمرا وعلما ورزقا وجاها ووجاهة ودينا وأدبا وأموالا وأولادا ••• وغيرها (فلا ممسك لها) أي فلا أحد يقدر على إمساكها ومنعها (وما يمسك فلا مرسل له) أي وما يمنعه منها فلا معطي له من بعده ولذلك صار وردا واردا من حضرة الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ اللهم لا مانع لما اعطيت ولا معطي لما منعت • وقوله (من بعده) أي من بعد إمساكه وهو العزيز الغالب الذي لا يغالب والحكيم في تخصيص من شاء بما شاء وسلب ما شاء عمن شاء •

(يَاأَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ ، هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ؟ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ؟(٣) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ ، وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ(٤) يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ، فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا ، وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ(٥) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ، إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ(٦) الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ(٧) أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ؟ فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ)(٨)

قوله تعالى : (يا أيها الناس اذكروا نعمت الله عليكم) أي ما أنعم الله به عليكم من المال والاولاد والسكن والعقل والعلم والحواس السليمة ، ومن أهمها أنه أسكنكم حرماً آمنا ومقاما محترما (هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والارض) بالمطر والنبات وسائر الأرزاق التي تحصل منهما جميعا أو من أحدهما (لا إله إلا هو) جملة مستأنفة مقررة للجواب المنفي المقدر فكأنهم قالوا في جواب الاستفهام لا خالق غير الله ثم أكدها بقوله لا إله الاّ هو (فأنى تؤفكون ؟) أي إذا تبين تفرد الباري تعالى بالألوهية والخالقية والرازقية فمن أي وجه تصرفون عن التوحيد إلى الشرك ؟ (وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك) أي فلا تبتئس بتكذيبهم لك لأن ذلك أمر جار في الماضي فيجري في الحال ، وقد كذبت رسل من قبلك ، ولابد أن تكذب أنت أيضا أسوة بمن سبقك من الأنبياء والمرسلين (والى الله ترجع الامور) لا الى غيره فيجازي كلاّ منكم بما يناسبه من العذاب الأليم أو النعيم المقيم (يا أيها الناس إن وعد الله) بالبعث والنشور (حق ، فلا تغرنكم الحيوة الدنيا) بأن تذهلكم عن طاعة الباري والتقرب إليه وحده (ولا يغرنكم بالله الغرور) أي الشيطان المبالغ في الغرور أو أعوانه من الجن والإنس الكفور (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا) بمخالفتكم له (إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) .

(الذين كفروا لهم عذاب شديد) بسبب كفرهم (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة) عظيمة (وأجر كبير) لا نهاية له . ثم استفهم مستنكرا وقال (أفمن زين له سوء عمله) من النفس والشيطان وأعوانه (فرآه حسنا) أي كمن يزين له سوء عمله ولم يره حسنا ، بل وفقه الله تعالى حتى عرف الحق واستحسنه وعرف الباطل واستقبحه، وفي الحقيقة إن جواب الاستفهام سلبي أي لا يتساويان ولا يتقاربان ، وإذا سئلتم عن

سبب تزين العمل السيء عند الأولين واستقباحه عند الآخرين أقول في الجواب (فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ، فلا تذهب نفسك عليهم) أي على الذين يرون القبيح حسنا ، ولا تضيع ولا تفوت (حسرات) لأجل تراكم حسرات على أولئك الفاسدين (إن الله عليم بما يصنعون) فيجازيهم عليه .

(واللهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، كَذَلِكَ النُّشُورُ(٩) مَنْ كَانَ يُرِيدُ العِزَّةَ فَلِلهِ العِزَّةُ جَمِيعاً ، إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ، وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّآتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، وَمَكْرُ أُولئِكَ هُوَ يَبُورُ(١٠) واللهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ، ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ، ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً ، وما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى ، وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ ، وما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ ، ولا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ ، إِنَّ ذَلِكَ على اللهِ يَسِيرٌ)(١١)

قوله تعالى (والله الذي أرسل الرياح) مبتدأ وخبر ، يعني إن الله هو الذات الذي أرسل الرياح الساكنة وحركها (فتثير سحابا) أي فترفع سحابا إلى مسافة محدودة من الجو العالي (فسقناه) أي ذلك السحاب الحامل للماء (إلى بلد ميت) أي إلى قطعة أرض لا نبات ولا خضرة فيها كالميت الذي لا يحصل منه فائدة (فأحيينا بهِ الأرض) أي المطر النازل منه (بعد موتها) أي يبسها (كذلك النشور) أي إحياء الأموات في يوم الحساب ، أي من كان له قدرة على إرسال الرياح لإثارة السحاب ثم سوقه إلى بلد ميت يابس لإحيائه بإنبات النبات فيها قادر على أن يجعل من مواد

الإنسان المزقة هيئة اجتماعية متلاصقة وينفخ فيها الروح فيكون بشرا سويا فيسوقه إلى المحشر . وفي هبوب الرياح دليل ظاهر على الخالق الفاعل المختار ، وذلك لأن الهواء قد يسكن وقد يتحرك ، وعند حركته قد يتحرك الى اليمين ، وقد يتحرك الى اليسار ، وفي حركاته المختلفة قد ينشىء السحاب وقد لا ينشىء ، فهذه الاختلافات دليل على مسخر مدبر ومؤثر مقدر .

(من كان يريد العزة) والشرف (فلله العزة جميعا) أي فليطلبها من الله تعالى فإن لله العزة جميعا ، وطريق طلبه لها من الله تعالى أن يتقرب إليه بالكلم الطيب والعمل الصالح ، أي بالقول الحسن والفعل الحسن ، فإذا قال قولا حسنا، أو عمل عملا صالحا يصعدان إليه، فيقبلهما فيفيض من رحمته العزة على صاحبها كما قال تعالى (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) وفسروا الكلم الطيب بذكر الله تعالى ، وقيل : هو سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر . وفي أثر عن ابن مسعود أنه القرآن الكريم . والحق أن الكلم الطيب عبارة عن كل قول مفيد مقبول عند الله ، وإن كان أفضله كلمة التوحيد أو القرآن الكريم ، وذلك لأن ناتج الإنسان القول والفعل ، وكل قول حسن أو عمل حسن فهو مما يتقرب به إليه ، ومن القول الحسن كلمة ترشد الضال إلى الصراط المستقيم ، أو تنجي مصابا من العذاب الأليم ، أو تبين الحق عند حاكم جائر ذي طبع سقيم ، أو كلمة تصلح بها بين فردين أو فئتين من المتخاصمين ... إلى غير ذلك من الأقوال الحسنة .

واعلم أنه ذكر في إعراب قوله تعالى (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) وجوه عديدة أرجحها عندي أن يكون العمل معطوفا على الكلم يعني إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح . وقوله تعالى يرفعه جملة

مستأنفة وفاعله ضمير راجع إلى الله تعالى ، والضمير المنصوب عائد إلى العمل ، ووجه تخصيص الرفع بالعمل هو أن العمل فيه كلفة زائدة ومشقة فوق العادة ، فمنه جهاد النفس وكبح جماحها بقصد إصلاحها وذلك من أصعب الأعمال ، ومنه جهاد الكفار ، ومنه إسباغ الغسل والوضوء في الليل والنهار ، ومنه صرف الأموال في سبيل الله تعالى . وهذه الأعمال الشاقة منوطة بتوفيق خاص من الله ولا يمكن إحداثها إلا بلطف منه تعالى ولشرفها نسب رفعها الى الله فقال يرفعه أي يرفع الله ذلك العمل الصالح إليه أي إلى نفسه وقدسه .

(والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ، ومكر أولئك هو يبور) أي يفسد ويضيع (والله خلقكم من تراب) أي خلق أصلكم وهو آدم من تراب (ثم من نطفة) أي ثم خلقكم منها خلقا تفصيليا (ثم جعلكم أزواجا) أي أصنافا مختلفة في القامة والوجاهة والحسن والقيافة والاستعداد وقابلية العمل والتخلق بالاخلاق العالية ... (وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ، وما يعمر من معمر) أي وما يمد في عمر أحد (ولا ينقص من عمره إلا في كتاب) يعني أن المد في عمر أي إنسان طويل العمر ، أو النقص الوارد على عمره كله مكتوب في اللوح المحفوظ .

ومما ينبغي أن يعلم أن هذه الآية الكريمة مطرح أنظار العلماء ، وفسروها بوجوه كثيرة قريبة وبعيدة ، وأرجحها تفسيران :

الاول أنه مايقرر عمر أحد زائدا كأن يقرر عمر زيد مأة سنة ، وعمر شخص آخر ناقصا كأن يكون عمر خالد خمسين إلا في كتاب .

الثاني : أنه مايزاد في عمر أحد ولا ينقص عمر ذلك الشخص عينه كأن يكون عمر زيد مأة سنة على تقدير أن يداوي مرضه ، أو يتصدق بصدقة ،

أو يدعو هو نفسه أو شخص آخر له ، أو أن يكون عمره خمسين على أن يهمل التداوي ، أو لا يهتم بالصدقات أو بالدعوات أو بصلة الأرحام إلا في كتاب مبين .أي في علمه الأزلي . وهذا هو الصحيح لأن الله سبحانه وتعالى ربط المسببات بأسبابها في كل فصل وباب ، فالعامل يأخذ الأجور والكاسل يموت في الفقر والجوع . وعلى ذلك جرت سنة الله في الكون ولن تجد لسنة الله تبديلا .

ولا تتوهمن أن هذا ينجر إلى تعدد الأجل لأن الله سبحانه وتعالى يعلم أن ذلك الإنسان يباشر الأسباب أولا ولا تخفى عليه خافية فالأجل عنده واحد وموت الإنسان معلوم في ذلك ويعلم ذلك محققا بلا شبهة ، وذلك نظير باقي الأمور كالعلم الحاصل من التعلم، والمال الحاصل من الكسب، والنجاح الحاصل من السعي والغلبة الناتجة من الكفاح . وكل تلك الاسباب أمر الله بها وبلغها الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ والناس أصناف، منهم من يمشي على طريق مباشرة الأسباب ، ومنهم من يمشي على الكسل والإهمال . وإلا فلماذا يأمر الرسول بالصدقات وبالدعاء وبالتداوي ؟ ويقول : اعملوا فكل ميسر" لما خلق له ، أو لماذا يأمر الله سبحانه وتعالى بالتشاور في الأمور وبإعداد العدة ؟ فالنبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ يدعو لنفسه أو لأهله أو لأمته رجاء أن يكون ذلك الدعاء سببا لذلك المأمول وأمر غيره بذلك لذلك ، فإذا قال رب زدني علما يدعو حسب الأمر بالدعاء من الله لأنه يعتقد أن هذا الدعاء سبب لمزيد علم الرسول حسب جريان علم الله الأزلي به . وقد ينهى الله سبحانه عن بعض تلك الأسباب لجريان علمه بأنه أبرم الأمر ولا ينفع ذلك كما في قضية دعائه على قاتلي قراء بئر معونة المشهورة . ويدل على ذلك بداهة العقل في الموضوع الحاكمة بأن البركة من الحركة ، ونص القرآن الكريم كهذه الآية وآية (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب)

وأحاديث كثيرة يكاد أن يكون القدر المشترك منها متواترا لا يمكن رده قطعا . فقولك اللهم إن كنت كتبتني شقيا أو قليل العمر أو ضيق الرزق فاكتبني يا ربي سعيدا أو طويل العمر أو واسع الرزق ، معناه يارب إن كانت سعادتي أو طول عمري أو وسعة رزقي مسببة عن تضرعي إليك ودعائي ومناجاتي فبدل ذلك بهذا .

ولا ينافي هذا ما روي من « أن السعيد من سعد في بطن أمه وأن الشقي من شقي في بطن أمه» أبدا لأن الإنسان عندما يكون في بطن أمه، بل قبل وجود والديه، بل في الأزل قبل حدوث العالم، تعلق علم الباري بأن فلانا الذي سيولد يكون سعيدا لأنه يتضرع إلى ربه ويتندم عن معاصيه فيغفر الله له ، وهذا الدعاء هو ذلك السبب المعلوم في الأزل ، وكذلك تعلق علمه بأنه يكون فلان شقيا لأنه علم منه عدم مباشرة أسباب السعادة قطعا . وكل ذلك من أجلى البديهيات . وكل حادث من الحوادث مثل السعادة والشقاوة في أنها معلومة عند الله مع أسبابها أزلاً .

وقوله (إلا في كتاب) روي أن المراد بالكتاب هو صحيفة الإنسان ، وروي أنه اللوح المحفوظ . وأما أم الكتاب فالراجح أنه علمه الأزلي الشامل لكل شيء. ويؤيد أن المراد بالكتاب اللوح ماثبت من أن ما في اللوح قابل للمحو والإثبات كما قال تعالى يمحو الله ما يشاء ويثبت وأن أم الكتاب هو علمه الأزلي الذي لا يتغير ولا يتبدل .

وحاصل الأمر أنا معاشر المسلمين المتمسكين بالكتاب والسنة على منهج الرسول سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومناهج خلفائه الراشدين وأصحابه الفقهاء نعتقد أن الله عالم بجميع الكليات والجزئيات ، وأن علمه لا يتبدل ولا يتغير ، وأن الأجل واحد ، وأن مباشرة الأسباب المعنوية من الصدقات والدعاء والالتجاء إلى الله ، والمادية من التداوي وسائر

الوجوه المرعية في الحياة من أسباب الخير والسعادة ، وأن خلق الأمور موكول إلى ذاته سبحانه وتعالى ، وأنه سبحانه وتعالى إذا تقبل دعاء شخص لشفاء مريض ، أو جعل الشفاء في دواء يداوي به المريض ، أو في صدقة يتصدق بها على الفقراء ماشية على الحق وعلى السنة الجارية في شريعة الله سبحانه وتعالى ، وأن علينا مباشرتها وإن لم نعلم نتائجها ونتوكل على الله في كل الأمور وحسبنا الله ونعم الوكيل .

وقوله تعالى : (إن ذلك على الله يسير) معناه إن زيادة العمر ونقصه أو إن ما بعد ذلك من الإعادة والبعث والنشور كل ذلك على الله تعالى يسير سهل لا مانع منه قطعا ، فإن الإنسان إذا آمن بأن الله موجود وهو واجب الوجود ومتصف بكل كمال ومنزه عن كل نقص ، وأن ما يجري في ملكه عدل ومقرون بالحكمة كفاه ذلك .

(وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ ، هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ ، وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ، وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا ، وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا، وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ،وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(١٢) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى، ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ، وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ(١٣) إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ ، وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ، وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)(١٤)

قوله تعالى (وما يستوي البحران) المراد به ضرب مثل للمؤمن والكافر يعني تشبه الهيئة الحاصلة من ملاحظة رجلين مؤمن وكافر يشتركان في بعض المنافع والأمور العامة ، ويختص كل بأمور مباركة في الأول ومشئومة في الثاني بالهيئة الحاصلة من ملاحظة بحرين يشتركان في استخراج المنافع منهما ، واختصاص أحدهما بصفاء مائه وسلامته ، والآخر بملوحته وحراقته للحلقوم . ويقول كما لا يستوي البحران المذكوران لا يستوي الإنسانان أيضا ، فالمؤمن له حال مبارك ومآل أبرك ، والكافر له حال فاسد ومآل أفسد ، فيقول تعالى (وما يستوي البحران ، هذا عذب فرات سائغ شرابه ، وهذا ملح أجاج) العذب الطيب ، والفرات الذي يكسر العطش ، والسائغ الذي يسهل انحداره ، والأجاج الذي يحرق بملوحته . (ومن كل تأكلون لحما طريا) أي غضا جديدا وهو السمك والطير . (وتستخرجون حلية تلبسونها) الظاهر أنه يستخرج من كل منهما ، وإن كان الاستخراج من المياه العذبة نادرا . والمستخرج من المياه الملحة اللؤلؤ والمرجان . ويحتمل أن يقال يستخرج عظام السمك من كل منهما ويصنع منها قبضات السيوف والخناجر والسكاكين وغير ذلك ، ويعتبر ذلك لحسنها حلية (وترى الفلك فيه) أي في كل من البحرين (مواخر) شواق للمياه والسفن في وقت النزول كانت تجريها الرياح ، واليوم تجريها المكائن القوية فتحركها وتشق الماء بقوة ، ومنها ما يغوص في أعماق البحور ، كل ذلك (لتبتغوا من فضله) بسبب السير فيها على البحار (ولعلكم تشكرون) نعمه التي لا تحصى . وما ذكر منها جزء قليل قليل .

(يولج الليل في النهار ، ويولج النهار في الليل) بإضافة بعض من الأول إلى الثاني وبالعكس (وسخر الشمس والقمر) كلا في فلكه ومداره لإضاءة العالم بالليل والنهار (كل يجري لأجل مسمى) على مداره الخاص

إلى يوم القيامة (ذلكم الله) أي القادر المقتدر الذي يفعل هذه الأمور هو الله (ربكم له الملك) والسلطان (والذين تدعون من دونه) من الأصنام والأوثان (ما يملكون من قطمير) وهو القشرة على رأس النواة بينها وبين التمر (إن تدعوهم) لجلب خير أو دفع شر (لا يسمعوا دعاءكم ، ولو سمعوا) فرضا (ما استجابوا لكم) إذ ليس فيهم قوة النطق (ويوم القيامة) عندما تحتاجون إليهم (يكفرون بشرككم) فضلا عن أن يستجيبوا لكم ، وأنا الله العالم بذلك (ولا ينبئك مثلُ خبير) أي ولا يخبرك بشيء فتستفيد منه العلم مثل مخبر كان مطلعا وخبيرا عليه .

(يا أيها النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إلى اللهِ ، واللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ(١٥) إنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ(١٦) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ(١٧) ولا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى ، وإنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إلى حِمْلِها لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ ، وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى ، إِنَّما تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ ، وَأَقامُوا الصَّلوةَ ، وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّما يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وإلى اللهِ الْمَصِيرُ(١٨) ومَا يَسْتَوِي الأَعْمى والْبَصِيرُ(١٩) ولا الظُّلماتُ ولا النُّورُ(٢٠) ولا الظِّلُّ ولا الحَرورُ(٢١) وما يَسْتَوِي الأحْيَاءُ وَلا الأَمْواتُ ، إنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشاءُ ، وما أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبورِ(٢٢) إِنْ أَنْتَ إلاَّ نَذِيرٌ(٢٣) إِنَّا أَرْسَلْناكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً ونَذِيراً ، وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إلاَّ خَلا فِيها نَذِيرٌ(٢٤) وإنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتابِ الْمُنِيرِ(٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ ؟)(٢٦)

قوله تعالى : (يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله) إرشاد للناس ودعوة لهم إلى ربهم بأن الله غني عن العالمين ، وإنما يدعوكم إليه لسعادتكم ، وإلا فأنتم الفقراء المحتاجون إلى الله في وجود الذات وبقائها ، وفي رزقكم وملابسكم ومساكنكم ، وشفائكم من الأمراض والأسقام ، ومعونتكم عند الملمات (والله هو الغني) عن كل موجود (الحميد) المنعم ذو الإحسان والجود (إن يشأ) أن يذهب بكم (يذهبكم ويأت بخلق جديد) فإذا أراد أن يبدل الإنسان بغيره أفنى جميع البشر وجاء بالسباع في أماكنهم ، أو أراد أن يبدل قوما بقوم فكذلك ، فقد وجدنا بأنفسنا إذهابه بقوم عن أرض وإتيانه بقوم آخرين ، (وما ذلك) الإذهاب (على الله بعزيز) ولا يغرنكم ما تعتقدون من أن كبراءكم يحملون أوزاركم فإن ذلك لا واقع له .

(ولا تزر وازرة وزر أخرى) أي ولا تحمل نفس آثمة آثام أخرى بل تحمل كل نفس وزرها (وإن تدع مثقلة) أي نفس مثقلة بالآثام نفسا أخرى (إلى حملها) أي إلى حملها الذي أثقلها (لا يحمل منه بشيء) ولم تجبها لحمل بعض أثقالها (ولو كان) المدعو (ذا قربى) من الداعي (إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب) أي ربهم المستور عنهم بستار الغيب أو يخشونه حالكونهم متلبسين بالغيب من الناس أي إنهم يخشونه سرا كما يخشونه جهرا ، أو يخشونه بسبب الجزاء الغيب (وأقاموا الصلوة) وواظبوا عليها بشرائطها وأركانها (ومن تزكى) وتطهر من الأوساخ والأدناس النفسية والمعاصي فإنما يتزكى لنفسه لاقتصار الثواب عليه (وإلى الله المصير) فيأخذ كل جزاءه من القليل والكثير (وما يستوي الأعمى والبصير) هما مثلان للكافر والمؤمن كالبحرين (ولا الظلمات ولا النور) أي ظلمات الباطل ونور الحق (ولا الظل ولا الحرور) أي ولا راحة الفيىء البارد ولا شدة الحرارة (وما يستوى الاحياء ولا الأموات) أي الضمائر

المستنيرة بالعقل والعلم والإيمان والوجدان والضمائر الخالية عن كل ذلك لا في الإفادة ولا في الاستفادة (إن الله يُسمع من يشاء) حيا أو ميتا ، وفي القصر أو في القبر (وما أنت بمسمع من في القبور) يعني إن الكفار الذين تعظهم وتدعوهم إلى الله كأموات هامدين في القبور ولست بقادر على إسماعهم الكلامَ على الوجه المعروف من التكلم مع الأحياء للإفادة والاستفادة .

ولا ينافي هذا ما وقع من كلام الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع قتلى بدر من المشركين ، وجوابه لعمر ـ رضي الله عنه ـ بقوله : « والله ما أنتم بأسمع منهم ، ولكن لا يطيقون الجواب » لأن ذلك الإسماع والسماع كان إسماعاً للروح في عالم البرزخ وهو حق ثابت لكل أحد وفي كل حال . والمقصود هنا أنك لا تسمع الموتى إسماعا حسب العادة من إسماع المخاطب الحي ، وإلا فالأدلة على الإدراك البرزخي للأموات كثيرة (إن أنت إلا نذير) وحقك أن تبلغ ما نزل عليك إلى المكلفين أجابوا أولا (إنا أرسلناك بالحق بشيرا) لأهل الطاعة (ونذيرا) لأهل العصيان (وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) يعني وإرسالنا إياكم إلى الأمة بشيرا ليس ببدع من الأمور ، بل هو جار على سنتنا في الكون حيث ما مضت أمة إلا خلا فيها نذير من رسول أو أحد نواب الرسول من العلماء المبلغين (وإن يكذبوك) أي أولئك الكفار المشركون فلا تهتم بذلك التكذيب لأنه عادة جارية والرسل صبروا أمامها (فقد كذب) الكفار (الذين من قبلهم) أي كذبوا الرسل السابقين حيث (جاءتهم رسلهم بالبينات) أي بالمعجزات الواضحة (وبالزبر) أي الصحف كصحف إبراهيم ـ عليه السلام ـ (وبالكتاب المنير) للقلوب كالتوراة والإنجيل (ثم أخذت الذين كفروا) أي وكذبوا بالرسل (فكيف كان نكير) أي نكيري بياء المتكلم ، ثم الوقف عليه بحذفها .

وهذه الآية الكريمة نزلت تسلية للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتصبيرا له على معاندة الكفار ، لأنه ختمها بأنه انتقم من الكفار المكذبين للرسل السابقين ولا شك أنه سينتقم من الكنار المعاندين لك بلا شبهة .

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا ؟ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ(٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ ، إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ)(٢٨)

قوله تعالى : (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء) تقرير لوحدانيته تعالى بأدلة سماوية وأرضية إثر تقريرها بأمثال ضربها جل شأنه . والاستفهام لتقرير الرؤية ، أي لا شبهة عندكم أن الله أنزل من السماء ماء من نوع واحد وصنف واحد (فأخرجنا به) أي بذلك الماء الواصل إلى الارض (ثمرات) من نباتات متعددة (مختلفا ألوانها) إما من النبات فمثل الكمأ بأصنافها المختلفة اللون ، والنباتات الخضرة الشديدة الخضرة والصفرة والبيض ، وإما من ثمار الأشجار فَحدِّثْ ولا حَرَجَ . ومن المفسرين من حمل الألوان على معنى الأصناف ، فلولا قدرة الباري وإرادته المتعلقة باختلاف أصناف النبات والثمار كان المعقول أن تكون متحدة لأن الماء واحد والأرض واحدة والموسم واحد . وقوله تعالى (ومن الجبال) عطف على ما قبله بحسب المعنى أي ألم تر أنه من الجبال (جدد) أي طرائق وخُطَط (بيض وحمر) كل منها (مختلف ألوانها) فمن الأبيض ما هو نباتي وما هو ثلجي وما هو عاجي ، ومن الحمر ما هو شديد الحمرة أو خفيفها اومتوسطها (وغرابيب سود) جمع غربيب عطف على جدد أي صخور

شديدة السواد يقال أسود غربيب كثيرا ، وغربيب اسود قليلا • (ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه) أي بعض مختلف ألوانه (كذلك) صفة لمصدر محذوف أي إختلافا كذلك أي كاختلاف الثمرات والجبال • وهذه الآيات الدالة على شمول قدرة الباري إنما يعقلها العلماء المنورون بنور العناية الربانية فلا يستفيد منها إلا أولئك العلماء لأن الاستفادة من الآيات مشروطة بالخشية ، و (إنما يخشى الله من عباده العلماء) المعهودون (إن الله عزيز) غالب على أمره لا يغالب (غفور) لمن يتكاسل في فهم آياته •

(إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلوةَ ، وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلَانِيَةً ، يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ(٢٩) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ(٣٠) وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ(٣١) ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ، وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ، وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ(٣٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ، يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ ، وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ(٣٣) وَقَالُوا : الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ، إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ(٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ ، لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ ، وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ)(٣٥)

قوله تعالى : (إن الذين يتلون كتاب الله) أي يواظبون على تلاوته حتى صارت سمة لهم وعرفوا بها (وأقاموا الصلوة) أي واظبوا عليها مع رعاية شرائطها وأركانها والخشوع فيها (وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية) مصدر على وزن فعالية أي علنا ، أي أنفقوا بحسب الإمكان سواء صادف السرّ أو العلن (يرجون تجارة) في سوق طاعة الله يصرفون ما لديهم من نقد الحال والمال ويأخذون الثواب من الله المتعال فتجارتهم (لن تبور) ولن تكسد أبدا فيبقى حق تجارتهم عند الله سبحانه (ليوفيهم أجورهم) من حسنة إلى عشر أمثالها (ويزيدهم من فضله كما يشاء) بتضعيف درجات الثواب أو بشرف رؤية ذاته الكريم الوهاب (إنه غفور) لما فرط منهم و (شكور) يقبل ما قدموا من الطاعات (والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق) الثابت من كلامي (مصدقا لما بين يديه) من الكتب السماوية (إن الله بعباده لخبير) يعلم مايوافق كل أمة من الكتاب لبيان الشريعة والآداب (بصير) بمن يؤمن به من عباده ومن يكفر ويبقى في عناده وعذابه أبد الآبدين (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا) يعني بعد ذهاب مدة الكتب المنزلة سابقا أعطينا القرآن الكريم الذين اصطفينا من عبادنا ، وعلى رأسهم حبيبنا محمد المصطفى ــ عليه الصلاة والسلام ــ وأصحابه وسائر امته الى يوم الدين ، وجعلناه شريعة لهم اعتقادية وعملية (فمنهم ظالم لنفسه) فمن أولئك العباد من هو ظالم لنفسه يظلمها وينحرف عن ذلك الكتاب (ومنهم مقتصد) يعمل لا كل العمل ، ويترك لا كل الترك (ومنهم سابق) يسبق إلى نيل الثواب (بالخيرات) أي بسبب مباشرته للحسنات (بإذن الله) وتوفيقه وتيسيره •

أخرج الإمام أحمد وجمع آخرون ــ رضي الله عنهم ــ عن أبي سعيد الخدري ــ رضي الله عنه ــ عن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ أنه قال

في هذه الآية (ثم أورثنا الكتاب) إلى (الخيرات) : « هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة ، وكلهم في الجنة » . وقوله ــ عليه السلام ــ وكلهم عطف تفسيري لما قبله . وعن أسامة بن زيد أنه قال في الآية قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم : « كلهم من هذه الأمة ، وكلهم في الجنة » وأخرج ابن النجار عن أنس أن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : « سابقُنا سابق ، ومقتصدُنا ناج ، وظالمُنا مغفور له » وأخرج الإمام أحمد ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، والحاكم ، وابن مردويه ، والبيهقي عن أبي الدرداء قال : سمعت رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يقول : « قال الله تعالى (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله) فأما الذين سبقوا فأولئك يدخلون الجنة بغير حساب ، وأما الذين اقتصدوا فأولئك الذين يحاسبون حسابا يسيرا ، وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك يحبسون في طول المحشر ، ثم هم الذين يتلقاهم الله برحمته ، فهم الذين يقولون : الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور » (ذلك هو الفضل الكبير) أي ذلك الإيراث والإصطفاء هو الفضل الكبير ، لأن جزاء أهله كلهم هو الجنة ونعم المصير (جنات عدن) بدل من الفضل الكبير وصف بقوله (يدخلونها) و (يُحلون فيها من أساور) جمع أسورة حلي يجعل في اليدين (من ذهب) من بيانية أي تلك الأساور مصوغة من ذهب أو من جنسه (ولؤلؤا) بالنصب عطف على محل مِن أساور (ولباسُهم فيها حرير) أي ابريسم محض (وقالوا) أي ويقولون (الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن) أي حزن تقلب القلب وخوف العاقبة في الدنيا ، وحزن أهوال المحشر في القيامة (إن ربنا لغفور) للمذنبين (شكور) للمطيعين (الذي أحلنا دار المقامة) أي دار الإقامة الأبدية الطينية المباركة (من فضله) لا من

عمله ؛ لأن الخير والطاعة في بضع سنين لا يكافيء الجنة والرضوان أبد الآبدين (لا يمسنا فيها نصب) أي تعب (ولا يمسنا فيها لغوب) أي كلال وملال وفتور ، والحمد لله على ذلك مر الدهور .

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ ؛ لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا ، وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ، كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ، أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ ، وَجاءَكُمُ النَّذِيرُ ، فَذُوقُوا ، فَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٣٧) إِنَّ اللَّهَ عالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ)(٣٨)

قوله تعالى (والذين كفروا) ... الآية لما بين حسن عاقبة المؤمنين قابله ببيان سوء عاقبة الكافرين ليعتبروا ويأخذوا طريق الإيمان ، فقال : (والذين كفروا لهم نار جهنم) بالابدية لا لغيرهم كذلك (لا يقضى عليهم) أي لا يحكم عليهم بموت ثان (فيموتوا) أي ويستريحوا (ولا يخفف عنهم من عذابها) المقرر لهم (كذلك) أي مثل ذلك الجزاء (نجزي كل كفور) مبالغ في الكفر (وهم يصطرخون فيها) من الصراخ وهو شدة الصياح ، ويستعمل في الاستغاثة كثيرا ، وذلك لأن الصوت العالي لإبلاغ الناس غالبا فيقصد وصول مدد للنجاة قائلين (ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل) أي نوحدك ولا نشرك بك أحدا (أو لم نعمركم مايتذكر فيه من تذكر ؟) فيجاب عن فزعهم وصياحهم واستغاثتهم من جانب الباري أو لم نعمركم زمانا يتذكر فيه من تذكر بالاعتبار ، أو تجاريب الليل والنهار في الأدوار أو بالنظر والتفكر في الآيات والآثار أو بالنظر في أخلاق الرسول المختار . أخرج

الإمام أحمد والبخاري والنسائي عن سهل بن سعد قال قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « أعْذَرَ اللهُ تعالى إلى امْرِىءٍ أخّر عمره حتى بلغ ستين سنة » (وجاءكم النذير) عطف على جملة الاستفهام أو حال بتقدير قد ، أي وقد جاءكم النذير وهو رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ علاوة على كل مالديكم من أدلة التذكر والاعتبار ، (فذوقوا) أي العذاب (فما للظالمين) أي الكافرين الذين ماتوا على الكفر (من نصير) يدفع عنهم العذاب (إن الله عالمُ غَيب السموات والارض ، إِنه عليمٌ بذاتِ الصدور) أي عليم بما فيها من قصد الخير أو الشر والعزم عليه والعمل به فيجازي كلا بما هو أهله •

(هُوَ الذي جَعَلَكُمْ خلائِفَ في الأَرْضِ ، فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ، ولا يَزِيدُ الكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إلاّ مَقْتاً ، ولا يَزِيدُ الكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إلا خَساراً(٣٩) قُلْ : أَرَأَيْتُمْ شُرَكاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ؟ أَرُونِي ماذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ ، أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ؟ أَمْ آتيْناهُمْ كِتَاباً فَهُمْ على بَيِّنَةٍ مِنْهُ ؟ بَلْ اِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إلاّ غُروراً(٤٠) إنّ اللهَ يُمْسِكُ السَّموات والأَرْضَ اَنْ تَزُولا ، وَلَئِنْ زالَتا اِنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ، اِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً)(٤١)

قوله تعالى : (هو الذي جعلكم خلائف في الأرض) الخلائف جمع الخليفة ، يعني هو الذي جعلكم خلفاء له في الأرض أسوة بأبيكم الأعلى آدم ـ عليه السلام ـ • وألقى إليكم مقاليد التصرف ليبتليكم كيف

تعملون ؟ هل تعدلون حتى تنالوا الثواب أو تجورون حتى يصيبكم العقاب والعذاب ؟ أو هو الذي جعلكم خلفاء عمن قبلكم من الأمم وأورثكم ما بأيديهم من متاع الدنيا ليمتحنكم هل تطيعون ربكم فيما بأيديكم حتى تنالوا الخير في الدنيا والآخرة ؟ أو تعصونه حتى يدمركم الله كما دمر الظالمين ممن قبلكم • والخطاب عام والمقصود التنبيه على خطورة الموقف حتى لا يصر الإنسان على الغفلة والجهالات (فمن كفر فعليه كفره) وعقابه ووباله (ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا) لهم واحتقارا وهوانا (ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا) في الدنيا بموت ضميره وضيق صدره والحيرة في أمره ، وفي الآخرة بذوق الحميم والعذاب الشديد الأليم •

(قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعُونَ من دون الله ؟) أي آلهتكم المزعومة (أروني ماذا خلقوا من الأرض) أي أعلموني أو أبصروني أيَّ جزء من أجزاء الأرض خلقوه حتى يستحقوا التقديس والعبادة ؟ (أم لهم شرك في السموات) أي بل ألَهُم شراكة مع الله تعالى في خلق السموات والمواد العاوية (أم آتيناهم كتابا) أي بل آتينا أولئك العباد للأصنام كتابا ينطق بأن اتخذنا أولئك الأصنام شركاء لنا (فهم على بينة) وحجة واضحة من ذلك الكتاب ؟ (بل) أضرب عن كل ذلك واعلم أنه ليس لهم خلق وتصرف في الارض ولا في السماوات ، وليس عباده على بينة لصحة هذه الخرافات ، وتلك الأصنام أجسام حجرية جامدة كاسدة لا تساوي شيئا له قدر وما (يعد) أولئك الكافرون (الظالمون) على أنفسهم بالإشراك بالله وما يبلغون (بعضهم بعضا إلا غرورا) وبطرا من اتباع خرافات أسلافهم الجاهلين (إن اللهَ يُمسك السمواتِ والأرضَ أن تزولا) عن محلهما ومحورهما (ولئن زالتا) أي أشرفتا على الزوال فرضا (إن أمسكهما) أي ما أمسكهما (من أحد من بعده) أي من بعد إمساكه تعالى له فمن الذي

تكافىء قدرته قدرة هذا الرب القادر القاهر الحي القيوم القائم بذاته المقيم لغيره حتى يشاركه في الالوهية ؟ تعالى عن ذلك علوا كبيرا (إنه كان حليما) لا يستعجل بعقوبة المشركين (غفورا) لذنوب المؤمنين •

(وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ : لَئِنْ جاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدى مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ ، فَلَمَّا جاءَهُمْ نَذِيرٌ مازادهم إلا نُفُوراً(٤٢) اسْتِكْبَاراً فِي الأَرْضِ ومَكْرَ السَّيِّىءِ ، وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّىءُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ ، فَهَلْ يَنْظُرونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ ؟ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلاً ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلاً(٤٣) أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَكانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ؟ وما كانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمواتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كانَ عَلِيماً قَدِيراً(٤٤) وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِما كَسَبُوا ما تَرَكَ عَلى ظَهْرِها مِنْ دابَّةٍ ، وَلكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمّىً، فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللهَ كانَ بِعِبادِهِ بَصِيراً)(٤٥)

قوله تعالى : (وأقسموا بالله جَهْدَ أيمانهم) يريد تذكيرهم بما عاهدوا الله عليه وهم رجال يدعون المروءة والوفاء بالعهود لعلهم يتذكرون ويوفون بها ويؤمنون ؛ فيقول وحلفوا أي أولئك المشركون من أهل مكة (لئن جاءهم نذير) من الله آمنوا به إيمانا متينا ثابتا على أساس القوة والعزيمة وكانوا (أهدى من إحدى الأمم) التي لها دور في العالم كأمة اليهود أو النصارى أو غيرهما مما كان له شأن ومقام • أو معناه ليكونن أهدى من

أمة عالية نادرة الوجود يقال في شأنها أنها إحدى الأمم (فلما جاءهم نذير) وهو أحدُ الأحدين وفرد العصور ومصباح النور ـ محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ (مازادهم) طلوع شمس قدسه (إلا نفورا) والخفاش تنفر من الشمس ، وكان نفورهم (استكبارا في الارض) بالمال والحال والأنف والعنف والطول والعرض (ومكر السيىء) أي وخداعا مع الحق ومكراً مكرَ السيىء ، فإن كل مكرٍ كان لغير الحق فهو المكر السيىء ، أو وكانوا عند مجيئه ماكرين في حقه المكرَ السيىء لقتله أو فشله في دعوته (ولا يحيق المكر السيىء) أي ولا يحيط (إلا بأهله) الماكرين (فهل ينظرون) أي ينتظرون (إلا سنة الأولين) أي سنة الله في الكفار الأولين بإهلاكهم في الدنيا وتعذيبهم في الآخرة (فلن تجد لسنت الله تبديلا) بأن يبدل التعذيب بالتنعيم (ولن تجد لسنت الله تحويلا) من محلها إلى آخر بأن ينقل عذابه من الكافرين إلى المسلمين •

(أو لم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ؟) أي أو لم يمروا على ديار عاد وثمود في متاجرهم الصيفية أو الشتوية لينظروا إلى تلك الديار المغضوب عليها بالدمار حتى يعلموا كيف كان عاقبة الذين كانوا مكذبين للرسل من قبلهم حتى يعلموا أنهم سيبتلون إذا لا يتوبون (وكانوا) أي الكفار الذين كانوا من قبلهم (أشد منهم) أي من كفار مكة (قوة) بالعَدَد والعُدَد (وما كان الله ليعجزه من شيىء في السموات ولا في الارض إنه كان عليما قديرا) كامل العلم والقدرة وشاملهما (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا) من السيئات (ما ترك على ظهرها من دابة) تدب وتمشي على الارض إما لعصيانه أو ابتلائه بشؤم المعاصي كما في قوله تعالى (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) وشمول شؤم المعاصي للصالحين ليس لاستحقاقهم للدمار بل لجريان سنة الله تعالى في الكائنات ،

فإنه إذا أراد خسف إقليم انخسف بمن عليه وما عليه وما فيه للزوم وجود الحال بوجود المحل ، فالمحل إذا علا يعلو معه الحال وإذا نزل ينزل معه ، والمكافون العصاة يأخذون حقهم واستحقاقهم من العذاب والمطيعون يأخذون أجورهم بغير حساب . وكان هذا العمل يشبه خطاب الوضع الجاري على المكلف وغير المكلف وليس كخطاب التكليف المختص بالعقلاء البالغين (ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى) أي لكنه لا يؤاخذهم بما كسبوا بل يؤخرهم الى أجل ووقت معين لتعذيبهم ولا يبالي الباري بتعذيب المستحق في الحال أو الاستقبال فإن الزمان بالنظر إليه لا قيمة له (فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا) فيفرق بين درجات عذابهم ، ويعذبهم على حسابهم . أعاذنا الله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا وجعل مآلنا خيرا من حالنا بمنه وفضله وكرمه آمين .

سورة يس ، مكية ، وهي ثلاث وثمانون آية

بسسم الله الرحمن الرحيم

(يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ
الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤) تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ
الرَّحِيمِ (٥) لِتُنْذِرَ قَوماً ما أُنْذِرَ آبَاؤُهُم فَهُم غافِلُونَ (٦)
لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ على أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٧) إِنَّا
جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُمْ
مُقْمَحُونَ (٨) وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً ، وَمِنْ
خَلْفِهِمْ سَدّاً ، فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ (٩) وَسَوَاءٌ
عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (١٠)
إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ، وخَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ
فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كريمٍ (١١) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتى
ونَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَآثارَهُمْ ، وكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيناهُ فِي
إِمامٍ مبينٍ)(١٢)

قوله تعالى (يس) الكلام فيه كالكلام في الم ونحوه من الحروف المقطعة (والقرآن الحكيم) الواو للقسم أي أقسم بالقرآن الموصوف بالحكمة في تنزيله وفي مدلوله ، أو للعطف على يس إذا كان مقسما به . وجواب القسم قوله (إنك لمن المرسلين) أي إنك لمن المختارين من العباد المرسلين للإرشاد وقوله (على صراط مستقيم) خبر ثان لحرف التأكيد وقوله (تنزيل العزيز الرحيم) بالرفع خبر لمبتدأ محذوف أعني هو راجع إلى القرآن أو الصراط ، والتنزيل بمعنى المنزل اسم مفعول أي القرآن هو المنزل من العزيز الرحيم ، أو الصراط المستقيم هو الكلام المنزل من الله العزيز الغالب على أمره الرحيم بكل ذي روح في عُسره ويُسره . وبالنصب على المدح ، أي أعني بالقرآن أو بالصراط المستقيم (تنزيل العزيز الرحيم) على الوجه المذكور ، وبالجر بدل من القرآن أو الصراط كذلك . وقوله (لتنذر) متعلق بأرْسِلْتَ المستفاد من قوله لمن المرسلين ، أي لتنذر بعذاب الدنيا والآخرة على الإشراك بالله (قوما ما أنذر آباؤهم) الأقربون (فهم غافلون) عن وجوب التوحيد .

ومما ينبغي الانتباه له أنه طيلة المدة الواقعة بين وفاة اسماعيل ـ عليه السلام ـ وبعث سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يرسل الله رسولا إلى أمة العرب وقد اندرست شريعة إسماعيل وإبراهيم ـ عليهما السلام ـ في القسم الأخير من هذه المدة ، فلم يكن هناك صحيفة بين العرب تدرس وتؤخذ منها أحكام الدين ، لا أصولها ولا فروعها ، وبالخاصة لما ذهب عمرو بن لُحَيّ إلى الشام وجاء بالصنم إلى الكعبة الشريفة ، ولوثها بالإشراك لم تبق شريعة إسماعيل بين الناس إلا بنوع من الحكاية عن الماضي البعيد ، ولذلك قسم العلماء تلك المدة الى أقسام ثلاثة : القسم الاول منها كانت شريعة إسماعيل فيه واضحة والناس

كانوا على بصيرة منها ويعملون بها • والقسم الثاني ابتعد الناس فيه عن أخذها وفهمها ولم يبق منها إلا شيىء قليل • وأما القسم الثالث ولا سيما ما وقع منه مقارنا لوجود الأصنام في الكعبة الشريفة وانتشار عبادتها فيه ، فقد كان الناس جاهلين بالأحكام فيه وغافلين عن وجوب التوحيد والتزام أحكام الدين وسموه عهد الفترة •

وبعد نص الباري تعالى على أنهم لم ينذروا بقوله في سورة القصص : (لتنذر قوما ما أتيهم من نذير من قبلك) وفي سورة سبأ : (وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير) ونصه على أن من لم ينذر فهو غافل بقوله في هذه السورة (لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون) وبعد نصه على أن الفاعل بسبب عدم مجيىء الرسول إليه لا يعذب بقوله الكريم في سورة الإسراء وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا • ولمفهوم قوله في سورة النساء : (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) •• وجب الاعتقاد بأن أهل الفترة ناجون من عذاب النار ، وأن حكمهم دخول الجنة ، إذ لا منزلة بين المنزلتين ولا واسطة بينهما عند جمهور المسلمين • وإذا تقرر ذلك ظهر أن كل ما روي من الأخبار الدالة على عذاب أهل الفترة وهم منهم بنص قوله الكريم : (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل) إن كانت من الاحاديث الضعيفة فلا مجال للاستدلال بها ، وإن كانت من الأحاديث الحسنة أو الصحاح وجب تأويلها بحملها على من كان من غير القسم الثالث، أو على من كان فيه وقد بقي إلى أن أدرك بعث الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ أو على من سافر إلى بلاد النصارى ، وعلم من الدين ما ألزمه برعاية الأحكام والآداب ، وإلا فلا وجه للاستدلال به واعتباره في مقابل تلك الآيات الصريحة في أنهم لم ينذروا حيث ما أتيهم الرسول وكانوا غافلين عن أحكام الدين •

وقوله (لقد حق القول على أكثرهم) أي ثبت قول الله تعالى في مقابل إبليس لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين على أكثرهم وهم عبارة عمن سبق في علمه تعالى أنه بسوء اختياره ينحرف عن الصراط المستقيم ، فإذا كان كذلك (فهم لا يؤمنون) بإنذارك إياهم ولقد أعذر من أنذر ، فليس عليك إلا تبليغ ما أنزلناه إليك وقد بلغت • ولما كان الكفار على سوء حال منعهم عن النظر الى الحال أو الاستقبال ، وأصروا على عنادهم واستمروا في فسادهم وإفسادهم بحيث لا ينفع فيهم الوعظ والإرشاد، وصمموا على ذلك مثلهم الله تعالى بالذين جعلت في أعناقهم الأغلال الغليظة بحيث استوعبت المسافة من صفحة الرقبة الى الذقن ، ولم يقدروا على تحريك رؤسهم الى جانب الصدر وما أمامه ، فقال (إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا) من خيوط أوهامهم الفاسدة وأحوالهم الكاسدة بحيث ملأت الخلاء (فهي إلى الأذقان) فهي أي تلك الأغلال واصلة إلى الأذقان جمع ذقن وهو مجتمع اللحيين وقوله (فهم مقمحون) كالنتيجة للجعل السابق ، يعني أنه لما وصلت الاغلال الى الاعناق فهم مرفوعو الرؤس بحيث لا يستطيعون النظر الى الامام وكذلك مثلهم بالذين أحيطوا بالسدود بحيث لا يستطيعون التجاوز الى الحدود فقال : (وجعلنا من بين أيديهم سدا) أي سدا عظيما لا يعرف كمه وكيفه (ومن خلفهم سدا) كذلك (فأغشيناهم) يعني فغطيناهم بالسدين (فهم) بسبب ذينك (لا يبصرون) أي لا يقدرون على إبصار ما وراءهم من الجهتين بل من الجهات •

فصار ما سيأتي كالنتيجة لهذا التمثيل وهو قوله تعالى (وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) فإن قوما لم يقوموا إلا على قدم الضلال والجهالة ولم يعيشوا إلا على زاد العناد والاستكبار فعميت قلوبهم قبل الأبصار وتمرضت أبصارهم برمد خائنة الأعين وسوء النظر الى أدلة

الاعتبار .. كيف يؤثر فيهم الإنذار ؟ فالإنذار وعدمه متساويان بالنسبة إليهم . وأما بالنسبة الى الرسول الأمين ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكل إنذار يجلب أوقارا من الأجور ، وكل اصطبار في مقابل استكبارهم يفيد مزيد الدرجات ليوم النشور .

وحاصل ما هنا أن من آمن برب العالمين وإرساله الانبياء والمرسلين يعلم أن العباد لهم شأن وقابلية للتكليف واستطاعة العمل إيجابا وسلبا ، وإلا كان التشريع عبثا ، وحاشاه أن يجعل عبثا في الكائنات ، وهو تعالى مع أنه له قدرة على هداية الناس جميعا قرر نظاما شاملا يتميز به العاصي والمطيع والوضيع والرفيع ، وهو الخوف من مقامه تعالى ومنعه نفسه عن الهوى ، فمن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى ، واما من تكبر واستغنى وطغى على الحق وبغى فجزاؤه النار جزاء وفاقا جزاء الأبد على القصد ونية الإطاعة أو العصيان إلى الأبد .

(إنما تنذر من اتبع الذكر) أي القرآن بتلاوته وتدبر معانيه والعمل بما يقتضيه أو أخذ زبدته من المبلغين وعمل بما قرره إلى يوم الدين . (وخشي الرحمن) أي عقابه على العصيان ورجا رحمته على الطاعة والإحسان . وقوله (بالغيب) أي متلبسا ذلك العقاب بالغيب والخفاء لأنه في دار الجزاء أو متلبسا ذات الرحمن إذ لا ترى ذاته وإنما ترى آثار خلقه وآياته ، أو متلبسا ذلك الخاشي بالغيب عن أعين المراقبين (فبشره بمغفرة) لذنوبه (وأجر كريم) من هباته وكرامته . ثم جاء بآية من الآيات البينات على وجه التذييل للفريقين من أهل الكفر والمعاصي أو من أهل الإيمان والطاعات . فقال (إنا نحن نحيي الموتى) في وقت البعث والنشور لميزان الأعمال وحساب الأجور (ونكتب) بأيدي الكرام الكاتبين (ما قدموا) من الأعمال الصالحة والظاهرة والباطنة ، أي اسلفوها لنيل الجزاء في دار

البقاء من المؤمنين وبطراً وعبثا من الكافرين (و) نكتب (آثارهم) التي أبقوها بعدهم من الحسنات والسيآت ، ويدخل في ذلك علم علموه ، أو كتاب ألفوه ، أو ملك وقفوه ، أو مسجد أو جامع بنوه ، وغير ذلك من وجوه البر والخير ••• وكذلك ماتركوه من الآثار السيئة والسنن المذكورة ؛ كتأسيس مبادىء الكفر والظلم والبغي والعدوان ، وسوء الجوار ، وسوء الظن بالأخيار الى غير ذلك ••• أخرج الإمام أحمد في الزهد عن ابن عباس قال : كانت الأنصار منازلهم بعيدة من المسجد فأرادوا أن ينتقلوا قريبا من المسجد فنزلت (ونكتب ما قدموا وآثارهم) فقالوا : بل نمكث مكاننا • وعلى تلك القصة ورد قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « إنه تكتب آثاركم » (وكل شيء أحصيناه في إمام مبين) أي وأحصينا كل شيء من الأشياء صغيرا أو كبيرا سرا أو جهرا سيئة أو حسنة في إمام مبين أي في أصل واضح عظيم الشأن • وهو دفاتر الأعمال أو هو اللوح المحفوظ • أو معناه إنا كشفناه وعلمناه بعلمنا الأزلي الواسع الجامع •

(وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جاءَها الْمُرْسَلُونَ(١٣) إِذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُما فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ ، فَقالُوا : إِنّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ(١٤) قالُوا : ما أَنْتُمْ إِلاّ بَشَرٌ مِثْلُنا ، وَما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ مِنْ شَيْءٍ ، إِنْ أَنْتُمْ إِلاّ تَكْذِبُونَ(١٥) قالُوا : رَبُّنا يَعْلَمُ إِنّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ(١٦) وما عَلَيْنا إِلاّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ(١٧) قالُوا : إِنّا تَطَيَّرْنا بِكُمْ ، لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنّا عَذابٌ أَلِيمٌ(١٨) قالُوا : طائِرُكُمْ مَعَكُمْ ، أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ ، بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ)(١٩)

قوله تعالى (واضرب لهم مثلا أصحاب القرية) عطف على ما قبله عطف القصة على القصة ، والمعنى واجعل لهؤلاء المشركين أصحاب القرية مثلا . فأصحاب القرية مفعول أول ، ومثلا مفعول ثان . وإنما أخر المفعول الأول ليتصل به ما هو شرحه وبيانه . وقوله (إذ جاءها المرسلون) يدل من أصحاب القرية بدل اشتمال ، لأن المقصود ذكر مجيىء المرْسلين إليهم ومعاندتهم لهم ، والقرية (أنطاكية) والمرسلون رُسُلُ عيسى ـ عليه السلام ـ من الحواريين ، لكن نسب الله إرسالهم إلى نفسه في قوله (إذ أرسلنا إليهم اثنين) لأن إرسال عيسى لهما كان بأمر الله تعالى ، وهما يوحنا وبولس ، أو سمعان ويُوحَنا (فكذبوهما) أي فلما وصلا إلى أصحاب القرية كذبوهما (فعززنا بثالث) أي فقويناهما وشددناهما بثالث وهو شمعون (فقالوا) أي ثلاثتهم : (انا إليكم مرسلون) أو واحد منهم مع موافقة الباقين (قالوا) أي أصحاب القرية خطابا للثلاثة (ما أنتم إلا بشر مثلنا) ولا مزية فيكم توجب اختصاصكم بالرسالة (وما أنزل الرحمن من شيىء) تدعون أنه وحي من الله (إن أنتم إلا تكذبون) فيما تدعون ، فلما رأوا شدة إنكارهم عليهم زادوا التأكيد في الجواب . و (قالوا) أي المرسلون : (ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون) واستشهدوا بعلم الله تعالى بذلك وهو جار مجرى القسم ، والإتيان به فيما يخالف الواقع كفر لأنه نسب إليه العلم بخلاف المعلوم ، وذلك نسبة الجهل اليه تعالى ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

(قالوا) أي أصحاب القرية : (إنا تطيرنا بكم) أي تشاءمنا بكم جريا على حال الجهلة حيث يتيمنون بكل ما يوافق شهواتهم وإن كان جالبا للشر ويتشاءمون بكل ما يخالفها وإن كان وسيلة إلى الخير . وتطيرهم كان من حبس المطر عليهم مدة ، أو بظهور الجذام فيهم . والله (لئن لم تنتهوا)

عن مقالاتكم (لنرجمنكم) بالحجارة (وليَمَسَّنكم منا عذاب أليم) قيل هددوهم بالحرق (قالوا) أي المرسلون في جوابهم (طائركم معكم) أي شؤمكم معكم لبقائكم على الكفر والضلال (أإن ذكرتم) أي أإن وعظتم وذكرتم بما فيه خيركم وسعادتكم تتطيرون أو تتوعدون ؟ (بل أنتم قوم مسرفون) أي بل أنتم عادتكم الإسراف في الإفساد وتجاوز الحدود .

روي أن أصحاب القرية (أنطاكية) كانوا عبدة أصنام ، فأرسل إليهم عيسى ـ عليه السلام ـ اثنين ، فلما قربا من المدينة رأيا حبيب النجّار يرعى غنما فسألهما فأخبراه ، فقال : أمعكما آية ؟ قالا : نشفي المريض بإذن الله ، ونبرىء الأكمه والأبرص ، وكان له ولد مريض فمسحاه فبرىء ، فآمن حبيب وفشا الخبر ، فشفي على أيديهما خلق كثير ، وبلغ حديثهما إلى الملك فدعاهما ، وقال لهما : ألنا إله سوى آلهتنا ؟ قالا : نعم من أوجدك وآلهتك . قال حتى أنظر في أمركما فحبسهما .

ثم بعث عيسى شمعون فدخل متنكرا وعاشر أصحاب الملك حتى استأنسوا به وأوصلوه إلى الملك فآنس به . فقال له يوما : سمعتُ أنك حبست رجلين . فهل سمعت مايقولانه ؟ قال : لا . فدعاهما : فقال شمعون : من أرسلكما ؟ قالا : الله الذي خلق كل شيىء وليس له شريك . قال : صِفاهُ وَأَوْجِزا . قالا : يفعل ما يشاء ويحكم مايريد . قال وما آتاكما قالا : ما يتمنى الملك . فدعا بغلام مطموس العينين فدعوا الله حتى انشق له بصر ، وأخذا بندقتين فوضعاهما في حدقتيه فصارتا مقلتين ينظر بهما . فقال : شمعون أرأيت لو سألت آلهتك حتى تصنع مثل هذا حتى يكون لك ولهما الشرف . قال : ليس لي عنك سِرٌّ آلهتنا لا تسمع ولا تبصر ولا تضر ولا تنفع . ثم قال : إن قدر إلهكما على إحياء ميت آمنا به ، فأتوا بغلام مات منذ سبعة أيام فدعوا الله فقام . وقال : إني أدخلت في سبعة أودية

من النار ، وأنا أحذركم ما أنتم فيه ، فآمنوا! • وقال : فتحت أبواب السماوات فرأيت شابا حسنا يشفع لهؤلاء الثلاثة شمعون وهذين • فلما رأى شمعون ان قوله قد أثر فيه نصحه فآمن في جمع ، ومن لم يؤمن صاح عليهم جبريل ـ عليه السلام ـ فهلكوا •

(وجاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رجُلٌ يَسْعى ، قالَ : يا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ(٢٠) اتَّبِعوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهتَدُونَ(٢١) وَمالِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَني وإلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٢٢) أَأَتَّخِذُ مِنْ دونِهِ آلِهَةً ؟ إنْ يُرِدْنِ الرَّحْمنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلا يُنْقِذُونَ(٢٣) إنِّي إذاً لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ(٢٤) إنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ(٢٥) قيل : ادْخُلِ الجنَّةَ ، قال : يا لَيْتَ قَوْمي يَعْلَمُونَ(٢٦) بِما غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ)(٢٧)

قوله تعالى (وجاء من أقصى المدينة) أي من أبعد مواضعها (رجل) وهو حبيب (يسعى) أي يسرع في مشيه حرصا على نصح قومه (قال : يا قوم اتبعوا المرسلين • اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون) أي ثابتون على الحق والاهتداء (وما لي لا أعبد الذي فطرني) تلطف في إرشاد قومه بايراده الكلام في معرض المناصحة (واليه ترجعون) مبالغة في تهديدهم بتخويفهم من الله الذي يرجعون اليه وهو شديد العقاب (أأتخذ من دونه آلهةً ؟ إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئا ولا ينقذون • إني إذا) أي إذا اتخذت من دونه آلهة (لفي ضلال مبين) أي

واضح فإن إشراك ما لا يحصل منه خير ولا دفع شر ضلال ، وإذا كان جامدا هامدا فالضلال مبين والعلم به يقين (إني آمنت بربكم فاسمعون) أي فاسمعوا قولي فإني أعلن ذلك ولا أبالي بأي حادث هنالك . وبعد أن قال ما قال وبرأ ذمته عند الله المتعال قتلوه . فقيل : رموه بالحجارة حتى مات . وقيل : ألقوه في بئر . وقيل : قاموا عليه بالأرجل والأقدام وغير ذلك . و (قيل) أي من جانب الملك الآمر المتعال أو الملك المامور بذلك المقال : (ادخل الجنة . قال : يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين) وإنما تمنى ذلك ليكسبهم الإيمان كإيمانه فينالوا الأمان كأمانه .

الجزء الثالث والعشرون

(وَما أَنْزَلْنَا عَلى قوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِن جُنْدٍ مِنَ السَّماءِ وما كُنَّا مُنْزِلِينَ(٢٨) إنْ كانَتْ إلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فإذَا هُمْ خَامِدونَ)(٢٩)

(وما أنزلنا على قومه من بعده) أي من بعد إهلاكه (من جند من السماء) للانتقام منهم (وماكنا منزلين) وما صح في حكمتنا إذ ذاك أن ننزل جندا ، لإهلاكهم لأن أمورنا مقررة على الحِكَم (إن كانت) أي ما كانت الأخذة أو العقوبة (إلا صيحة واحدة) صاح بها جبريل بأمر الجبار الجليل ، ولو فرض أن الصيحة منه كانت موجبة لبركان ناري من أعماق الارض في تلك البلدة بالطول والعرض (فإذا هم خامدون) ميتون .

(يا حَسْرَةً عَلَى الْعبادِ ! ما يَأتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ اِلاَّ كانُوا بِهِ يستَهْزِءُونَ(٣٠) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ القُرونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرجعُونَ ؟(٣١) وَإنْ كلٌ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ(٣٢) وآيَةٌ لَهُمُ الأَرْضُ الْمَيتَةُ أَحْيَيْناها وَأَخرجْنا مِنها حَبّاً فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ(٣٣) وَجَعَلْنَا فيها جَنَّاتٍ مِنْ نَخيلٍ وَأَعْنابٍ ، وفَجَّرنا فِيها مِن الْعُيُونِ(٣٤) لِيأْكُلُوا

مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ، أَفَلا يَشْكُرُونَ ؟(٣٥)
سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ
وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ)(٣٦)

قوله تعالى : (يا حسرة على العباد) الحسرة الغم على ما فات ، كأن المتحسر انحسرت قواه النفسية والبدنية من فواته ، فيقول : ياحسرة على العباد وعقولهم ونور فطرتهم وشعورهم ! كيف ذهبت وفاتت وما استفادوا منها فوصلوا إلى مرحلة من الجهالة والغباوة ؟ (ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون) أي ما يأتيهم أي رسول في أي حال من الأحوال إلا حال استهزائهم به وضحكهم عليه ، وما يتفكرون فيما لديه من التعاليم القيمة التي في العمل بها سعادة الدارين . ألم يتفكروا في أخلاق الرسول الذي هو وسيلة الوصول ؟ ألم يتفكروا في أنفسهم وهم أصحاب عقول ومسئوليات وأن وراء هذه الحياة حياة وجزاء" وثواب" وعقاب" ؟ ألم ينظروا إلى غضب الله وانتقامه منهم ؟ (ألم يرواكم أهلكنا قبلهم من القرون) أي كم أهلكنا قبلهم من الأمم في القرون الماضية من الذين تكبروا على الأنبياء والمرسلين (أنهم إليهم لا يرجعون) بدل اشتمال لقوله كم أهلكنا قبلهم من القرون ، يعني ألم يروا أهل القرون التي مضت قبلهم هالكين ؟ ألم يروا أنهم لا يرجعون إلى أهل مكة كما زعم الخرافيون أن الاموات بعد مدة من مماتهم يرجعون الى الدنيا ؟ (وإن كل لما جميع لدينا محضرون) إن نافية ، وكل مبتدأ ، ولما بمعنى إلا ، أي وما كل منهم إلا جميعهم لدينا محضرون للحساب والميزان ونيل جزائهم بالإتقان .

(وآية لهم الأرض الميتة) أي الأرض اليابسة الجامدة التي لا تنبت شيئا آية عظيمة لهم دالة على قدرتنا على الإحياء والإماتة (أحييناها) بالأمطار ، وخلقنا فيها قوة الإنبات

للنبات والأشجار (وأخرجنا منها حبا) أي جنس الحب من الأقوات المختلفة (فمنه يأكلون) للاقتيات أو التنعم والتلذذ (وجعلنا فيها) أي في الأرض (جنات من نخيل وأعناب) أي ومن تين وزيتون ورمان وعناب وغيرها من الاشجار المثمرة بلا حد وحساب ... (وفجرنا فيها من العيون) تجري على مر الليل والنهار ، وفي كل المواسم ، أو في بعضها حسب الأسباب المودعة لتفجيرها (ليأكلوا من ثمره) أي من المذكور كله بلا معالجة لذواتها أو بها لعصيرها وما يستحصل منها (وما عملته أيديهم) أي الحال أنه ما عملته أيديهم ، لأن الجعل من الله لا من العباد ، أو ليأكلوا مماعملته أيديهم مما لهم فيه صنعة وعلاج (أفلا يشكرون ؟) أي أبعد إفاضة هذه النعم الجسيمة من الأقوات والفواكه والنباتات للاستهلاك والتصدير والعيش عليها بالكثير واليسير لا يشكرون الخالق القدير ؟

وليس الخلق محصورا في ذلك بل يوجد ما لا يدخل تحت الإحصاء هنالك فـ (سبحان الذي خلق الأزواج) أي الأصناف أو الذكر والأنثى (كلها مما تُنبِت الأرض ومِن أنفسهم ومما لا يعلمون) وذلك لعدم إطلاعهم عليه لحد الآن ، أو لأنه يخلقها تعالى في مستقبل الأزمان والحمد لله رب العالمين .

(وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ(٣٧) والشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها ، ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ العَلِيمِ(٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ(٣٩) لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ ، ولا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ، وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ(٤٠) وآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ

الْمَشْحُونِ(٤١) وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ(٤٢) وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ ، وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ(٤٣) إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ)(٤٤)

قوله تعالى (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار) جرت سنة الله في كتابه المنزل على توجيه العباد إلى الله وتذكيرهم بنعمه السماوية والأرضية التي فيها العبر عبر الأزمان على مستويات مختلفة ظاهرها ومباديها للعامة ، واسرارها وحقائقها ودقائقها للخاصة ، وكلما زادت الطبقة علما وعقلا زادت الأسرار فيها دلالة وبيانا . وقد ذكر الله تعالى في آياته السابقة نعمه الأرضية التي تظهر من الأقوات وغيرها . وهنا يذكرهم بالنعم الزمانية من الليل والنهار وأسباب تكونهما . فقال وآية لهم الليل أي والليل آية عظيمة للمعتبرين في تكونه وتحققه فهو زمان مظلم كجسد حيوان جسيم نسلخ منه النهار الذي يشبه جلد الغنم فإذا هم مظلمون واقعون في ظلام دامس .

وقوله (والشمس) معطوف على الليل أي وآية لهم الشمس وقوله : (تجري) استئناف لبيان أحوالها الدالة على قدرة خالقها ، وهي أنها (تجري لمستقر لها) أي إلى وقت استقرار وسكون لها (ذلك) الجريان الى المستقر ثم الاستقرار (تقدير العزيز العليم) أي تقدير الرب القادر على إجرائها وحركتها العليم بكمية تلك الحركات وكيفيتها ودوامها وانقطاعها . وفي الحقيقة إن الإنسان إذا فتح عينه على الأفق ورأى الشمس تطلع من الأفق فتنور نصف الكرة تهتز مشاعره لو كان له نور الشعور ، ولكن العادة والاستمرارية تؤثر فيه فتجعل العجيب غير عجيب والعظيم غير عظيم . وقوله تعالى تجري ظاهر في جريانها وحركتها . وأهل الرياضيات القديمة كانوا يقولون بدورانها حول الارض . وفي العهد الأخير تغيرت الآراء والأفكار بسبب اختراع المجاهر واستحصال الأصول الهندسية ، وقرروا

أن الكواكب في الكون ، ومنها الارض وكوكبها التابع لها أعني القمر هي التي تتحرك حول الشمس ، فالسيارات منها ، والمكشوفات منها لحد الآن ثلاثة عشر تدور حول الشمس ، والارض منها تدور حول نفسها في كل يوم وليلة مرة ، وحول الشمس في كل سنة شمسية أعني ثلثمأة وستة وستين يوما مرة • والآن نسمع بوجود اكتشافات تدل على أن الشمس أيضا تجري حول نفسها وذلك تحقيق معنى قوله الكريم (والشمس تجري لمستقر لها) ويحتمل أن تكون حركتها في الكائنات على مدار خاص تقطعها في زمان عينه الله تعالى لها •

وقوله تعالى (والقمر قدرناه منازل) أي وقدرنا سير القمر في منازل متعددة من مدار حركته • وبما أنه يستفيد النور من الشمس ويستضييء أكثر من نصفها في مقابلتها دائما ، ولكن يختلف مقابلته لمن على الارض بحيث يرى في أول الشهر مقدار هلال منه ، ثم في الدور الثاني يزيد اتساع المقابل منه إليه ، فيرى منه أزيد من الأمس الى الليلة الرابعة عشرة من الشهر ، فيقابل نصفه الكامل لنا ويتكامل نوره ثم في اليوم الخامس عشر يبدأ بالتناقص على عكس ما سبق في النصف الاول من الشهر الى أن ينتهي الى المحاق ، وهو أن يكون وجهه المظلم إلينا تماما ثم ينكشف في الدور الآتي بمقدار هلال منه كما قال تعالى (حتى عاد كالعرجون القديم) والعرجون عود عزق النخلة من بين الشمراخ الى منبته منها • ووزنه فعلول من الانعراج وهو الإعوجاج • وهذا الوضع هو الذي نراه بطول الزمان ، وجعله كذلك لمعرفة أوقات المعاملات والمزارعات وسائر الامور المؤقتة بالأزمنة كما قال تعالى ويسألونك عن الأهلة ، قل : هي مواقيت للناس والحج • وهذا المقدار هو الذي ينفعنا معرفته بصورة عامة ، وأما أسماء المنازل والفرق بين الشمالية والجنوبية منها ومدة بقائه في كل منها فراجع

الى علماء علم الهيئة • (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار) مما لا يخفى أن الشمس والقمر كوكبان مخلوقان لله عليهما مدار تحديد الأزمنة بالساعات والأيام والأسابيع والشهور والسنين والقرون ، فالشمس آية النهار أي أنها آية من آيات الله إذا طلعت من الأفق فذلك الوقت يسمى بالنهار إلى غروبها •

والقمر آية الليل أي أنه هو الذي يظهر سلطانه بعد الغروب على الارض ويستفيد أهلها منه وهاتان الآيتان موجودتان في الفلك على مر الزمن ، ولا يفارق وجود أحدهما وجود الآخر • فمعنى قوله تعالى (لا الشمس ينبغي لها) الآية ••• انه في وقت ظهور نور القمر وسلطانه على الأرض ليست الشمس ظاهرة ، وإلا فلو كانت ظاهرة لانمحى نور القمر تحت شعاع الشمس ، ومعنى (ولا الليل سابق النهار) ولا آية الليل أعني القمر سابق وغالب على آية النهار وأعني الشمس لأنه اذا طلعت الشمس وظهر نورها فالقمر ، وإن كان موجودا في مقابل الارض وأهلها لا يظهر نوره ولا يستفاد منه • (وكل في فلك يسبحون) أي وكل من الشمس والقمر في مدار خاص به يسيرون سير السابح في الماء • يعني أن الله تعالى سخر الممر لهما بحيث يمران فيه مر السابح في الماء ، وإنما جاء بصيغة جمع المذكر العاقل لأن السباحة عمل العقلاء على الأغلب • وفي قوله تعالى (كل في فلك) صنعة بديعة تسمى القلب ، وهو أن تساوي قراءة اللفظ من أوله الى آخره قراءته من آخره إلى أوله • وفي هذه الصنعة إشارة إلى أن حركتهما بالاستدارة لا على الإستقامة •

(وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون) يعني كما أن الليل والنهار والشمس والقمر كل منها آية من آيات الله تعالى تدل على عظيم قدرته ، كذلك آية عظيمة لهم أنا علمناهم صنع السفن فصنعوها ، فحملنا

ذريتهم في الفلك المشحون أي المملوء بالإنسان وغيره ، وذلك عند طوفان الماء في عهد سيدنا نوح ـ عليه السلام ـ • أو في الأسفار الواقعة في البحار فإنه لولا إلهامي للأنام لم يكونوا متمكنين من صنعها وتسييرها على البحار • والفلك السفينة ، ويستوي فيه المفرد والجمع ، والمشحون المملوء •

(وخلقنا لهم من مثله ما يركبون) أي وخلقنا لهم مثل الفلك ما يركبونه في الصحارى القفار الفاقدة المنار أعني الإبل ، ولكن المماثلة بعيدة بينهما جدا فيجوز أن يفسر بأنواع أخر من الغواصات البحرية أو الطيارات الهوائية أو الطيارات البرمائية التي تركب وتستعمل في البر والبحر • والله قادر على ذلك وأمثالها •

كتب صاحب نور الأنوار في تأريخ ألف وستين هجرية أنه كان في مجلس شيخه شهاب الدين الحسني الشاذلي الكاكو زكريائي ، فقرأ أحد القراء آيات من سورة يس حتى وصل إلى هذه الآية والشيخ رفع رأسه وقال : سبحان الله رأيت الآن كثيرا من المركوبات البرية والبحرية التي لم نرها سابقا •

(وإن نشأ نغرقهم) أي الناس الراكبين في الفلك (فلا صريخ لهم) أي فلا صوت لهم يصل إلى أحد ينجيهم أو لا مغيث لهم بناء على أن الصريخ جاء بمعنى المغيث (ولا هم ينقذون) بأنفسهم بأي سبب من الأسباب (إلا رحمةً منا) كسفينة أخرى تصلهم أو سباحين ينجونهم (ومتاعاً) أي تمتيعا لهم ببقاء الحياة إلى حين الأجل المسمى لهم •

(وإذا قيلَ لَهُمُ : اتَّقوا ما بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَما خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٥) وَما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِم إِلاَّ كانُوا عَنْها مُعْرِضينَ (٤٦) وإذا قِيلَ لَهُمْ : أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ ، قالَ الَّذِين كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا : أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ

يَشَاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ ؟! إِنْ أَنْتُمْ إِلا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ(٤٧) وَيَقُولُونَ : مَتَى هَذَا الوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ؟(٤٨) مَا يَنْظُرُونَ إِلا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ(٤٩) فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ(٥٠) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ(٥١) قَالُوا : يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ؟ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ المُرْسَلُونَ(٥٢) إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ(٥٣) فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ، وَلا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)(٥٤)

قوله تعالى (وإذا قيل لهم اتقوا مابين أيديكم وما خلفكم) يعنى وإذا قيل لهم اتقوا عذاب الأمم التي قبلكم وعذاب الآخرة التي يأتيكم في المستقبل (لعلكم ترحمون) والجواب محذوف أي أعرضوا بقرينة قوله تعالى (وما تأتيهم من آية من آيات ربهم) أي وما نزل الوحي بآية من الآيات الناطقة بوجوب التوحيد ورفض الإشراك في حال من الأحوال إلا كانوا عنها معرضين أي إلا في حال إعراضهم عنها وعدم قبولهم لها (وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله) على ذوي قرابتكم المحتاجين (قال الذين كفروا للذين آمنوا) أي خطابا لهم (أنطعم من لو يشاء الله أطعمه) قيل : لما أسلم حواشي الكفار من أقربائهم ومواليهم من المستضعفين ، قطعوا عنهم ماكانوا يواسونهم به ، وكان ذلك بمكة قبل نزول آيات القتال ، فدعاهم المؤمنون إلى صلة حواشيهم ، فقالوا : أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ؟! وكانوا يتكلمون بذلك الكلام استهزاء ، لأنهم كانوا يسمعون من المؤمنين تعليق الأفعال

بمشيئة الله تعالى • وقوله تعالى (إن أنتم إلا في ضلال مبين) يجوز أن يكون من كلام المشركين للمؤمنين الذين يندبونهم إلى الإنفاق • كما يجوز أن يكون من كلامه تعالى خطابا للمشركين المستهزئين ، وفي الحقيقة إن جوابهم بذلك يدل على غاية ضلالهم وجهلهم حيث لم يعلموا أنه تعالى يطعم بأسباب منها حث الأغنياء على إطعام الفقراء (ويقولون : متى هذا الوعد) أي وعد البعث والنشور (إن كنتم صادقين ؟) فيما تعدون به (ماينظرون) أي أولئك الكفار المستعجلون (إلا صيحة واحدة) وهي النفخة الأولى في الصور التي يموت بها أهل الأرض (و) الحال أن (هم يخصمون) أي يختصمون في ما بينهم على المعاملات والمتاجرات وغيرها •

أخرج الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة ـ رضي الله تعالى عنه ـ قال قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ، ولا يطويانه ، ولتقومن الساعة والرجل يليط حوضه فلا يسقى منه ، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن نعجته فلا يطعمه ، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته الى فمه فلا يطعمها » (فلا يستطيعون توصية) في شيء من أمورهم بين الأهل (ولا إلى أهلهم يرجعون) في الخارج (ونفخ في الصور) مرة ثانية ، وبينها وبين الأولى مدة أربعين سنة (فإذا هم من الأجداث) أي من القبور (إلى ربهم ينسلون) أي يسرعون بسوق ملائكة الحشر وإجبارهم (قالوا) أي المبعوثون في ابتداء بعثهم من القبور (يا ويلنا) أي احضر فهذا أوانك (من بعثنا من مرقدنا ؟) أي من الذي بعثنا ونبهنا وأقامنا من مرقدنا أي من محل رقودنا يريدون بها القبور ، ولما انتبهوا وعلموا أن هذا هو البعث الموعود قالوا (هذا ما وعد الرحمن) أي وعد به الله (وصدق المرسلون) في وقوعه وتحققه (إن كانت إلا صيحة واحدة) أي ما كانت النفخة إلا صيحة واحدة

من المأمور المختص إسرافيل ـ عليه السلام (فإذا هم جميع لدينا محضرون) فإذا هم مجموع لدينا محضرون أي عندنا وفي محل حكمنا محضرون للحساب (فاليوم لا تظلم نفس) أي من النفوس المكلفة شيئا من الظلم فإن الله لا يظلم مثقال ذرة (ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون) أي وما تجزون إلا جزاء ما كنتم تعملونه .

(إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ (٥٧) سَلَامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (٥٨) وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (٥٩) أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ؟ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً، أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ؟ (٦٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤) الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ ، وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ ، وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)(٦٥)

قوله تعالى ان اصحاب الجنة اليوم بيان لحسن حال المؤمنين لزيادة تحسر الكافرين واغاظتهم فيقول انهم اليومَ متلذذون وفي أنواع النعمة متنعمون ولذلك نكر الشغل وأبهمه (هم وأزواجهم في ظلال) جمع ظل لإفادة أن ماهم من الظل أصناف ، فمنه ظل رحمة الله تعالى بسبب تحاببهم مع إخوتهم وأصدقائهم ، ومنه ظل حصل لهم من إيواء الناس الفقراء في ظلال خيامهم في البدو ، أو بيوتهم في الحضر . وعلى كل فالمراد بهذا الظل

أنهم تحت ستار الرحمة والكرم والإحسان من الله المنان ، وإلا فالآخرة ليس فيها شمس ، والجنة ليس فيها حرارة حتى يحتاج الناس فيها إلى الظل (على الأرائك) جمع أريكة بمعنى السرير (متكئون) معتمدون اعتزازا واستراحة (لهم فيها) أي في الجنة (فاكهة) جليلة الشأن عديمة النظير في الدنيا والتنكير للتنويع (ولهم ما يدعون) أي يطلبون من المشتهيات مادية أو معنوية (سلام) بدل من ما في ما يدعون (قولا) مفعول مطلق أي قيل قولا (من رب رحيم) صفة أي ذلك السلام مقول لهم من جانب رب عظيم الشأن جسيم العطاء • ويحتمل أن يكون السلام منه تعالى مباشرة ، تشريفا لهم أو من بعض الملائكة بأمر من الله تعالى وبينما يقال لهم السلام لمزيد الإكرام يقال للكافرين من الرب المنتقم (وامتازوا اليوم أيها المجرمون) أي انفردوا عن المؤمنين ليتميز الخبيث من الطيب ويقال زيادة على ذلك لزيادة التقريع (ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان) ولا تطيعوه في عبادة الأصنام (إنه لكم عدو مبين) ظاهر العداوة (وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم ؟) فلم خالفتم أمري وأطعتم الشيطان اللئيم (ولقد أضل منكم جبِلّاً كثيرا) والجبل بكسر الجيم والباء وتشديد اللام أصله جبلل كزبرج الجماعة العظيمة أو الأمة (أفلم تكونوا تعقلون ؟) أبعد أن علمتم بآثار عقوباتهم الناشئة عن إضلاله لهم ما كنتم تعقلون أن إطاعته شرّ لكم في الدارين • (هذه) أي ما أمام أعينكم (جهنم التي كنتم توعدون) بدخولها على ألسنة الرسل المنذرين (إصلوها اليوم) أدخلوها اليوم (بما كنتم تكفرون) بالأمس (اليوم نختم على أفواههم) ونمنعهم عن التكلم لئلا يأتي بالباطل على وجه الجدال (وتكلمنا أيديهم ، وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون) فلا يبقى مقام شبهة لأي عاقل منصف في جرائمهم والاكتفاء بشهادة الأيدي والأرجل في مقام لا ينافي وجود شهادة

السمع والابصار والجلود بما كانوا يعملون في مقام آخر ، ويجوز أن تكون هناك شهادات أخرى من أعضاء أخر ومن غيرها لزيادة الخزي وتوفيره عليهم .

(وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ ، فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ؟!(٦٦) وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ ، فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيّاً وَلَا يَرْجِعُونَ(٦٧) وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ(٦٨) وما عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ ، وَمَا يَنْبَغِي لَه ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ(٦٩) لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ)(٧٠)

وقوله تعالى : (وَلَوْ نشاء لطمسنا) تهديد للمشركين بأنهم اليوم في قبضة قدرتنا وتقدر أن نسلبهم حواسهم ومشاعرهم والطمس : إزالة الأثر بالإمحاء أي لو نشاء الطمس على أعينهم وإزالة صنوفها لفعلنا فعموا (فاستبقوا الصراط) أي فأرادوا الإستبقاء الى الطريق (فأنى يبصرون) وهم عُمْي (ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم) أي لحولنا صورهم الى صور أخرى قبيحة مغايرة بالنوع بأن نجعل الإنسان حيوانا آخر ، أو بالصنف بأن نجعل اللون الأبيض أسمر أو أسود . وقوله (على مكانتهم) أي على مقامهم الذي فيه ، أو على مكانتهم وشرفهم الذي هم عليه بأن نغير صورة الإنسان الشريف الى صورة حيوان رديء (فما استطاعوا) بواسطة المانع العارض (مضيا) أي ذهابا إلى مقاصدهم (ولا يرجعون) إلى أماكنهم لو جرى ذلك عليهم وهم خارجون على الموطن والمقام ، وما دامت هذه الأحوال داخلة في قبضة قدرتنا فكيف يستمرون على المعاندة معنا ومع رسولنا ، أفلا يتنبهون ؟

(ومن نعمره ننكسه في الخلق) ومن نطل عمره ننقص ونغير في أعضائه وأعصابه ودمه ولحمه بحيث تنقلب ألف القامة نونا، والرجل العاقل العارف مخبلا مجنونا ، (أفلا يعقلون ؟) أن من قدر على التصرف في هيكل الانسان بالزيادة والنقصان قدر على طمس الأعين والمسح على المكانة ، فما بالهم لا يرجعون إلى الطاعة ولا يؤمنون ؟ وكيف ترمون الرسول الجليل بالشاعر وكتابه الجميل بالشعر (وما علمناه الشعر) لا سليقة ولا اكتسابا (وما ينبغي) الشعر وصياغته وقراءته وصنعته (له) لأنه غالباً يدور حول الشهوات النفسية والخطابات القصصية والهجاء والمدائح المبالغ فيها حسب النزعات الوطنية والجنسية ، وهو رسول أرسل لتخلية النفوس عن الرذائل ، وتحليتها بالفضائل ، وإبعادها عن جهات النقص وتقريبها إلى جناب القدس. (إن هو إلا ذكر وقرآن مبين) أي ما القرآن إلا ذكر يذكر به المكلفون وينتفع به المؤمنون ، وقرآن منزل من الله جامع لأحكامه الاصلية والفرعية واضح مبين (لينذر من كان حيا) في الشعور ومحبا للنور وقابلا للدستور (ويحق القول على الكافرين) .

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ؟(٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ ، فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ ، وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ(٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ ، أَفَلَا يَشْكُرُونَ ؟(٧٣) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ(٧٤) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ ،وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ(٧٥) فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ ، إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ)(٧٦)

قوله تعالى (أو لم يروا أنا خلقنا لهم) أي أو لم يتفكروا ولم يعلموا (أنا خلقنا لهم) أي لأجل انتفاعهم (مما عملت أيدينا) أي مما خلقناه بقدرتنا الشاملة (أنعاما) والمراد بالأنعام الأزواج الثمانية من الإبل والبقر والضأن والمعز (فهم لها مالكون ؟) أي متملكون لها (وذللناها لهم) أي وجعلناها مذللة مسخرة لهم لانتفاعهم بها بالركوب في الأسفار للتجارات وغيرها، والاستفادة من أحمالها وأشعارها وألبانها وأوبارها وأدهانها ولحومها كما قال تعالى (فمنها ركوبهم ومنها يأكلون • ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون ؟) الله الذي أولاهم هذه النعم العظام ، وإذ لا يشكرون نعماءه فَلِماذا يُشرِكُونَ به ؟ (واتخذوا من دون الله آلهة) أي لا لجلب خير نافع ، ولا دفع شر وارد ، بل ليستمروا على قضاء شهواتهم بطرقها المتنوعة ، وإذا قضوا أعمارهم وجدوا عالما آخر وأحاط بهم جزاء سيىء لأعمالهم السيئة (لعلهم ينصرون) أو أنهم إذا أصابتهم مصائب دنيوية ينصرون من جانبهم ، ولا يعلمون أنهم (لا يستطيعون نصرهم ، وهم) أي هؤلاء المشركون (لهم) أي لحراسة تلك الهياكل الجامدة (جند محضرون) من قبل الشيطان وأعوانه من الجن والإنس ، ومنها قوى الرذائل الفاسدة المفسدة (فلا يحزنك قولهم) إنه مجنون ، أو كاهن ، أو ساحر ، أو شاعر، فإن الناقد البصير يعلم أن إنسانا مثلك بعيد من تلك الرذائل وسعيد بالاتصاف بالفضايل • ومن جهة أخرى (إنا نعلم مايسرون) من العقائد الفاسدة ، ومن معاندتهم لك ولكتابك وأصحابك (وما يعلنون) بين الأنام من الاقوال والافعال المخالفة ، ولا شك أنهم لا يفوتوننا ويرون الجزاء الموافق في عالم الجزاء •

(أَوَ لَم يَرَ الإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ؟(٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ ، قالَ :

مَنْ يُحْيِ العِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ(٧٨) قل : يُحْيِيها الَّذِي أَنشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ(٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ(٨٠) اوَلَيْسَ الَّذي خَلَقَ السَّمواتِ وَالأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ؟ بَلى وهُو الْخَلاَّق العَلِيمُ(٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَه كُنْ فَيَكُونُ(٨٢) فسُبْحانَ الَّذي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)(٨٣)

قوله تعالى (أو لم ير الإنسان) إستئناف لبيان حال من أحوالهم الفاسدة، وهي أفسد مما بينه آنفا بين هناك أن الإنسان الكافر المشرك يشرك بربه مع إفاضة النعم عليه ، وبين هنا أنه نسي خلقه وأنكر بعثه يوم القيامة فيقول (أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة) فجعلنا فيها صورة إنسان وأعضاءه الكاملة ، وروحا مدركة للحقائق ، وصفات بها قابلية التطور والوصول الىأعلى مدارج الرقي والكرامة، ومعهذه الآثار العجيبة الناشئة من قدرتنا نسي كل ذلك (فإذا هو خصيم) أي مبالغ في الخصومة والجدال الباطل (مبين ؟) ظاهر (وضرب لنا مثلا) وأورد في شأننا قصة عجيبة تشبه المثل في الغرابة هي إنكار إحيائنا له بعد موته (ونسي خلقه) الأولي من جانبنا و (قال : من يحي العظام وهي رميم ؟) ممزق مفتت ، لم يقل رميمة لحمله على فعيل بمعنى مفعول ، ويستوى فيه المذكر والمؤنث (قل) يا حبيبي تبيكتا له بتذكير مانسيه (يحيها) أي تلك العظام الرميم الخالق القادر (الذي أنشأها أول مرة) أي بادىء بدء عندما لم يسبقه شيىء من الوجود (وهو بكل خلق) أي مخلوق (عليم) واسع العلم يعلم جميع أجزائه المفتتة لكل شخص من الأشخاص (الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا)

وهو صفة للشجر وقرىء الخضراء • وأهل الحجاز يؤنثون الجنس المميز واحده بالتاء مثل الشجر إذ يقال في واحده شجرة • وأهل نجد يذكرونه • والمشهور أن المراد بهذا الشجر المَرْخُ والعَفارُ يتخذ من المرخ وهو الذكر الزند الأعلى ، ومن العفار بفتح العين وهو أنثى الزندة السفلى ويسحق الأول على الثاني وهما خضراوان يقطر منهما الماء فتنقدح النار بإذن الله (فإذا أنتم منه توقدون) أي فاذا أنتم من ذلك الشجر الأخضر توقدون النار في الواقع •

ثم انتقل الباري سبحانه وتعالى إلى الاستدلال بخلق شيىء لا يكون للإنسان قيمة بالنسبة إليه أعني السماوات والأرض وقال : (أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ بلى) هو قادر ، وبلى جواب للنفي فتفيد الإثبات أي هو قادر على ذلك (وهو الخلاق) المبالغ في الخلق لكل مايريد أن يخلقه (العليم) الوافر العلم بكل شيىء (إنما أمره) أي شأنه تعالى (إذا أراد شيئا) أي أراد إيجاده (أن يقول له) أي لذاته في حضرة العلم (كن) أيها الموجود بالوجود العلمي عينا خارجيا عينيا (فيكون) أي فهو يكون موجودا عينيا تترتب عليه الآثار (فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيىء) أي الملك التام والتصرف الكامل في كل شيىء بالإيجاد والإعدام، والإيجاب والسلب (وإليه ترجعون) أي الفاهسون لخطاب الحق جل جلاله • وفي ذلك وعيد للمجرمين المبعدين ووعد للمؤمنين المقربين • قربنا الله تعالى منه بفضله وكرمه إنه ارحم الراحمين •

سورة الصافات ، مكية وهي مائة واثنتان وثمانون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَالصَّافَّاتِ صَفّاً(١) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْراً(٢) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً(٣) إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ(٤) ربُّ السَّموات والأَرْضِ وما بَيْنَهُمَا وربُّ الْمَشَارِقِ(٥) إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الكَوَاكِبِ(٦) وحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ(٧) لا يَسَّمَّعُونَ إلى المَلأِ الأَعْلى ، ويُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ(٨) دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ(٩) إلاَّ مَنْ خَطِفَ الخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ)(١٠)

قوله تعالى (والصافات صفا) إقسامٌ من الله سبحانه وتعالى بالملائكة ـ عليهم السلام أي أقسم بالملائكة (الصافات) في مقامها المعين صفا (فالزاجرات زجرا) أي الملائكة الزاجرات الفاعلات للزجر فيما نيط بها زجره من الأجرام العلوية او السفلية ، ففي السماء للشياطين المسترقات ، وفي الارض لمن أراد إلقاء الفتن بين عباد الله تعالى بإلقاء الملائكة المخاوف الى قلوبهم • وقيل : المراد بالزاجرات آيات القرآن لزجرها النفوس عن المنهيات الشرعية

(فالتاليات ذكرا) أي أقسم بالملائكة التاليات للذكر أي آيات الوحي على قلوب الرسل ـ عليهم السلام ـ • أو الملائكة التاليات لذكر الله تعالى من التسبيح والتحميد والتقديس وغيرها لقوله تعالى في آخر هذه السورة (وإنا لنحن المسبحون) وجواب القسم قوله تعالى (إن إلهكم لواحد) ولا شريك له ذاتا ولا صفة ولا فعلا وذلك (رب السموات والارض وما بينهما ورب المشارق) وهي المطالع المتعددة للشمس في أيام السنة فإنها في كل يوم تشرق من مشرق وتغرب من مغرب ، فالإله القادر على خلق السماوات والارض وما بينهما والمحرك للشمس كل يوم من درجة لا يقبل وجود الشريك لأن ذلك الخالق واجب الوجود ، ووجوب الوجود منبع كل كمال ولا يحتاج إلى غيره أبدا • وليست قدرتنا منحصرة في إبداع ما مر بل لها تعلقات أخرى •

(إنا زينا السماء الدنيا) أي أقرب السماوات من أهل الأرض (بزينة) تقرأ غير منونة بالإضافة إلى (الكواكب) إضافة بيانية وبالتنوين على أن تكون الكواكب بدلا منها • وقوله (وحفظا) نصب على أنه مفعول مطلق لفعل محذوف معطوف على زينا أي وحفظناها حفظا (من كل شيطان مارد) أي متعرٍ عن الخير وقوله (لا يسمعون) بتشديد السين والميم جملة مستأنفة بيان لأحوال تلك الشياطين المرَدَة أي لا يستمعون (إلى) كلام (الملأ الأعلى) بعد حفظ السماء عنهم ، والملأ الأعلى أشراف الملائكة المختصون بجهة العلو في مقابل ملائكة الأرض المختصين بها للوفاء بمأموريتهم هناك (ويقذفون) أي يُرْمَون ويرجمون أي أولئك الشياطين (من كل جانب) من جوانب السماء إذا قصدوا الصعود إليها وقوله (دحورا) مفعول له يقذفون لدحرهم وطردهم وإبعادهم منها (ولهم) في الآخرة (عذاب واصب) أي ولتلك الشياطين في الآخرة عذاب دائم (إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب)

استثناء متصل من فاعل يسمعون ، أي إلا من اختلس كلام الملائكة مسارقة فتبعه شهاب أي مادّة نارية مضيئة فتحرقه وهو في الأصل الشعلة الساطعة من النّار .

(فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً . أمْ مَنْ خَلَقْنَا ؟ إنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ(١١) بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ(١٢) وإذَا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ(١٣) وإذا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ(١٤) وقالُوا : إنْ هذا إلاّ سِحْرٌ مُبِينٌ(١٥) أَئِذا مِتْنَا وكُنَّا تُرَاباً وعِظَاماً أَإنَّا لَمَبْعُوثُونَ ؟(١٦) أَوَ آباؤُنا الأَوَّلُونَ ؟(١٧) قُلْ : نَعَمْ وَأَنْتُمْ داخرون(١٨) فَإنَّما هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإذَا هُمْ يَنْظُرُونَ(١٩) وقالُوا : يا وَيْلَنَا هذا يَوْمُ الدِّينِ(٢٠) هذا يَوْمُ الفَصْلِ الَّذي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ؟(٢١) احْشُروا الَّذِينَ ظَلَمُوا وأَزْواجَهُمْ وَمَا كانُوا يَعْبُدُونَ(٢٢) مِنْ دُونِ اللهِ فَاهْدُوهُمْ إلى صِرَاطِ الجَحِيمِ(٢٣) وَقِفُوهُمْ إنَّهُمْ مَسْئولُونَ(٢٤) ما لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ ؟(٢٥) بَلْ هُمُ اليَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ(٢٦) وأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ(٢٧) قالُوا : إنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ اليَمِينِ(٢٨) قالُوا : بَلْ لَمْ تَكُونوا مُؤْمِنِينَ(٢٩) وما كانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ ، بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طاغِينَ(٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنا قَوْلُ رَبِّنَا إنَّا لذائِقُونَ(٣١) فَأَغْوَيْناكُمْ إنَّا كُنَّا غاوِينَ(٣٢) فَإنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي العَذَابِ مُشْتَرِكُونَ)(٣٣)

قوله تعالى (فاستفتهم) الاستفتاء في الأصل الاستخبار عن أمر حدث • والآية نزلت في أبي الأشَدّ بن كلدة الجمحي وكني بتلك الكنية لشدة بطشه وقوته ، واسمه أسيِّد • والفاء فصيحة • أي إذا كان لنا من المخلوقات ما سمعت فاستفتهم أي مشركي مكة واستخبرهم (أهم أشَدّ خلقا) أي أقوى جسما وبنية (أم من خلقنا) من السماوات والأرض وغيرها (إنا خلقناهم) أي أولئك الناس المشركين (من طين لازب) أي ملتصق بعضه ببعض التصاقا قويا •

قال الطبري : خلق آدم ـ عليه السلام ـ من تراب وماء وهواء ونار • وهذا كله إذا خُلِّط صار طينا لازبا يلزم ما جاوره • واللازب قريب من اللازم •

(بل) إضراب عن عدم إقرارهم بالله • أي أضرب عن ذلك فإنه ليس بمهم وانظر إلى أنك (عجبت) من إنكارهم للبعث (ويسخرون) بتعجبك من ذلك يعني أنهم لا يعترفون بمنزلة ومقام للرسول ولتبليغاته ودائما في حال العناد والاستكبار والسخرية بأقوال الرسول وأفعاله (وإذا ذكروا) بالله وأرشدوا إلى معرفة الله تعالى وتوحيده (لا يذكرون) أي لا يتعظون (وإذا رأو آية) أي معجزة تدل على صدقك (يستسخرون) أي يبالغون في السخرية ويحقرونها ويشوهونها أمام الناس حتى لا يجعلوها ذريعة للإيمان (وقالوا) في ردها (إن هذا إلا سحر مبين) أي سحريته واضحة جلية (أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما) أي صرنا أجزاء مختلطة من تراب وعظامٍ مُفَتَّتَةٍ (أإنّا لمَبعُوثون ! أو آباؤنا الأولون ؟) أي مبعوثون (قل نعم) تبعثون أنتم وآباؤكم الأولون (وانتم داخرون) أي صاغرون أذلاء تحت قدرة الصانع المقتدر الحكيم (فإنما هي زجرة واحدة) أي وليس ذلك الأمر من البعث شيئا بعيدا عن قدرتنا فإنما تلك البعثة والنشور من القبور إثر

زجرة واحدة أي نفخة واحدة هي النفخة الثانية (فإذا هم قيام ينظرون) أي ينظر بعضهم الى بعض أو ينتظرون ما يفعل بهم بعد البعث .

(وقالوا : يا ويلنا هذا يوم الدين) أي يوم جزاء الأعمال (هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون) وهذا تتمة كلام المبعوثين بعضهم لبعض أي هذا يوم فصل القضاء الذي كنتم لا تعترفون به ، فيخاطب الباري سبحانه وتعالى ملائكته المأمورين هناك ويقول الباري للملائكة (احشروا الذين ظلموا) أي أشركوا بالله (وأزواجهم) أي وأمثالهم من المشركين أو أزواجهم اللاتي عاشروهن ووافقنهم في الإشراك (وما كانوا يعبدون من دون الله) من الأصنام (وقفوهم) أي احبسوهم في الموقف (إنهم مسئولون) وفي الحديث الشريف : « لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن أربع عن شبابه فيم ابلاه، وعن عمره فيم أفناه، وعن ماله مم كسبه وفيما أنفقه، وعن علمه ماذا عمل به » (مالكم لا تناصرون ؟ أي ويقال لهم من جهة الملائكة المأمورين: مالكم لا ينصر بعضكم بعضا (بل هم اليوم مستسلمون) أي أعرض عن سؤالهم لم لا ينصر بعضكم بعضا فإنهم في ذلك اليوم أذلاء منقادون لحكم الله تعالى وعاجزون غاية العجز فلا مجال لذلك السؤال .

(وأقبل) بعضهم وهم المشركون الضعفاء (على بعض) وهم المشركون الكبراء (يتساءلون) يسأل بعضهم الأولون عن بعضهم الآخرين قالوا لهم (إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين) أي عن جهة القوة والرئاسة وتتكلمون معنا لصدنا عن الإيمان بالله ورسوله (قالوا) أي الكبراء جوابا لهم (بل لم تكونوا مؤمنين) في حد ذاتكم (وما كان لنا عليكم من سلطان) وقوة وتسلط عليكم حتى نسلبكم الاختيار ونجبركم على الكفر (بل كنتم قوما طاغين) اضرب عن عدم تسلطنا عليهم فإنكم في ذاتكم كنتم قوما طاغين مجاوزين الحد في العصيان : وكنتم اخترتم الكفر بطغيانكم (فحق علينا

قول ربنا) أي فثبت علينا قول ربنا في حقنا بدخولنا جهنم ، أو قوله الذي خاطب به إبليس لأملأن جهنم منك وممن تبعك فلابد لنا من العذاب (إنا لذائقون) العذاب (فأغويناكم إنا كنا غاوين) أي والحقيقة إنا تكلمنا معكم ودعوناكم إلى الغواية لأنا كنا غاوين ، والغاوي يحب غواية الناس كلهم حتى تزداد زمرته (فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون) لاشتراكهم في أس الفساد وهو العناد مع صاحب الرشاد ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

(إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ(٣٤) إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إله إلا اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ(٣٥) وَيَقُولُونَ : أَإِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ؟(٣٦) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ(٣٧) إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ(٣٨) وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(٣٩) إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ(٤٠) أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ(٤١) فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ(٤٢) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ(٤٣) عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ(٤٤) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ(٤٥) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ(٤٦) لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ(٤٧) وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ(٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ(٤٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ)(٥٠)

قوله تعالى (إنا كذلك) أي إنا مثل ذلك الفعل الذي تقتضيه الحكمة (نفعل بالمجرمين) أي بالمشركين (إنهم كانوا إذا قيلَ لَهُمْ لا إله إلا الله يَسْتكبرون) أي إنهم كانوا يستكبرون ويستنكفون عن توحيد الباري سبحانه وتعالى (ويقولون أإنا لَتارِكُوا آلِهَتنا لِشاعِرِ مجنون) أي إنه

نسرد عبارة كتابه المكنون بكل لطافة بحيث تجلب قلوب الناس إليه لا شك شاعر ولاختلال كلامه لخرقه نظام عبادة الأصنام لمجنون ، (بل) اضربوا عن تلك التهم الباطلة فإنه (جاء) بأمر الله ورسالته متلبسا (بالحق) من النبوة والرسالة (وصدق المرسلين) السابقين عليه من أبيه آدم إلى أن يصل عيسى ـ عليهم السلام ـ • ثم التفت الحق سبحانه إلى المشركين المعاندين وقال لهم : (إنكم لذائقوا العذاب الأليم) لاستكباركم ومعاندتكم الرسول الرءوف الرحيم (وماتجزون إلا ما كنتم تعملون) ولا يُزاد على ما تستحقونه مثقالَ ذرة • وقوله (إلاّ عبادَ الله المخلصين) استثناء من فاعل ذائقوا ، وما بينهما اعتراض ، والاستثناء منقطع ، لأن العباد المخلصين ليسوا داخلين في المشركين الذائقين للعذاب الأليم أي فإنهم لا يذوقون العذاب لوجود الإيمان والإخلاص فيهم (أولئك) العباد المخلصون (لهم رزق معلوم) من الله تعالى (فواكه) بدل من رزق ، والمراد بها مايؤكل لمجرد التلذذ دون الاقتيات ، وكذلك جميع ما يأكله أهل الجنة وكذا جميع ما يشربونه ليس إلا للتلذذ ، فإنه لا جوع ولا عطش فيها (وهم مكرمون) عند الله تعالى لا يلحقهم هوان (في جنات النعيم) أي في جنات لا تضاف إلاّ إلى النعيم (على سرر) اي وهم على سرر وقوله (متقابلين) حال من المستكن عن المرفوع المستتر في مكرمون أي ويقابل بعضهم بعضا للتلذذ بالمواجهة الكاملة (يطاف عليهم بكأس) أي بخمر (من معين) اي من منبع ظاهر للعيون (بيضاء) كالفضة أشد بياضا من اللبن (لذة للشاربين) وكفى بحمل المصدر على المسند إليه مبالغةً (لا فيها غول) أي غائلة من أي نوع من الأضرار الواردة من شربها على الإنسان (ولا هُمْ عنها ينزفون) أي ولا هم يسكرون وتذهب عقولهم من أجل شربها • وأصل النزف نزع الشيىء وإذهابه وإفناؤه (وعندهم قاصرات الطرف عين) أي وعندهم أزواج من حور قصرن البصر على النظر إلى

أزواجهن محبة لهم وجذبا لقلوبهم إلى أنفسهن وهن بيض ، وعين جمع عيناء وهي الواسعة العين ، وجمعت على فُعْلٍ بوزن قُفْلٍ فكسرت العينُ لمناسبة العَين (كأنهن بيض مكنون) البيض معروف وواحده بيضة ، والمكنون المستور بالريش لم يصبه غبار (فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) أي يشربون فيتحادثون على الشرب كما هو عادة الناس المجتمعين المتمتعين ، وذلك التحادث والتواجه ألذ من الشرب •

(قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ : إِنِّي كانَ لِي قَرِينٌ(٥١) يقول : أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ؟(٥٢) أَإِذا مِتْنا وكُنَّا تُراباً وعِظاماً أَإِنَّا لَمَدِينُونَ؟ (٥٣) قالَ : هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ ؟(٥٤) فاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَواءِ الْجَحِيمِ(٥٥) قالَ : تاللهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ(٥٦) ولَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ(٥٧) أَفَما نَحْنُ بِمَيِّتِينَ(٥٨) إِلاَّ مَوْتَتَنا الأُولى، وما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ؟(٥٩) إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(٦٠) لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ الْعامِلُونَ(٦١) أَذلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ(٦٢) إِنَّا جَعَلْناها فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ(٦٣) إِنَّها شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ(٦٤) طَلْعُها كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّياطِينِ(٦٥) فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْها فَمالِئُونَ مِنْها الْبُطُونَ(٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْها لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ(٦٧) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ(٦٨) إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آباءَهُمْ ضالِّينَ(٦٩) فَهُمْ عَلى آثارِهِمْ يُهْرَعُونَ(٧٠) ولَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأَوَّلِينَ(٧١) ولَقَدْ

أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ (٧٢) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣) إِلاَّ عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ)(٧٤)

قوله تعالى (قال قائل منهم) أي قال قائل من أصحاب الجنة المتقابلين أثناء المحاورات (إني كان لي قرين) أي في الدنيا (يقول) على طريق الاستنكار بما كنت عليه من الإيمان : (أإنك لمن المصدقين) بالبعث والنشور (أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمدينون ؟) أي لمجزيون أي أئنا لمبعوثون للجزاء (قال) أي ذلك القائل لزملائه : (هل أنتم مطلعون ؟) أي على أهل النار للتفتيش عن ذلك القرين في الدنيا لعلنا نجده ؟ (فاطلع) أي على أهل النار (فرآه في سواء الجحيم) أي في وسطها (قال) هذا المطلع لقرينه : (تالله إن كدتَ لَتُرْدين) أي إنه كاد أن تهلكني في الدنيا بأن أكفر بالله مماشاة معك فأدخل في عذاب السعير (ولولا نعمة ربي) ورحمته (لكنت من المحضرين) للعذاب في المعذبين ، ثم رجع الى كلامه مع جلسائه في الجنة ، وقال (أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى ؟) أي هل لسنا بميتين إلا موتتنا الأولى عند إتيان الأجل (وما نحن بمعذبين ؟) أي بمبعوثين للحساب والعذاب حسب الاستحقاق (إن هذا لهو الفوز العظيم) أي إن هذا النعيم الحاصل في الجنة واستقرارنا على كراسي متقابلين لهو الفوز العظيم و (لمثل هذا) الفوز (فليعمل العاملون) •

(أ ذلك خير نزلا) أهذا النعيم خير من جهة كونه معدا لأهل الجنة (أم شجرة الزقوم) وهذا من كلامه تعالى (إنا جعلناها فتنة للظالمين) أي محنة وعذابا لهم في الآخرة ، أو جعلناها من أسباب الفتنة والضلال للظالمين المشركين المستسخرين بها والمنكرين لها (إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم) أي في قعر نار جهنم (طلعها) أي ثمرها (كأنه رءوس الشياطين) أي في قبح المنظر • والعرب تشبه الشيىء القبيح بالشيطان أو

وجهه أو رأسه (فإنهم) أهل النار (لآكلون منها) أي من ثمرها (فمالئون منها البطون) لغلبة الجوع أو لإجبارهم على أكلها (ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم) أي لشرابا ممزوجا بماء شديد الحرارة (ثم إن مرجعهم) بعد الأكل والشرب (لإلى الجحيم) أي يعادون بل يساقون اليها إجبارا وسر ذلك ما في قوله تعالى (إنهم ألفوا آباءهم) في الدنيا (ضالين) فأعجبهم ضلالهم وفساد أحوالهم (فهم على آثارهم يهرعون) أي يسرعون (ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين) من الأمم (ولقد أرسلنا فيهم منذرين) أي رسلا منذرين لهم من عذاب يوم القيامة (فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ؟) من العذاب الشديد (إلا عباد الله المخلصين) أي الذين أخلصوا دينهم لله ، وهذا الاستثناء كالسابق منقطع لمثل ما تقدم هناك •

(وَلَقَدْ نادينا نُوحٌ فَلَنِعْمَ المُجِيبُونَ(٧٥) ونجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الكَرْبِ العَظِيمِ(٧٦) وجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ البَاقِينَ(٧٧) وتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ(٧٨) سَلامٌ على نُوحٍ فِي العَالَمِينَ(٧٩) إنّا كَذلِكَ نَجْزِي المُحْسِنِينَ(٨٠) إنَّهُ مِنْ عِبادِنا المُؤْمِنِينَ(٨١) ثُمَّ أَغْرَقْنا الآخَرِينَ)(٨٢)

قوله تعالى : (ولقد نادينا نوح) شروع في تفصيل ما أجمله قبلُ ، أي ولقد دعانا حينَ أيسَ مِنْ قومِهِ (فلنعم المجيبون) أي فأجبناه أحسن الاجابة:فوالله لنعم المجيبون نحن•(ونجيناهوأهله من الكرب العظيم) وأهله من آمن به، والكرب الغم الشديد وهو الغرق هنا (وجعلنا ذريته هم الباقين) حيث أهلكنا الكفرة بموجب دعائه رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا • وروي أنه مات كل من في السفينة ولم يعقبوا عقبا باقيا غير أبنائه الثلاثة : سام ، وحام ، ويافث • وهذا هو المعتمد • وقيل : كان لغير ولد نوح أيضا

نسل (وتركنا عليه في الآخرين) أي وأبقينا عليه ثناء حسنا في الآخرين من الأنبياء والأمم إلى يوم القيامة (سلام على نوح في العالمين) أي سلام من الله وارد على نوح في مابين العالمين ، أو سلام على نوح وذلك السلام مستقر في العالمين من الملائكة والإنس والجن ، أي كل من آمن وأسلم يسلم عليه ويدعو له (إنا كذلك نجزي المحسنين) أي مثل ذلك الجزاء الكامل نجزي الكاملين في الإحسان بعبادة الله والدعوة إليه والصبر على أذى أعداء الدين . وقوله إنه كان من عبادنا المؤمنين تعليل لكونه من المحسنين . وقوله تعالى (ثم أغرقنا الآخرين) كلمة ثم للتراخي الذكري لأن إغراق من لم يؤمن به كان قبل بقائه ــ عليه السلام ــ مع من معه .

(وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ(٨٣) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ(٨٤) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ : مَاذَا تَعْبُدُونَ(٨٥) أَئِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ(٨٦) فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ؟(٨٧) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ(٨٨) فَقَالَ : إِنِّي سَقِيمٌ(٨٩) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ(٩٠) فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِم فَقَالَ : أَلا تَأْكُلُونَ ؟(٩١) مَا لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ ؟(٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ(٩٣) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ(٩٤) قَالَ : أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ(٩٥) وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ !؟(٩٦) قَالُوا : ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ(٩٧) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ(٩٨) وَقَالَ : إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ(٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ(١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ(١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ : يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ

أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ ماذا تَرى ؟ قالَ : يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ ،
سَتَجِدُني إِنْ شاءَ اللهُ مِنَ الصّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَما وَتَلَّهُ
لِلْجَبِينِ(١٠٣) وَنادَيْناهُ أَنْ يا إِبْراهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ
الرُّؤْيا إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هذا لَهُوَ الْبَلاءُ
الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنا عَلَيْهِ
فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلامٌ عَلى إِبْراهِيمَ (١٠٩) كَذلِكَ نَجْزِي
الْمُحْسِنِينَ(١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) وبَشَّرْناهُ
بِإِسْحقَ نَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ(١١٢) وَبارَكْنا عَلَيْهِ وَعَلى
إِسْحقَ ، ومِنْ ذرِّيَّتِهِما مُحْسِنٌ وَظالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ)(١١٣)

قوله تعالى (وإن من شيعته لإبراهيم) أي وإن ممن شايع نوحا وتابعه في أصل الدين لإبراهيم أو ممن شايعه في التصلب في الدين ومصابرة المكذبين ، وكان بينهما ألف ومائة واثنتان وأربعون سنة • وقيل ألفان وستمائة وأربعون سنة وبينهما هود وصالح (إذ جاء ربه بقلب سليم) أي سالم من آفات الارتباط بالغير والعلائق الدنيوية والظرف منصوب باذكر وقوله (إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون ؟) بدل من إذ الأولى (أئفكا آلهة دون الله تريدون ؟) أي أتريدون آلهة من دون الله إفكا وكذبا (فما ظنكم برب العالمين ؟) أي أيّ شيىء ظنكم بالله رب العالمين ؟ وكيف تتركون هذا الرب المؤثر والمربى في عالم الوجود (فنظر نظرة في النجوم) أي فتأمل نوعا من التأمل في أحوالها وهو على طراز تأمل الكاملين في خلق السماوات والارض ليعتبر بها ويجعلها أدلة على وجود الباري تعالى (فقال إني سقيم) أي وأراهم أن نظره إلى النجوم لم يكن للاستدلال على وجود الباري تعالى ووحدته ، وإنما كان لمعرفة حاله من الصحة والسقم وأنه ظهر له أنه

سقيم ، وذلك لأنه أراد أن لا يأخذوه معه إلى عيدهم الرسمي (فتولوا عنه مدبرين) أي أعرضوا عنه وتركوا قربه .

(فراغ إلى آلهتهم) أي ولما تركوه وبقي وحده راح وذهب الى آلهتهم (فقال) لهم (ألا تأكلون ؟) أي من الطعام الذي عندكم وكان المشركون يضعون في أيام أعيادهم طعاما لدى الاصنام للتبرك عليه ثم قال لهم (ما لكم لا تنطقون) بجوابي (فراغ عليهم ضربا باليمين) أي فمال عليهم بالضرب وضربهم ضرباً باليمين أي باليد اليمنى بالقوة (فأقبلوا إليه يزفون) أي يسرعون .

(قال) إبراهيم ـ عليه السلام ـ لهم (أتعبدون ما تنحتون) أي أصناما أنتم تنحتونها بأيديكم (والله خلقكم وما تعملون) أي وماتعبدون الله الذي خلقكم وعملكم فهل هذا المعمول الذي خرج من أيديكم يليق بأن يعبد ؟ أم ذلك الإله الذي خلقكم وخلق أعمالكم ومن جملتها الاصنام التي تركبونها بالنحت والربط ، ولما نازعهم في عبادة الاصنام ووصل الكلام بينهم الى ذلك المقام (قالوا : ابنوا له بنيانا) أي حائطا توقدون عليه النار أو منجنيقا ترمونه به إلى جهنم (فألقوه في الجحيم) أي في النار التي لشدة لهيبها كأنها الجحيم (فأرادوا به كيدا) أي سوء وهو التعذيب بالنار وإهلاكه بها (فجعلناهم الأسفلين) الأذلين وذلك بنجاة إبراهيم وإهلاك أولئك المتمردين .

ولما نجيناه من ذلك الجحيم (قال إني ذاهب الى ربي) أي الى حيث أمرني ربي (سيهدين) الى مافيه صلاح العباد (رب هب لي من الصالحين) أي ولماذهب الى تلك الدار التي أرادها واستقر عند ذلك قال لله سبحانه : رب هب لي من الصالحين قرة عين لي ولوالدته (فبشرناه بغلام حليم) وهو إسماعيل ـ عليه السلام ـ (فلما بلغ معه السعي) أي فوهبناه له فنشأ نشأة

حسنة ، فلما بلغ رتبة أن يسعى معه في أشغاله وأعماله (قال) إبراهيم (يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك) ورؤيا الانبياء حق واجب التطبيق (فانظر ماذا ترى ؟) من الرأي هل توافقني فيه أولا ؟ (قال) اسماعيل في جوابه (يا أبت افعل ما تؤمر) أي الذي تؤمر به (ستجدني إن شاء الله من الصابرين) أي على قضاء الله تعالى ذبحا كان أو غيره (فلما أسلما) أي استسلم إبراهيم وإسماعيل لأمر الله (وتلّه للجبين) أي وصرَعه على شقه فوقع جبينه على الارض . وأصل التل الرمي على التل ، وهو التراب المجتمع ، ثم عمم في كل صرعٍ ، والجبين أحد جانبي الجبهة .

(وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا) بالعزم ومباشرة مقدمات المقصود . وقيل : انه أمرّ السكين بقوته على حلقه مرارا ولم يقطعه . وجواب لما محذوف أي كان ما كان من الفدية واستبشارهما بفضل الله ورحمته . وقوله تعالى (إنا كذلك نجزي المحسنين) إستئناف وتعليل لإفراج تلك الشدة . وقوله تعالى (إن هذا لهو البلاء المبين) كأنه بيان لإحسانه حيث أدى ما كان عليه من تطبيق الرؤيا ، ولكن الله بدله بما شاء كما قال تعالى : (وفديناه بذبح عظيم) أي بحيوان يذبح بدله وهو عظيم الجثة وسمين وكان كبشا أبيض أقرنَ أعيَن ، أو عظيم القدر حيث كان مختصا بجانب الغيب والقدس ومددا في حالة الشدة . وعن الحسن أنه وَعَل" أهبط عن جبل ثبير . (وتركنا عليه في الآخرين) أي وأبقينا عليه الثناء في الناس الآتين في الجيل الآخرين والمقصود استمرار الثناء عليه في الدنيا (سلام على إبراهيم) من الله العلي العظيم (كذلك) أي مثل ذلك الجزاء المادي والمعنوي (نجزي المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين) إيمانا كاملا واصلا درجة الحق واليقين .

(وبشرناه بإسحق نبيا من الصالحين) أي من كبارهم (وباركنا عليه وعلى إسحق) أي أفضنا عليهما بركات الدين والدنيا وجعلنا في أعقابهما دعوة الثقلين الى الله رب العالمين. هذا جناح إسماعيل الواصل الى خاتم الانبياء والمرسلين محمد المبعوث الى الجن والإنس رحمة للعالمين . وذلك إسحاق ويعقوب والأسباط ، ومنهم موسى وهارون وداود وسليمان وزكريا ويحيى وعيسى وسائر الانبياء والمرسلين ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ .

(ومن ذريتهما مُحْسِنٌ وظالمٌ لنفسهِ مُبين) المحسن معَ النفس بالإيمان والاعمال الصالحة والأخلاق الحسنة ومع غيره بالأخيرين ، والظالم بالكفر والاعمال السيئة والاخلاق السافلة ظاهر خيره وشره وأحسن المحاسن الخير الساري وأسوأ المساوىء الشر الساري وما بينهما على تفاوت الدرجات .

(وَلَقَدْ مَنَنَّا على مُوسى وهرون(١١٤) ونَجَّيْنَاهُما وقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ العَظِيمِ(١١٥) ونَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ(١١٦) وآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ(١١٧) وهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ(١١٨) وَتَرَكْنَا عَلَيهِمَا فِي الآخِرِينَ(١١٩) سَلامٌ عَلَى مُوسَى وهرونَ(١٢٠) إنا كذلِكَ نجزِي الْمُحْسِنِينَ(١٢١) إنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ)(١٢٢)

قوله (ولقد مننا على موسى وهرون) قدم ذكرهما على من بعدهما لمناسبتهما مع من سبق في الابتلاء بمعاندة الجبابرة العظام . وقد عد موسى ـ عليه السلام ـ من الرسل أولي العزم ، وهم خمسة : نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد ـ عليهم السلام ـ . فيقول الباري تعالى مؤكدا : (ولقد مننا على موسى وهرون) أي بالنبوة والرسالة والانتصار

على الجبار وإنجاء قومهما من عذاب الأشرار كما قال سبحانه وتعالى (ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم) في الدين وهو الدعوة الى ألوهية فرعون ، وفي الدنيا وهو ذبح البنين وترك البنات وتركهن كخادمات (ونَصَرناهُمْ) أي موسى وهرون وقومهما (فكانوا هم الغالبين) على فرعون بذلك النصر والعون (وآتيناهما الكتاب المستبين) البالغ أحسن درجات البيان (وهديناهما الصراط المستقيم) الواصل إلى الله الواحد الأحد الصمد العظيم (وتركنا عليهما في الآخرين) كما تقدم (سلام على موسى وهرون • إنا كذلك نجزي المحسنين إنهما من عبادنا المؤمنين) •

(وإن إلياسَ لَمِنَ المُرْسَلِينَ (١٢٣) اِذ قالَ لِقَوْمِهِ : أَلا تَتَّقُونَ ؟(١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلاً وتَذَرُونَ أَحْسَنَ الخالِقِينَ ؟(١٢٥) اللهَ رَبَّكُمْ ورَبَّ آبائِكُمُ الأَولِينَ (١٢٦) فكذَّبُوهُ فإنَّهُمْ لَمُحْضَرونَ (١٢٧) إلاّ عِبادَ اللهِ المُخْلَصِينَ (١٢٨) وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ (١٢٩) سَلامٌ على إلْ ياسِينَ (١٣٠) إنّا كذلِكَ نَجْزِي المُحْسِنِينَ (١٣١) اِنَّهُ مِنْ عِبادِنا المُؤمِنِينَ (١٣٢) وَإنَّ لُوطاً لَمِنَ المُرْسَلِينَ (١٣٣) إذْ نَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إلاّ عَجُوزاً فِي الغابِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنا الآخَرِينَ (١٣٦) وإنَّكُمْ لَتَمرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (١٣٧) وبِاللَّيْلِ ، أَفَلا تَعْقِلُونَ)(١٣٨)

قوله تعالى (وإن إلياس لمن المرسلين) قال الطبري : هو إلياس بن ياسين بن فنحاص بن العيزاز بن هارون أخي موسى ـ عليهم السلام ـ (إذ قال لقومه) وهم سبط من بني إسرائيل أسكنهم يوشع لما فتح الشام المدينة المعروفة ببعلبك ، وبعل اسم صنم لهم (ألا تتقون ؟) عذاب الله

(أتدعون بعلا) لقضاء حوائجكم (وتذرون أحسن الخالقين) أي أحسن وأقدر من كل من تتصورونه خالقا لأنه خالق بالحق ، وأولئك خالقون بالوهم (ألله ربكم) بالنصب على البدلية من أحسن (ورب آبائكم الأولين) إلهاً واحدا في العالمين (فكذبوه) فيما اقتضاه كلامه وهو أن لا إله إلا الله (فإنهم لمحضرون) في العذاب بسبب ذلك (إلا عباد الله المخلصين • وتركنا عليه) الثناء (في) القوم (الآخرين) (سلام على إلياسين • إنا كذلك نجزي المحسنين• إنه من عبادنا المؤمنين• وإن لوطا) ابن أخي إبراهيم ـ عليهما السلام ـ (لمن المرسلين) الى قرى سدوم في الاردن (إذ نجيناه وأهله أجمعين) من العذاب النازل على القوم الفاسقين (إلا عجوزا) هي زوجته كانت (في الغابرين) الفائتين (وإنكم لتمرون عليهم) في أسفاركم (مصبحين) داخلين في الصباح (وبالليل) أوله لأنه زمان السير (أفلا تعقلون ؟) أن تلك الديار أصابها الدمار من غضب الجبار على العصاة الأشرار •

(وإنَّ يُونُسَ لَمِنَ المُرْسَلِينَ (١٣٩) إذ أَبَقَ إلى الفُلْكِ المَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ المُدْحَضِينَ (١٤١) فالتَقَمَهُ الحُوتُ وهو مُلِيمٌ (١٤٢) فلولا أنَّهُ كان مِنَ المسبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) فَنَبَذْنَاهُ بِالعَرَاءِ وهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (١٤٦) وأَرْسَلْنَاهُ إلى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إلى حِينٍ)(١٤٨)

قوله تعالى (وإن يونس لمن المرسلين) يروى أنه ـ عليه السلام ـ نبىء وهو ابن ثمان وعشرين سنة • واشتهر أنه ابن متي ، والأصح عند ابن حجر

أنه اسم أبيه • (إذ أبق) أي هرب وأصله الهرب من السيد ، وكان ـ عليه السلام ـ هرب من قومه بغير إذن ربه سبحانه وتعالى ، أي لم يصبر في ضيق صدره حتى ينزل عليه الوحي في أمره (إلى الفلك المشحون) أي المملوء (فساهم) فقارع ـ عليه السلام ـ الناس الذين فيه (فكان من المدحضين) أي المغلوبين في القرعة ، فألقوه في البحر (فالتقمه الحوت) أي ابتلعه (وهو مليم) أي يلوم نفسه على أن الهمزة للتعدية ، فأخذ يسبح ربه ويقول : لا اله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين أو ما يؤدي معناه (فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه الى يوم يبعثون) أي الى أن يموت ولا يبقى له لبث في الدنيا الى يوم يبعثون أي هو وغيره ، ولكنه سبح فأنجاه ربه كما قال تعالى (فنبذناه بالعراء) أي بالمكان الخالي عما يغطيه من الستار والاشجار (وهو سقيم) من الأذى وحرارة بطن الحوت وغير ذلك (وأنبتنا عليه شجرة من يقطين) أي أنبتناها مطلة عليه مُظِلة له كالخيمة وأرسلناه الى مأة ألف أو يزيدون ، أي فأمرناه وأكدنا إرساله الى قومه الذين أرسل إليهم (فآمنوا) هذه المرة (فمتعناهم) بالحياة ولم نهلكهم (إلى حين) الأجل المسمى • روي انه كان من بني اسرائيل ومن الساكنين في فلسطين ، فأرسل إلى أهل (نينوى) بالعراق ودعاهم الى التوحيد فلم يؤمنوا به فوعد قومه بالعذاب وخرج من بينهم قبل أن يأمر الله به، فركب السفينة فوقفت، فقالوا: ههنا عبد آبق ؛ فخرجت القرعة عليه ، فقال : أنا الآبق ، ورمى بنفسه في الماء وروي في قصته غير هذا •

(فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ؟(١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَٰئِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ؟(١٥٠) أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ(١٥١) وَلَدَ اللَّهُ ، وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ(١٥٢) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ؟(١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ

تَحكُمُونَ ؟(١٥٤) أَفَلا تَذَكَّرُونَ ؟(١٥٥) أَمْ لَكُم سُلْطانٌ مُبِينٌ ؟(١٥٦) فأْتوا بِكتابِكُمْ إنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ(١٥٧) وَجَعَلوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً ، وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إنَّهُمْ لَمُحْضَرونَ(١٥٨) سُبْحانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ(١٥٩) إلاَّ عِبادَ اللهِ المُخْلَصِينَ(١٦٠) فإنَّكُمْ وماتَعْبُدُونَ(١٦١) ماأَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفاتِنِينَ(١٦٢) إلاَّ مَنْ هُوَ صالِ الجَحيمِ(١٦٣) وما مِنَّا إلاَّ لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ(١٦٤) وإنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ(١٦٥) وإنَّا لَنَحْنُ المُسَبِّحُونَ(١٦٦) وَإنْ كانُوا لَيَقُولُونَ(١٦٧) لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْراً مِنَ الأَوَّلِينَ(١٦٨) لَكُنَّا عِبادَ اللهِ المُخْلَصِينَ(١٦٩) فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)(١٧٠)

قوله تعالى (فاستفتهم) معطوف على مثله في أول السورة • أمر الله رسوله أولا باستفتاء قريش عن وجه إنكارهم البعث ، وأمره ثانيا بالاستفتاء عن وجه نفيهم للنسل بينهم وبين الله تعالى ، مع أنه بريء من قاعدة التناسل (لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد) ثم لماذا اختاروا لأنفسهم البنين ولله تعالى البنات ؟ (أم خلقنا الملئكة إناثا) اي بل أخلقنا الملائكة إناثا حتى تجعل بنات الله مع أن الملائكة لا توصف بذكورة ولا أنوثة ، وليس وجودهم إلا بالأمر الإبداعي من الله سبحانه وتعالى وهل هم شاهدون على أنوثتهم ؟ وفي ذلك تجهيل لهم وتضليل (ألا إنهم من إفكهم ليقولون : ولد الله وإنهم لكاذبون) فيما يقولون (أصطفى البنات على البنين ؟) بهمزة مفتوحة استفهامية وحذف همزة الوصل للاستغناء عنها ، يعني هل اختار الباري تعالى البنات على البنين ؟ وماوجه اختياره لهن ؟ (مالكم كيف تحكمون ؟) بهذا الحكم الذي تقضي البداهة ببطلانه ؟ (أفلا تذكرون ؟) بطلان

ما تعتقدونه أو تتكلمون به (أم لكم سلطان مبين ؟) وبرهان مفيد لليقين بوجود كتاب منزل يحكم بذلك (فأتوا بكتابكم) الناطق بصحة ما تدعونه (إن كنتم صادقين) .

(وجعلوا بينه وبين الجنة) أي الشياطين (نسبا) أي علاقة انتساب بالمصاهرة ، حيث قالوا إن الله صاهر الجن وتزوج منهن وخرجت الملائكة إلى غير ذلك من الخرافات ... (ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون) أي ولقد علمت الشياطين أن الله يحضرهم للعذاب في النار ، ولو كان بينهم وبينه علاقة ما عذبهم (سبحان الله عما يصفون) من المزاعم الباطلة من نسبة الاولاد اليه . (إلا عباد الله المخلصين) استثناء منقطع من نائب فاعل محضرون ، ثم عاد الباري تعالى إلى خطابهم على سبيل الالتفات فقال (فانكم وما تعبدون ما انتم عليه) اي على الله (بفاتنين) اي بمفسدين وجاعلين في الفتنة (إلا من هو صال الجحيم) أي إلا من سبق في علمه تعالى أنه داخل في نار الجحيم ومعذب بها فيها (وما مِنّاإلا لَه مَقام معلوم) حكاية لاعتراف الملائكة بالعبودية لله تعالى للرد على من يزعم خلافها فيهم ، فهو من كلامه تعالى لكنه حكى بلفظهم ، وأصله وما منهم إلاّ لَهُ مقام معلوم ، وكذلك باقي الآيات على ميزان هذه الآية . ويجوز ان تكون الجنة المذكورة سابقا بمعنى الملائكة لاستتارهم عن الأعين ، فيكون المعنى : (وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا أي وجعل المشركون بين الله وبين الملائكة نسبا وانتسابا وعلاقة ، وزعموا أن الملائكة بنات الله تعالى عن ذلك (ولقد علمت الجنة) أي الملائكة (إنهم لمحضرون) أي إن المشركين لمحضرون للعذاب جزاء لهذه العقيدة الفاسدة والزعم المردود ويقولون (سبحان الله عما يصفون) أي عما يذكر المشركون من نسبة الولد إلى الله تعالى (إلا عباد الله المخلصين)

استثناء من نائب فاعل لمحضرون فإن المخلصين لا يحضرون للعذاب أو عن فاعل يصفون فإن العباد المخلصين لا يصفونه بذلك (فإنكم) أيها المشركون (وما تعبدون من دون الله ما أنتم عليه بفاتنين) أي مفسدين الناس عليه (إلا من هو صال الجحيم) أي من سبق في علمه أنه يدخلها . ثم عادوا للاعتراف بالعبودية وقالوا (وما منا إلا له مقام معلوم) أي وما منا أحد إلا له مقام معلوم في العبادة والطاعة والانتهاء إلى أمر الله في تدبير العالم ولا نستطيع الانحراف عنه (وانا لنحن الصافون) أنفسنا أو أقدامنا في أداء الطاعة (وإنا لنحن المسبحون) أي المنزهون لله تعالى عما لا يليق به .

وقد أخرج الترمذي وحسنه عن أبي ذر قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ « إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون إن السماء أطَّتْ وحَقَّ لها أن تَئِطَّ ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك واضع جبهته ساجدا لله » .

وقوله تعالى (وإن كانوا ليقولون) إن هي المخففة ، واللام هي الفارقة ، والضمير لكفار قريش أي وإنهم كانوا يقولون قبل مبعث النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ (لو أن عندنا ذكرا من الأولين) أي كتابا من جنس الكتب التي نزلت عليهم من عند الله (لكنا عباد الله المخلصين) مع أنه لما جاءهم كتاب كما وصفوا عاندوا كما قال تعالى (فكفروا به فسوف يعلمون) عاقبة كفرهم كيف يكون .

(وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ(١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ(١٧٢) وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ(١٧٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ(١٧٤) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ(١٧٥) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ(١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ

بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ(١٧٧) وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ(١٧٨) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ(١٧٩) سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ(١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ(١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)(١٨٢)

قوله تعالى (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين) أي وبالله لقد سبق وعدنا لعبادنا المرسلين (إنهم لهم المنصورون ، وإن جندنا لهم الغالبون) في تحقيق النصر النهائي والدعوة إلى الله رب العالمين • (فتول عنهم) أي أعرض عن المشركين (واصبر حتى حين) إلى وقت انتهاء مدة الكف عن القتال (وأبصرهم) أي أنظر إليهم في ذلك الحين (فسوف يبصرون) ما يلقونه في وقته (أفبعذابنا يستعجلون) توبيخ لهم على استعجالهم للعذاب (فإذا نزل) أي العذاب (بساحتهم) أي بأطراف دورهم (فساء صباح المنذرين • فتول عنهم حتى حين • وأبصر فسوف يبصرون • سبحان ربك رب العزة) تنزيه لله العظيم (عن) كل (ما يصفون وسلام على المرسلين) تشريف لهم من أولهم إلى آخرهم (والحمد لله رب العالمين) في البداية والنهاية وبه العون والعناية •

سورة ص ، مكية ، وهي ثمان وثمانون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(ص وَالقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ(١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ
وَشِقَاقٍ(٢) كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا
وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ ؟(٣) وعَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ،
وَقالَ الْكَافِرُونَ : هذا ساحِرٌ كَذَّابٌ(٤) أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلهاً
واحِداً ؟ إِنَّ هذا لشَيْءٌ عُجابٌ(٥) وانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ
امْشُوا وَاصْبِرُوا على آلِهَتِكُمْ ، إِنَّ هذا لَشَيْءٌ يُرادُ(٦)
ما سَمِعْنا بِهذا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ ، إِنْ هذا إِلاَّ اخْتِلاقٌ(٧)
أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنا ؟ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ
ذِكْرِي ، بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذابِ(٨) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ
رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ؟(٩) أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمواتِ
وَالأَرْضِ وَما بَيْنَهُما ؟ فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبابِ(١٠) جُنْدٌ
مَا هُنالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الأَحْزابِ)(١١)

قوله (ص) هو بالسكون على الوقف عند الجمهور ، ومعناه مفوض إلى العليم الخبير (والقرآن ذي الذكر) الواو للقسم والمُقسَم عليه محذوف بقرينة الآية الآتية • أي والقرآنِ ذي الذكر إنكَ نذيرٌ مبين ، وذي الذكر صفة للقرآن ، وإضافته تفيد القوة في إفادته الذكر بالمعنى الواسع أي إنه صاحب ذكر العقل وإدراكه للحقائق بمعنى أن من حفظ هذا القرآن أو حفظ شأنه ورعاه هو صاحب التذكر والإدراك ، أو بمعنى أنه مشتمل على آيات الترغيب في الذكر والأمر به والمداومة عليه ، أو أنه يوجب ذكر صاحبه وهو الله ، أو من نزل عليه وهو الرسول ، أو من نزل فيهم وهم أمة الإسلام المتمسكون به • وقوله تعالى (وإنه لذكر لك ولقومك) شاهد صدق على ذلك • وإذا قلنا : إن المراد بالقوم من قام برعاية مقام محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورسالته وأعانه في تبليغاته وأداء رسالته وتنوير الناس بها ، فقد أتينا بحق يتزلزل عنده الباطل ، ويفهم هذا المعنى كل منصف كامل • وقوله تعالى (بل الذين كفروا في عزة وشقاق) إضراب عن القسم والمقسم به وعليه إلى بيان أن الكافرين في استكبار وتعزز مبني على الهوى وشقاق وعناد مع الرسول وكتابه ، وصاحب الكتاب بحيث لا يكتنه كنهه ، ولا يدرك غوره ، فإن تنكير المتعاطفين يفتح الباب للقلب والعين ، ترى بأم العين ما يصدر من الكافرين ، وتدرك بالقلب عنادهم المُشين •

ولما أفاد شدة اعتزارهم وشقاقهم أجاد في تهديدهم بقوله (كم أهلكنا من قبلهم من قرن ؟) أي من أهل قرن مثوي لهم قرنان في النطاح مع أهل الخير والصلاح أهلكناهم بعد أن أنذرناهم ، ومن أنذر فقد أعذر ، فوقعوا فيما وقعوا فيه من الهلاك (فنادوا) عند حلوله كل من ينادي من القريب والبعيد ، أو نادوا ورفعوا أصواتهم بالتوبة والإنابة إلى الله المجيب المجيد • (و) الحال (لات حين مناص) أي ولات حين النداء

حين مناص وخلاص لهم ، إذ جرت السنة أنه لا فائدة في التوقي بعدَ جَرَح الأسِنة • (و) أساس عزتهم وشقاقهم أنهم (عجبوا) من بعث هذا الرسول الكريم ومن (أن جاءهم منذر منهم) وكلمة منهم نيلٌ منهم وأيّ نيلٍ ، لأن وجود الرسول العظيم المنذر الثابت من بني جلدتهم شرف لهم ، وبعث الرسول ليس بشيء غريب منهم ، فإذا تعجبوا من هذا الشيء القريب فمعناه أنهم في بعد متناه عن العقل والإدراك (و) لم يتوقفوا عند هـذا التعجب الذي لا سبب له معقول بل (قال الكافرون) المتجاسرون : (هذا ساحر كذاب) ولم يعلموا أنهم هم الكذابون فإن نسبة عمل المعوج الى من لم يدركوا منه إلا الأمانة والاستقامة ، ونسبة الكذب الى من اشتهر بالصادق والمبالغة فيه ، يفيد المبالغة في كذبهم أنفسهم • وعللوا ذلك بدليل عليل يعرف كل سليم العقل علته • وقالوا مستنكرين (أجعل الآلهة إلها واحدا ؟ إن هذا لشيىء عجاب !) أي يبالغ في التعجب منه مع أن جعل الإله الواحد آلهة متعددة هو الذي يتعجب منه ، لأن الإله الواحد إذا كان قادرا على التصرف في الكائنات فذلك كاف وماعداه مستغن عنه ، ولا يناسب الألوهية الاستغناء عنه بأي وجه من الوجوه •

(وانطلق الملأ منهم) أي أشرافهم بعد أن ذهبوا إلى عمه ــ صلى الله عليه وسلم ــ أبي طالب وطلبوا منه إسكات ابن أخيه من الدعوة إلى التوحيد ووعده بأنواع الخير ومع ذلك رفض الرسول كل ذلك وأبى إلا الله الواحد الاحد (أن امشوا واصبروا) أن للتفسير وليس المراد بالمشي المشي على الأقدام في المسيرة ، بل المراد الاستمرار على أخلاقهم وآدابهم ، وإن كانت باطلة فارادوا بقاء ماكانوا عليه ، فكأنهم قالوا استمروا وأصروا واصبروا (على) عبادة (آلهتكم) وقالوا (إنّ هذا) الأمر الذي يدعيه محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ (شيء يراد) إثباته وإقراره في العالم •

(ما سمعنا بهـذا في الملة الآخرة) أي ما سمعنا بهذا التوحيد الـذي يدعو إليه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ في عهد الملة الآخرة والدين الآخر وهو دين النصارى حسب اعتقادهم ، لأنهم كانوا يدعون التثليث ، وكان كلامهم هذا تجاهلا عما اشتهر بين الناس أنه سيأتي نبي يدعو إلى توحيـد الباري عز وجل • ويجوز أن يكـون مرادهم بالملة الآخـرة ما اسـتقر عليه دأب العرب المشركين ، فإنهم كانوا على ثقة واعتماد به وعليه ، وكانوا يرونه حقا ومخالفه باطلا لجهلهم وغباوتهم واستمرار آبائهم على الإشراك ، وإلا فهـم ما كانوا يؤمنون بدين النصـارى حتى يعتمـدوا عليه ويجعلـوه أساسـا لمعتقداتهم (إن هذا إلا اختلاق) أي ما هذا الدين الداعي الى التوحيد الا افتراء وكذب ، ولكنه هم الكاذبون وهم الجاهلون ، ويـدل على جهلهـم انتقالهم من إنكار التوحيد إلى استنكار الرجل الذي جاء به ، يعنـى أنـه لو كان غيره يأتي به لكان مقبولاً •

وقالوا : (أأنزل عليه الذكر) أي القرآن (من بيننا بل هم في شـك من ذكري) أي من القرآن الذي أنزلته على رسولي ، لأنه لو كان لهم علم وإيمان بالدين لقبلوه من أي إنسان يأتي به لكنه ليس لهم علم به (بل لما يذوقوا عذاب) إضراب عن مجموع الأمرين السابقين حديث الحسد وحديث الشك ، ويقول سر هذا البطر وهذا الفساد هو أنه إلى الآن لـم يذوقـوا عذابي الذي أذقته المعاندين السابقين ، فإذا أذقتهم ذلك زال شكهم وخفت شكيمتهم • قال تعالى (أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيـز الوهاب ؟) ويتصرفون فيها حسب إرادتهم حتى يعطوها لمن شاءوا ويمنعوهـا عمـن يشاؤن (أم لهم ملك السموات والارض وما بينهما) أي العوالم العلويـة والسفلية حتى يتصرفوا فيها ، أو يتكلموا في الأمور الربانية ويتحكموا في التدابير الإلهية ، فإذا كان لهم ذلك (فليرتقوا في الأسباب) أي فليصعدوا

على المعارج التي يصلون عليها إلى السماء فيتصرفوا فيها ويدبروا أمرها إن كانوا صادقين (جندما هنالك مهزوم من الأحزاب) هذه جملة ذات جهتين : الأولى أن أولئك المشركين الذين يقولون تلك الأقوال الباطلة ليست لهم أهمية ، أي هم جندما هنالك . والجهة الثانية تستفاد من قوله مهزوم الواقع صفة للجند يعني وذلك الجمع من الناس قوم مهزوم من أحزاب المشركين وجماعاتهم ستقع عليهم الهزيمة والفضيحة والخزي والعار .

(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (١٢) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ ، أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ (١٣) إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ (١٤) وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَالَهَا مِنْ فَوَاقٍ (١٥) وَقَالُوا : رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ)(١٦)

قوله تعالى (كذبت قبلهم قوم نوح) ... الآية جملة مستأنفة موضحة ومبينة لوجود كثيرين من العصاة العتاة المتمردين المعاندين قبل أولئك المشركين من أهل مكة ، ومثالهم قوم نوح في العراق ، (وعاد) أي وقوم عاد في الأحقاف من اليمن ، (وفرعون) مع قومه في مصر (ذو الأوتاد) التي كان يستحكم بها المخيمات في الصحراء للاستيناس والترف والتفرج ، أو المراد بها الأوتاد التي كان يغرزها ويشد بها اليدين والرجلين من المظلوم الذي يريد تعذيبه فلا يقدر على الحركة حتى يموت تحت العذاب (وثمود) اي وقومه (وقوم لوط) كلاهما في مملكة الأردن (وأصحاب الأيكة) أي الغيضة التي أرسل إليها شعيب ـ عليه السلام ـ كما أرسل إلى عاد هود والى فرعون موسى وهارون وقوله (أولئك الأحزاب) مبتدأ وخبر (إن كل)

أي ما كل منهم (إلاّ كذب الرسل فحق عقاب) أي عقابي، والمعنى فاستحقوا التعذيب فثبت تعذيبي ومعاقبتي لهم على إرادتي •

(وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة مالها من فواق) والفواق بفتح الفاء اسم مصدر على وزن ذهاب بمعنى الإفاقة والرجوع إلى الصيحة ، وبالضم اسم ساعة رجوع اللبن للضرع عبارة عن زمان قليل • ومعنى الآية الكريمة إن الكافرين السابقين نالوا عذابهم وما ينظر هؤلاء المجرمون في عصرك يا حبيبي إلا صيحة واحدة هي الصيحة الناشئة من نفخ الصور ، أي إلا زمان الآخرة فيعذبون فيها ، أو إلا صيحة كالصيحات الواردة على الكفار السابقين ما بعد تلك الصيحة راحة وخلاص (وقالوا) أي لما سمعوا أن لهم عذابا أَجَّلَ إلى حلول الآخرة (ربنا عجل لنا) وقدم لنا (قطنا) أي قسطنا ونصيبنا من العذاب (قبل يوم الحساب) وأساس هذا أنهم لا يؤمنون بالآخرة ويقولون إذا كان هذا الوعد صادقا وهناك قادر على تحقيقه فليأتنا في الدنيا قبل ذلك اليوم • وقد أتاهم في بدر وفي سائر المواقع التي شتت الله فيها شملهم ، وهو العزيز ذو الانتقام •

(إصْبِرْ عَلى ما يَقولُونَ ، وَاذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ ذا الأَيْدِ إنَّهُ أَوّابٌ(١٧) إِنّا سَخَّرْنا الجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالعَشِيِّ وَالإِشْراقِ(١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوّابٌ(١٩) وَشَدَدْنا مُلْكَهُ وَآتَيْناهُ الحِكْمَةَ وَفَصْلَ الخِطابِ(٢٠) وَهَلْ أتيكَ نَبَؤُا الخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا المِحْرابَ ؟(٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلى داوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قالُوا : لا تَخَفْ خَصْمانِ بَغى بَعْضُنا عَلى بَعْضٍ ، فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بالحَقِّ وَلا تُشْطِطْ ، واهْدِنا إلى سواءِ الصِّراطِ(٢٢) إِنَّ هذا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وتِسْعُونَ

نَعْجَةً ، وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ ، فَقَالَ : أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ : لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ ، وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ، وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ، فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ ، وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ، وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ (٢٥) يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ ، فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ، وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ)(٢٦)

قوله تعالى (اِصبرْ على ما يقولونَ ، واذكر عبدَنا داودَ ذَا الأيدِ انهُ اوَّاب) يعنى اصبر يا حبيبي على ما يقولون من تلك الأقوال الباطلة الناشئة عن الغفلة والهوى والابتعاد عن الحق والهدى ، واذكر لهم جميعا عبدنا داود وأحواله من بدء نشأته إلى أيام شبابه وقوته ، فإن الأيد مصدر بمعنى القوة ، واذكر لهم أن الغفلة ساعة واحدة تبعد الإنسان عن الإحسان زمانا طويلا ، واذكر لهم أن الله بصير بأحوال العباد في الغفلة وحال التوبة لعل المشركين يتوبون إلى الله والمسلمين يزيدون في طاعته ، واذكر لهم أن داود مع ملكه ونبوته وقوته وفتوته كان أواباً رجاعا إلى الله حتى ينال المثوبة الحسنى والقرب إليه في الدنيا والآخرة •

(إنا سخرنا الجبال معه) استئناف لبيان قصته وكرامته عند الله بحيث سخر الجبال للتسبيح مع تسبيحه كواحد يوافق واحدا ويقارنه فيما يقوله ، أو كمرجع يرجع الكلمات بعد قرينه • فهن (يسبحن) معه (بالعشي

والإشراق) قيل يسبحن بلسان الحال أو بلسان مقال لا يفهمه إلا أولو الكمال • والظاهر أن تسبيحهن كان بعين عبارة سيدنا داود ـ عليه السلام ـ وبلسانه ولغته ، كتسبيح الحصى في كف الرسول محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ باللغة العربية المسموعة المفهومة فإن التشريف الاختصاصي إنما يظهر بذلك والله على كل شيء قدير • ويجوز أنه كان بحيث يسمعه الناس الموجودون عنده ، أو بحيث لا يسمعه إلا من اختص بفضل منه تعالى • وكان ذلك التسبيح والتسخير له فيه بالعشي والإشراق أي مساء وصباحاً • ووقت الإشراق وقت طلوع الشمس وإضاءتها وصفائها وذلك من ارتفاعها كرمح • فمنهم من يقول أن مابعد ذلك الوقت إشراق إلى الزوال ، وبهذا يدخل وقت صلاة الإشراق في الضحى ، ومنهم من يفرق ويخص الإشراق بما ذكرنا أولا • وما بعد ذلك الى الزوال يجعله ضحىً فيختلف الإشراق والضحى وصلاتهما وتفصيله في الفقه • والجمع بينهما أحوط بفعل صلاة الإشراق بعد ارتفاعها كرمح ، وصلاة الضحى بعد ذلك ، والصلاة خير موضوع أقْلِلْ منها أو أكثر • (والطير محشورة) أي وسخرنا له الطير محشورة مجتمعة فوقه •

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ كان ـ عليه السلام ـ إذا سبح جاوبته الجبال بالتسبيح ، واجتمعت إليه الطير فسبحت وذلك حشرُها •

وقوله (كل له أوّاب) أي وكل واحد من الجبال والطير لأجل تسبيحه رجّاع إلى التسبيح (وشددنا ملكه) أي قويناه بالهيبة والنصر ودخول الرعب في قلوب أعدائه (وآتيناه الحكمة) النبوة والعلم الصحيح والعمل الصالح (وفصل الخطاب) أي فصل الخصام بتمييز الحق عن الباطل •

(وهل أتيك نَبَؤ الخصم) أي نبأ الرجلين المتخاصمين (إذ تسوروا المحراب) أي علَوا سور المحراب ونزلوا اليه (اذ دخلوا على داود ففزع

منهم) أي فخاف منهم قصد الاغتيال إذ كان له أعداء وخصوم في الداخل والخارج • ولما علما بفزعه واستعداده للدفاع عن نفسه (قالوا : لا تخف) فإنا لسنا بأعداء لنقصدك بسوء ولكنا (خصمان بغى بعضنا على بعض) وطلب منه غير ما ينبغي له (فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط) أي ولا تتجاوز عنه (واهدنا إلى سواء الصراط) أي الصراط السوي أي المستوي • فلما هدأ داود وتهيأ لسماع الكلام قال المدعي (إن هذا) الرجل الذي تسور المحراب معي هو (أخي) أي في النسب أو في الحسب (له تسع وتسعون نعجة ، ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها) أي اجعلها كفلا لي ونصيبا • والظاهر أنه أراد نصيبا لي بالقوة والعدوان ، وإلا فإذا أراد الاستيهاب أو الاشتراء فلا داعي لأخذه وجلبه إلى الحاكم (وعزني في الخطاب) أي غلبني في الكلام والطلب بلا موجب شرعي ، وقد جئنا إليك للمحاكمة ورفع الغدر عني وتعزيره ودفعه فهل هذا الطلب والإلحاح حق له أو ظلم ارتكبه (قال) داود ــ عليه السلام (لقد ظلمك) وتعدى عليك (بسؤال نعجتك إلى نعاجه) وضمها إليهن (وإن كثيرا من الخلطاء) أي الشركاء في الأموال (ليبغي بعضهم على بعض ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) فإنهم يتحاشون عن البغي (وقليل ما هم) أي وهم قليل جدا وما زائدة لتأكيد القلة • وروي أنه لما جاوبهما غابا من عنده غيبة غير اعتيادية (وظن داود) أي وعلم داود ــ عليه السلام ــ من تسورهما المحراب على خلاف الأصول المعمولة وغيابهما ، وقوة عبارة القائل فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط •• أنهما كانا من الملائكة و (أنما فتناه) أي ابتليناه وأرسلنا الملكين إليه لانتباهه فانتبه لعمل جرى منه غير مناسب لمقام الأنبياء الكرام فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين (فاستغفر) داود (ربه) عن ذلك (وخر راكعا) أي ساجدا على أن الركوع بمعنى السجود مجازا مرسلا بعلاقة السببية أو استعارة لتشابه الأمرين

بخروجهما عن الاعتدال وأناب إلى ربه فغفرنا له ذلك العمل (وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب) في الجنة •

وفي بيان ما جرى منه أقوال وأقربها أنه مر ببستان أحد رعاياه ، وأعجبه من حيث كثرة الأشجار والثمار والأنهار والأوراد والأزهار ، فعزم على اشترائه من مالكه وقد تعلق قلبه به ولا يعجبه وتعلل عن ذلك ، وبينما الأمر جار في البين أي يحب سيدنا داود اشتراءه وصاحبه على إبائه إذ دخل داود في محل خلوته للعبادة على عادته ، ووقع تسور المحراب فانتبه وتفطن أن الله سبحانه وتعالى أرسل الملكين لاتنباهه ، وترك الطلب واستراح المالك•

(يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض) مقول لقول مقدر معطوف على قوله تعالى فغفرنا له أي فغفرنا له وقلنا ياداود إنا جعلناك خليفة لنا في الأرض كما جعلنا آدم ، وكذلك كل رسول من بعده خليفة لي في تطبيق الحق والعدل ، أو خليفة عمن سبقك فيها ولاسيما قد جمعت بين الملك والنبوة في بني إسرائيل (فاحكم بين الناس بالحق) المطابق للبينة والشهود (ولا تتبع الهوى) أي ما تهواه النفس من محبة رجحان جانب على آخر بدون حجة واضحة (فيضلك) اتباعه (عن) سلوك (سبيل الله • إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) أي بسبب نسيانهم يوم الحساب وما يجري قبله من موجباته ، وما يقع فيه من تبعاته ، ومايقع بعده من العذاب •

(وما خَلَقْنا السَّماءَ وَالأَرْضَ وَما بَيْنَهُما باطِلاً ، ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي

الْأَرْضِ ؟ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ؟(٢٨) كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ، وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ)(٢٩)

قوله تعالى (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما باطلا) أي وما خلقناها خلقا باطلا لا حكمة فيه ، بل خلقناها خلقا مقرونا بالحكمة ، ومنها ظهور عظمة ذات واجب الوجود والاعتراف به والعبودية والخضوع له ، وكون المخلوقات على نظام ومسئوليات وكون العدل مطبقا عليه ، وليس ذلك على جهة الاحتياج تعالى عنه بل لإرادة ظهور النور والطاعة من الشعور إلى القبور والمسئولية عن تطبيق الدستور • (ذلك) أي خلقها باطلا (ظن الذين كفروا) أي مظنون الذين كفروا ومعتقدهم ، فإن الكافر لا يعترف بوجود الخالق الفاعل المختار حتى يكون هناك نظام وفيه مسئوليات في الدنيا أو في الآخرة (وويل للكافرين من النار) إما بيانية أي أن الويل نار على ضرب من المبالغة ، أو ابتدائية أي ذلك الويل ناشيء من عذاب النار (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الارض ؟) أي أنجعل المؤمنين المصلحين كالكفرة المفسدين في الأرض (أم نجعل المتقين) الذين هم صفوة المؤمنين (كالفجار ؟) المباشرين للأعمال الفاسدة المخزية علاوةً على الاعتقاد الفاسد (كتاب أنزلناه إليك مبارك) أي هذا كتاب انزلناه اليك مبارك لفظا ومعنى وتطبيقا ، فمن أخذه بحقه نال السعادة على وفقه وإنما أنزلناه إليك (ليدبروا آياته) المعربة عن أسرار التكوين والتشريع (وليتذكر أولوا الألباب) وليتعظوا به •

(وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ(٣٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ(٣١) فَقَالَ : إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ

بِالحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ (٣٣) وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمانَ ، وأَلْقَيْنا على كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنابَ (٣٤) قالَ : رَبِّ اغفِرْ لي ، وَهَبْ لي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ، إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَّرْنا لَهُ الرِّيحَ تَجري بِأَمْرِهِ رُخاءً حَيْثُ أَصابَ (٣٦) والشَّياطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ (٣٨) هذا عطاؤُنا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسابٍ (٣٩) وإنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفى وحُسْنَ مآبٍ)(٤٠)

وقوله تعالى (ووهبنا لداود سليمان) هذه الآية تدل على موهبة أخرى من الله تعالى لعبده داود بعد أن سخر الجبال والطيور له يسبحن معه ، وبعد أن جمع له الملك والنبوة وجعله خليفة في الأرض ، فقد وهب له ولدا ماجدا قرت به عيون الآباء والأجداد حيث كان جامعا للملك والنبوة ونشر الحق في العباد ويمدحه الله تعالى بقوله (نعم العبد) أي نعم العبد سليمان (إنه أوّاب) أي رجاع إلى الله تعالى بحيث لم يكن ملكه وشغله بإدارته مانعا له عن طاعته واستغراقه في عبوديته (إذ عرض عليه بالعشي) أي أواخر النهار (الصافنات الجياد) والصافن من الخيل هو الذي يرفع احدى يديه أو رجليه ويقف على مقدم حافره . وقال ابو عبيدة هو الذي يجمع يديه ويسويهما . وأما الذي يقف على طرف الحافر هو المتخيم . والجياد المتصفة بالجودة في المشي والركض (فقال إني أحببتُ حب الخيرِ عن ذكرِ ربي حتى توارت بالحجاب) الخير هو المال وهنا بمعنى الخيل ، وكانت ألف فرس ، وكان ـ عليه السلام ـ تعرض عليه أفراس الحرب والمعدات الحربية ، وجيء بتلك الأفراس يوماً من الأيام بعد

الزوال فاشتغل بها حتى فاتته أوراده اليومية في ذلك اليوم لغياب الشمس ، فلما تنبه لذلك استاء . ومعنى الآية الكريمة إني أحببت الخير حبا أشغلني عن ذكر ربي وورديي المعتاد في يومي حتى توارت الشمس واستترت بحجاب الأفق . وعلى ذلك أمر برد الأفراس وقال (ردوها علي) فردوها عليه (فطفق مسحاً بالسوق والاعناق) فشرع يمسحها بالسيف البتار على سوقها وأعناقها فعقرها وذبحها وجعلها قربةً وإطعاماً للفقراء ، وكان أكل لحوم الأفراس معتادا إذ ذاك . ونسبة المسح إليه ـ عليه السلام ـ على الإسناد المجازي كما في قول الناس هزم الأمير جيش الأعداء .

(ولقد فتنا سليمان) أي ألقينا على قلبه فتنة هي الغفلة عن الاستثناء بفارس يجاهد في سبيل الله ولم يقل ان شاء الله ، فطاف عليهن ولم تحمل منهن إلا واحدة ولدت ولدا ناقص الهيكل ، وتعجبت منها القابلة ، وجاءت به وألقته على كرسيه ليعلم به النبي سليمان ـ عليه السلام ـ . وذلك معنى قوله تعالى (ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا) وبعد إطلاعه على ما ألقي على كرسيه انتبه لغفلته وأناب إلى الله تعالى كما قال تعالى (ثم أناب) أي رجع إلى ربه بالمعذرة وطلب السماح والعفو عن غفلته وقال رب اغفر لي فغفر له ربه ، وتجلى عليه بالرحمة بحيث انشرح صدره ، وتنور قلبه ، وعلم أنه غفر له ربه . وفي هذا المجال المبروك (قال رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي) حتى يكون معجزة له ويسدّ أفواه الأعداء والحاسدين عليه من نسبة أعماله إلى أسباب مادية معتادة في العالم (إنك أنت الوهاب) فسخر له الريح لطي البر والبحر ، والجن للغوص في البحر ، والعمل الشاق في البر ، والشياطين المردة حتى قيدهم وأمن من شرهم ، وذلك قوله تعالى (فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب) يعني فجعلنا له الريح

مسخرة منقادة حيث اراد ، وكلما شاء الوصول إلى محل حضر هو وأتباعه في السفر على بساطه فرفعته الريح إلى مستوى رفيع وأوصله الى مقصده فتنزل بهم بكل لين وسهولة وكان غدوها شهرا ورواحها شهرا • (والشياطين كل بناء وغواص) أي وسخر له الشياطين الذين كان لهم العلم بصفة البناء للدور والقلاع ، والشياطين الذين يغوصون في البحر لإخراج اللؤلؤ والمرجان وما شاكلهما (وآخرين مقرنين في الأصفاد) أي وسخر له شياطين آخرين من ألدّ الأعادي فقرنهم في الغل الجامع الذي يسمى بالصفد ، وهو غل يرتبط به جمع من العصاة في موقف واحد ، وتقييده للجن كان بقوة ربانية لم تكن عند غير سليمان ــ عليه السلام ــ ، حتى تكون هبة خاصة وهيبة له وتوجب رهبة الأعداء منه ، وكيفية ذلك وأنه كان الشياطين بالمرءى والمسمع من الناس أو غائبين عنهم ، سكتت عنه الآية الشريفة ونحولها إلى الله تعالى (هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب) أي وأوحينا إليه وقلنا له هذا المذكور من المسخرين عطاؤنا لك فخذه وانتفع به وأعط ما نشاء لمن نشاء وأمسك ما نشاء عمن نشاء • (وإن له عندنا) أي وإن لسليمان عندنا (لزلفى) لقربة وكرامة (وحسن مآب) في الجنة •

(وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (٤١) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢) وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٤٣) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ ، إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٤٤) وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ ، وَإِسْحَقَ ، وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ (٤٥) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى

الدَّارِ(٤٦) وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ(٤٧) واذْكُرْ إسمعيلَ ، وَالْيَسَعَ ، وَذَا الْكِفْلِ ، وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ(٤٨) هذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ(٤٩) جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ(٥٠) مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ(٥١) وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ(٥٢) هذا ما تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ(٥٣) إِنَّ هذا لَرِزْقُنَا ما لَهُ مِنْ نَفَادٍ)(٥٤)

قوله تعالى (واذكر عبدَنا أيوب) هو من أنبياء بني إسرائيل (إذ نادى رَبَّهُ أنى مَسَّنِي الشيطان بنُصب وعذاب) النصب الألم في الجسد ، والعذاب في الأهل والمال ، يشكو مرضه ووفيات في أهله وقلة في ماله ومس الشيطان له إلقاء وساوس إليه ، وهي وإن لم تؤثر في قلبه ـ عليه السلام ـ حقيقة لكنها تؤذيه كبعض الذبان تؤذي ولا تعضّ (أركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب) أي فقلنا له وحياً أو إلهاما : اركض برجلك في المكان الفلاني فركض بها فنبع ماء ، وقلنا له اشرب من ذلك الماء فشرب منه وبرأ جوفه من أساس المرض ، ثم قلنا له اغتسل به فاغتسل وبرأ ظاهره منه (ووهبنا له أهله) بإحيائهم بعد إهلاكهم (ومثلهم معهم) فكان له ضعف ما كان (رحمة منا) أي لرحمة عظيمة منا (وذكرى لأولي الألباب) وتذكيرا لهم بذلك ليصبروا على الشدائد .

روي عن قتادة أنه ابتلي سبع سنين وأشهرا فصبر ففرج الله عنه وأعظم له أجرا . وعن ابن عباس أنه صار ما بين قدميه إلى رأسه قرحة واحدة ، وألقى على الرماد حتى بدا حجاب قلبه ، فكانت امرأته تسعى إليه ، فقالت يوما : أما ترى يا أيوب قد نزل بي والله من الجهد والطاقة ما أن بعت فروتي

برغيف فأطعمتك فادع الله تعالى ان يشفيك ويريحك ! فقال : ويحك كنا في النعيم سبعين عاما فاصبري حتى نكون في الضر سبعة أعوام ! فكان في البلاء سبع سنين ودعا فجاء جبريل ـ عليه السلام ـ فأخذ بيده ثم قال : قم فقام عن مكانه . وقال أركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ، فاغتسل وشرب فبرأ وألبسه الله تعالى حلة من الجنة ، فتنحى فجلس في ناحية من بيته ، وجاءت امرأته فلم تعرفه . فقالت يا عبدالله أين المبتلى الذي كان ههنا ؟ وجعلت تكلمه ساعة فقال : ويحك أنا أيوب قد ردّ الله علي جسدي . ورد الله تعالى عليه ماله وولده ومثلهم معهم ، وأمطر عليه جرادا من ذهب فجعل ياخذ الجراد بيده ، ويجعله في ثوبه وينشر كساءه فيجعل فيه ، فأوحى الله تعالى إليه يا أيوب أما شبعت ؟ قال : يارب من الذي يشبع من فضلك ورحمتك ؟ (وخذ بيدك ضغثا) وهو الحزمة الصغيرة من حشيش أو ريحان أو قضبان (فاضرب به) زوجتك رحمة بنت أفرائيم ابن يوسف ـ عليه السلام ـ (ولا تحنث) بيمينك فإن البر يتحقق به ولقد شرع الله تعالى ذلك رحمة عليه . وذلك أنه صدر منها جملة عن الكلام فغضب عليها ، وحلف ليضربنها إن برىء منه ضربة ، فأمره الله تعالى بذلك حتى لا يحنث في يمينه (إنا وجدناه صابرا نعم العبد) أي أيوب (إنه أوّاب) أي رجاع الى الله .

(واذكر عبادنا إبراهيم واسحق ويعقوب أولى الأيدي والأبصار) أي أولي القوة في الطاعة والبصيرة في الدين (إنا أخلصناهم بخالصة) أي بسبب خصلة خالصة جليلة الشأن لا شوب فيها وهي ذكرى الدار الآخرة (وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار) أي المختارين من بين أبناء نوعهم ، وأصل المصطفين بياءين على وزن المجتمعين جمع مذكر لاسم مفعول باب الافتعال فقلبت الياء الأولى ألفا وحذفت لالتقاء الساكنين .

(واذكر إسميعيل واليسع) هو ابن أخطوب استخلفه إلياس على بني إسرائيل ثم استنبىء ، (وذا الكفل) وهو ابن أيوب . وعن وهب أن الله تعالى بعث بعد أيوب شرف بن أيوب نبيا وسماه ذا الكفل وأمره بالدعاء إلى توحيده ، وكان مقيما بالشام حتى مات وعمره خمس وسبعون سنة (وكل من الأخيار ، هذا ذكر ، وإن للمتقين لحسن مآب) في الآخرة (جنات عدن) بدل اشتمال عن حسن مآب (مفتحة لهم الأبواب ، متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة) من أصناف الفواكه من أنواعها (وشراب) طهور (وعندهم قاصرات الطرف) أي حور قاصرات الطرف على الأزواج (أتراب) أي لِداتٌ على سِنٍّ واحد (هذا ما توعدون ليوم الحساب ، إن هذا) أي ماذكر من أنواع النعم والكرامات (لرزقنا ماله من نفاد) أي انقطاع ونهاية .

(هذا وإنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مآبٍ(٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ المِهَادُ(٥٦) هذا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وغَسَّاقٌ (٥٧) وآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ(٥٨) هذا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لا مَرْحَباً بِهِمْ ، إِنَّهُمْ صالُوا النَّارِ(٥٩) قالُوا : بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَباً بِكُمْ ، أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ، فَبِئْسَ القَرَارُ(٦٠) قالُوا : رَبَّنا مَنْ قَدَّمَ لَنا هذا فَزِدْهُ عذَاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ(٦١) وقالُوا : مالَنا لا نَرى رِجالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الأَشْرَارِ(٦٢) أَتَّخَذْناهُمْ سِخْرِيّاً ؟ أَمْ زاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصارُ ؟(٦٣) إِنَّ ذلِكَ لَحَقٌّ تَخاصُمُ أَهْلِ النَّارِ(٦٤) قُلْ إِنَّما أَنَا مُنْذِرٌ ، وَما مِنَ إلهٍ إِلاَّ اللهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ(٦٥) رَبُّ السَّمواتِ والأَرْضِ وَما بَيْنَهُما الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ(٦٦) قُلْ : هُوَ نَبَؤٌ عَظِيمٌ(٦٧) أَنتُمْ عَنْهُ

مُعْرِضُونَ (٦٨) ما كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩) إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ)(٧٠)

قوله تعالى (هذا • وإن للطاغين لشر مآب) كلمة هذا فصل الخطاب ، أي خذوا هذا ، أو الأمر هذا ، أو هذا جزاء المؤمنين • ثم يقول في جزاء الكافرين (وإن للطاغين لشر مآب) أي وإن للذين طغوا في الدنيا على أوامر الله ورسوله وعاندوها لشرّ مرجع ، من إضافة الصفة الى الموصوف أي مرجعا شرا • وقوله (جهنم) بدل حالكونهم (يصلونها فبئس المهاد) أي الفراش جهنم (هذا) مثل هذا الذي ذكرناه (فليذوقوه) جملة مرتبة على الجملة السابقة (وقوله حميم وغساق) أي هو حميم وغساق • وقوله (وآخر من شكله أزواج) أي ومذوق آخر من شكل الحميم ، أو عذاب آخر من شكله وقوله (أزواج) أي هذه أصناف من المذوق والحميم الماء الشديد الحرارة ، والغساق عين ماء يسيل في جهنم منتن جدا وقوله تعالى (هذا فوج مقتحم معكم) من مقول ملائكة العذاب لأهله فتقول لهم : هذا فوج ، أي جمع كثير من أتباعكم في الضلال مقتحم معكم أي داخل في الشدة والعذاب معكم • وقوله تعالى (مرحباً بهم) دعاء من رؤساء الضلال المتبوعين على أتباعهم ، يعني لما قالت الملائكة للمتبوعين ورؤساء الضلال الكلام المذكور ، قال الرؤساء في الجواب لا مرحبا بهم (إنهم صالوا النار) أي لا أهلا بهم ولا مرحبا لأنهم ليسوا أناسا طيبين ، فإنهم صالوا النار أي داخلون في نار جهنم • ولما سمع الأتباع ذلك (قالوا : بل أنتم لا مرحباً بكم) أي أنتم أحق بما قيل لنا (أنتم قدمتموه) أي العذاب (لنا) إذ لولا أنتم لكنا مؤمنين ، ولكنكم ورطتمونا في الكفر وقدمتم ذلك العذاب لنا جميعا • (فبئس القرار) أي فبئس المقر جهنم (قالوا) أي الأتباع أيضا : (ربنا

مَنْ قدّم لنا هذا فزده عذابا ضعفا في النار) لأن من سنّ سنة سيئة تحمل وزرها ووزر مَن عمِل بهـا ٠

(وقالوا) أي الكفار الطاغون بعضهم لبعض : (مالنا لا نرى رجالا كنا) في الدنيا (نعدهم من الأشرار ؟) أي من الفاسدين المفسدين ٠ وقولـه تعالى (اتخذناهم سخريا) إن كان بكسر الهمزة كانت الجملة صفة ثانية لقوله (رجالا) فيكون قوله (أم زاغت عنهم الأبصار ؟) مقابـلا لقولـه مالنـا لا نرى رجالا ٠ والمعنى مالنا لا نرى الرجال الذين كنا في الدنيا نعدهم من الأشرار وكنا اتخذناهم سخريا نسخر بهم ، أليسوا فيها فلذلك لا نراهـم ، أم زاغت عنهم أبصارنا وما رأيناهم وهم فيها ، وإن كان بفتح الهمـزة أي الاستفهامية الداخلة على همزة الوصل فيكون قوله أم زاغت عنهم مقابـلا لقوله اتخذناهم سخريا ٠ وأم متصلة يعني مالنا لا نـرى اليوم في جهنـم رجالا كنا نعدهم في الدنيا من الأشرار ٠ هل علة عدم رؤيتهم اليـوم هـو أننا اتخذناهم سخريا في الدنيا أو أن أبصارنا كانت تعلـو وتتكبـر عـن النظر إليهم ، ولذلك جزاهم الله تعالى بدخول الجنة فـلا نراهم بين أهـل النار ؟ ويجوز أن تكون أم منقطعة على معنى مالنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار ؟ هل علة عدم رؤيتهم أنا اتخذناهم سخريا في الدنيا فأكرمهم الله تعالى اليوم بدخول الجنة ، أو شيىء آخر ؟ بل ليس علة عدمها الاستسخار بهم في الدنيا وأضرب عن ذلك حيث زاغت عنهم الأبصار وما كنا ننظر إليهـم استكبارا ٠ فاليوم لا نراهم لدخولهم الجنة ٠ وقوله تعالى (إن ذلك لحق) أي إن ما ذكر من أقوال الكفار بينهم بعضهم لبعض (لحق) وهو (تخاصم أهـل النـار) ٠

(قل) يا حبيبي لمشركي مكة (إنما أنا منذر) أنذركم بعذاب الله يوم القيامة ولست مسـيطرا عليكـم أو أنـا منذر ولست بسـاحر ولا كذاب

ولا كاهن ولا مجنون ، وإن كلامي حق وصدق وليس شيئا مبنيا على التنبؤ، ولا كلاما يشوبه اختلال العقل (وما من إله) يعبد بحق (إلا الله الواحد) الذي لا يقبل الكثرة في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله على معنى أن كل صفة منها مختصة به تعالى لا يشاركه فيها غيره ، وأن كل فعل من أفعاله هو الذي ينفرد به وليس مما يعاونه فيه غيره (القهار) المسيطر على كل شيء (رب السموات والارض وما بينهما) من الموجودات (العزيز الغفار) المبالغ للمغفرة يغفر كل ذنب سوى الكفر (قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون) أي أن ما أخبرتكم به وهو إنما أنا نذير نبأ عظيم وخبر خطير أنتم مستمرون في الإعراض عنه . والدليل على أني أنا النذير المبين أنه (ما كان لي من علم بالملأ الأعلى إذ يَخْتَصِمُونَ) أي الملائكة الكرام المتكلمين بينهم في مسائل تكلما يشبه التخاصم وليسوا متخاصمين بل متقابلون في الكلام (إذ قال ربك للملئكة : إني خالق بشرا من طين) . (إن يوحى إلي إلا أنما أنا نذير مبين) واضح الإنذار ، فاعتبروا يا أولي الأبصار .

(إذ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلئِكَةِ : إنّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ(٧١) فإذا سَوَّيْتُهُ ونَفَخْتُ فيهِ مِنْ رُوحي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ(٧٢) فَسَجَدَ المَلئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ(٧٣) إلاّ إبْليسَ استَكْبَرَ وَكانَ مِنَ الكافِرِينَ(٧٤) قالَ : يا إبْلِيسُ ما مَنَعَكَ أَنْ تَسجُدَ لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ؟ : أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ العالِينَ ؟(٧٥) قالَ : أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ(٧٦) قالَ : فَاخْرُجْ مِنْها فإنَّكَ رَجِيمٌ(٧٧) وَإنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتي إلى يَوْمِ الدِّينِ(٧٨) قالَ : رَبِّ فَأَنْظِرْني إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ(٧٩) قالَ : فَإنَّكَ مِنَ المُنْظَرِينَ(٨٠) إلى يَوْمِ

الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) قَالَ: فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) قَالَ: فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥) قُلْ: مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦) إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ)(٨٨)

قوله تعالى (إذ قال ربك) ظرف لما قبله أو متعلق بأذكر المقدر أي واذكر إذ قال ربك (للملئكة إني خالق بشراً من طين) والبشر هو الجسم الكثيف الذي يمسك ويباشر أو يبدو بشرته للعين ، ومعنى خلقه منه أن أغلب مادته ذلك فلا ينافي وجود الماء وغيره (فإذا سويته) أي صورته بالصورة الإنسانية على أحسن تقويم (ونفخت فيه من روحي) أي أفضت عليه الروح الانسانية التي هي من أمري بسهولة كنفخ في شيء ، وصار إنسانا حيا له مقامه (فقعوا له ساجدين) أي فضعوا جباه الكرامة على أرض الخدمة تحية وتشريفا له لا عبادة وتقديساً (فسجد الملئكة) أي ولما خلقه وسواه ونفخ فيه الروح سجد الملائكة حسب الأمر (كلهم) بكل احترام (أجمعون) لم يبق منهم أحد (إلا إبليس) إما استثناء متصل على التغليب لأن إبليس كان مغمورا بينهم وموصوفا بصفاتهم ، أي موظفا بوظائفهم ومعدودا منهم ، فكأنه من أفراد نوعهم ، فيكون قوله تعالى استكبر استئنافا لبيان كيفية إبائه عن السجود ، وإما استثناء منقطع ، وإلا بمعنى لكن ، فيكون قوله استكبر خبرا ، أي لكن إبليس استكبر ، والاستثناء المنقطع في القرآن الكريم كثير (استكبر) من السجود لآدم (وكان من الكافرين) لاستكباره عن تلبية أمره تعالى وعناده لا لنفس ترك السجود ، فإن تارك المأمورات كثير ولكن لا نكفر أحدا منهم بمحض ذلك .

(قال) الله تعالى (يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقتُ بِيدَيّ ؟) أي بقدرتي المؤثرة إيجابا وسلبا سويته على ما أردت ومنعت دخول شيء في طينة خلقه مخالفا لما قررت (أستكبرت) وعددت نفسك كبيرا من غير استحقاق (أم كنت من العالين ؟) واقعا وذاتا ومستحقا للعظمة (قال : أنا خير منه) ذاتا وحقيقة ، فأنا من العالين في الواقع بالنسبة إلى آدم وسره أنه (خلقتني من نار) وهي جوهر لطيف (وخلقته من طين) وهو عنصر كثيف (قال فاخرج منها فإنك رجيم) أي مرجوم ومطرود ومبعد عن الرحمة حيث اعترفت بأنك مخلوق لي وأنا خالق لك ، واخترت جوهرا لطيفا لذاتك مع أنك عصيتني وخالفت أمري على ملأ عظيم من ملائكة التكريم (وإن عليك لعنتي) أي وإن طردي وإبعادي لك من رحمتي باقية (إلى يوم الدين) لأنك عارضتني وعارضت حكمتي في خلق ما أردت خلقه ومعارضة الحكمة توجب الابتعاد عن الرحمة .

(قال فأنظرني الى يوم يبعثون) أي مادام قد أبعدتني عن ساحة الرحمة إلى الأبد فأمهلني لإغواء العباد وإبعادهم عن الرشاد (قال : فإنك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم) الذي قدرته للإمهال (قال) إبليس : (فبعزتك لأغوينهم أجمعين) باتباع هواهم بحيث يضلون عن طريق هداهم (إلا عبادك منهم المخلصين) الذين أخلصهم الله عن غشاء الهوى ، أو الذين أخلصوا قلوبهم لاتباع سبيل الهدى . قال سبحانه وتعالى (فالحق) مبتدأ أي فالقول الحق الثابت المطابق للواقع (والحق أقول) حال أي وأنا لا أقول إلا الحق والخبر (لأملأن جهنم منك) أي من جنسك من مردة الشياطين (وممن تبعك منهم) أي من الإنس والجن التابعين لك (أجمعين) بلا استثناء .

(قل) يا حبيبي لكفار مكة وسائر الكافرين : (ما أسألكم عليه) أي على هذا القرآن الكريم المرشد إلى الصراط المستقيم وتبليغه إليكم وبيانه بحيث يتضح لكم (من أجر) جليل أو قليل ، وليس أجري إلا على الله (وما أنا من المتكلفين) أي من الذين يتصنعون بغير ما في صنعهم ، ويتحلون بما ليسوا من أهله حتى آتي بهذا القرآن من عندي (إن هو) أي ما هذا القرآن (إلا ذكر) جليل باللسان تهليلا وتحميدا وتسبيحا وتقديسا ، وبالقلب إيمانا وشكرا واعترافا وانقيادا وبسائر جوارحي فيما كلفت به من إطاعة رب العالمين ، وليس بالذكر الخاص بنوع أو بصنف أو فرد بل هو ذكر عام (للعالمين) من العقلاء المطيعين لرب العالمين (ولتعلمن نبأه) أي ولا شك أنكم تعلمن نبأه أي نبأ نفوذه في العالم ، واستفادة المكلفين منه ، أو ما أخبر به من الثواب للمطيعين والعقاب للعصاة المجرمين ، وذلك (بعد حين) من الزمان ، أي في الدنيا أو في الآخرة في موقف الحساب عند أحكم الحاكمين .

سورة الزمر

مكية ، وهي خمس وسبعون آية ، نزلت بعد سبأ

بسم الله الرحمن الرحيم

(تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ، فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ (٢) أَلا للهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ، وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ ، ما نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونا الى اللهِ زُلْفى ، إِنَّ أللهَ يحكُمُ بينَهُمْ فِيمَا هُم فيهِ يَخْتَلِفُونَ ، إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كاذِب" كَفَّار"(٣) لَو أَرادَ اللهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لاصطَفى مِمَّا يَخْلُقُ ما يَشَاءُ ، سُبْحانَهُ ! هُوَ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ(٤) خَلَقَ السَّموات وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ ؛ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهارِ ، وَيُكَوِّرُ النَّهارَ عَلَى اللَّيْلِ ، وسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ... كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمّىً ، أَلا هُوَ العَزِيزُ الْغَفَّارُ)(٥)

قوله تعالى (تنزيل الكتاب) مبتدأ مضاف وقوله (من الله العزيز الحكيم) خبره أي هذا التنزيل الجليل المزيل لغشاوة الجهل والكفر

والرذائل عن القلوب لمن يداويه ، نازل من الله العزيز الذي لا يقهر ولا يغالب الحكيم في شئونه كلها (إنا أنزلنا إليك) يا محمد (الكتاب) وهو القرآن بالحق أي متلبسا بالحكم الحق وهو أن الله هو المعبود لا غير (فاعبُدِ الله) وحده لا شريك له (مُخلِصاً له الدين) عن شوائب فاسدة مفسدة خفية وهي الإشراك بالله والرياء وإرادة غير الله تعالى بها ، وعن المبطلات في آدابها وشروطها وأركانها ، وإذا عبدته كذلك سعدت في الدارين وصعدت إلى الكرامة (ألا للهِ الدينُ الخالص) أي إن العمل والطاعة لله وحده لا شريك له فيه ، فلا يمكن أن يعمل أحد عملا ويتوجه إلى الله به إلاّ إذا كان مجرداً عن شوائب اختلاط الغير ، سواء كان بطريق الشرك الجلي أو الخفي ، ولكن الشرك الجلي كفر ، والشرك الخفي مكر سيء ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ، ومعنى إحاطة هذا المكر بأهله إما حبوط العمل المقرون به كما هو المشهور من أن العمل مع الرياء ساقط بالذات أو نقص ما يساويه من الجزاء كما هو الظاهر وأشار إليه بعض المحققين . (والذين اتخذوا من دونه أولياء) من الأصنام الذين يعبدونها معه حالكونهم قائلين : (مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) أي قربة (إن الله يحكم بينهم) وبين خصومهم الموحدين (فيما هم فيه يختلفون) ويأمر بإهانة المشركين بالتعذيب وإكرام الموحدين بالتنعيم ؛ فالموصول مبتدأ وهذه الجملة خبره . أو ما دام أولئك المتخذون من دون الله أولياء باقين على ما هم عليه من الكذب في الكلام وتكذيب رسول الإسلام والكفر بالله الواحد العلام فلا ينظر إليهم الله تعالى ولا يهديهم (إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار) وهذه الدعاوى الفارغة التي عندهم من أن الله اتخذ أولاداً ، وأنّ الملئكة بنات الله ، وأن عيسى ابنه إلى غير ذلك من الأشياء ... خرافات لا أصل لها .

(لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء) والمخلوق أثر حادث لا مناسبة له مع ذات واجب الوجود حتى يمكن أن يصير ولدا له قطعا فيمتنع تحقق ولد له في الواقع ، فآل الكلام إلى أنه لو أراد الله أن يتخذ ولدا له لزم أن يكون الولد الحادث واجبا من نوع أصله ، لكن التالي باطل فالمقدم كذلك . ولذلك نزه الله سبحانه وتعالى ذاته المقدس عن مثل ذلك الدنس ، وقال (سبحانه) أي ننزهه تنزيها بليغا عن ذلك (هو الله الواحد القهار) أي هو الذات الواجب الوجود الجامع لكماله الواحد في الخلق والمعبودية الغالب على كل شيء .

(خلق السموات والارض بالحق) أي متلبسا بإرادة الحق وهو العرفان والإيمان والإحسان من مخلوقه المكرّم (يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل) وتصرفه المبدئي الإجمالي الاستمراري هو أنه يلف الليل على النهار فيستر ضياءه ويكور النهار على الليل فيستر ظلامه بالضياء (وسخر الشمس والقمر) لتطبيق هذا التكوير (كل يجري) على مدار خاص وميزان خاص مضبوط لا يختلف على مر العصور والدهور (لأجل مسمى) إلى نهاية مدة محدودة معينة لهذا التصرف (ألا) تنبهوا يا أصحاب العقول (هو العزيز) القادر على كل مايريد (الغفار) لكل عاص لا يكفر بربه المجيد .

(خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ ، ثُمَّ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها ، وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الأَنْعامِ ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ ، يَخْلُقُكُمْ في بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ في ظُلُماتٍ ثَلاثٍ ، ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ ، لَهُ المُلْكُ ، لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ ، فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ؟(٦) إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ ، وَلا يَرْضى لِعِبادِهِ الْكُفْرَ ، وَإِنْ تَشْكُرُوا

يَرْضَهُ لَكُمْ ، ولا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى ثُمَّ إلى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ، إنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدورِ)(٧)

ثم أتى بدليل آخر على وحدته بقوله (خلقكم من نفس واحدة) أي بعد أن خلق العالم أحبّ أن يخلق فيه من يعرف خالق الكون فيعبده فخلقكم أيها البشر من نفس واحدة ، أي آدم ـ عليه السلام ـ (ثم جعل منها زوجها) حواء فإنها خلقت من أسفل أضلاعه اليسرى على معنى أنها خلقت من جزء منها وبقي الباقي لصاحب الأصل (وأنزل لكم) أي لمعيشتكم (من الأنعام ثمانية أزواج) من الإبل والبقر والضأن والمعز الذكر والأنثى ، فإذا خلي البشر ونفسه وكان مع هذه الأزواج عاش بالابتهاج يلبس من الجلود والأشعار والأوبار والصوف ويشرب من الألبان ، ويأكل من اللحوم فإذا اعتادها استغنى عن كثير من الأتعاب • وقرر بعض الناس أن هذه الفقرة دليل آخر على وجود الباري ، ولكن النفس تتحاشى عن ذلك ويؤخذ منها أدلة جليلة على ذاته وصفاته •

ثم أخذ يبين كيفية خلق ما ذكر عما ذكر إنسانا أولا وقال (ويخلقكم) أي أنتم والأنعام معكم (في بطون أمهاتكم) من نطفة تنزل من آبائكم تمتزج بماء أمهاتكم (خلقا من بعد خلق) إنسانا سويا أو حيوانا بهيا بعد المضغة ، وخلقها بعد العلقة ، وخلقها من النطفة (في ظلمات ثلاث) ظلمة المشيمة بعد ظلمة الرحم ، بعد ظلمة البطن (ذلكم) الخالق الباري المصور (الله ربكم ، له الملك) والسلطنة على الاطلاق (لا إله إلا هو) وحده لا شريك له (فأنى تصرفون) أي فكيف تصرفون عن عبادته مع كثرة موجباتها ودواعيها وانتفاء موانعها إن كنتم تتفكرون ؟

ثم وعظ الباري عباده ببيان استغنائه عنهم ، وإنما يعظهم لنفعهم ورفع درجاتهم وقال (إن تكفروا) أيها الناس مع مشاهدة جميع هذه الأدلة النفسية والأفقية (فإن الله غني عنكم) ولا يعود ضرر كفركم إليه تعالى (وان تشكروا يرضه لكم) لما فيه من موافقة الأمر (ولا تزر وازرة وزر أخرى) أي لا تحمل نفس قابلة لحمل الأثقال أثقال النفس الأخرى (ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون) إنه عليم بذات الصدور فضلا عما يجري علنا من الأمور .

(وَإِذا مَسَّ الإِنْسانَ ضُرٌّ دَعا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ، ثُمَّ إِذا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ ما كانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ ، وَجَعَلَ للهِ أَنْداداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ، قُلْ : تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً ، إِنَّكَ مِنْ أَصْحابِ النّارِ (٨) أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ ساجِداً وَقائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ؟ قُلْ : هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ؟ إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبابِ (٩) قُلْ : يا عِبادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ ، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ ، وأَرْضُ اللهِ واسِعَةٌ ، إِنَّما يُوَفَّى الصّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ (١٠) قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢) قُلْ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلِ : اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا ما شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ، قُلْ : إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيمَةِ ، أَلا ذلِكَ

هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥) لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ، ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ ، يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ)(١٦)

قوله تعالى (وَإِذَا مَسَّ الإنسان) بيان لحال النوع المتذبذب الغير المستقر فيقول تعالى : (وإذا مَسَّ الإنسان ضر) أي من خوف أو فقر أو مذلة أو هوان (دعا ربه منيبا إليه) أي تضرع إلى ربه ودعاه لكشف ضره ، راجعا إليه ونادما مما كان يعتمد عليه سابقا (ثم إذا خوله) أي أعطاه (نعمة منه) أي نعمة عظيمة لها قدر (نسي ما كان يدعو إليه من قبل) أي نسي الضر الذي كان يدعو الله من قبل لكشفه ودفعه (وجَعَلَ لله أندادا) الأنداد من الأضداد يستعمل بمعنى المثل والضد ، وكلاهما يجوز اعتباره هنا أي وجعل لله شركاء زعمهم مساوين مماثلين له تعالى ، ليضل بذلك الجعل الناس عن سبيله (قل) لهذا الإنسان البعيد عن الإحسان (تمتع بكفرك قليلا) أي متاعا قليلا أو زمانا قليلا (إنك من أصحاب النار) أي من المعذبين بها والمداومين فيها على الاستمرار •

ثم ذكر التباين بين هذا الصنف الفاسد وصنف آخر من الإنسان الماجد فقال (أمن هُو قانت آناء الليل) أي عابد في أوقات الليل بأداء الفرائض والواجبات وغيرها من صلاة الليل (ساجدا وقائما) حالان من فاعل الوصف ، أي حالكونه جامعاً بين الوصفين المحمودين (يحذر الآخرة ، ويرجو رحمة ربه) فينجو بذلك مما يحذره ويفوز بما يرجوه (قل) له أيضا بيانا للحق : (هل يستوي الذين يعلمون) فيعملون بمقتضى علمهم (والذين لا يعلمون ؟) الأحكام فيعملون على الجهل • وكذا الذين يعلمون ولا يعملون على مقتضى العلوم (إنما يتذكر أولوا الألباب) جملة مستأنفة

لبيان الواقع وحصر التفكر السليم والتذكر المستقيم في أولي الألباب والعقول الخالصة ٠

(قل : يا عبادي الذين آمنوا) بالله ورسوله (اتقوا ربكم) أي احذروا مخالفة أمر ربكم ونهيه لتكونوا من المحسنين ، فإن (للذين أحسنوا في هذه الدنيا) بأن أطاعوا الله ورسوله وامتثلوا الأوامر واجتنبوا النواهي بإخلاص (حسنة) عظيمة لا يقدر قدرها (وأرض الله واسعة) جدا فإن لم يمكنكم الإحسان في أرض ووجدتم سبيلا إلى أرض أخرى أوفق له فتحولوا إليها ، وإذا أتعبتكم موانع فاصبروا (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) أي أجرا لم يكن في حسبان المأجور أو أجرا لا يعد ولا يحسب بسهولة ٠

(قل : إني أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين) فمن تبعني فليعبده موحدا مخلصا ليكون من الناجين (وأمرت لأن أكون أول المسلمين) في هذه الرسالة ، أو أكون أول وأرقى مسلم من المسلمين لأن حق المتبوع أن يكون رفيع القدر على أتباعه وعظيم الجاه ٠ وجاهدوا حتى تكونوا من الأقربين إلى الأوائل (قل : إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم) هو يوم القيامة (قل : الله أعبد مخلصا له ديني) أي عملي وطاعتي (فاعبدوا ما شئتم من دونه) إن أردتم أن تكونوا من الخاسرين ٠

(قل) يا رسولي (إن الخاسرين) أي الناس الكاملين في الخسران (الذين خسروا أنفسهم) باختيارهم الكفر والضلال والإشراك بالله الواحد المتعال (وأهليهم) أي وخسروا أهليهم أي أولادهم وأتباعهم حيث عرضوهم للعذاب السرمدي (يوم القيامة ، ألا ذلك هو الخسرانُ المبين) الواضح (لهم من فوقهم ظلل) من النار يعني تعلو على رءوسهم لهيب النار كالمظلة

فوق الرءوس (ومن تحتهم ظلل) أي أطباق من اللهيب وتسميتها ظللاً للمشاكلة (ذلك) العذاب والظلل المحيطة بالجوانب (يخوف الله به عباده) في الدنيا لعلهم يتعظون ، ثم يناديهم تأكيدا على حفظ مبادئهم ويقول : (يا عباد فاتقون) بالدخول في الإطاعة الكاملة لنيل المثوبة الحسنى يوم الدين .

(وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا ، وَأَنَابُوا إِلَى اللهِ لَهُمُ الْبُشْرى فَبَشِّرْ عِبادِ(١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ، أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ(١٨) أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ ؟ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ؟(١٩) لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ، وَعْدَ اللهِ ، لا يُخْلِفُ اللهُ الْمِيعادَ)(٢٠)

قوله تعالى (والذين اجتنبوا الطاغوت) ... الآية والطاغوت مصدر طغى يطغى ، وأصله طغووت على وزن فَعَلوت كالجبروت والملكوت ، فقلب اللام إلى محل العين صار طوغوت ، ثم قلبت الواو ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها . وقال ابن زيد : إن الآية نزلت في ثلاثة نفر كانوا في الجاهلية يقولون لا إله إلاّ الله : زيد بن عمرو بن نفيل ، وسلمان ، وأبو ذر . وقال ابن إسحاق : أشير بها إلى عبدالرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وسعيد بن زيد ، والزبير . وذلك لما أسلم أبو بكر سمعوا ذلك فجاءوه وقالوا : أسلمت ؟ قال : نعم ، فآمنوا بأجمعهم ، فنزلت فيهم . وهي محكمة في الناس إلى يوم القيامة .

والطاغوت وإن كان مصدرا بمعنى الطغيان فهو كناية عن الشيطان ، والمراد هنا الأصنام الذين أمر الشيطان أولئك الكفار بعبادتهم . وحاصل

المعنى والمؤمنون الذين اجتنبوا الطاغوت أي الأصنام (أن يعبدوها ، وأنابوا إلى الله) وأقبلوا إليه سبحانه وتعالى (لهم البشرى) من الملائكة عند حضور الموت وحين يحشرون ، وبعد ذلك أيضا (فبشر عباد) ي (الذين يستمعون القول فيتبعونَ أحسنهُ) وهنا ثناء جميل بأنهم مميزون بين الحسن والأحسن ويختارون الأفضل بالنسبة الى الثواب في الآخرة ، فإذا سمعوا أمرا بشيء واحتمل الأمر الندب والوجوب حملوه على الثاني للخروج عن العهدة بيقين وأخذ المزيد من الأجر . وإذا دار الحال بين العفو والقصاص اختاروا العفو ، وإذا اختلف في مقدار الدين الواجب عليهم بين الناقص والزائد اختاروا الزائد لبراءة الذمة ، وهكذا (أولئك الذين هداهم الله) إلى سعادة الدارين (وأولئك هم أولوا الألباب) أي العقول السليمة .

ثم ذكر الله تعالى أضداد المذكورين وقال : (أفمن حق عليه كلمة العذاب) كأبي جهل وأمثاله ، والكلمة قوله تعالى لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين (أفانت تنقذ) وتخرج (من في النار ؟) وفي الآية استعارة مكنية تمثيلية ؛ حيث شبهت الهيئة المنتزعة من استحقاق جمع من المشركين في الدنيا لعذاب الآخرة ، وجهد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في إرشادهم وزجرهم عن الإشراك ، وعدم وجود النفع في ذلك بهيئة منتزعة عن جمع واقعين في نار جهنم معذبين ، وسعي الرسول الشفيع لإخراجهم عنها ، وعدم الاستفادة من ذلك لعدم استجابة الباري جل شأنه لذلك لصدور إرادته بعدم المغفرة لمن أشرك به والقرينة هي أفأنت تنقذ من في النار . وحاصل المقصود أن أولئك المشركين المصرين على الإشراك صدرت الإرادة بدخولهم نار جهنم فجهدك في إرشادهم كجهدك في إخراج من في نار جهنم عنها بعد صدور إرادة الله تعالى ببقائه فيها .

وقوله تعالى (لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف) استدراك ودفع لما يتوهم من قلة الفرق والتفاوت بين القبيلين المتقابلين أعني المؤمنين والكافرين على اعتبار أن الفرق كبير جداً لا يدخل تحت التقرير ، وهو ما أفاده بقوله ، (لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية ، تجرى من تحتها الأنهار ، وعد الله) أي وعدهم الله بذلك وعدا صادقا (لا يخلف الله الميعاد) .

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ، ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ، ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَيهُ مُصْفَرّاً ، ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً ؟ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٢١) أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ؟ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ ، أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٢) أَللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ، ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ، ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣) أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ : ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ؟ (٢٤) كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَيهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٥) فَأَذَاقَهُمُ اللهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)(٢٦)

قوله تعالى (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء) استئناف لبيان آثار قدرته تعالى من حيث إنزال الماء منَ السماء وجعلهِ من أسباب تكوّن اليَنابيع في الأرض سهولها وجبالها ، وإنبات الأشجار والنبات منها ، وفي الوقت عينه لإفادة أن الحياة الإنسانية البادية أولاً بنضارة وبهجة ، ثم عروض العوارض عليها كنبات ينبت بماء السماء ثم يصير حطاما ، أي أن الدنيا متاع مؤقت والآخرة خير وأبقى ، يعني ألم ترَ يا من تمكن منه الرؤية ان الله انزل من السماء ماء (فسلكه) أي أدخله في (ينابيع) وعيون كائنة (في الأرض) كالعروق في الأجساد (ثم يخرج به زرعاً مختلفا ألوانه) أي أن الأرض أرض واحدة بالصنف ، وكذلك الماء ومع ذلك يخرج الله تعالى حسب إرادته زروعها مختلفة الألوان (ثم يهيج) أي ييبس (فتراهُ مُصْفَرا) من بعد الخضرة (ثم يجعله حُطاماً) أي فُتاتاً مُتكسِّرة (إن في ذلك) العمل المذكور (لذكرى) لتذكيرا (لأولي الالباب) بخالق قادر مريد مراقب عالم بالجزئيات والكليات إلى غير ذلك مما يبدو للعاقلين .

وقوله تعالى (أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه) إفادة واضحة لانقسام المكلفين الى قسمين فقسم شرح الله صدره للإسلام بعنايته ورعايته على حسب السعي والميل والرغبة الذاتية له نحو الخير (فهو) أي ذلك القسم مستقر (على نور) روحي آتاه (من ربه) إفاضة من رحمته على حسب علمه بحسن نيته وجودة عطفه وعنايته ، وخبر الموصول محذوف مفصول مدلول عليه بما يأتي بقوله (فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله) أي ليس من شرح الله صدره وصرف عمره في إطاعة مولاه كمن قسا قلبه وكسلت جوارحه عن أداء واجباته .

عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنه تلا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذه الآية فقلنا : يا رسول الله كيف انشراح الصدر ؟ قال : « إذا

دخل النور القلب انشرح وانفسح » قلنا : فما علامة ذلك يا رسول الله ؟ فقال : « الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والتأهب للموت قبل نزوله » . وإذا تقرر أن القسمين متباينان وأن الفريقين متخالفان أتى بما يناسب القسم الأخير فقال (فويل) وعذاب هائل (للقاسية قلوبهم من ذكر الله) أي للفرقة القاسية قلوبهم عن ذكره تعالى (أولئك) الناس القساة قلبا (في ضلال مبين) عن الصراط المستقيم ، وفي نكال ووبال وفي العذاب المقيم .

(الله نزلَ أحسنَ الحديثِ كتاباً مُتشابهاً مَثانِي تقشعر منه جلودُ الذين يخشون ربهم) عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما أن قوما من الصحابة قالوا : يا رسول الله حدثنا بأحاديث حِسانٍ وبأخبار الدهر ، فنزلت . وعن ابن مسعود أن الصحابة ملوا ملَّةً فقالوا له ـ عليه الصلاة والسلام ـ : حدثنا فنَزَلت . أي إرشاداً لهم الى مايزيلُ مَلَلهم وهو تلاوة القرآن واستماعه منه غضاً طرياً . بنى الله الكلام على اسم الجلالة إجلالاً للخبر ، وتكثيراً لخيره ، واهتماماً بالحكم . وفي صيغة التفعيل بيان لدفعات نزوله التدريجي المفيد للحكم والمصالح المخصوصة المنصوصة . وقوله (أحسن الحديث) بيان لتفوقه على جميع الكتب السماوية من حيث أنه تعبد بتلاوته ، وتحدي ببلاغته ، وأديم بشريعته مُفصلاً ببيان الأحاديث لاسيما الأحاديث الصحاح الواردة من حضرة صاحب الرسالة التي تخلو من العيوب والريوب. وأبدل عنه (كتاباً) لبيان أنه كتاب من كتبه تعالى الذي يجب الإيمان به واعتبر ركنا من إيمان المؤمن وقوله (متشابها) معناه أنه يشبه بعضه بعضا من حيث الصحة والصدق والفصاحة والبلاغة والاشتمال على الأحكام الاصولية والفروعية وغيرهما من القصص والمواعظ والإرشادات (مثاني) مكررة في التلاوة وفي الصلوات وفي إفادة الأحكام ومكررة في التأثير

للقلوب ، فإن آياته الجليلة كالسيوف المسلولة كلما تليت أثرت في القلوب وساعدت في تفريج الكروب بحيث (تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم) لتأثير خاص فيها بالرهبة والهيبة الربانية (ثم) بعد برهة من الوقت (تلين جلودهم وقلوبهم) ساكنة راغبة (إلى ذكر الله) ذلك هدى الله يهدي به من يشاء أي ذلك الكتاب وسيلة الوصول الى المأمول الحق يهدي به بإرادته وتوفيقه من يشاءهدايته إلى صراط مستقيم . (ومن يضلل الله) أي يخلق الضلالة فيه بسبب إعراضه عن الإرشاد الحق (فما له من هاد) يهديه ويخلصه من ورطة الضلال .

(أفمن يتقي بوجهه) الذي هو أشرف أعضائه (سوء العذاب ؟) الوارد عليه يوم القيامة وخبر الموصول محذوف أي كمن لا يعذب بل يتنعم في الجنة مع الأحباب وقوله (وقيل للظالمين) جملة مستقلة مستأنفة لبيان تعذيبهم بالقول إضافة الى تعذيبهم بالنار ، أي وقيل للظالمين وهم المتقون بالوجوه سوء العذاب : (ذوقوا ما كنتم تكسبون) أي وبال وجزاء ما كنتم في الدنيا تكسبونه من السيئات . (كذب الذين من قبلهم) من المشركين (فأتاهم العذاب) المقرر لهم في الدنيا (من حيث لا يشعرون) أي لا يحتسبون مجيئه منه كالبركان والريح والسيل وما شاكلها (فأذاقهم الله الخزي في الحيوة الدنيا) من وجوه كثيرة منها الوجوه المذكورة (ولعذاب الآخرة أكبر) وأشد وأفزع وأفظع من عذاب الدنيا (لو كانوا يعلمون) .

(وَلَقَدْ ضَرَبْنا لِلنّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ، لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨) ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً : رَجُلاً فِيهِ شُرَكاءُ مُتَشاكِسُونَ ، وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ ، هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلاً ؟

الْحَمْدُ للهِ ، بلْ أكْثَرُهُمْ لا يَعلَمُونَ (٢٩) إنَّكَ مَيِّتٌ ، وَإنَّهُمْ مَيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إنَّكُمْ يَوْمَ القِيامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (٣١) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللهِ وكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إذْ جاءَهُ ؟ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ ؟(٣٢) والَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ وصَدَّقَ بِهِ أُولئِكَ هُمُ المُتَّقُونَ (٣٣) لَهُمْ ما يَشاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، ذلِكَ جَزَاءُ المُحْسِنِينَ (٣٤) لِيُكَفِّرَ اللهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا ، وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذي كانُوا يَعْمَلُونَ (٣٥) أَلَيْسَ اللهُ بِكافٍ عَبْدَهُ ؟ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ، ومَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (٣٦) وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ مُضِلٍّ ، أَلَيْسَ اللهُ بعَزِيزٍ ذِي انتِقامٍ)(٣٧)

قوله تعالى : (ولقد ضربنا للناس) أي ولقد ذكرنا للناس (في هذا القرآن) العظيم من (كل مثل) يحتاجون إليه في الاتعاظ والاعتبار (لعلهم يتذكرون) به ويتقون الله ويطيعونه ورسوله ، حالكون هذا القرآن (قرآنا عربيا) في المفردات والمركبات ، مراعى فيه أسلوب العرب العرباء من حيث المطابقة لمقتضى الحال والمقام (غير ذي عوج) أي غير ذي اختلال فيما ذكر ولا في أصل المعنى والمفهوم (لعلهم) أي الناس (يتقون) أي يتقون مخالفة أحكام الله .

ومن جملة الأمثال المضروبة ما يأتي في قوله الكريم : (ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون) أي جعل الله رجلا مثلا أي ذا قصة بديعة يعتبر بها أعني (رجلا) كان عبدا (فيه شركاء متشاكسون) أي متعاكسون في الرأي وكل منهم يأمره بشيء وينهاه عن شيء لسوء أخلاقهم واختلاف ميولهم

(ورجلا سلما) أي ورجلا خالصا مملوكا (لرجل) واحد يأمره وينهاه (هل يستويان مثلا ؟) أي هل يستويان في الحال والوضع ؟ والجواب : كلا ؛ فإن الأولى في عناء وحيرة وفي جفاء من عدم البصيرة ، فإذا أطاع الكل عارضه جمع الضدين أو النقيضين ، وإذا عصى الكل جعلوه في القيد والغل . والثاني إما في راحة مطلقا إن كان الرجل يأمر بالمستطاع وينهى عنه أو في راحة قلبية وعناء بدني إن كان المأمور به أو المنهي عنه ثقيلا لا يتحمل بسهولة . فالإنسان المشرك كرجل بين شركاء متشاكسين متعاكسين ، والموحد كالإنسان الخادم لمولى واحد شريف ماجد (الحمد لله) على فهم عدم الاستواء بين الجانبين فان ذلك من مقتضيات الفطرة السليمة (بل أكثرهم لا يعلمون) عدم الاستواء بينهما وإن كان من البديهيات ، وذلك لاختلال عقله واعتلال نظره .

وإن لم ينتفعوا بضرب الأمثال وإن كانت من البديهيات فلا تهتم بالمشركين الغرقى في السيئات والضلالات (إنك ميت وإنهم ميتون) إن قريبا أو بعيدا (ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون) فتحتج عليهم ويحتجون ، تحتج بالتبليغ على وجه الأمانة ، ويحتجون عليك بأكاذيب تافهة يردها عليهم الشهداء من أسماعهم وأبصارهم وأرجلهم وأيديهم ، ومن الليل والنهار ، ومن ملائكة الجبار (فمن أظلم ممن كذب على الله) بأن أضاف إليه اتخاذ الولد أو الشريك (وكذب بالصدق) أي وكذب بالأمر الذي هو الحق والصدق من التوحيد لرب العالمين (إذ جاءه) ذلك (أليس في جهنم مثوى للكافرين ؟) .

(والذي جاء بالصدق) وهو التوحيد أو القرآن المشتمل عليه (وصدق به ، أولئك هم المتقون) والموصول هو الرسول ــ عليه الصلاة والسلام ــ بالدرجة الأولى ، وأصحابه بالدرجة الثانية والتابعون بالدرجة الثالثة .

وهكذا فإن كلا من الكل جاء أصالة أو وكالة في التبليغ بما ذكر وصدق به والحمد لله . (لهم ما يشاءون عند ربهم) من المثوبة الحسنى وزيادة عليها (ذلك جزاء المحسنين) الذين عبدوا ربهم كأنهم رأوه (ليكفر الله عنهم) بحسن ما قاموا به (أسوأ الذي عملوا) على فرض وجوده (ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون) فيأخذ الباري تعالى من عباداتهم أحسنها ويجزيهم على مستواه . وإذا خوفوك ببعض الأمور التي توجب القلق في النفس من قتلك أو قتل أتباعك ، أو إيذائك أو إيذائهم فلا تهتم بهم (أليس الله بكاف عبده ؟) لمعارضة الأعداء المتوعدين بالمخاوف والمهالك والجواب بلى ، فإنه هو الكافي حسبنا الله ونعم الوكيل (ويخوفونك) على تقاليدهم الخرافية (بالذين من دونه) أي لوصول الأذى إليكم من الذين يدعونه من دونه ولكنه لا قيمة لتخويفهم ولا لتهديدهم (ومن يضلل الله) عن طريق الحق والاستنصار بالحق (فماله من هاد) إلى الطريق السليم وهو الاستنصار بالناصر الحق المبين (ومن يهد الله) إلى التوكل عليه والرجوع إليه (فما له من مضل ، أليس الله بعزيز ذي انتقام ؟) ينتقم من أعدائه الضالين لأوليائه المهتدين .

(ولَئِنْ سَأَلْتَهُمْ : مَنْ خَلَقَ السَّمواتِ والأَرْضَ ؟ لَيَقولُنَّ اللهُ . قلْ : أَفَرَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ، إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كاشِفَاتُ ضُرِّهِ ؟ أَوْ أَرادَنِي بِرَحْمَةٍ ، هَل هُنَّ مُمْسِكاتُ رَحْمَتِهِ ؟ قلْ : حَسْبِيَ اللهُ ، عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ المُتَوَكِّلُونَ (٣٨) قلْ يَاقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٤٠) إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتابَ

لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ ، فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ، وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ)(٤١)

قوله تعالى (ولئن سألتهم : من خلقَ السموات والأرض ؟ ليقولُنّ : الله) أي خلَقهن الله • وذلك لوجود الأدلة الواضحة من الآفاق والأنفس على أن نوع الممكنات يحتاج إلى فاعل مؤثر فيها يرجح الوجود على العدم • (قل)تبكيتا لهم (أفرأيتم ما تدعون من دون الله ؟) من الأصنام (إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره ؟) ويقدرن على منع تأثير قدرته أو إزالة ما أثبته على نفسي من المضار (أو أرادني) أي أرادني (برحمة) من المال أو الأولاد أو الجاه أو القربة إليه (هل هُن مُمسِكات رحمته ؟) وفي واقع الحال الجواب نفي للمجال • فإذا آل الأمر إلى صاحب الخلق والأمر فقل (حسبي الله) جاذب البلاء وجالب النعماء ، حسبى الله خالق كل شيء من النور والفيء ، حسبي الله وبه يؤمن المؤمنون (وعليه يتوكل المتوكلون) فإذا قررت هذا فتوجه إلى الناس و (قل : يا قوم اعملوا) ما شئتم (على مكانتكم) وحالتكم التي أنتم عليها (إني عامل) على حسب وحي العليم العلام الكامل (فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ، ويحل عليه عذاب مقيم) ولا شك أنه المنحرف عن الصراط المستقيم •

(إنا أنزلنا إليك الكتاب للناس) كافة عامة فإنه مناط سعادتهم في الدارين ، وأنزلناه متلبسا (بالحق) وهو العدل الشامل ، أو أنزلنا بالحق وهو التوحيد لله الكامل (فمن اهتدى) للعمل بما فيه (فلنفسه ، ومن ضل) عن طريق العمل به (فإنما يضل عليها) أي على خسارة نفسه (وما أنت عليهم بوكيل) لتجبرهم ، وإنما أرسلت لتبلغهم وما على الرسول إلا البلاغ المبين •

(اللّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ، وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ، فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ ، وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٢) أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ شُفَعَاءَ ؟ قُلْ : أَوَلَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلَا يَعْقِلُونَ ؟(٤٣) قُلْ : للهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً ، لَهُ مُلْكُ السَّمواتِ وَالْأَرْضِ ، ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٤٤) وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ، وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥) قُلِ : اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمواتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيما كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)(٤٦)

قوله تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها) أي يقبضها ويأخذها ويقطع فعلها وتصرفها عن الأبدان حين حلول أجل موتها فتستقر في عالم الأرواح مع بقاء علاقتها بأبدانها تعلقا برزخيا (والتي لم تمت في منامها) يعني ويتوفى ويقبض الأنفس التي لم تمت في حال منامها أي يمنعها عن الفعل والتصرف الإعتيادي في الأبدان بالقيام والقعود والتكلم المنتظم والكتابة وغيرها مما هو المعتاد (فيمسك التي قضى عليها الموت) إلى وقت البعث والنشور (ويرسل الأخرى) أي المقبوضة عند المنام إلى البدن (إلى أجل مسمى) أي إلى منام آخر فيتوفاها أيضا ، وهكذا إلى الأجل المحتوم للقبض النهائي بالموت (إن في ذلك) القبض والإمساك والإرسال (لآيات) بينات على قدرته تعالى (لقوم يتفكرون) فيعلمون أن الإنسان نفسه وأوصافه وأحواله كلها من الله سبحانه وتعالى .

لا شك أن الشارع أمسك عن بيان الروح ؛ فنمسك عن تفاصيلها ، ولكن المعلوم بالأدلة أن الجسد الحيواني والإنساني لما كمل تركيبه واعتدل مزاجه تعلقت به الروح وهذه الروح سواء كانت إنسانية أو حيوانية جسم لطيف عند جمهور المسلمين ، سار في البدن سريان الماء في الورد ، وعند بعض المحققين كالإمام الغزالي رحمه الله تعالى : جوهر مجرد متعلق بالبدن تعلق التدبير والتصرف ، وهي في كل الحيوانات كذلك . والبخار الناشىء من التجويف الأيسر من القلب من شروط تعلق الروح بالأبدان . ولكن الأرواح تختلف في القابليات الى درجات عديدة لا يعلمها إلا الله تعالى . والأرواح على الإطلاق مشغولة بتدبير البدن والتصرف حالا ومآلا باستعمال الحواس والمشاعر وبالفكر والنظر في حال اليقظة والقوة ؛ فإذا تعبت الحواس وما أنيط بها من الأبدان أراحها الله تعالى بالاستيلاء على أرواحها وإغفالها عن تدبير الأبدان . وهذا الإستيلاء توفية وقبض للأرواح ، لكن لا قبضاً إخراجيا بقطع العلاقة ، وإنما هو قبض واستيلاء عليها بمنعها عن الاستفادة من الحواس والمشاعر ، فإذا تمت مدة الاستراحة أعادها الله إلى حالتها الأولى . وإذا جاء الأجل المسمى لحياة صاحبها توفّاها وقبضها قبضاً نهائيا إلى يوم البعث والنشور .

ولكن أرواح الأنبياء والرسل الكرام ـ عليهم الصلاة والسلام ـ طلقاء في الكائنات في الأرض والسماوات والجنة والعرش أينما شاءت لاحبس عليها ، ومع ذلك لها تعلق بالأبدان تعلقا فوق تعلق أرواح الصديقين والشهداء والصالحين ، فإذا زارهم الزائرون انتبهوا بأمر الله تعالى لرد السلام ، وإذا صلى على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مسلم في مشارق الأرض أو مغاربها أخبر بذلك وأجابه اجابة برزخية لائقة بمقامه الرفيع . وكذلك أرواح من عداهم على اختلاف درجاتهم ، فالأموات في القبور

كالأحياء وراء الستور ، فلهم إدراك للزائرين بأمر الله تعالى ؛ لأن للروح علاقة بهم، والروح خالدة لا تفنى أبداء ويكفي في صدق ذلك قول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعمر عندما قال له كيف تتكلم معهم (أي قتلى بدر من المشركين) وهم جيف ؟؟: « والذي نفسي بيده إنكم لستم بأسمع منهم ولكن لا يطيقون الجواب » •

(أم اتخذوا من دون الله شفعاء ؟) أي أبل اتخذ قريش من دون الله تعالى شفعاء تشفع لهم عند الله تعالى لدفع العذاب عنهم يوم القيامة (قل : أو لو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون ؟) يعنى قل لهم أو يتخذونهم شفعاء إذا علموا أنهم لا يملكون شيئا من المنفعة ولا يعقلون شيئا من المعقولات ؟ (قل) لهم يا حبيبي : (لله الشفاعة جميعا) أي كل شفاعة سواء في الدنيا أو الآخرة ولا علاقة لها بأحد مطلقا إلا بإذن الله ولا يأذن لأحد يشفع إلا لعبد مطيع مخلص صرف حياته في مرضاته ، لأن الشفاعة صفة تحدث في الكائنات و (له ملك السموات والأرض) وما فيهما (وإليه ترجعون) فتطلعون على حقيقة كلام رب العالمين •

ثم ذكر الله تعالى بعض أوصافهم الذميمة فقال (وإذا ذكر الله وحده اشمأزت) أي انقبضت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة (وإذا ذكر الذين من دونه) وهم الأصنام (إذا هم يستبشرون) لزيادة محبتهم لهم وافتتانهم بهم •

(قل : اللهم فاطرَ السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ؛ أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون) أمر الله تعالى حبيبه بهذا الدعاء تسلية له عن مقاساة شدائد أقوال المشركين وأعمالهم الفاسدة ؛ وعقائدهم الباطلة فإذا تعب الإنسان وانقبض قلبه فاللجوء إلى الله دواؤه وشفاؤه •

(وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ما في الأَرْضِ جَمِيعاً ، وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذابِ يَوْمَ الْقِيامَةِ ، وَبَدا لَهُمْ مِنَ اللهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ(٤٧) وَبَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ(٤٨) فَإِذا مَسَّ الإِنْسانَ ضُرٌّ دَعانا ، ثُمَّ إِذا خَوَّلْناهُ نِعْمَةً مِنَّا قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ ! بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ ، وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ(٤٩) قَدْ قالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ(٥٠) فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا ، وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا ، وَما هُمْ بِمُعْجِزِينَ(٥١) أَوَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ ؟ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)(٥٢)

قوله تعالى (ولو أن للذين ظلموا) بيان لفظاعة العذاب الذي يرد عليهم يوم القيامة إذا حكم الباري تعالى بينهم • يعني ولو أن للذين ظلموا أنفسهم بالإشراك به تعالى (ما في الأرض جميعا ومثله معه لافْتَدَوا به مِن سُوءِ العذاب يوم القيامة) اي لجعلوا كل ذلك فدية لأنفسهم من العذاب السيء الشديد (وَبَدا لهم مِن اللهِ ما لَم يكونوا يحتسبُون) أي ظهر لهم من صنوف العقوبات ما لم يكن في حسابهم زيادة في الوعيد • (وَبَدا لَهُمْ سيئاتُ ما كسَبوا) حين اطلعوا على الحقيقة (وحاق بهم ماكانوا بهِ يستهزءُون) أي وأحاط بهم جزاؤه (فإذا مَسَّ الإنسان ضرٌ دعانا) لكشفه (ثم إذا خولناه) أي أعطيناه (نعمة مِنا قال : إنما أوتيته على علم) أي على ما كسبته بمقتضى علمي بالأمور وشئون التصرف في

المكاسب والأعمال (بل هي فتنة) أي بل ذلك امتحان وبلوى من رجح الحق على الباطل نجح ، ومن عكس الأمر افتضح (ولكن أكثرهم لا يعلمون) أن الأمر كذلك • (قد قالها الذين من قبلهم) أي قد أضاف النعمة الى علمه بعض من سبق في جهله وحلمه (فأصابهم سيئات ماكسبوا) أي أصابهم جزاء ماقالوا وما فعلوا (والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ماكسبوا) كما أصاب السابقين (وما هم بمعجزين) العزيزَ المنتقم أبدا (أو لم يعلموا أن الله بيده مقاليد السموات والارض ، وأن الله يبسط الرزق لمن يشاء) أن يبسط له (ويقدر) لمن يشاء أن يقدر له ، ولا دخل لأي شخص وأيّ شيء في ذلك إلا بالتسبب المعتاد وأن الله هو المسبب لها (إن في ذلك لآيات) تدل على أن الحوادث كلها من الله وتلك الآيات حجة نافعة (لقوم يؤمنون) •

(قُلْ : يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ ، اِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ، إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ(٥٣) وَأَنِيبُوا إِلى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ العَذابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ(٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ العَذابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ(٥٥) أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يا حَسْرَتى عَلى ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ ، وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السّاخِرِينَ(٥٦) أَوْ تَقُولَ : لَوْ أَنَّ اللهَ هَدانِي لَكُنْتُ مِنَ المُتَّقِينَ(٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى العَذابَ : لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ المُحْسِنِينَ(٥٨) بَلى قَدْ جاءَتْكَ آياتِي فَكَذَّبْتَ بِها وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الكافِرِينَ)(٥٩)

قوله تعالى (قل يا عبادي) أي قل لهم على لساني يا عبادي الذين أفرطوا في المعاصي جانين عليها (لا تقنطوا من رحمة الله) ولا تيأسوا من مغفرته سبحانه وتعالى (إن الله يغفر الذنوب جميعا ، إنه هو الغفور الرحيم وأنيبوا الى ربكم) أي لا تقنطوا فتظنوا أنه لا تقبل توبتكم وأنيبوا إليه تعالى (وأسلموا له) وانقادوا وأطيعوه (من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون) • أخرج ابن جرير عن ابن عمر ـ رضي الله تعالى عنهما ـ قال : نزلت هذه الآيات في عياش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد ونفر من المسلمين كانوا أسلموا ثم فتنوا وعذبوا فافتتنوا فكنا نقول : لا يقبل الله تعالى من هؤلاء صرفا ولا عدلا أبدا أقوام أسلموا ثم تركوا دينهم بعذاب عذبوا ، فنزلت هذه الآيات ، وكان عمر ـ رضي الله عنه ـ كاتبا فكتبها بيده ، ثم كتب بها إلى عياش والى الوليد والى أولئك النفر فأسلموا وهاجروا • واخرج ابن جرير عن عطاء بن يسار قال : نزلت هذه الآيات الثلاث (قل يا عبادي) الى (وأنتم لا تشعرون) بالمدينة في وحشي وأصحابه وتخلل قوله (إن الله يغفر الذنوب جميعا) بين المتعاطفين تعليلا للجزء الأول قبل الوصول الى الثاني للدلالة على سعة رحمته تعالى ، وأن مثله حقيق بأن يرجى وإن عظم الذنب لاسيما وقد عقب بقوله تعالى (إنه هو) ••• الآية الدال على انحصار الغفران والرحمة على الوجه الأبلغ ، فالوجه أن يجري على عمومه ليناسب عموم الصدر ، ولا يقيد بالتوبة لئلا ينافي غرض التخلل مع أنه جمع محلى باللام وقد أكد بما صار نصا في العموم والاستغراق •

(واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم) إذا كان الخطاب للجنس على خلاف الظاهر فالمراد بما أنزل الكتب السماوية ، وبأحسنه القرآن ، وإن كان الخطاب للمخاطبين في أول الآية فالمراد بما أنزل هو القرآن ، وأحسنه

ما تضمن الإرشاد إلى التوحيد والإخلاص في الطاعة والتخلق بالأخلاق الحسنة • وذلك الاتباع (من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة) أي مفاجأة (وأنتم لا تشعرون) بمجيئه • وقوله (أن تقول نفس) في موضع المفعول له بتقدير مضاف وهو كراهة مثلا ، وهو منصوب بفعل محذوف أي أنذركم بأحسن ما أنزل إليكم من ربكم كراهة أن تقول نفس (يا حسرتي) بالألف بدل ياء الإضافة (على ما فرطت) أي بسبب تفريطي وقصوري (في جنب الله) أي في جهته (وإن كنت) أي وإني كنت (لمن الساخرين) أي المسخرين، أي المستهزئين بكتاب الله ورسوله (أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين) من الشرك والمعاصي (أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة) أي رجوعا إلى الدنيا (فأكون من المحسنين • بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت) أي عن قبولها (وكنت من الكافرين) •

(ويَوْمَ الْقِيامةِ تَرى الَّذِينَ كَذَبُوا على اللهِ وجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ ، أليْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ ؟(٦٠) ويُنَجِّي اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ ولا هُمْ يَحْزَنُونَ(٦١) أللهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ وكِيلٌ(٦٢) لَهُ مَقالِيدُ السَّمواتِ والأَرْضِ ، والَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللهِ أولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ(٦٣) قُلْ : أفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أيُّها الْجاهِلُونَ ؟!(٦٤) ولَقَدْ أُوحِيَ إلَيْكَ وإلى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ : لَئِنْ أشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ولَتَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ(٦٥) بَلِ اللهَ فاعْبُدْ وكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ(٦٦) وما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ، والأَرْضُ جَمِيعاً

قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ ، والسَّمواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ، سُبْحانَهُ وتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ !)(٦٧)

قوله تعالى (ويوم القيامة) عود على سنته القويمة من مزج الوعد بالوعيد والثواب بالعقاب ليتخذ المعتبرون طريق السعادة ويتوجهوا إلى هدف الطاعة فيقول : (ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله) باتخاذ الولد والشريك حالكونهم (وجوههم مسودة) سوادا واقعيا من جزاء تبديل لون الصورة في مقابلة تبديلهم الفطرة السليمة بسوء السيرة أو سوادا عارضا مثل ما قال (خاشعة ابصارهم ترهقهم ذلة) وقال (ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة) فيقال مستنكرا من جانب الباري أو الملك المأمور (أليس في جهنم مثوى) أي مقام (للمتكبرين) عن طاعة الله العلام ؟ والجواب الحق (بلى) •

(وينجي الله الذين اتقوا) عن الكذب على الله (بمفازتهم) بسبب فوزهم برضاء الله تعالى فيخلصون عن السواد والغبرة على الوجوه (لا يمسهم السوء) أي العذاب أياً كان (ولا هم يحزنون) على عمل فاسد لأنهم لم يرتكبوا المفاسد •

(الله) الذي نجاهم هو (خالق) كل شيء وحده فهو المعبود وحده (وهو على كل شيء وكيل) متول وكفيل (بيده مقاليد السموات والارض) أي مفاتيحهما ، والمقاليد جمع لا واحد له من لفظه ، وقيل جمع مقلاد من التقليد بمعنى الإلزام ، وجعل اسما للآلة المعروفة للإلزام بمعنى الحفظ (والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون) من حيث الاطمئنان النفسي في الدنيا والراحة في الآخرة •

(قل : أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون ؟!) بالآيات البينات الدالة على وحدة المعبود (ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك) من الأنبياء والمرسلين (لئن أشركت ليحبطن عملك) ولئن أشركتم ليحبطن أعمالكم (ولتكونن من الخاسرين) وهذا الإيحاء حق في ذاته وتعريض للمشركين به تعالى (بل الله فاعبد) والفاء جزائية لشرط مقدر ، أي إن كنت عابدا فاعبد الله فحذف الشرط وجعل تقديم المفعول عوضا عنه (وكن من الشاكرين) لإنعامه عليك بما لا يعد ولا يحصى (وماقدروا الله حق قدره) أي وما عظموه حق تعظيمه (والأرض جميعا قبضته) والجملة حالية أي ما عظموه والحال إنه كذلك . أي له السلطان الباهر بحيث أن الارض جميعها بطبقاتها القشرية والصخرية وغيرها مادة حقيرة صغيرة في كف قدرته الجبارة القوية (والسموات مطويات بيمينه) من غير سقوط ما في قبضته عنها (سبحانه وتعالى عما يشركون) أي عن إشراكهم بذات صاحب سلطان كذلك . والطي باليمين مفسر باللف والإمحاء بقدرته تعالى .

(وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمواتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شاءَ اللهُ ، ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ (٦٨) وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّها ، وَوُضِعَ الْكِتابُ ، وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَداءِ ، وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٦٩) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِما يَفْعَلُونَ)(٧٠)

قوله تعالى (ونفخ في الصور) المشهور أن النافخ فيه ملك واحد واسمه إسرافيل ـ عليه السلام ـ ، بل حكى القرطبي الإجماع عليه (فصعق من في السموات ومن في الأرض) في الأساس صعق الرجل إذا

غشي عليه ، وقد نقلنا سابقا الحديث الشريف حول الموضوع ، وأنه عندما سمع الصوت يغشى على الناس فيموتون اينما كانوا (إلا من شاء الله) وهم الأربعة المقربون ، وحملة العرش (ثم نفخ فيه) أي في الصور (أخرى) أي نفخة أخرى بعد مدة أربعين سنة (فإذا هم قيام) من أماكن دفنهم (ينظرون) بعضهم الى بعض أو ينتظرون ما يؤمرون ، أو ينتظرون ماذا يفعل بهم (وأشرقت الأرض) أي أرض المحشر وهي الأرض المصفاة عن الجبال والأوهاد والتلال الصافية جدا ، كما يستفاد من قوله تعالى (ويسئلونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا ، فيذرها قاعا صفصفا ، لا ترى فيها عوجا ولا أمتا) وحينئذ يجوز أن تكون أرض المحشر نفس الأرض السابقة ، ولكنها بدلت بأن أحدث فيها صورة أخرى ، وتكون بحيث تسع الخلائق المحشورة . ويجوز أن تبدل بأرض أخرى ذاتا وصفة وصورة ، وتكون أوسع من أرض الدنيا بما لا يعلمه إلا الله كما قال تعالى (يوم تبدل الأرض غير الأرض) وعلى هذا تكون المغايرة ذاتا وصفة ، وعلى الأول تكون المغايرة وصفا فقط . والله تعالى قادر على كل شيء ، وقد أضاءت هذه الأرض وأشرقت (بنور ربها) أي بنور حادث من أمر ربها لا بالشمس والقمر ، لأن الشمس كورت والنجوم انتشرت ، وهذا النور حادث من الأمر الإبداعي لله تعالى ، وروي أن العالم يكون كما بين الطلوعين في وقت الربيع الصحو الصافي عن الغبار (ووضع الكتاب) أي كتاب حساب المكلفين وهي صحائف أعمالهم ونسخة منها سلمت لأصحابها إما من اليمين إن كان صاحبها أمينا ، أو من الظهر أو اليسار إذا كان من أهل الخيانة (وجيىء بالنبيين والشهداء) فيؤتى بالنبيين لا للمحاسبة بل ليسئلوا عن أحوال الأمم التي بلغوها أحكام الله تعالى كما قال تعالى (يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم ؟ قالوا : لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب)

وليشهدوا للأنبياء الآخرين على أممهم بالتبليغات أو ليحضروا محاسبة أممهم حتى إذا كان منها إنكار رده الأنبياء الأبرار . والمراد بالشهداء إما شهداء للناس على الناس من الملائكة والناس ، أو الشهداء المتوفون في الحرب ، ومجيئهم للتشريف ، وقد يكون للشهادة على من قتلهم غيلة أو قتلهم ظلما ، أو قتلهم في ميدان الجهاد . ويحتمل احتمالا قريبا أن يكون المجيء بالشهداء للشهادة على الأمم الكافرة المكذبة بالدين والله أعلم (وقضى بينهم بالحق) أي بين العباد بالحق (وهم لا يظلمون ، ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون) فلا يفوته شيء لا يعلمه لكن لجريان سنته بالمحاكمة بين الناس حسب شريعته المحكمة .

(وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ زُمَرا ، حَتَّى إِذَا جاءُوها فُتِحَتْ أَبْوابُها وَقالَ لَهُمْ : خَزَنَتُها : أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آياتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا ؟ قالُوا : بَلى ، ولكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذابِ عَلَى الْكافِرِينَ(٧١) قيلَ : ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فيها ، فَبِئْسَ مثوى الْمُتَكَبِّرِينَ(٧٢) وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلى الْجَنَّةِ زُمَراً ، حَتَّى إذا جاءُوها وَفُتِحَتْ أَبْوابُها وَقالَ لَهُمْ خَزَنَتُها : سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوها خالِدِينَ(٧٣) وَقالُوا : الحَمْدُ لله الَّذي صَدَقَنا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ(٧٤) وَتَرَى الْمَلئِكَةَ حافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ، وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وقيلَ : الحَمْدُ لله رَبِّ العالَمِينَ)(٧٥)

قوله تعالى (وسيق الذين كفروا إلى جهنم) تفصيل لقوله الكريم (ووفيت كل نفس ما عملت) وتوفية ذلك بأنه سيق أي يساق الذين كفروا إلى جهنم بسوق ملائكة العذاب ، وتفصيل كيفية السوق وزمانه ومكانه عند الملك العلام • وقوله (زمرا) أي زمرة زمرة وفوجا فوجا ، ومجمله أنهم يساقون إليها بالعنف والإهانة أفواجا متفرقة بعضها إثر بعض ، والأفواج تحتمل الترتيب على إنكار الذات الواجب أو الإقرار به مع الإشراك به ، أو إنكار الرسل أو سائر أركان الإيمان ، أو بحسب فظاعة الإجرام والمعاصي من القتل والتعذيب للأبرياء أو ارتكاب الفواحش أو نهب الأموال أو البهتان وهكذا • ويمكن أن تكون الأفواج مرتبة على ترتيب الرسل ثم يرتب كل أمة على ماذكرنا • والزمر جمع زمرة بمعنى الجماعة (حتى إذا جاءوها) أي وصلوا إلى الجنة (فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها) أي الملائكة البوابون أو خزنة جهنم وزبانيتها على سبيل التوبيخ : (ألم يأتكم رسل منكم) أي من جنسكم ونوعكم وبني عشيرتكم يعرفكم وتعرفونه (يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟) أي وقتكم هذا (قالوا : بلى ولكن حقت كلمة العذاب) أي الحكم الرباني بالشقاء الموجب للعذاب (على الكافرين) أي علينا نحن لكفرنا والعياذ بالله (قيل : ادخلوا أبواب جهنم) أي فليدخل كل منكم من بابها الذي اختص به حسب مراتب الإجرام (خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين) أي وبئس مثواهم جهنم •

(وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زُمَرًا) أي جماعات مرتبة حسب درجات فضلهم ، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ قال قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « أول زمرة تدخل الجنة من أمتي على صورة القمر ليلة البدر ، ثم الذين يلونهم على أشد نجم في

السماء إضاءة ، ثم هم بعد ذلك منازل » (حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها) والجملة حال أي جاءوها وقد فتحت أبوابها لهم كقوله تعالى جنات عدن مفتحة لهم الأبواب (وقال لهم خزنتها : سلام عليكم) أي من جميع المكاره والآلام ، وهو يحتمل الإخبار والإنشاء (فادخلوها خالدين) أي مقدرين الخلود (وقالوا : الحمد لله الذي صدقنا وعده ، وأورثنا الأرض تتبوأ من الجنة حيث نشاء) أي الحمد لله الذي صدقنا وعده بالبعث والحساب اليسير والدخول في الجنة وأورثنا أرض الجنة نتبوأ حيث شئنا منها (فنعم أجر العاملين) وهذا من كلام الداخلين ذكروها في مقام التحدث بنعمة قبول العمل فضلا ورحمة واعتبارهم عاملين (وترى الملئكة حافين) أي محدقين أي محيطين مصطفين (من حول العرش) بجوانبه (يسبحون بحمد ربهم) أي يسبحونه ويحمدونه لأن الباء للملابسة ، ولا يمكن الملابسة بالحمد في آن التسبيح فمعناه متلبسين بالحمد بعد التسبيح فوراً فيئول الأمر إلى معنى يسبحونه ويحمدونه بلا فصل • أي يقولون سبحان الله والحمد لله (وقضي بينهم) أي بين العباد المختلفين في الدنيا (بالحق) وقال بعض بين الملائكة فإنهم وإن كانوا معصومين لكن لهم درجات مختلفة في الفضل والثواب • والمعنى أعطي كل واحد منهم ما يناسب مقامه من الفضل الروحي والثواب المناسب • وقيل من جانب العباد (الحمد لله رب العالمين) على ما قضي بينهم بالحق وأوصل كلا إلى مقامه المناسب •

فهرست المجلد السادس من مواهب الرحمن في تفسير القرآن

الصفحة	الموضوع
	سورة المؤمنون
٧	مدح الرسول ــ ص ــ (قد أفلح المؤمنون)
٨	والذين هم لفروجهم حافظون
١٠	بطــلان المتعــة
١٢	معاني كلمــة المتعــة
١٤	أدلــة تحريــم المتعــة
١٧	والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون
١٨	ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين
١٩	ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق
٢١	وأنزلنـا مــن الســماء مـاء
٢٢	معنــى الفاكهــة
٢٣	ولقد أرسلنا نوحا الى قومــه
٢٤	صــنع الســفينة
٢٦	ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين
٢٨	ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين
٣٠	ثم ارسلنا موسى وأخاه هرون بآياتنــا

الصفحة	الموضوع
٣١	معنـى الامـة
٣٢	إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون
٣٤	أفلم يدبروا القول ام جاءهم ما لم يأت آباءهم الاولين ؟
٣٦	ولو اتبع الحـق أهواءهم
٣٧	وهو الذي أنشأ لكم السمع والابصار والافئدة
٣٩	قل لمن الارض ومن فيها ان كنتم تعلمون ؟
٤٠	برهـان وحـدة الإلـه
٤١	قل رب إما تريني ما يوعدون
٤٢	وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين
٤٣	فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون
	سورة النور
٤٩	حكم الزانيـة والزانـي
٥٠	اثبـات الرجـم
٥١	التغريـب مـع الجلـد
٥٢	تناكح الزاني والزانية
٥٣	حكـم القـذف وحـده
٥٤	سـقوط شـهادة القـاذف
٥٥	اللعـان
٥٧	إن الذين جاؤا بالإفـك
٥٨	قصـة الإفـك
٦٤	ظـن الخـير بالمؤمنـين
٦٥	إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشـة
٦٦	يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان

الصفحة	الموضوع
٦٧	ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة
٦٧	مسطح وأبو بكر
٦٩	أدب دخول بيوت الغير
٧٠	قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم
٧١	حكم النظر
٧٣	امتثال المهاجرات لأمر الحجاب
٧٥	وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين
٧٦	عفاف الذين لا يجدون نكاحا
٧٧	عادة الاسر ومكاتبة العبيد
٧٨	حرمة الإكراه على البغاء
٧٨	الله نور السماوات والارض
٧٩	تفسيرات لـ (النور)
٨٠	التشبيه في مثل نوره كمشكاة ...
٨٢	تمثيل آخر للشجرة
٨٣	رأي آخر في معنى يهدي الله لنوره
٨٥	والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة
٨٧	ألم تر أن الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه
٨٩	ويقولون : آمنا بالله وبالرسول وأطعنا
٩١	وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن
٩٣	الاستدلال على صحة خلافة الخلفاء الاربعة
٩٤	يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم
٩٥	حد البلوغ
٩٦	ليس على الأعمى حرج ولا على الاعرج حرج

الصفحة	الموضوع
٩٧	بعض آداب التزاور والضيافة
٩٨	إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله
١٠٠	لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا
	سورة الفرقان
١٠١	تبارك الذي نزل الفرقان
١٠٢	وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه
١٠٥	وقالوا : مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الاسواق
١٠٦	بل كذبوا بالساعة ، وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا
١٠٨	قل : أذلك خير ام جنة الخلد التي وعد المتقون ؟
	الجزء التاسع عشر
١١٣	وقال الذين لايرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة
١١٤	ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا
١١٦	فوائد إنزال القرآن منجما
١١٨	ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا
١٢١	ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ؟
١٢٤	وهو الذي ارسل الرياح
١٢٥	ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا
١٢٦	وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا
١٢٧	ويعبدون من دون الله ما لاينفعهم ولا يضرهم
١٢٩	تبارك الذي جعل في السماء بروجا
١٣٠	وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا
١٣١	صفات عباد الرحمن
١٣٣	والذين لا يشهدون الزور

الصفحة	الموضوع
	سورة الشعراء
١٣٥	طسم تلك آيات الكتاب المبين
١٣٦	وإذ نادى ربك موسى أن أت القوم الظالمين
١٣٨	قال ألم نربك فينا وليدا ؟
١٣٩	وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل ؟
١٤٠	قال فرعون : وما رب العالمين ؟
١٤٢	قال للملأ حوله : إن هذا لساحر عليم
١٤٣	فجمع السحرة لميقات يوم معلوم
١٤٤	قال لهم موسى : ألقوا ماأنتم ملقون
١٤٥	وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي إنكم متبعون
١٤٩	واتل عليهم نبأ إبراهيم
١٥٣	وأزلفت الجنة للمتقين
١٥٤	كذبت قوم نوح المرسلين
١٥٦	قالوا : لئن لم تنته يانوح
١٥٧	كذبت عاد المرسلين
١٥٩	واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون
١٦٠	كذبت ثمود المرسلين
١٦٢	كذبت قوم لوط المرسلين
١٦٥	كذب أصحاب الأيكة المرسلين
١٦٧	وإنه لتنزيل رب العالمين
١٦٨	نزل القرآن بألفاظه بدون نقص على محمد ـ ص ـ
١٧١	وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون
١٧٢	وأنذر عشيرتك الأقربين
١٧٤	هل أنبئكم على من تنزل الشياطين

الصفحة	الموضوع
١٧٦	والشعراء يتبعهم الغاوون
١٧٧	الرسول والشعر
	سورة النمل
١٧٩	طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين
١٨٠	إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ...
١٨١	إذ قال موسى لأهله إني آنست نارا سآتيكم منها بخبر
١٨٤	ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله
١٨٦	وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير
١٨٧	وتفقد الطير فقال : مالي لا ارى الهدهد
١٨٩	قال : سننظر أصدقت ام كنت من الكاذبين
١٩١	فلما جاء سليمان قال اتمدونني بمال ؟
١٩٢	قال : يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها ؟
١٩٣	المراد بالرجل الذي جاء بعرش ملكة سبأ ...
١٩٥	وصدها ما كانت تعبد
١٩٧	ولقد أرسلنا الى ثمود أخاهم صالحا
١٩٨	وكان في المدينة تسعة رهط
١٩٩	ومكروا مكرا
٢٠٠	ولوطا إذ قال لقومه : أتأتون الفاحشة
	الجزء العشرون
٢٠٣	فما كان جواب قومه إلا أن قالوا
٢٠٤	أمن خلق السموات والارض وأنزل لكم من السماء ماء
٢٠٦	أمن يبدأ الخلق
٢٠٧	إعلال عمون

الصفحة	الموضوع
٢٠٨	وقال الذين كفروا : أءذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخرجون ؟
٢٠٩	ويقولون : متى هـذا الوعـد ؟
٢١٠	وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الارض
٢١٣	ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات ...
	سورة القصص
٢١٦	طسم تلك آيات الكتاب المبين
٢١٨	وأوحينا إلى ام موسى أن أرضعيه
٢٢٠	ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما
٢٢٢	ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها
٢٢٣	فأصبح في المدينة خائفا يترقب
٢٢٥	ولما توجه تلقاء مدين قال:عسى ربي أن يهديني سواء السبيل
٢٢٨	فلما قضى موسى الاجل وسار بأهله
٢٣٠	كيف تلقى موسى كلام ربه على الطور ؟
٢٣٣	فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا
٢٣٥	وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الامر
٢٣٧	الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون
٢٣٩	وقالوا : إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا
٢٤٠	وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها
٢٤١	ويوم يناديهم فيقول : أين شركائي الذين كنتم تزعمون ؟
٢٤٣	ويوم يناديهم فيقول : ماذا اجبتم المرسلين ؟
٢٤٣	شيء عن أفعال العباد والكسب والاختيار
٢٤٥	قل : أرأيتم ان جعل الله عليكم الليل سرمدا الى يوم القيامة
٢٤٦	ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار

الصفحة	الموضوع
٢٤٧	ان قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم
٢٥٠	اغترار قارون بالمال وتآمره على موسى
٢٥١	ان الذي فرض عليك القرآن لرادك الى معاد
	سورة العنكبوت
٢٥٣	الم أحسب أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ؟
٢٥٥	ووصينا الإنسان بوالديه حسنا
٢٥٦	وقال الذين كفروا للذين آمنوا : اتبعوا سبيلنا
٢٥٧	ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما
٢٥٨	أولم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده ؟
٢٦٠	والذين كفروا بآيات الله ولقائه
٢٦٢	ولوطا إذ قال لقومه : إنكم لتأتون الفاحشة
٢٦٣	ولما أن جاءت رسلنا لوطا سيء بهم
٢٦٤	والى مدين أخاهم شعيبا فقال : يا قوم اعبدوا الله
٢٦٥	وقارون وفرعون وهامان
٢٦٦	مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت
٢٦٧	ان الله يعلم ما يدعون من دونه من شيىء
	الجزء الحادي والعشرون
٢٧١	ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن
٢٧٣	وقالوا : لولا أنزل عليه آيات من ربه
٢٧٥	يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون
٢٧٧	والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفا
٢٧٨	فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين

الصفحة	الموضوع

سورة الروم

٢٨١ الم غلبت الروم في أدنى الارض
٢٨٢ رهان أبي بكر وأبي بن خلف على غلبة الروم
٢٨٤ أولم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ؟
٢٨٥ الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم اليه ترجعون
٢٨٦ وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة
٢٨٧ ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون
٢٨٩ ومن آياته منامكم بالليل والنهار
٢٩٠ ضرب لكم مثلا من أنفسكم
٢٩١ فأقم وجهك للدين حنيفا
٢٩٤ الله الذي خلقكم ثم رزقكم
٢٩٦ ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته
٢٩٨ الله الذي خلقكم من ضعف
٢٩٩ وقال الذين أوتوا العلم والإيمان

سورة لقمان

٣٠١ الم تلك آيات الكتاب
٣٠٢ ومن الناس من يشتري لهو الحديث
٣٠٣ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم
٣٠٤ ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله
٣٠٥ واذ قال لقمان لابنه
٣٠٦ سعد بن أبي وقاص وأمه
٣٠٧ بقية وصية لقمان لابنه

الصفحة	الموضوع

٣٠٨	ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الارض
٣٠٩	ومن الناس من يجادل في الله
٣١٠	ولئن سألتهم : من خلق السموات والأرض ؟ ليقولن : الله
٣١١	ولو أن ما في الارض من شجرة أقلام
٣١٢	الم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمة الله
٣١٣	يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما

سورة السجدة

٣١٥	الم تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين
٣١٦	الله الذي خلق السموات والارض وما بينها في ستة أيام
٣١٨	الخلــق في بطــن الام
٣١٨	وقالوا أئذا ضللنا في الارض أئنا لفي خلق جديد
٣٢٠	إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجدا
٣٢١	أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا
٣٢٢	ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مرية من لقائه
٣٢٣	أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون
٣٢٤	أولم يروا أنا نسوق الماء الى الارض الجرز

سورة الأحزاب

٣٢٥	يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين
٣٢٧	وما جعل أدعياءكم أبناءكم
٣٢٨	النبي أولى بالمؤمنين من أنفســهم
٣٢٩	واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم
٣٣٠	يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم

الصفحة	الموضوع
٣٣١	معركة الأحـــزاب
٣٣٣	واذ يقـــول المنافقون •••
٣٣٤	ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الادبار
٣٣٥	لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة
٣٣٧	من المقصود بالرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ؟
٣٣٨	هزيمـــة الكفـــر في الاحزاب
٣٣٩	المسير الى بني قريظـــة
٣٤٠	يا أيها النبي قل لازواجك : ان كنتن تردن الحياة الدنيا
	الجزء الثاني والعشرون
٣٤٥	ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا
٣٤٦	يا نساء النبي لستن كأحد من النســاء
٣٤٧	استعمالات لفظة أحـــد
٣٤٩	فضيلة بقاء النساء في البيوت
٣٥٠	المـــراد بأهـــل البيـــت
٣٥١	واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله
٣٥٢	وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن •••
٣٥٣	واذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه : أمسك عليك
٣٥٥	ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له
٣٥٦	ازالـــة شـــبهة التبنـــي
٣٥٧	يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا
٣٥٨	يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا
٣٥٩	يا أيها الذين آمنوا اذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن
٣٦٠	يا أيها النبي انا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن

الصفحة	الموضوع
٣٦١	من الواهبة نفسها للنبي ؟
٣٦٣	لا يحل لك النساء من بعد
٣٦٣	عدد زوجات النبي ــ ص ــ وأسماؤهن
٣٦٤	يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي الا أن
٣٦٦	شرط دخول بيت النبي ــ ص ــ
٣٦٧	إن الله وملائكته يصلون على النبي
٣٦٨	كيفية الصلاة على النبي
٣٦٩	ان الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله
٣٧١	حد الحجاب ووصفه
٣٧٢	لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض
٣٧٣	يسألك الناس عن الساعة
٣٧٤	يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله
٣٧٥	إنا عرضنا الأمانة على السموات والارض والجبال
	سورة سبأ
٣٧٧	الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الارض
٣٧٨	يعلم ما يلج في الارض ...
٣٨٠	وقال الذين كفروا : هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم
٣٨١	ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوبي معه
٣٨٣	ولسليمان الريح
٣٨٤	لو علمت الجن الغيب ما لبثوا في العذاب المهين
٣٨٥	لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال
٣٨٧	السيل العرم
٣٨٩	قل : ادعوا الذين زعمتم من دون الله

الصفحة	الموضوع
٣٩٠	قل : من يرزقكم من السماوات والارض ؟
٣٩١	ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين ؟
٣٩٣	وما أرسلنا في قرية من نذير الا قال مترفوها : انا بما ارسلتم به كافـــرون .
٣٩٥	واذا تتلى عليهم آياتنا بينات
٣٩٧	قل : إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى
	سورة فاطر
٤٠٠	الحمد لله فاطر السموات والارض جاعل الملئكة رسلا
٤٠١	الملائكـــة
٤٠٢	أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع
٤٠٣	يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم
٤٠٤	الذين كفروا لهم عذاب شـــديد ، والذين آمنـــوا وعملـــوا الصالحات لهم مغفـــرة وأجر كبير
٤٠٥	والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا
٤٠٦	من كان يريد العزة فلله العزة جميعا
٤٠٧	والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد
٤٠٨	ما المراد بزيادة العمر ونقصه في قوله تعالى : وما يعمر مـــن معمـــر ... ؟
٤١٠	وما يستوي البحران ، هذا عذب فرات سائغ شرابه ، وهذا ملـــح أجاج .
٤١١	يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل
٤١٢	يا أيهـــا الناس أنتم الفقراء الى الله
٤١٣	ولا تزر وازرة وزر أخرى

الصفحة	الموضوع
٤١٥	ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلف ألوانهـا .
٤١٦	ان الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة
٤١٩	والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا
٤٢٠	هو الذي جعلكم خلائف في الارض
٤٢١	قل : أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله ؟
٤٢٢	وأقسموا بالله جهـد أيمانهم
٤٢٣	أولم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهـم ؟
	سورة يس
٤٢٥	يس والقـرآن الحكيـم
٤٢٦	ومما ينبغي الانتباه لـه
٤٢٨	وقوله (لقد حق القول على أكثرهم)
٤٢٩	انما تنـذر من اتبع الذكـر
٤٣٠	واضرب لهم مثلا أصحاب القرية اذ جاءها المرسلون
٤٣٢	قصة أصحاب القريـة
٤٣٣	وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى
	الجزء الثالث والعشرون
٤٣٧	وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء
٤٣٨	يا حسرة على العباد
٤٣٩	وآية لهم الليل نسلخ منه النهار
٤٤١	والقمر قدرناه منازل
٤٤٢	وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون
٤٤٣	واذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم

الصفحة	الموضوع
٤٤٦	ان أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون
٤٤٨	ولو نشاء لطمسنا على أعينهم
٤٤٩	أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما ؟
٤٥٠	أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ؟
	سورة الصافات
٤٥٣	والصافات صفا
٤٥٥	فاستفتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا ؟
٤٥٧	وقالوا : يا ويلنا هذا يوم الدين
٤٥٨	انا كذلك نفعل بالمجرمين
٤٦٠	قال قائل منهم : إني كان لي قرين
٤٦٢	ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون
٤٦٣	وان من شيعته لإبراهيم
٤٦٦	وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا
٤٦٧	ولقد مننا على موسى وهارون
٤٦٨	وان الياس لمن المرسلين
٤٦٩	وان يونس لمن المرسلين
٤٧٠	فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون ؟
٤٧٢	وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا
٤٧٣	ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين
	سورة ص
٤٧٥	ص والقرآن ذي الذكر
٤٧٧	وانطلق الملأ منهم

الصفحة	الموضوع
٤٧٩	كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الاوتاد
٤٨٠	اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا ذا الايد انه أواب
٤٨٢	كيفية تسبيح الجبال
٤٨٣	داود والخصمان
٤٨٤	وما خلقنا السماء والارض وما بينهما باطلا
٤٨٥	ووهبنا لداود سليمان نعم العبد انه أواب
٤٨٧	ولقد فتنا سليمان
٤٨٨	واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسني الشيطان بنصب وعذاب .
٤٩٠	واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الايدي والابصار
٤٩١	هذا وان للطاغين لشر مآب
٤٩٣	وقالوا : ما لنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الاشرار ؟
٤٩٤	اذا قال ربك للملئكة : إني خالق بشرا من طين
٤٩٦	قال : يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي ؟
	سورة الزمر
٤٩٨	تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم
٥٠٠	خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها
٥٠٢	وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه
٥٠٤	قل : يا عبادي الذين آمنوا اتقوا ربكم
٥٠٥	والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها
٥٠٦	أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار ؟
٥٠٧	ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع ... ؟
٥٠٨	أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ؟

الصفحة	الموضوع
٥٠٨	كيفية انشراح الصدر
٥٠٩	الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني
٥١٠	ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل
٥١١	ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون
٥١٢	والذي جاء بالصدق وصدق به
٥١٣	ولئن سألتهم من خلق السماوات والارض ؟
٥١٤	إنا أنزلنا إليك الكتاب للناس
٥١٥	الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها
٥١٦	شيء عن الروح
٥١٧	ام اتخذوا من دون الله شفعاء ؟
٥١٨	ولو أن للذين ظلموا ما في الارض جميعا
٥١٩	قل يا عبادي الذين اسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا
٥٢٠	واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم
٥٢١	ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة
٥٢٢	وينجي الله الذين اتقوا
٥٢٣	ونفخ في الصور فصعق من في السماء ومن في الارض
٥٢٥	وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا
٥٢٦	وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ــ بغداد

(٥٦) لسنة ١٩٨٨

دار الحرية للطباعة ــ بغداد

١٤٠٨هـ ــ ١٩٨٨م